جمال نجم العبيدي



الرجز

نشأته
أشهر شعرائه

ساعدت وزارة التربية والتعليم على نشره

جمال نجم العبيدي

الرجز

نشأته ، أشهر شعرائه

الرسالة التي حصل بها المؤلف على شهادة الماجستير في الآداب من
جامعة بغداد سنة ١٩٦٩

« ساعدت وزارة التربية والتعليم على نشره »

مطبعة الأديب البغدادية
تلفون ٩٤٢١٢

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يسبر غور الامم ويقاس رقيها بما خلد من تراثها ، وماشخص من آثارها ، إذ يعد ذلك معيار سموها ورمز رفعتها .

والعرب – كباقي الامم العظيمة – خلدوا تراثاً ضخماً صارع الايام وطوى الزمن ، انه تراث حضاري شمخ بعلو هامته على كثير من حضارات الامم . وقد ضم بين دفتيه مختلف العلوم والفنون ، وكان للشعر القدح المعلى في هذا التراث .

ومن يتصفح امهات الكتب ، ويطوف بين المجلدات الضخمة ، يجدها زاخرة بفيض عظيم منه ، الى جانب مافقد منه بفعل عوامل

الزمن وعواديه .

وشعر العرب قديم النشأة ، بعيد الغور ، ممتد الجذور ، لكنه مجهول الولادة ، إذ لا يعرف على وجه الدقة متى رأى نور الحياة ، ولا من سقاه لبان الوجود . وكل ما قيل حول نشأته انما هو رجم بالغيب ، ذلك اننا عدمنا الادلة التي توضح ذلك ، وفقدنا المراجع الاولية التي تنير لنا المسالك . اما تلك الاشارات التي وردت في ثنايا بعض الكتب فهي قاصرة ، لانها لم تقم الحجة ، ولم تثبت البرهان . واقصى ما جاءت به انها ذكرت ان فلاناً أول من قال الشعر ، وان فلاناً أول من رجز . لكن هذا لا يكفي ، انما يتطلب اثباتاً وبياناً . إذ يحتمل ان يكون غيره قد سبقه الى ذلك ، كما انه لم يتقدم احد من الادباء والكتاب ببحث مفصل حول هذه المسألة . انما سيقت عبارات مقتضبة ، وطرحت آراء موجزة في ثنايا كتب الادب وتاريخه .

ومن هنا وجدت ان القيام ببحث موسع في هذا الموضوع يسد ثغرة واسعة في أدبنا العربي . ولما كنت بحاجة الى موضوع اقدمه لنيل شهادة الماجستير من جامعة بغداد ، فقد رأيت من المستحسن ان ابحث في موضوع الشعر العربي القديم . ولما كان الرجز من ذلك الشعر الذي حفلت به أمهات الكتب القديمة ، وامتلأت به صفحات الامالي وكتب اللغة ، وانفردت به دواوين خاصة ، واشتهر به شعراء مشهورون ، فقد دفعني ذلك الى الكتابة فيه . فرحت اقلب صفحات الدواوين ، واستشير المعاجم ، واستخبر المجاميع ، حتى احطت بأبيات من الرجز لا تحصى ، وتجمعت لدي وفرة منه هائلة . لكنني لم اجد من آراء العلماء حول فن الرجز الا نزراً ، وهي لا تعدو كونها نتفاً من الآراء متفرقة في بطون

الكتب ، يتفق بعضها حيناً ، ويختلف أحياناً اخرى .

اما منهج البحث فقد تسلسلت فيه تسلسلاً منطقياً ، فكان لابد لي أولاً من شرح معاني الرجز اللغوية والاصطلاحية ، وذكر المواضع التي استعملت فيها هذه الكلمة ومادلت عليه من المعاني . ثم اخذت بعد ذلك ببحث كل مايتعلق بالرجز محاولاً استقصاء الآراء التي تطرح حول كل مسألة ، لكي اخرج بعد ذلك برأي واضح صريح يحدد الابعاد تحديداً كاملاً دون ان يدع القارىء في حيرة وتساؤل ودون ان يتركه يتخبط وسط آراء لانتيجة بعدها .

وهكذا تحدد الباب الاول بما حوى من فصول ستة بالدراسة الفنية ، والتي شملت البحث في اولية الشعر وزمن نشوئه ، ومحاولة ايضاح الفترة الي بدأ فيها نظم الشعر ، ثم بيان الفترة التي نضج فيها واكتمل . وقد تطرق الحديث الى البحث عن أول من قال الشعر ونطق به ، وأول شاعر ظهر واشتهر .

وقد كانت آراء العلماء حول ذلك مضطربة لايستند اكثرها الى ادلة علمية أو منطقية . وكان معظمها بعيداً عن الحقيقة ولايمت اليها بصلة . بل ان بعضها تطرف تطرفاً كبيراً حينما نسب ابياتاً من الشعر الى آدم والى بعض الملائكة والى أقوام هلكوا وبادوا . وكأن ذلك واقع لايشوبه شك . ولكن لم يفتني تحليل هذه الآراء وتفنيدها .

ومما شملته الدراسة الفنية كذلك شعرية الرجز ، اعني بذلك هل الرجز شعر أم ليس بشعر ؟

والذي قادني الى البحث في هذه المسألة ، ما ذكره بعض علماء اللغة والأدب من ان الرجز ليس بشعر وان مجازه مجاز السجع . ولهذا

لم أر مناصاً من دراسة هذا الجانب دراسة وافية عميقة، واستقصاء ماقيل حولها من آراء ، وقد صنفتها الى قسمين :— آراء من ينفون شعرية الرجز بجانب ، وآراء من يثبتونها بجانب آخر . وقد رجحت رأي من يقول بان الرجز من الشعر .

والرجز — كأي مولود آخر — لابد ان يمر بمراحل مختلفة وأدوار متباينة . فدور ولادته يتمثل في سذاجته وقصر ابياته ، ثم ملاءمته لفطرة العرب واستمداد الفاظه من بيئتهم ، وتلبية معانيه لحاجاتهم ورغباتهم ، ومطابقتها لاغراض حياتهم الواقعية .

كل هذا كان مرحلة أولية احتضنت الرجز ورعته حتى انتقل الى مرحلة ثانية اشتد فيها عوده ، وصلب جذعه ، وامتدت قامته ، فكان من ذلك ان طالت ابياته ، وتنوعت اساليبه ، وتعقدت معانيه ، وتعددت الاغراض التي عالجها . مما هيأه لدخول مرحلة اخرى اصبح فيها مكتملاً ناضجاً . ومن ذلك ان طالت قصائده فاضحت الواحدة منها تحوي اكثر من مائة بيت . كما تولدت اوزان جديدة كان انبثاقها ضرورياً لاستيفاء ما استجد في حياة العرب من أمور . وتبع ذلك أزدياد الاغراض التي عالجها الشعر ، حتى اصبحت القصيدة تضم أكثر من غرض ، وقد تمثل هذا في المعلقات التي عدت من اجود شعر العرب .

واستمر الشعر في النمو والتطور ، الا أن فن الرجز قد تخلف عن موكبه هذا في العصر العباسي واتجه وجهة خاصة ، ذلك انه سخر في التعليم . فراح المعلمون يصوغون مختلف العلوم والفنون بمنظومات رجزية تعليمية ، مما كانت سبباً في تحاشي كثير من الشعراء النظم بالرجز .

ومع هذا فقد احتل الرجز مكانة خاصة عند كثير من الناس . فكان بعضهم يحفظ آلاف الاراجيز ، وكان اللغويون يكثرون من الاستشهاد بالرجز ، لانه امتاز بميزات جعلته اثيراً لديهم ، من ذلك كثرة استعمال الغريب والشاذ فيه ، كما كان الرجاز مولعين باستعمال الالفاظ الصعبة والكلمات الخارجة على القياس .

أما ماتدور حوله الاراجيز من وصف فكاد يقتصر على الصحراء وما فيها من ظواهر طبيعية ومن حيوانات ونباتات ، ومالاح فيها من سراب ورمال . على ان الاغراض التي تطرق اليها الرجز كانت اغراضاً واسعة كادت تشمل كل الاغراض الشعرية من مدح وهجاء وفخر ورثاء . كما عالج الرجز اموراً سياسية وطبيعية واجتماعية ، الى جانب الاغراض التي أشتهر بها أكثر من غيره من بحور الشعر الاخرى وذلك كالصيد والمتح والحداء . ثم أن وزن الرجز كان أكثر الاوزان في اقسامه وتفريعاته ، ففيه المشطور والتام والمجزوء والمنهوك .

وهكذا شملت الدراسة الفنية كل مايتعلق بالرجز وماقيل حوله ، والتي خصص لها الباب الأول . اما الباب الثاني فشمل البحث في الاغراض التي عالجها الرجز سواء كانت مقتصرة عليه ، ام كانت عامة تناولتها كل الفنون والاوزان الشعرية الاخرى .

اما الباب الثالث والأخير فجاء تعريفاً بأشهر شعراء الرجز من الذين اقتصر نظمهم عليه كالعجاج ورؤبة ، أو الذين كان أكثر شعرهم به كالاغلب وأبي النجم وأبي نخيلة .

كان هذا منهجي في اثناء بحثي لموضوع الرجز . اما المصادر التي

اعتمدتها فكانت مختلفة متنوعة ، وابرزها ثلاث مجاميع :- المجموعة الاولى تتمثل في كتب اللغة والقواميس والمعاجم وكتب التفسير . وكان للسان العرب الاهمية الكبرى سواء في الدراسة الفنية ، ام في كثرة اشعار الرجز التي شحن بها . كما كان كتاب النوادر في اللغة لابي زيد الانصاري مورداً استقيت منه بعض الرجز . اما كتابا أمالي القالي والمرتضى فقد امداني بكثير من شعر الرجز المختلف الاغراض .

والمجموعة الثانية من المصادر تشمل كتب تاريخ الادب والنقد وكتب الادب الاخرى ، اذ كانت هذه المجموعة من الكتب تبحث عن الرجز بحثاً فنياً ولكنه بحث مقتضب ، فالمستشرق نلينو يتكلم في كتابه تاريخ الاداب العربية عن الاراجيز في العصر الاموي فقط دون ان يتطرق الى البحث في بداية الرجز وأصل نشوئه . اما بروكلمن فلم يذكر الا نتفاً بسيطة عن الرجاز ثم نقل بعضاً من اقوال العلماء القدماء في الرجز .

وقد ذكر الدكتور شوقي ضيف نقاطاً مهمة عن الرجز في بعض كتبه . ثم ترجم للراجز رؤبة بن العجاج وبين خصائص رجزه .

اما الرافعي وجرجي زيدان فقد تكلما عن الرجز من حيث النشأة ومدى صحة الاقوال التي تذهب الى ان الرجز نشأ عن الحداء .

ومن بين كتب الادب كتب الجاحظ مثل الحيوان والبيان والتبيين اذ كانت في هذه الكتب (لا سيما كتاب الحيوان) كمية كثيرة من الرجز الذي تناول مختلف الاغراض .

اما المجموعة الثالثة فهي دواوين الرجاز والمقصدين الذين نظموا في

الرجز . واهم تلك الدواوين شرح ديوان العجاج وشرح ديوان رؤبة المخطوطين ، فقد كان اعتمادي عليهما كبيراً ، وكانا مرجعي الاصلي في كثير من اغراض الرجز .

اما دواوين المقصدين فقد اعتمدت عليها في الحصول على الرجز الذي تعاطاه اولئك المقصدون .

هذه فكرة موجزة عن اهم المصادر والمراجع التي اعانتني في اثناء بحثي هذا ولا يفوتني هنا ان انوه بالمحاولات الاولى في بحث الرجز التي قام بها الدكتور حسين نصار في مؤلفه الصغير الموسوم بـ (الشعر الشعبي العربي) في سلسلة المكتبة الثقافية ، والذي تحدث فيه عن الرجز واصل نشأته ومراحله الاولى . ثم تبعه في هذه المحاولة السيد شاكر الجودي فألف كتاباً سماه (الالمامة بالرجز في الجاهلية وصدر الاسلام) وقد بحث في هذا الكتاب بصورة بسيطة عن معاني الرجز ونشأته وهل هو من الشعر ، وقد تطرق الى ذكر قسم من الاغراض التي عالجها الرجز .

ولكن كل هذه الكتب لم تعط الرجز حقه في البحث الشامل والتفصيل الكامل ، ولهذا وجدتني مضطراً الى ان اتوسع في هذا الموضوع على الصورة التي تجدها في هذا البحث ، على اني لا اقول انني بلغت الغاية والممت بكل جوانب الموضوع ، لكنني بذلت اقصى ما في وسعي آملاً ان اكون قد وفيت الرجز بعض حقه ، راجياً ان يحظى هذا الموضوع ببحوث اكثر سعة واعظم شمولاً لكل جوانبه المختلفة .

ان هذا البحث الذي اضعه بين ايدي القراء الكرام وما بذلت فيه من جهد ، انما يمثل مرحلة معينة من مراحل الانسان بما تحويه من

خطأ وصواب . وما يتمثل فيها من قوة وضعف فارجو ان يتكرم علي القاريء الكريم بعذره اذا ما وجد هفوة او طالع رأياً مخالفاً لما يراه . ومجال البحث في هذا الموضوع ما زال واسعاً امام من يريد ان يتحف ادبنا العربي ببحوث اخرى عن الرجز ، ليتجلى وجهه بصورة اوضح ، وتظهر ملامحه بشكل اوسع .

هذا واني لاتضرع الى الله العلي القدير ان يمدنا بقوة منه لنتمكن من الاسهام بصورة اكبر في مجال البحث ، لنعيد لامة العرب سالف مجدها . وتليد عزها . انه سميع مجيب .

بغداد في ١٩٦٨/١/١ جمال نجم العبيدي

الباب الاول

الفصل الاول

معنى الرجز

في اللغة :ـ

وردت كلمة (رجز) في كل المعاجم وبعض كتب اللغة ، وهي في جميعها تفيد معنى واحداً إن لم يكن صريحاً فأنه يفهم ضمناً ، وبعض العلماء يذكر ــ ان لم يعط نفس اللفظ ــ مستلزمات ذلك اللفظ .

فابن فارس يقول :ـ ان هذه الكلمة أصل يدل على اضطراب [1]

وابن منظور لا يخرج عن هذا المعنى في قوله :ـ واصل الرجز في اللغة تتابع الحركات [2] لأن تتابع الحركات هذا ينتج عن اضطراب وقلقـــلة .

---

١ ــ معجم مقاييس اللغة ــ ابن فارس ــ مادة (رَجَزَ) .

٢ ــ لسان العرب ــ ابن منظور ــ مادة (رجز) .

اما صاحب تاج العروس فلم يرَ بدأ من أن يجمع بين التعريفين ويجعلهما تعريفاً واحداً وذلك حين قال : — واصل الرجز في اللغة الاضطراب وتتابع الحركات [1] .

اما العرب فقد استعملوا كلمة (رجز) في كل ما فيه حركة مستمرة متجددة واضطراب وعدم ثبات على حال واحدة . واستعمالهم هذا يؤيد ما جاء به اصحاب المعاجم من تعريف الرجز ، لأنهم لم يستعملوا هذه الكلمة الا في شيء غير مستقر ، وعدم الاستقرار يعني الحركة المتواصلة ، ومن متطلبات هذه الحركة ان يصاحبها اضطراب .

ولا بد لي من ذكر الامور الذي استعمل العرب فيها كلمة (رجز) ليكون سبب استعمالهم لهذه الكلمة واضحاً .

لقد اطلقوها على الداء الذي يصيب الأبل في اعجازها فأذا ثارت الناقة ارتعشت فخذاها ساعة ثم تنبسطان ، لهذا قالو : — بعير ارجز وناقة رجزاء [2] .

وقالوا : — ناقة رجزاً أي ضعيفة العجز اذا نهضت من مبركها لم تستقل الا بعد نهضتين أو ثلاث ، قال الشاعر [3] : —

---

١ — تاج العروس — الزبيدي — مادة رجز .

٢ — مادة (رجز) في : الصحاح ومقاييس اللغة والمخصص ١٦٠/٧ واللسان والقاموس المحيط والتاج وجمهرة اللغة .

٣ — هو اوس بن حجر يهجو الحكم بن مروان بن زنباع ، وكان وعده بشيء ثم اخلفه وبعده البيت التالي :

منعت قليلا نفعه وحرمتني   قليلاً فهبها عثرةً لا تقالُها

هممتَ بخير ثم قصرتَ دونه   كما ناءتِ الرجزاءُ شد ِعقالها

يقول : لم تتم ما وعدت كما ان الرجزاء اذا ارادت النهوض لم تنهض الا بعد ارتعاد شديد [1] .

ان الاضطراب واضح كل الوضوح في تلك الحالة التي تكون فيها الناقة عندما تريد القيام والتي تجعلها بين حركة وسكون .

وسموا العذاب والقذر رجزاً [2] . وابن فارس يرى ان هذا من باب الابدال لأن اصله السين [3] . بينما قال ابو اسحاق في تفسير قوله تعالى : (لئن كشفت عنا الرِّجْزَ) قال : هو العذاب المقلقل لشدته وله قلقلة شديدة متتابعة . وقيل الرُجز في قوله تعالى : (والرُّجْزَ فأهجر) [4] الشرك ، ما كان تأويله ان من عبد غير الله فهو على ريب من امره واضطراب من اعتقاده [5] .

وكل هذه الامور يلازمها ذلك الاضطراب ، وان كان في حالة الشرك اضطراباً معنوياً أي أنه غير محسوس ، فلا تراه يضطرب ويتحرك امامك انما يضطرب اضطراباً فكرياً فلا يستقر على رأي ولا يثبت على حال ، وهذه صفة المشرك فأن عقيدته مزعزعة وايمانه مضطرب .

---

١ ـــ اللسان والتاج مادة (رَجزَ) وجمهرة اللغة ـ باب الجيم والراء .

٢ ـــ الصحاح والتاج واللسان ـ مادة (رجز) .

٣ ـــ معجم مقاييس اللغة ـ ابن فارس ٢/٤٩٠ .

٤ ـــ سورة المدثر ـ آية ٥ .

٥ ـــ اللسان والقاموس المحيط والتاج ـ مادة (رجز) .

والرجازة ، التي هي مركب للنساء اصغر من الهودج [1] ، يكون الاضطراب فيها حسياً ملموساً ، وتكون الحركة فيها مستمرة مع سير الناقة . وقيل : ان الرجازة كساء يجعل فيه احجار يعلق بجانبي الهودج اذا مال وهو يضطرب ، سمي بذلك لأضطرابه [2] .

وفي التهذيب : هو شيء من وسادة وادم اذا مال احد الشقين وضع في الشق الآخر ليستوي ، سمي رجازة الميل [3] .

وعلى هذا المعنى ايضاً تبقى صفة الحركة والاضطراب ملازمة للرجازة ، وربما تكون صورتها اوضح في المعنى الاخير من معناها الأول مما عُدَّ سبباً في تسمية هذا الكساء او الوسادة باسم الرجازة .

ولسبب وجود الحركة الدائمة قالوا : ارتجز الرعد اذا تدارك صوته أي تتابع قال الشاعر :

كثيرُ الماء مرتجزُ الرعودِ

وترجز السحاب اذا تحرك بطيئاً لكثرة مائه ، قال الراعي :

ورجافاً تحنّ المزنُ فيه ترجز من تهامة فاستطارا

وغيث مرتجز : ذو رعد ، وسحابة رجازة ، أي راعدة ، قال

---

١ ــ الصحاح واللسان والقاموس المحيط والتاج ــ رجز ــ .

٢ ــ مادة (رجز) في : الصحاح ومقاييس اللغة واللسان والقاموس المحيط والتاج والجمهرة .

٣ ــ اللسان والتاج ــ مادة (رجز) .

الفرزدق :

اناخت بـه كل رجازة وساكبة المـاء لم ترعـد

أي كل راعدة وغير راعدة .

والبحر يرتجز باديه ويترجز : أي يرمي به ، قال الشاعر :

وما مترجز الأذى جون له حُبك يطمّ على الجبال (١)

ويقال للريح اذا كانت دائمة : انها لرجزاء (٢) .

والمرتجز : فرس للنبي (ص) سمي به لحسن صهيلة وجهارته(٣) .

وسموا القدر الكبيرة الثقيلة : رجزاء نظراً لما يحدث فيها من غليان وحركة ، قال الراعي يصف الأثافي :

ثلاث صلين النار شهراً وارزمت عليهن رجزاء القيـــام هدوج

يعني بها ريحاً تهدج ولها رزمـــة أي صوت ويقال أراد برجزاء

---

١ ـــ اساس البلاغة والقاموس المحيط واللســـان والتاج ـ رَجَزَ ـ الأذى : الامواج .

٢ ـــ اللسان ومعجم متن اللغة ـ رجز ،

٣ ـــ (رجز) في : الصحاح واللسان والقاموس المحيط والتاج ومعجم متن اللغـــة .

القيام قدراً كبيرة ثقيلة وهدوج أي سريعة الغليان (١) . وعلى كلا المعنيين فان الصوت المتتابع والاضطراب واضح فيهما .

وأطلقوا اسم الرجز على هذا النوع من الشعر ، لأنه مقطوع مضطرب واجزاؤه متقاربة وحروفه قليلة .

والملاحظ أن كل هذه المسميات التي اطلقوا عليها اسم الرجز أو ما اشتق منه تظهر فيها صورة الحركة والاضطراب والدوي واضحة . كما ان في بعضها قلقلة وشدة ، فتتابع صوت الرعد وتحرك السحاب ودوام هبوب الرياح وجهارة الصوت وغليان القدر ، كل هذه سميت رجزاً لما فيها من حركة متتابعة وارتجاج شديد .

الرجز في الاصطلاح : ــ

الرجز ضرب من الشعر ونوع منه معروف ، يكون كل مصراع منه منفرداً (٢) وهو ايضاً بحر من بحور الشعر العربي وزنه « مستفعلن » ست مرات ، وابتداء اجزائه سببان ثم وتد ، وهو وزن يسهل في السمع ويقع في النفس (٣) وبعضهم يرى ان الرجز عند العرب كل ما كان على ثلاثة اجزاء ، وهو الذي يترنمون به في عملهم وسوقهم وحدائهم ،

---

١ ــ انظر مادة (رجز) في : اللسان والتاج .

٢ ــ اللسان والقاموس المحيط والتاج ــ مادة (رجز)

٣ ــ المصادر السابقة .

ومن هؤلاء الاخفش (١) .

وهم بهذا لا يشترطون ان يكون من بحر الرجز ، انما يعدون القطع القصار المصرعة الشطور رجزاً من أي بحر كانت .

في حين يرى آخرون انه لا يسمى رجزاً الا ان يكون من احد انواع بحر الرجز المعروفة ، وابن رشيق القيرواني من هؤلاء (٢) .

ثم ان الناس خصوا باسم الرجز المشطور والمنهوك وما جرى مجراهما (٣) . ولم يوجبوا كونها من بحر الرجز ، وعلى هذا تعد القطع القصار ، والتي يكون كل مصراع منها منفرداً ، رجزاً .

والواقع ان رأي ابن رشيق ربما يكون اكثر صحة من غيره ، ذلك لان المعروف ان الرجز بحر قديم من بحور الشعر العربي ، وله اشكال وانواع متعددة ، منها القصيرة ومنها الطويلة .

اما ان تسمى كل اشكال الشعر القصيرة رجزاً دون النظر الى وزنها ، فهذا ما لا يمكن الاطمئنان اليه . وهو رأي ابعد من غيره عن الصحة .

العلاقة بين المعنيين : ـ

قيل : ان بحر الرجز سمي بهذا الاسم لتقارب اجزائه وقلة

---

١ ـــ اللسان والتاج ـ مادة (رجز) .

٢ ـــ العمدة ـ ابن رشيق ١٨٢/١ ط ٣ .

٣ ـــ المصدر السابق ١٨٢/١ .

حروفه (١) .

وقالوا : لانه مقطوع مضطرب (٢) وذهب بعضهم الى انه سمي بذلك لانه تتوالى في أوله حركة وسكون ثم حركة وسكون الى ان تنتهي اجزاؤه يشبه بداء الرجز في رجلِ الناقة ورعدتها ، وهو ان تتحرك وتسكن ثم تتحرك وتسكن(٣) .

وقيل : لأنه اقصر ابيات الشعر والانتقال منه من بيت الى بيت سريع نحو قوله : صبراً بني عبد الدار

وكقوله : ما هاجَ احزاناً وشجواً قد شجا (٤)

ويذهب آخرون من لغويي العرب الى انه من (الرجازة) وهي ما عدل به ميل الحمل (٥) . وهناك رأى آخر يقول : لأنه صدور بلا أعجاز (٦) .

اما المستشرقون فقالوا : خير الآراء فيما يبدو لنا هو ما ذهب اليه

---

١ ــ الجمهرة والصحاح والمخصص واللسان والتاج – رجز .

٢ ــ معجم مقاييس اللغة ــ مادة (رجز) .

٣ ــ اللسان والتاج – رجز – .

٤ ــ اللسان ــ رجز – .

٥ ــ دائرة المعارف الاسلامية – رجز – .

٦ ــ اللسان والتاج – رجز – .

تولدكه من ان الرجز شيء من الصلصلة (أي الصلصلة التي تصحب الهجاء وهو الغرض الشعري الذي كثيراً ما استخدم فيه هذا البحر في الجاهلية) .

ويخالف القارت AHLWARDT هذا الرأي بعض المخالفة فيقول في مقدمته لديواني الراجزين العجاج والزفيان اللذين قام بنشرهما : ان الرجز هو تصويتات انفعالية (١) .

والملاحظ في هذه الآراء انها تأخذ الرجز من ناحيتين : اولاهما : انه نوع من الشعر يكون كل مصراع منه منفرداً فيكون بيته قصيراً ، والانتقال منه سريعاً .

والناحية الاخرى : انه بحر من بحور الشعر العربي تتكون تفعيلته المتكررة في البيت الواحد ست مرات من حركة وسكون ، وشبهوه بحركة الناقة الرجزاء ورعدتها ثم سكونها المتعاقب مع تلك الحركات .

وعلى كلا الأمرين فان الحركة والاضطراب جلية فيه ؛ لأن حركة هذا البحر وسكونه تشبهان تماما حركة الناقة الرجزاء وسكونها .

كما ان قلة حروفه وتقارب اجزائه وقصر ابياته يجعل فيه حركة دائمة يتخللها سكون وهدوء بين البيت والاخر وهو بهذا ايضا يشبه حركة الناقة الرجزاء .

وحتى آراء المستشرقين توحي بشيء من الحركة والاضطراب يظهر

---

١ — دائرة المعارف الاسلامية — رجز — .

في تلك الأصوات الانفعالية وفي تلك الصلصلة الهجائية .

والمتأمل في هذه الآراء جيداً لا يشك في وجود مثل هذه الحركة المتتابعة وذاك الاضطراب الشديد .

والحقيقة ان جميع هذه الآراء تدل على ان هناك اصلاً واحداً هو الخفة والحركة التي يتميز بها هذا النوع من الشعر .

ولكن عباراتهم قد تنوعت واساليبهم قد تعقدت ! وهي لا تعدو ان تكون فروعاً لأصل واحد أو اغصاناً لشجرة واحدة .

الفصل الثاني

الرجز هل هو شعر . . ؟

تعريف الشعر :

الشعر ابرز الفنون الجميلة التي اولاها الناس اهتماما شديداً منذ القدم ، فهو يخاطب العاطفة ويستفيض المشاعر والوجـــدان ، والشعر جميل فيما يتناول من الفاظ متخيرة وكلمات متناسقة ، لهذا فأن له وقعاً جميلاً في النفس ورنيناً عذباً في الأذن فتسمعه موسيقى ونغماً منتظماً ، ولأجل ذلك كان الشعر أجمل صور الكلام [1] ، ولذلك ايضاً كان ديوان العرب وسجلاً خالداً لمآثرهم ، دونوا فيه كل ما عَنَّ لهم من أفكار وخواطر ، وما جد لهم من حوادث ووقائع .

---

١ ـــ موسيقى الشعر – ابراهيم منصور ص ٥ .

أما تعريف الشعر فقد ذهب فيه الأدباء كل مذهب وانقسموا فيه قدماء ومحدثين ، وكان الكل من هؤلاء رأى خاص في تعريفه ، لأن كلاً منهم نظراً اليه من جانب غير الجانب الذي نظر منه الآخر اليه .

فالذين نظروا اليه من جانب الشكل والالفاظ عرفوه بأن الموزون المقفى . وقد أشار بعضهم الى المعنى في تعريفاتهم هذه ، فقال قدامة ابن جعفر : الشعر قول موزون مقفى دال على معنى (١) .

والذين نظروا اليه من حيث المعنى والمحتوى وما يتضمن من أحاسيس وعواطف فقد عرفوه بعدة تعريفات ، يلتقي بعضها عند نقطة واحدة ويفترق البعض الاخر . واذكر الآن طرفاً من هذه التعريفات ، لكي نستطيع بعد ذلك معرفة المكانة التي يحتلها الرجز من هذه التعريفات ، كما نستطيع بذلك تحديد العلاقة بين الرجز والشعر .

روى الجاحظ أن معاوية بن ابي سفيان قال لصحار بن عياش العبدي : ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ قال : شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على السنتنا (٢) . وهو بهذا الجواب يعطي تعريفاً للبلاغة التي تشمل الشعر وغيره ، وقد لمح الى ناحية المعنى ، وأومأ اليها ايماءة قصيرة .

وعرف ابن خلدون الشعر بقوله :– (هو الكلام البليغ المبني على

---

١ ــ نقد الشعر – قدامة بن جعفر – تحقيق كمال مصطفى / ١٥ .

٢ ــ البيان والتبيين – الجاحظ ٩٦/١ هارون ط ٢ .

الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كُل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على اساليب العرب المخصوصة به) [1] .

وهذان تعريفان للشعر من ناحية المعنى ، ولكنهما مع ذلك تناولا الشكل ، أي اللفظ والوزن والقافية .

أما المحدثون فكانت لهم تعريفات كثيرة عرفوا بها الشعر ، واكثرها – إنْ لم أقل كلها – تتناول الشعر من جانب المعنى وما فيه من اساوب وخيال وعاطفة . قال العقاد رئيس مدرسة الديوان : – (الشعر هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق ، وكل مادخل في هـــذا الباب ... فهو شعر) [2] ويقول ايضاً في تعريفه : – ان (كل مـا نخلع عليه من احساسنا ونفيض عليه من خيالنا ونتخلله بوعينا ونبث فية هواجسنا واحلامنا ومخاوفنا ، هو شعر وموضوع للشعر ، لأنه حياة وموضوع للحياة) [3] .

هذا مثال لتعريف الشعر عند المحدثين العرب ، أما الافرنج فأن قدماءهم ومحدثيهم يعرفون الشعر من ناحية المعنى ، ويركزون فيه على الخيال ، حيث يجعلون له المكانة الاولى في تعريف الشعر ، وربما اشترطوا في الشعر ان يكون معبراً عن الخيال ، يقول « برس بيش شلي » :

---

١ ــ مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٣ .

٢ ــ الشعر بين الجمود والتطور – العوضي الوكيل ص ١١ .

٣ ــ المصدر السابق ص ١٢ .

(ويمكن ان يعرف الشعر بوجه عام بأنه المعبر عن الخيال) .[1]

ويقول وليم هازلت : (ان اصدق تعريف يمكن ان اعرف به الشعر هو أنه الصورة الطبيعية لأي غرض أو حادثة ، فأن قوته تولد الخيال والعاطفة بحركة غير أرادية وتبعث رخامة في الاصوات المعبرة عنها) [2] .

ويذهب ماثيو آرنولد الى مثل هذا التعريف فيقول : (ان الشعر هو نقد الحياة والكشف عن القيم التي يراها الشاعر في هذه الحياة أو في جزء منها يهتم به الشاعر) وشيلي يصف الشعر بأنه (خير كلمات صفت في خير نظام) ومن الأدباء من يصف الشعر بأنه عاطفة يتذكرها الشاعر وقت الهدوء . ومنهم من يقول في الشعر أنه ذلك الكلام الخالد وبعضهم يشير الى الشعر قائلاً : أنه طريقة خاصة من طرق استعمال اللغة [3] .

وكل تعاريف الشعر هذه تدخل الرجز ضمن أطارها ، لأن الرجز كلام يعتمد الخيال ويستثير العاطفة ويبنى على الاستعارة والأوصاف . اما الشعر التعليمي – كمنظومات العلوم والفنون – فأنها تخرج من هذه التعريفات وتأخذ لها معنى خاصاً .

والحقيقة ان المنظومات التعليمية ليست من الشعر في شيء ، فلا

---

١ – مهمة الناقد – وليم هازلت – ترجمة نظمي خليل ص ٧٦ .

٢ – المصدر السابق ص ٥٦ .

٣ – موسيقى الشعر – الدكتور ابراهيم منصور ص ١٣ .

تحتوي على عاطفة ولا تعبر عن خيال ، اما الشعر فأنه لون من الأدب يتصل بالعاطفة والشعور والخيال .

ونستطيع ان نسمى الشعر التعليمي نظماً فحسب ، ذلك لأن النظم ليس كالشعر ، فالشعر يعتمد كثيراً على الخيال والعاطفة اما النظم فهو كلام عادي انتظمه الوزن ، ولكنه خال من الشعور والعاطفة . ويمكن ان ندخل هذه التعليمات ضمن أطار النظم ، لأنها كلام علمي انتظمه الوزن وقصد به الى تدوين العلوم وتعليم الناشئة وغيرهم قواعد تلك العلوم ولا يتضمن الشعر التعليمي أي عاطفة أو خيال أو شعور ، ولا يبعث في النفس طرباً أو نشوة أو أريحية والا فما الذي يهزك في هذا القول :

كلامنا لفظ مفيد كأستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

لاشيء ! لأنه خال من الشعور والعاطفة والخيال .

ولهذا استطيع ان اقول ان الكلام البليغ الجميل المعبر عن الشعور والعاطفة والذي يحتوي على وزن وقافية شعر ، ومادام الرجز يحتوي على هذه الصفات فلنا ان نعده أحد نوعي الشعر وفناً من فنونه .

اما الذين يرون ان الشعر يجب ان يكون موزوناً مقفى فقط فقد اخرج بعضهم — وعلى رأسهم الاخفش — الرجز من نطاق الشعر وعده في دائرة النثر ، واحتجوا بأنه لافرق بين الرجز والنثر سوى الوزن ، اما القافية فهي سجعات ، وقد ذهب بعض المحدثين الى أكثر من هذا فعد الرجز وزناً كأوزان السجع [1] .

---

١ — تاريخ آداب العرب — الرافعي ٢ / ٣٢٤ .

ومثل هذا يقبل لو صدر عن انسان لم يقطع شوطاً بعيداً في العلم، اما ان يأتي مثل هذا الرأي من رجل عالم وأديب كبير اخذ نصيباً وافراً من العلم كالاخفش، فهذا مدعاة للعجب ومثار للتساؤل، إذ ما الذي حدا بمثل هذا العالم ان يرى هذا الرأي ويقول به ؟ لابد ان تكون هناك دوافع وأسباب حملته على القول بمثل هذا الرأي وهي إما ان تكون علمية أو دينية .

اما ما يتعلق بالدافع الأول فأنني لم ار في كلامهم ما يستند الى حقائق علمية تمنحه شيئاً من الصحة ، لأنهم يقولون : ان الرجز كالنثر يتكون من سجعات متساوية في الطول ، وهذا غير صحيح ، لأن سجعات النثر لا تكون متساوية الطول فقد تكون احداها سطراً كاملاً وتأتي الاخرى من كلمتين ، وهذا مثال من أشهر السجع المعروف وننقله من مقامات الهمذاني قال في المقامة الجاحظية : (وقوم قد اخذوا الوقت بين آس مخضود ، وورد منضود (١) وقال أيضاً (ثم عكفنا على خوان قد ملئت حياضه ونورت رياضه) (٢) .

فكما ترى جاءت السجعة الأولى بعد سبع كلمات ، بينما جاءت الثانية بعد كلمتين ، ومثل هذا لا يحدث في الرجز اطلاقاً .

كما ان السجعات لا تكون متفقة الحروف في جميعها ، انما تكون كل فاصلتين أو اكثر متفقة في مخارج الحروف . واليك مثالاً من المقامة

---

١ ـــ مقامات الهمذاني ـ شرح محمد عبده ص ٧٣ .
٢ ـــ مقامات الهمذاني ـ شرح محمد عبده ص ٧٤ .

الأسدية للبديع ، قال : (فاذا السبع في فروة الموت ، قد طلع من غابه منتفخاً في اهابه ، كاشراً عن انيابه ، بطرف قد ملىء صلفاً ، وأنف قد حشي أنفا ، وصدر لا يبرحه القلب ولا يسكنه الرعب ، وقلنا خطب ملم ، وحادث مهم) (١) .

فهنا جاءت السجعات مختلفة متباينة في الحرف الأخير ، انما كان الاتفاق بين كل سجعتين أو ثلاث ، فهي ذات قواف متعددة ، وانما قلت ذات قواف تشبيهاً لها بالشعر ، أما الرجز فليس كذلك ، لأنه يكون — في الغالب — متفق الحروف في جميع الأبيات ، وتضم اياته قافية واحدة ، وهذا خلاف جوهري بين النثر والرجز .

واذا انتفى وجود سبب علمي ، فلابد ان يكون الدافع دينياً ، وقد كان لهذا الدافع أثر كبير بين الناس ، لما للدين من منزلة في نفوس المسلمين . ذلك انه حينما جاء النص القرآني ينفي الشعر عن النبي (ص) ذهب بعض المسلمين الى اخراج ما قاله النبي (ص) من حضيرة الشعر لكيلا يخالف النص .

ولما كان قد جرى على لسان النبي (ص) شيء قليل من الرجز كان من البديهي ألا يعدوا الرجز شعراً ، ولما خولفوا في ذلك ، استشهدوا بادلة هي في الحقيقة لا تثبت ما يدعون ، لأن القصد فاتهم من هذه الأدلة الذي استشهدوا بها ، أو انهم فهموا لها معنى غير معناها المقصود ولما كانت المسألة دينية خشي المسلمون الخوض فيها والتعرض لها ، فما

---

١ — مقامات الهمذاني — شرح محمد عبده ص ٣١ .

كان منهم الا الاعتقاد بها دون مناقشة أو معارضة ، لأن ذلك يعرضهم الى الكفر حسب ظنهم ، ومستحيل ان يقتربوا من مسألة فيها كفر أو مساس بالدين ، والى هذه الناحية يشير الخليل بقوله : —

(لأحتجنّ عليهم بحجة ان لم يقروا بها كفروا) (١) .

وفعلاً اقرّ بعضهم بها ولم يخالفها خشية الكفر والالحاد .

ولكن لم يؤمن كل العلماء والأدباء الذين جاءوا فيما بعد بهذا الرأي ، وانما ناقش بعضهم الأدلة مناقشة صحيحة نزيهة ، وبينوا الرأي الحق في ذلك فذهبوا الى ان الرجز ضرب من الشعر .

ولا يفوتنا ان نذكر ان من بين هؤلاء الأدباء من كان عالماً تقياً ورعاً كالسيوطي ومن كان من المحدثين والمفسرين كابي هريرة .

فالمسألة اذن — لا تدعوا الى كفر ولا تمسه من قريب أو بعيد ، انما علة ذلك هو عدم فهمهم ما المقصود بالآية الكريمة « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » (٢) ثم عدم معرفة قصد الرسول (ص) في انشاده الرجز ، هل كان يقصد من ذلك الى قول الشعر ، أو أن ذلك جاء صدفة وبدون قصد . كما انهم لم يدركوا معنى الشعر ، هل يقصد به ما جاء وزنه عفواً أو ما كان عن قصد الى قوله وتأليفه على تلك الصورة ؟

---

١ — العمدة — ابن رشيق ١٨٥/١ .

٢ — آية ٦٩ من سورة يس .

وقد راحوا يبحثون عن ادلة يثبتون بها ما يدعون ، روى انهم قالوا : —

(صح من مذهب الخليل — وهو ينبوع العروض — ان المشطور ليس بشعر) (١) . وقالوا أيضاً : — (زعم الخليل ان الرجز ليس بشعر) (٢) .

صحيح ان الخليل ينبوع العروض وواضع اساسه ورافع اركانه ، وانه أول من فتح للناس باب هذا العلم ، وفجر معينه ، وقدمه عذباً سائغاً للطالبين لكن فاتهم ان الخليل قد عرف الحقيقة وقالها مسبقاً ، وأعلن رأيه صريحاً حيث ذهب الى ان الرجز من الشعر ، وقد اشار الى ذلك ابن منظور قائلا : « وقد اختلف فيه (أي في الرجز) فزعم قوم انه ليس بشعر وان مجازه مجاز السجع وهو عند الخليل شعر صحيح ولو جاء منه شيء على جزء واحد لاحتمل الرجز ذلك لحسن بنائه » (٣) .

والملاحظ ان الخليل قد تطرف في هذه المسألة حتى عد ما جاء من الرجز على جزء واحد شعرا ، مستنداً في ذلك الى حسن بناء الرجز وخفته على اللسان . وقد كان الخليل يرى ان معنى قوله تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » اي لم نعلمه الشعر فيقوله ويتدرب فيه حتى ينشيء منه كتباً ، وليس في انشاده (ص) البيت والبيتين لغيره ما يبطل

---

١ — الفائق — الزمخشري ٤٧٨/١ .
٢ — مادة (رجز) في اللسان والتاج .
٣ — مادة (رجز) في اللسان .

هذا ، لأن المعنى فيه انا لم نجعله شاعراً ، وهذا هو المعنى المراد بالآية الكريمة ، وقد ايده الطبري وابن كثير في تفسيريهما (١) . كما وافقه صاحب صبح الاعشى في قوله : « وحرم نظمه (أي الشعر) على نبيه (ص) تشريفاً لمحله وتنزيهاً لمقامه » (٢) إذ اشار الى تحريم النظم ولم يشر الى تحريم الانشاد .

ولكن الاخفش (سعيد بن مسعدة) اعترض على الخليل مدعياً عدم صحة جعل الرجز من الشعر ، وحجته في ذلك ان النبي (ص) جرى على لسانه رجز ، والنبي لاينطق بشعر فدل هذا على ان الرجز ليس بشعر ، فأضطر الخليل الى التنازل عن رأيه والاعتقاد برأي الاخفش ، جاء في لسان العرب (٣) : (قال الاخفش : قول الخليل ان هذه الاشياء شعر قال : وأنا أقول انها ليست بشعر ، وذكر انه هو الزم الخليل ماذكرنا ، وان الخليل اعتقده) .

والظاهر ان الخليل اعتقد ذلك خوفاً من ان يوصم بالكفر أو ينعت به ، وقد استعمل هذا السلاح هو أيضاً مع من خالفه فيما بعد ، روى ابن رشيق في عمدته ان الخليل قال : (لاحتجن عليهم بحجة ان لم يقروا بها كفروا ، قال : فعجبنا من قوله حتى سمعنا حجته) (٤)

---

١ ــ جامع البيان ــ الطبري ٢٣/٢٧ ط ٢ وتفسير ابن كثير ٣/٥٧٨ .

٢ ــ صبح الاعشى ــ القلقشندي ١/٥٩ وزارة الارشاد .

٣ ــ مادة (رجز) .

٤ ــ العمدة ١ / ١٨٥ .

وقد ردد بعض من خشي الخوض في هذه المسألة رأى الأخفش ــ والذي اعتقده الخليل فيما بعد ــ دون تمحيص أو مناقشة ، وقد دفعهم الى ذلك اعتقادهم بأن الذي لا يقر الاخفش والخليل على رأيهما يكون كافراً .

ويحسن بي أن اعرض الآراء المؤيدة للأخفش والمعارضة له ، ليتسنى لي بعد ذلك الموازنة بين تلك الآراء ومناقشتها ثم استخلاص رأي خاص في هذا الموضوع . واذكر أولاً آراء الذين يؤيدون الاخفش مبتدئاً برأي الخليل الذي استمده منه .

جاء في التهذيب : زعم الخليل أن الرجز ليس بشعر ، وانما هو انصاف أبيات وأثلاث . ودليل الخليل في ذلك ما روي عن النبي (ص) أنه انشد بيت طرفه على الوجه الآتي :ــ

ستبدى لك الأيامُ ماكنتَ جاهلاً ويأتيك من لم تزود بالأخبار

قال الخليل : لو كان نصف البيت شعراً ماجرى على لسان النبي (ص) : (ستبدى لك الايام ماكنت جاهلاً) وجاء بالنصف الثاني على غير تأليف الشعر لأن نصف البيت لايقال له شعر ولا بيت ، ولو جاز ان يقال لنصف البيت شعر لقيل لجزء منه شعر ، وقد جرى على لسان النبي (ص) : أنا النبي لاكذب أنا ابن عبد المطلب . قال بعضهم : انما هو لاكذبَ ــ بفتح الباء على الوصل ــ قال الخليل : فلو كان شعراً لم يجر على لسان النبي (ص) قال تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » أي وما يتسهل له . (١) كما جرى على لسانه (ص) قوله

---

١ ــ الفائق ــ الزمخشري ١/٤٧٨ واللسان مادة (رجز) .

في رواية جندب أنه دميت اصبعه فقال :-

هل انت الا اصبع دُميتِ   وفي سبيل الله مالقيتِ (١)

أن النقطة الوحيدة التي جعلوها محوراً يدور عليه احتجاجهم هي ان النبي (ص) منزه عن قول الشعر ، ولما جرى على لسانه (ص) قوله : أنا النبي لاكذب . . . الخ وقوله : هل انت الا اصبع . . . الخ ، دل ذلك على أن الرجز ليس بشعر ، لأنه لو كان شعراً ماجرى على لسان النبي المنزه ، فأنه عندما اراد الاستشهاد ببيت شعر لم يقمه على وزنه لكيلا يدخل في مفهوم الشعر .

هذا أهم ما احتج به الاخفش والذي اعتقد به الخليل فصار رأياً له . ولكني أقول : أن الرجز من صميم الشعر العربي ونوع من أنواعه ، وأساس بني عليه الشعر ، وادعاؤهم أن الرجز ليس بشعر مكابرة ، لان رجز العرب قد رواه الخليل وغيره وعدوه ضمن الشعر العربي .

اما احتجاجهم فيمكن الرد عليه من عدة وجوه ، وهي :

أولاً : ـــ أنه روى أن النبي (ص) قال : أنا النبي لاكذب – بفتح الباء على الوصل – قال ابن العربي : والأظهر من حاله أنه قال (لاكذب) الباء مرفوعة وبخفض الباء من (عبد المطلبِ) على الاضافة ، قال النحاس : قال بعضهم : انما الرواية بالأعراب ، واذا كانت بالاعراب لم

---

١ ـــ اللسان مادة (رجز) والفائق ٤٧٨/١ والعمدة ١٨٥/١ والعقدة الفريد ٢٨٢/٥ .

يكن هذا الذي قاله النبي (ص) شعراً ، لأنه اذا فتح الباء من البيت الأول أو ضمها أو نونها ، وكسر الباء من البيت الثاني خرج عن وزن الشعر . [1]

اما قوله (هل انت الا اصبع دميت الخ) فقد جاء في احدى الروايات بسكون التاء وتحريك الياء قبلها بالفتح . [2] ولايكون اذ ذاك من الشعر . وقد قال بعضهم (أنه من بحر السريع ، وذلك لايكون الا اذا كسرت التاء من « دميت » فأن سكن لايكون شعراً بحال) . [3]

فاذا صحت رواية سكون التاء في قوله « دميت » وفتح الباء في قوله « لاكذب » أو اعرابها ، خرج ذلك عن كونه شعراً ، ولم يبق وجه للأحتجاج بهذا الكلام ، لأن النبي (ص) لم يقل رجزاً انما قال كلاماً منثوراً .

ثانياً : ــ أن البيتين « هل أنت الا اصبع . . . الخ » ليست للنبي (ص) وانما هي للوليد بن المغيرة على ما قاله ابن هشام في السيرة ، أو لابن رواحة على ماصححه الجوزي [4] وتمثل بها النبي (ص) والانشاد ليس محرماً عليه (ص) انما الذي حرم عليه النظم والتأليف وقوله تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ليس فيه مايدل على أن النبي (ص)

---

١ ــ الجامع لاحكام القرآن ــ القرطبي ١٥/٥١ .
٢ ــ العمدة ــ ابن رشيق ١/١٨٥ .
٣ ــ الجامع لاحكام القرآن ــ القرطبي ١٥/٥١ .
٤ ــ روح المعاني ــ الألوسي ٢٣/٤٥ .

لاينبغي له التكلم بشعر قاله بعض الشعراء والتمثل به (١) ولكن يقول تبارك وتعالى أنه ماعلمه الشعر وما ينبغي له ، أي ماهو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته (٢) أو ماعلمنا محمداً الشعر وما ينبغي له أن يكون شاعراً . (٣) وهذا لايمنع أن ينشد شيئاً من الشعر لغيره ، وان التمثيل بالبيت النزر واصابة القافيتين من الرجز وغيره لايوجب أن يكون قائلها عالماً بالشعر ولايسمى شاعراً باتفاق العلماء ، قال النحاس : وهــذا من احسن ما قيل في هذا . وكان هذا رأي أبي اسحاق الزجاج أيضاً .

وقال قوم : انما الذي نفاه الله عن نبيه عليه الصلاة والسلام فهو العلم بالشعر واصنافه وأعاريضه وقوافيه والاتصاف بقوله ، ولم يكن موصوفاً بذلك بالاتفاق . (٤)

وقد كان عليه السلام ربما انشد البيت المستقيم من غير الرجز في النادر روي أنه انشد بيت عبد الله بن رواحة . (٥)

بيبتُ يجافي جنبه عن فراشه كما استثقلت بالمشركين المضاجعُ

وثبت في الصحيح أنه (ص) تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله

---

١ ــ روح المعاني ــ الآلوسي ٢٣/٤٥ .
٢ ــ تفسير ابن كثير ٣/٥٧٨ .
٣ ــ جامع البيان ــ الطبري ٢٣/٢٧ .
٤ ــ الجامع لاحكام القرآن ــ القرطبي ١٥/٥٢ .
٥ ــ الجامع لاحكام القرآن ١٥/٥١ وتفسير البحر المحيط ٧/٣٤٥ وروح المعاني ٢٣/٤٥ .

ابن رواحة ولكن تبعاً لقول اصحابه (رض) فانهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون :

لاُهمّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلنْ سكينة علينا

وثبت الاقدام ان لقينا والمشركون قد بغوا علينا
اذا ارادوا فتنة أبينا

ويرفع صوته بقوله : « أبينا » وبعدها . . . ، وكل هذا لاينافي كونه (ص) ما علم شعراً أو ما ينبغي له . (١)

ثالثاً : — أن تعريف الشعر عند بعض العلماء يمكن ان يتخذ رداً على هؤلاء فقد قال الدمنهوري : (الشعر هو كلام موزون قصداً بوزن عربي) (٢) .

فقوله « قصداً » يخرج ما كان وزنه اتفاقاً ، أي لم يقصد وزنه . كما مر من اقوال النبي (ص) فلا يكون شعراً . (٣) وقد جعل ابن رشيق النية شرطاً أساسياً في تعريفه للشعر (٤) .

وهناك قول زعم صاحبه انه اجماع من أهل اللغة ، وذلك انهم

---

١ — تفسير ابن كثير ٥٧٩/٣ .
٢ — الارشاد الشافي على متن الكافي — الدمنهوري / ٢٠ .
٣ — فن الشعر — عبد المنعم خفاجي / ١٦ .
٤ — العمدة ١١٩/١ ط ٣ .

قالوا : ـــ كل من قال قولاً موزوناً لا يقصد به الشعر فليس بشعر(١) .

وكذلك قالوا : ان ما يجرى على اللسان من موزون الكلام لايعد شعراً وانما يعد منه ما يجري على وزن الشعر مع القصد اليه ، فقد يقول القائل : حدثنا شيخ لنا وينادي ياصاحب الكسائي ، ولا يعد هذا شعراً (٢) .

وقال ابن فارس في فقه اللغة : (الشعر كلام موزون مقفى دال على معنى ويكون أكثر من بيت ، وانما قلنا هذا لأنه جائز اتفاق سطر واحد بوزن يشبه وزن الشعر من غير قصد فقد قيل أن بعض الناس يكتب في عنوان الكتاب :

للامام المسيب بن زهير ‏ ‏ ‏ ‏ من عقال بن شبه بن عقال

فأستوى هذا في الوزن الذي يسمى « الخفيف » ولعل الكاتب لم يقصد به شعراً) (٣)

ويقولون : ان الشعر انما يطلق متى قصد القاصد اليه على الطريق الذي يتعمد ويسلك ، ولا يصح أن يتفق مثله الا من الشعراء ، دون ما يستوي فيه العامي والجاهل ، والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد ،

---

١ ـــ الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ٥٢/١٥ ،
٢ ـــ المصدر السابق ٥٢/١٥ .
٣ ـــ المزهر ـ السيوطي ٤٦٩/٢ .

فمثل هذا لايكتسب أسم الشعر ولا يسمى صاحبه شاعراً ، لأنه لو صح أن يسمى كل من اعترض في كلامه الفاظ تتزن بوزن الشعر أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض : شاعراً كان الناس كلهم شعراء . لأن كل متكلم لا ينفك من ان يعرض في جملة كلام كثير يقوله ماقد يتزن بوزن الشعر وينتظم بانتظامه (١) .

وكل هذا الذي يتأتى بهذه الطريقة انما هو من المنثور الذي يوافق المنظوم وأن لم يتعمد به قائله المنظوم ، ومثل هذا من كلام الناس كثير يأخذه الوزن ، مثل قول عبدٍ مملوكٍ لمواليه ، اذهبوا بي الى الطبيب وقولوا قد اكتوى .

ومن ذلك قول القائل : من يشتري باذنجان ؟ تقطيعه : مستفعلن مفعولات ومثله كثير من كلام العامة مما يأخذه الوزن ولا يراد به الشعر .

كما ان في آي الكتاب كثيراً قد انتظمه الوزن ولكنه مع هذا لايسمى شعراً لأنه لم يقصد به الشعر ، من ذلك قول الله تعالى : « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » ومنه « وجفان كالجواب وقدور راسيات »(٢) الى كثير من الآيات .

فكل هذا مما يوافق الشعر في الوزن ولكنه ليس منه ، لأنه جاء اتفاقاً وبدون قصد وانما يكون الشعر شعراً اذا عمد صاحبه

---

١ ــ اعجاز القرآن ــ الباقلاني ٨١ .

٢ ــ العقد الفريد ــ ابن عبد ربه ٢٨٢/٥ .

الى ذلك .

وبهذا يكون النبي (ص) خارجاً عن مفهوم الشعر ، لأنه لم يقصد ذلك ولا نواه ، واصابته الوزن احياناً لا توجب أنه يعلم الشعر ، وكذلك ما يأتي أحياناً من نثر كلامه مما يدخل في وزن ، لأن ما وافق وزنه وزن الشعر ولم يقصد به الى الشعر ليس بشعر ، ولو كان شعراً لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لايعرفون الوزن شاعراً [1] .

وبهذا يمكن رد كلامهم وابطال دعواهم .

ومن الذين تابعوا الاخفش في رأيه فلم يجعلوا الرجز شعراً مصطفى صادق الرافعي ، والذى دفعه الى ذلك – فيما أرى – حب الرفاع عن النبي (ص) ونفي الشعر عنه ، أما ما جري على لسان النبي (ص) من رجز ، فلم ير الرافعي مجالاً للدفاع عنه الا ان ينفي كون الرجز من الشعر .

ولكننا نجده يناقض نفسه فيعد الرجز شعراً وهو لا يشعر بذلك فبينما هو يقول : (وانما اتفق له ذلك (أي النبي (ص)) لأن الرجز في أصله ليس بشعر ، انما هو وزن كأوزان السجع ، وهو يتفق للصبيان والضعفاء من العرب يتراجزون به في عملهم وفي لعبهم وفي سوقهم ، ومثل هؤلاء لا يقال لهم شعراء ، فقد يتسق لهم الرجز الكثير عفواً غير

---

١ ــ الجامع لأحكام القرآن ــ القرطبي ١٥/٥١ و ٥٢ .

مقصود حتى أذا صاروا الى الشعر انقطعوا) (١) نراه يقول : (وانما جعل الرجز من الشعر تتابع ابياته وجمع النفس عليه واستعماله في المفاخرات والمماتنات ونحوها وأنه الأصل في ابتدائهم الى اوزان الشعر) (٢) .

فهو يعترف بأن الرجز من الشعر ، وهذا واضح في قوله المتقدم كما ان فيه اشارة الى ما ذهبوا اليه من أن الرجز أصل الشعر وأول نوع ظهر من أنواعه . وفي قوله الآتي ما يؤكد هذا ، فهو يذكر تعليقاً في الهامش يقول فيه ان الرجز شعر وأنه يجرى مجرى القصيد وأنه الأصل في ابتدائهم الى الشعر وذلك حين يقول : (اختلف العلماء في ذلك ، وأراؤهم في تعليله مضطربة ، فمنهم من يجعل الرجز شعراً وهو جمهورهم . ومنهم من ينفي ان يكون من الشعر ، والصواب أنه ضرب من الوزن لم يجعله من الشعر الا أنه كان الأصل في ابتدائهم اليه ، ثم أخذ فيه الشعراء بعد ذلك واجروه مجرى القصيدة فجعلته العادة شعراً أما هو في أصله وحقيقته فليس من الشعر) (٣) .

يلاحظ في كلامه هذا امور منها :ـ

ان جمهور العلماء عدوا الرجز شعراً . ولو لم يكن كذلك لما عده هؤلاء العلماء شعراً .

---

١ ـ تاريخ آداب العرب ـ الرافعي ٣٢٤/٢ .
٢ ـ المصدر السابق ٣٢٤/٢ .
٣ ـ تاريخ آداب العرب ـ الرافعي ٣٢٤/٢ في الهامش .

ويقول : (أنه الأصل في اهتدائهم اليه) واذا كان هو الأصل في الاهتداء الى الشعر وأنه هو النبع والاساس ، فمن الأولى ان يكون شعراً .

ثم يقول في موضع آخر : (فكان الشعر قبل مهلهل رجزاً وقطعاً فقصده مهلهل ثم جاء أمرؤ القيس فأفتن فيه (١) ومن هذا يتبين لنا انه يعد الرجز شعراً .

لقد ذكرت أهم آراء من لا يرون الرجز شعراً ، وهي في حقيقتها لا تعدو رأياً واحداً ودليلاً بسيطاً حاولت جهدي الرد عليه وتخريج الوجوه التي يحتملها . وإذ انتهيت من الرد عليها ، أبدأ الآن بذكر الأراء التي تقول بان الرجز شعر .

مر بنا في تعريف الرجز أن جميع اصحاب المعاجم عدوه شعراً إذ قالوا أنه (ضرب من الشعر) (٢) كما قالوا (ومنه سمي الرجز من الشعر) (٣) .

وقال ابن دريد في جمهرته : (٤) (والرجز من الشعر معروف) ومثل ذلك قول ابن سيده (الرجز شعر ابتداء اجزائه سببان ثم وتد) (٥) .

---

١ ــ تاريخ آداب العرب ــ الرافعي ١٥/٣ .

٢ ــ مادة [رجز] في : الصحاح والقاموس المحيط والتاج ومعجم متن اللغة .

٣ ــ مادة [رجز] في الصحاح ومعجم مقاييس اللغة والمخصص واللسان .

٤ ــ جمهرة اللغة ــ ابن دريد ٧٥/٢ .

٥ ــ انظر مادة [رجز] في اللسان .

وهذا كله يدلنا على أنهم عدوه شعراً ، وكلامهم صريح في الاشارة الى هذا القصد ولندع اصحاب المعاجم ولنأت الى الادباء والرواة والكتاب لنتبين آراءهم في هذه المسألة .

واول من ابدأ به الخليل الذي اعترف ضمناً أن الرجز شعر ، روى صاحب الأغانى باسناد عن يعقوب بن داود أنه قال : « لقيت الخليل بن احمد يوماً بالبصرة فقال لي : يا أبا عبد الله ، دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم فقلت : وكيف ذاك ؟ قال هذا حين انصرفت من جنازة رؤبة » (١) .

وواضح من هذا ان الخليل قد اطلق لفظ (الشعر) على ما قاله رؤبة ، والكل يعلم ان رؤبة لم يقل رجزا ، فلابد ان يكون — اذن — هذا الرجز شعراً .

أما يونس بن حبيب فقد قيل له : من أشعر الناس ؟ قال : العجاج ورؤبة فقيل له : ولِمَ ؟ لمْ نعن الرجاز . فقال : هم أشعر من اهل القصيد ، انما الشعر كلام واجوده أشعره ، قال العجاج :

قد جبر الدينَ الالهُ فجبر . (٢)

---

١ ــ الاغاني ١٢٥/٨ ساسي .

٢ ــ هذا مطلع ارجوزة للعجاج يمدح بها عمر بن عبيد الله بن معمر ، وبعده: وعور الرحمن من ولى العور .

فهي نحو مئتي بيت موقوفة القوافي ولو اطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة قال : وكذلك عامة اراجيزهما . (١)

ألا تراه عد اهل الرجز أشعر من اهل القصيد ، وهذا مبالغة في كون الرجز من الشعر ، ثم انه قال (اشعر) وهذا يعني انه يعد الرجز والقصيد من وادٍ واحد هو (الشعر) ثم ان اسم التفصيل هذا يقتضي المشاركة والزيادة .

وقال ابن سلام وقد نقل ذلك السيوطي (فمن قديم الشعر الصحيح قول العنبر بن عمرو بن تميم وكان مجاورا في بهراء فرابه ريب فقال :

قد رابني من داويّ اضطرابها والنأي في بهراء واغترابها

إلا تجيء ملأى يجيء قرابها

ثم قال : ومما يروى من قديم الشعر قول دويد بن زيد بن نهد . . . الخ) (٢) وذكر ابياتا من الرجز لدويد . وقال السيوطي : (أول من طول شعر الرجز الأغلب العجلي) (٣) .

وهذا ابن رشيق القيرواني قد عد الرجز شعرا حينما رد على من ادعى بأن الرجز ليس من الشعر قال : (وقد رأى قوم ان مشطور الرجز ليس بشعر لقول النبي (ص) :

---

١ ــ الاغاني ١٢٤/١٨ و ١٦/٢١ ساسي .
٢ ــ طبقات الشعراء ــ ابن سلام /٢٤ والمزهر ــ السيوطي ٤٧٤/٢ .
٣ ــ المزهر ــ السيوطي ٤٨٤/٢ .

هل أنتِ الا اصبع دميتِ   وفي سبيلِ اللهِ ما لقيتِ

. . . وليس هذا دليلا ، وانما الدليل في قول النبي (ص) عدم القصد والنية لأنه لم يقصد به الشعر ولا نواه ، فلذلك لا يعد شعرا وان كان كلاماً متزناً والا فالرجاز شعراء عند العرب وفي متعارف اللسان الا ان الليث روى انهم لما ردوا على الخليل قوله « ان المشطور ليس بشعر » قال : لاحتجن عليهم بحجة ان لم يقروا بها كفروا ، قال : فعجبنا من قوله حتى سمعنا حجته) (١) .

اما ابن رشيق فيطلق لفظ (القصيد) على الرجز وعلى غيره من انواع الشعر الاخرى فالقصيد – عنده – لفظ عام والرجز نوع خاص يدخل تحت عموم القصيد ، اذ يقـــول في ذلك (ولا تسمى القصيدة ارجوزة الا ان تكون من احد انواع الرجز التي ذكرت ، ولو كانت مصرعة الشطور كالذي قدمته ، فالقصيد يطلق على كل رجز وليس الرجز مطلقا على كل قصيد أشبه الرجـز في الشطر)(٢) .

والحقيقة انه لم ير هذا الرأي الا لأن معنى القصيد عنده يختلف عن معناه المعروف ، فهو يرى انه لا (يمتنع ان يسمى ماكثرت بيوته) من مشطور الرجز ومنهوكة قصيدة ، لان اشتقاق القصيد من « قصدت الى الشيء » كأن الشاعر قصد الى عملها على تلك الهيأة ، والرجز مقصود ايضا الى عمله كذلك) (٣) .

---

١ ــ العمدة – ابن رشيق ١/١٨٥ .

٢ ــ العمدة – ابن رشيق ١/١٨٣ ،

٣ ــ المصدر السابق ١/١٨٣ .

اما الراجز المشهور « رؤبة » فقد كان يطلق لفظ (شعر) على ما يقول من (رجز) وهذا يشير الى انه يرى ان الرجز شعر ، يحكى عنه في توجهه الى قتيبة بن مسلم انه قال : جاءني رجلان فجلسا الي وانا انشد شيئاً من شعري فهمسا بينهما فتقبعت (١) عليهما فهمدا ، ثم سألت عنهما فقيل لي : الطرماح والكميت ، فرأيتهما ظريفين فأنست بهما ، ثم كانا يأتياني فيأخذان الشيء بعد الشيء من شعري فيودعانه اشعارهما (٢) وقال في ارجوزة مدح بها مروان بن محمد : (٣)

فاصبحَ اليومَ لساني مطلقا　　نصراً من الله ونورا اشرقا
وهاجني جلابة تسرقـــا　　شعري ولا يزكو له ما لزقا

وهناك عدة مواضع سمي بها رجزه شعرا .

والمحدث الجليل ابو هريرة (رض) لم يرَ الرجـــز الا شعرا (يروى ان العجاج انشده :

---

١ ـــ التقبع من القبع ، وهو في الاصل صوت يردده الفرس من منخريه الى حلقه ، ويكون عند رؤيته شيئاً يكرهه أو يتقيه ، يريد انه اظهر لهمـــا الكراهة وقد وردت لفظة (فتفقت) بدل (فتقبعت) في الخصائص وهو خطأ وقد يكون الاصل فنفت عليهما : اي غضبت من النفت .
٢ ـــ الخصائص ـ ابن جني ٢٩٧/٣ والموشح ـ المرزباني / ١٩٢ مع اختلاف في الرواية .
٣ ـــ مجموع اشعار العرب ـ الورد /١١٢ .

ساقاً بخنداة وكعبا أدرما [١]

فقال : كان النبي (ص) يعجبه نحو هذا الشعر) [٢] .

وكان ابو الفرج الاصبهاني يطلق لفظ الشعر على الرجز ، فقد قال مترجماً لرؤبة وواصفاً مكانته اللغوية والادبية (قد اخذ عنه وجوه اهل اللغة وكانوا يقتدون به ويحتجون بشعره) [٣] .

هذه اهم آراء الأقدمين من الأدباء والنقاد ومؤرخي الأدب . اما آراء المحدثين فهي مستمدة من آراء القدماء تلك ، حيث تبعوهم في عد الرجز شعرا ، إيمانا منهم بأن الرجز احد فنون الشعر العربي ، فلا يمكن ان ينفصل عنه أو يخرج من دائرته بأي حال من الاحوال .

ولم يشذ عن هؤلاء الا الرافعي ، وقد ذكرت رأيه سابقاً مع الذين لم يعدوا الرجز شعرا .

ومن المحدثين الذين جعلوا الرجز من الشعر المستشرق نالينو حين قال : — (فلنخض الآن في الكلام الموجز على الشعر من الصنف الرابع في ايام الدولة الاموية ، اعني الاراجيز ، ان هذا النوع من الشعر لا يختلف عن شعر الصنف الثـــالث من حيث اللغة والموضوع

---

١ ــ البخنداة : الضخمة ، والأدرم : الذي لا حجم له .

٢ ــ مادة (رجز) في اللسان . واراجيز العرب ــ البكري ٤ .

٣ ــ الاغاني ٢١/٥٧ ساسي .

والمعاني والمبدأ والخروج والاستطراد والنهاية فانما الفرق بينهما في القالب الذي صيغا فيه ،وهو بحر الرجز المشطور لاشعار الصنف الرابع وسائر الأبحر لاشعار الصنف الثالث) [١] .

وقال ايضا : (ان رؤبة بن العجـــاج آخر النوابغ الذين قالوا الاراجيز الحقيقية اعني القصائد الجاري مضمونها على الاساوب القديم مع انها مصوغة في بحر الرجز المشطور) ، وبعده بقليل (ندرس هذا النوع من الشعر تماما . . .) (٢) .

كما ان من بين هؤلاء المحدثين الذين عدوا الرجز شعرا الدكتور شوقي ضيف فقد قال : (وقد بلغت هذه المتون صورتها المثالية عند رؤبة فهو النمو الاخير لهذا العمل التعليمي الذي ارادته المدرسة اللغوية من جهة والذي استجاب له الشعراء وخاصة الرجاز من جهة اخرى) (٣)

وقال بعد ان اورد ارجوزة رؤبة « وقاتم الاعمـاق » : (وهل من الممكن ان يوجد مثل هـذا الشعر أو مثل هذا الرجز الا في قيعـان الصحراء) (٤) الى غير هذه الأقوال التي كانت ترد في اثناء كـــلام

---

١ ــ تاريخ الآداب العربية ــ نالينو /١٦٤ .
٢ ــ المصدر السابق /١٩٠ .
٣ ــ التطور والتجديد في الشعر الأموي ــ ضيف ٣٤٦ .
٤ ــ المصدر السابق /٣٤٧ .

الدكتور ضيف والتي تدل على انه يعد الرجز شعراً اصيلاً (١) .

وهناك آراء اخرى تؤيد كون الرجز شعراً أعرضت عن سردها خشية الاطالة التي تسبب الملل . ويمكن العثور عليها في مظانها من كتب الأدب وتأريخه التي ألفها المحدثون (٢) .

بعد هذا العرض المفصل للآراء التي قيلت في فن الرجز ، وعرض الأدلة في هذا الصدد ومناقشتها . لا بد لي من خلاصة وافية توضح علاقة الرجز بالشعر ومدى الترابط بينهما فأقول :ــ

يعتبر الرجز فناً شعبياً يكثر استعماله في الاعمال الجماعية حيث يكون خير نشيد لهؤلاء العمال ينشدونه في اثناء عملهم ترويحاً عن أنفسهم ومساعدة لهم على مواصلة العمل ، كما يستعمل في حالة الارتجال والأمور الآنية التي لا يسمح الوقت فيها الى نظر أو تأمل واجالة فكر ، فيأتي الشاعر بالأبيات القليلة المرتجلة من الرجز يقدمها بين يدى حاجته أو حين المنازلة والمجادلة والمفاخرة . فأكثر الناس كان يجري على لسانهم الرجز لأنه سهل وطيء لا يستعصى على الكثير ، وحتى النبي (ص) الذي نُزّه عن قول الشعر جرى على لسانه الرجز دون قصد اليه .

---

١ ــ انظر ص ٣٤٧ من المصدر السابق ايضاً وكذلك ص ٣٤٨ منه .

٢ ــ انظر مثلاً ما قاله الاستاذ عبدالسلام هارون في تحقيقه لكتاب الحيوان ١٤٧/١ وارجع الى ما قاله الدكتور سيد نوفل في « شعر الطبيعة » ص ١٣٦ و ١٥٦ .

والى ما قاله الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم في تحقيقه لكتاب آمالي المرتضى ٦٢/١ وانظر مقالة الاستاذ محمد بهجت الاثري في مجلة المجمع العربي بدمشق حول الرجز ٤٨٥/٧ مجلد ٨ .

ولهذا اختلف الناس في عد الرجز شعراً وانقسموا فريقين : أحدهما عده شعراً والآخر لم يعده من الشعر . وأخذ كل فريق يأتي بالادلة والبراهين ليثبت ما يدعي . وقد ظهر لنا من مناقشة تلك الآراء والأدلة ان الرجز شعر صحيح ونوع منه مفضل لدى أكثر طبقات الشعب ، لما فيه من ايقاع رتيب وخفة على اللسان والسمع :

واستطيع بعد هذا أن أقول :ـ

أن الشعر العربي ـ بجميع فنونه واغراضه ـ يتألف من نوعين لا ثالث لهما رجز وقصيد . فالرجز اضافة الى كونه بحراً من بحور الشعر مؤلفاً من ست تفعيلات ـ فأنه نوع من الشعر يكون الشطر فيه هو الوحدة الرئيسية الاساسية في القصيدة . ويقوم هذا الشطر مقام البيت فيسمى (بيتاً) (١) وهذا ما يعرف في علم العروض بـ (الشطر) أو (المشطور) .

أما القصيد ـ ويسميه بعضهم القريض ـ فهو كل شعر غير الرجز يكون البيت فيه مؤلفاً من شطرين في الاكثر وهما الصدر والعجز .

والى هذا التقسيم أشار الأغلب العجلي ـ قبل ثلاثة عشر قرناً تقريباً وقبل أن يعرف الخليل ويشتهر ـ بقوله عندما سئل عما أحدث من الشعر :

أرجزاً تريد أم قصيدا   لقد سألت هينا موجودا

---

١ ـ راجع العمدة ١/١٨٠ حيث يقول ابن رشيق (وكل مشطوراً أو منهوك فهو بيت . . .)

فأنه عندما طلب اليه إظهار ما عنده من الشعر ، استفسر منهم أي نوعي الشعر يقصدون ؟ الرجز أم القصيد ، فأنه كان شاعراً في كليهما ومقتدراً عليهما ومنشئاً فيهما . .

وتعريف القريض عند النحاس يدل على هذا التقسيم ، فقد قال : —

(القريض عند أهل اللغة العربية الشعر الذي ليس برجز) (١)

والذي يفهم من كلام النحاس هذا هو أن الشعر أما أن يكون رجزاً أو غير رجز ، وغير الرجز سماه قريضاً وهو عنده [مشتق من « قرض الشيء » أي قطعهُ ، فكأنه قطع جنساً وقال ابو اسحاق : وهو مشتق من القرض أي القطع والتفرقة بين الاشياء ، فكأنه ترك الرجز وقطعه من شعره] (٢) .

وكلام ابي اسحاق يدل على ان القريض في الشعر مشتق من قطع الرجز وتركه ، فالذي يأتي بنوع من الشعر غير الرجز يسمى « مقرضاً » وما أتى به « قريضاً » .

والجاحظ كان يرى مثل هذا التقسيم ويعد الشاعر أما مختصاً بالرجز أو بالقريض وقلبل من يجمع بين هذين النوعين ، كما أن منهم من يجد صعوبة في مجاوزة القصيدة الى الرجز أو بالعكس ، يقول : (وفي الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد الى الرجز ، ومنهم من لا يستطيع

---

١ — العمدة — ابن رشيق ١/١٨٤ ط٣ .

٢ — المصدر السابق ١/١٨٤ .

مجاوزة الرجز الى القصيد ، ومنهم من يجمعهما : كجرير وعمر بن لجأ وابي النجم وحميد الأرقط والعماني . ولبس الفرزدق في طواله بأشعر منه في قصاره) (١)

فهو بهذا يقسم الشعر الى نوعين : رجز وقصيد كما يقسم الشعراء الى راجز ومقصد (٢) وهذا هو الرأي الصحيح الموافق للحال والمطابق للواقع ، وجميع الأدلة والبراهين تؤيد ذلك كما رأينا .

وحتى أبو زيد الأنصارى عندما افرد في كتابه « النوادر » باباً للرجز وباباً للشعر لم يكن يرمي الى هذه التفرقة المعروفة والمقصودة بين الشعر والرجز . انما كان قصده أن يفرق بين القصيد والرجز ، وقد أوضح ذلك في بداية كلامه حينما قال : (ما كان فيه من شعر القصيد . . . الخ) .

فلو كان قصده التفرقة بين الشعر والرجز لما قال : (شعر القصيد) وانما كان يكفيه أن يقول : (من شعر) فقط . ولكنه ذهب الى أن الشعر يشمل الرجز والقصيد فخصّ القصيد من بين نوعي الشعر . وكان هدفه في هذا التقسيم أن يبين أن الرجز من اختصاص العرب الخاص الذين لم تفسد لغتهم بعد ، فكانت الفصاحة شأنهم والملكة اللغوية والسليقة العربية صفتهم . ولهذا فأنه أخذ الرجز من منبعه الاصلي ومصدره الرئيسي ، وهم العرب أما القصيد فقد استقاه من مصدر موثوق به هو المفضل الضبي ، وهذا معنى كلامه الذي بدأ فيه كتابه بقوله : (قال أبو

---

١ ــ البيان والتبيين ــ الجاحظ ٢١٥/١ .

٢ ــ العمدة ــ ابن رشيق ١٨٦/١ ط ٣ .

حاتم ، قال لي أبو زيد : ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبي ، وما كان من اللغات وابواب الرجز فذلك سماعي من العرب ، قال وأخبرني أبو العباس عن التوزي أن أبا زيد قال : ما كان فيه من رجز فهو سماعي من المفضل ، وما كان فيه من قصيد أو لغات فهو سماعي من العرب) (١) .

وهنا لا بد من ترجيح احدى الروايتين وبيان الوجه الصحيح فيهما وأيتهما أصح من الاخرى .

وأنا أرجح الرواية الأولى وهي رواية أبي حاتم ،، وأراها أصح وأصدق من رواية ابي العباس . ولي على هذا القول دليلان : أحدهما نقلي والآخر عقلي .

أما الدليل النقلي فأن أبا زيد ذكر في صفحة (٥٧) من كتابه الآنف الذكر وتحت عنوات (باب الرجز) قوله : (سماع أبي زيد من العرب . . .) (٢) ،

وهذه حجة لا ترد ، وهي تثبت أن اللغات وأبواب الرجز سماعي من العرب كما انها تتفق مع قول ابي حاتم وروايته .

فهي – اذن – الرواية الصحيحة ، لأنه لو كانت رواية أبي العباس هي الصحيحة لكان أبو زيد قد ذكر هذا الكلام تحت عنوان

---

١ – النوادر في اللغات – أبو زيد الأنصاري / ١ .

٢ – المصدر السابق / ٥٧ .

(باب شعر) أما أنه قد ذكره تحت (باب رجز) فلا يبقى هناك أي شك أو ريب في أن اللغات والرجز سماعية من العرب .

وأما الدليل العقلي فهو أن الرجز نشأ أول ما نشأ بين ظهراني العرب الفصحاء وترعرع وشب في أحضانهم ، ولهذا لا نعجب اذا وجدنا غرابة في الفاظه وحوشية في كلامــه لأنه لم يخضع للعجمة التي كانت حصيلة المدنية والاختلاط بالأقوام الأخرى . كما أن الحضارة كانت بعيدة عنه لهذا لم تكن الفاظه رقيقة ولا كلماته لينة عذبة . انما جاءت ولها دوي وفخامة وغرابة .

أما القصيد فيكثر في كل مكان ، عند العرب وعند الرواة وعند الذين استعربوا . وهذا يفسر لنا سبب مجيء القصيد في العصر العباسي وما بعده سهل الألفاظ لين العبارات عذباً جميلاً ، تظهر عليه السلاسة والسهولة ، لأن تلك الحضارة أثرت فيه تأثيراً كبيراً ، كما ان الأقوام التي دخلت في الدين الاسلامي والتي تعلمت العربية كان لها أثر واضح في تعريب كثير من الكلمات الاعجمية ، ومن هنا بدأت العجمة تسرى بين صفوف العرب وراح اللحن يلعب بالسنة القوم .

وبهذين الدليلين أستطيع ان ادعم قولي في صحة رواية أبي حاتم ورجاحتها على رواية أبي العباس .

الفصل الثالث

وزن الرجز

يتألف وزن الرجز من حركات رتيبة متعاقبة يتخللها سكون. وهذه ميزة جعلت بحر الرجز خفيفاً رشيقاً يسهل النظم فيه. كما جعلته سلساً في الانشاد يتدفق على اللسان كما يتدفق الماء نحو المنحدر.

ومن هنا رأينا ان جوازات بحر الرجز كثيرة، نظراً لما فيه من عذوبة ورقة وبساطة، فجاءت اوزانه متعددة ومتفقة مع كـــل الاحوال والاغراض، فهو بحر طويل لمن اراده سالماً كاملاً، وهو مجزوء لمن اراد استعماله في غرض ملائم للجزء، وهو مشطور متوسط الطول لمن اراد، كذلك. واخيراً يمكن استعماله كأقصر بحر من بحور الشعر وذلك حينما

يستعمل منهوكاً . كما اصبح نوع منه يتألف من تفعيلة واحدة ، وهو الذي سموه بـ (المقطع) والذي نظم فيه يحيى بن علي المنجم وسلم الخاسر (١) .

والذي لوحظ بعد هذا ان بحر الرجز اصبح يحتوي على اشكال عديدة ، وصور متنوعة ، بالنسبة لطول البيت وقصره ، وبهذا اصبح يلائم كل الاهواء ، ويناسب جميع الاغراض تقريباً .

وتنوع وزن الرجز هذا هو احد ثمار التطور والتجديد الذي اصاب الرجز فيما بعد ، والذي شمل جوانب عديدة منه ، (ولا شك في ان هذا التجديد في القالب العروضي انما يرجع في الغالب الى تطور الحياة النفسية عند العرب في ظل الاسلام من حيث انها ظفرت باحاسيس

---

١ — روى ابن رشيق بعضاً من هاتين القصيدتين في عمدته ١ /١٨٤ فمن ارجوزة علي بن يحيى أو يحيى بن علي المنجم قوله : —

طيف ألم بذى سلم بعد العتم بطوى الأكم
جاد بفم وملتزم فيه هضم اذا تضم

ويقال ان اول من ابتدع ذلك سلم الخاسر ، يقول في قصيدة مدح بها موسى الهادي :

موسى المطر غيث بكر ثم انهمر ألوى المرر
كم اعتسر ثم ايتسر وكم قدر ثم غفر
عدل السير باقي الأثر خير وشر نفع وضر
خير البشر فرع مضر بدر بدر والمفتخر

لمن غبر

ومشاعر جديدة لم تظفر بها من قبل ، ذلك ان ظواهر اللهو والمجون ، والشراب والغناء ، والفقر والحرمان ، والصراع حول المباديء السياسية ونحوها مما اوجدته الحياة السياسية ، قد خلقت ظواهر نفسية : كالحب العميق ، والشوق المضني ، والصبابة القاتلة ، والطرب والحزن ، والفناء في المبدأ والعقيدة . هذه الظواهر النفسية أو الانفعالات الجديدة ، لم تستطع اوزان الشعر القديمة أن تنهض باعباء التعبير والابانة عنها جميعاً ولهذا لم يكن للشعراء بد من استعمال الأوزان النادرة والأوزان القصيرة التي اشرنا اليها ليسدوا هذا النقص ويوفوا بهذه الحاجة) (١) .

على ان الذي حبب الرجز الى نفوس الناس وجعلهم يستعملونه بهذه الكثرة هو تصريع شطري الرجز اضافة الى خفة البحر وعذوبته . وميزة التصريع هذه جعلت الرجز عسير المطلب صعب المتناول ، لا يجيد فيه الا من كانت لديه ملكة أدبية وثروة لغوية وقـــد اشاد رؤبة بميزة التصريع هذه ، وجعل القوافي الركن الاساس في الرجز . اذ قال : (٢)

وأمهات الرجز القوافي

وبسبب هذا التصريع رأى قوم ان يسموا شطر الرجز المصرع بيتا واعتمدوا في ذلك على علم العروض ، حيث ان هذا النوع يطلق عليه في علم العروض (المشطور) وقد عد هذا الشطر بيتـــا قائما بذاته ، فقول الشاعر : ــ

---

١ ــ نقائض جرير والفرزدق ــ الدكتور غناوي ص ٣٠١ .

٢ ــ مجموع اشعار العرب ــ الورد ص /٩٩ وشرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ص / ١٤٩ .

تبا له من حاذق مماذق	أصفر ذي وجهين كالمنافق
يبدو بوصفين لعين الوامق	زينة معشوق ولون عاشق
وحبه عند ذوي الخلائق	يدعو الى ارتكاب سخط الخالق
لولاه لم تقطع يمين سارق	ولا بدت مظلمة من فاسق
ولا اشمأز باخل من طارق	ولا شكا المطول مطل العائق

وامثاله من الرجز يدخل تحت اطار هذا النوع من الشعر وهو (المشطور) الذي يعد فيه الشطر بيتاً مستقلا له ما للابيات الأخرى ذات الشطرين من مقومات .

فالتصريع — اذن — جعل القافية موجودة في كل اشطر القصيدة وهذا ما يجعل موسيقى الرجز ونغمته أشد عذوبة واكثر تأثيراً لأن النغمة الرتيبة أشد وقعا في السمع من النغمة التي لا يتحكم فيها حسن الترتيب ، والنفس اعظم تقبلا لتلك النغمة .

وقد تمثلت النغمة المنظمة الرتيبة في الرجز من ناحيتين : الوزن والقافية . فالوزن تتعاقب فيه الحركة مع السكون ، والقافية تأتي مع نهاية كل شطر ، وهذا ما يجعل من الارجوزة انغاما كثيرة موحدة قصيرة يسهل على السامع متابعتها . وتمكن المنشد من ضبطها .

وهذه الميزات هيأت الرجز لأن يكون بحرا ملائما في ايقاعاته وحركاته لسير الابل وحركات العمال في اثناء عملهم والمحاربين وقت قتالهم ، ولأجل هذه الصفات استأثر الرجز دون غيره من البحور ، بهذه المجالات ، فراح الحادي يحدو به ابله ، وانطلق الماتح يروح به عن نفسه ، وأنشده المحارب ليجدد قوته ونشاطه ويبعث في نفسه النخوة والحماس وليرهب خصمه واستعان به العامل على المشقة والعناء .

ومن هنا نستطيع أن نفهم سبب مجيء الرجز بهذه الكثرة الكاثرة بحيث لايكاد يخلو منه كتاب من كتب الأدب واللغة . كما نستطيع أن نفهم لماذا كان اهتمام الناس بهذا البحر يفوق اهتمامهم بغيره من البحور ، ولعلنا لانجد بحراً تعددت صوره واشكاله كما تعدد الرجز (١) .

ثم قام الرجز بمهمة تغيير قافية الأراجيز واختلافها بين كل شطرين ، حتى اصبحت الارجوزة تحتوي على قواف متعددة ، وقد شاع هذا التغيير في التعليميات التي حفظت لنا أكثر علوم العرب وفنونهم .

والذي ساعد على امكان هـــذا التغيير امران : الأول يتمثل في بساطة وزن الرجز وخفته ، والثاني يبرز في سهولة قافيته واختلافهـا بين كل شطرين ، حتى سمي هـذا النوع بـ (المزدوج) ، لأن القـافية ازدوجت فيه ، أي تساوت في كل زوج من الاشطر ، وهذا ساعد كثيراً على نظم أي علم من العلوم ، لأن النـاظم لايجد صعوبة حين النظم في ايجاد كلمات متفقة في حرفها الاخير لتكون قافية ، وانما يحتـــاج الى كلمتين متفقتين فقط ، وهذا أمر بسيط لايكلف مشقة ولا جهداً ، حتى اننا نجد بعض المزدوجات ــ كألفية ابن مالك في النحو وغيرها ــ قـد بلغت ألف بيت ولم تضق القافية ذرعاً بذلك .

ولهذه السهولة راح الناس ينظمون كل ما صعب حفظه على الطلاب وكل ما أرادوا له الحفظ والسيرورة ، فجاءتنا علوم كثيرة بهذا النوع من الشعر ، نظموا فيه علوم اللغة والفقه وعلم التجويد والعروض والتـاريخ والطب ونحو ذلك .

---

١ ــ في النقد الأدبي ــ الدكتور ضيف ص ١٠٠ دار المعارف .

وهكذا كانت فائدة هذا التغيير كبيرة من حيث سهولة اداء المعاني المختلفة لاسيما ما استجد منها . حيث أن هذا النوع لم يقتصر على صوغ العلوم والفنون بقالبه ، وانما تعدى ذلك الى تصوير المعاني النفسية وابراز احاسيسها وخلجاتها ، فجاءت مزدوجه (ذات الامثال) لأبي العتاهية نموذجاً حياً لذلك ، فهي ارجوزة من بدائع ابي العتاهية ، يقال أن له فيها أربعة آلاف مثل . (١) ومنها قوله :

حسبك مما تبتغيه القوت   ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا   من اتقى الله رجا وخافا
لكل ما يؤذي – وان قل – ألم   ما اطول الليل على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله   وخير ذخر المرء حسن فعله
أن الفساد ضده الصلاح   ورب جد جره المزاح
أن الشباب والفراغ والجده   مفسدة للمرء أي مفسده
يا للشباب المرح التصابي   روائح الجنة في الشباب
مازالت الدنيا لنا دار أذى   ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواج   لذا نتاج ولذا نتاج

ويقال أنه جرى تذاكر شعر ابي العتاهية بحضرة الجاحظ ، الى أن جرى ذكر مزدوجته هذه فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :–

يا للشباب المرح التصابي   روائح الجنة في الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف ! ثم قال : أنظروا الى قوله :–

---

١ – الاغاني ٣٦/٤ وزارة الثقافة .

فان له معنى كمعنى الطرب الذي لايقدر على معرفته الا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الالسنة الا بعد التطويل وادامة الفكر ، وخير المعاني ما كان القلب الى قبوله أسرع من اللسان الى وصفه . (١)

وهذه الظاهرة التي برزت في الرجز خاصة ، انما كانت نتيجة طبيعية لتطور الافكار وظهور معان واغراض جديدة استدعت تجديداً في نظام القافية ، وتطويراً في القالب العروضي فكان الرجز بأوزانه المتنوعة وباختلاف نظام قافيته خير ما يلائم ذلك التطور الذي لم يدع ناحية من نواحي الحياة الا شملها .

على أن المزدوج كان أكثر ملائمة من غيره لنظم متون كثير من العلوم ، فلجأ اليه الناظمون ليعينهم على تسهيل حفظ العلوم التي يريدون تحفيظها ورسوخها في اذهان الطالبين ، وبقاءها تروى وتتناقل على شفاه المنشدين على مر الايام والسنين .

ومن المحتمل أن يكون تنوع القافية في الرجز من الامور التي اوحت الى العرب — وخاصة الاندلسيين — بالخروج على نظام القصيدة في الموشح ، كما سترى بيان ذلك في فصل تطور الرجز .

وبحر الرجز كباقي بحور الشعر الاخرى يعتريه مايعتريها من زحاف وعلة ، ويدخله الجزء والشطر والنهك . وفيما يلي بيان أنواع هذا البحر :

للرجز خمس اعاريض وستة اضرب وهي :

١ — العروض الاولى تامة « أي صحيحة » وقد يدخلها الخبن (٢) أو الطي

---

١ — الاغاني ٤ / ٣٦ وزارة الثقافة .

٢ — الخبن : حذف الثاني الساكن . والطي : حذف الرابع الساكن .

أو كلاهما ولها ضربان :

أ ــ ضرب صحيح مثل :

دار لسلمى إذ سليمى جارة   قفراً ترى آياتها مثل الزبر

تقطيعه : مستفعلن مستفعلن مستفعلن   مستفعلن مستفعلن مستفعلن

ب ــ ضرب مقطوع مثل :

القلب منها مستريح سالم   والقلب مني جاهد مجهود

تقطيعه : مستفعلن مستفعلن مستفعلن   مستفعلن مستفعلن مستفعل

٢ ــ العروض الثانية مجزوءة صحيحة ولها ضرب واحد صحيح مثلها .

والجزء : هو حذف تفعيلة واحدة من كل شطر فيبقى البيت مكوناً من أربع تفعيلات ومثاله :

حسبي بعلمي أن نفع   ما الذل الا في الطمع

تقطيعه : مستفعلن مستفعلن   مستفعلن مستفعلن

٣ ــ العروض الثالثة مشطورة صحيحة وهي الضرب في الوقت ذاته ، والشطر : حذف نصف البيت وابقاء النصف الاخر ، كقول الشاعر :

الحمد لله الوهوب المجزل

تقطيعه : مستفعلن مستفعلن مستفعلن

٤ ــ العروض الرابعة : مشطورة مقطوعة وهي الضرب في الوقت ذاته ، نحو :

يا ماخض الماء عدمت الزبدا

تقطيعه : مستفعلن مستفعلن مستفعل

٥ ــ العروض الخامسة : منهوكة صحيحة وهي الضرب أيضاً ، والنهك : ذهاب ثلثي البيت وبقاء ثلثه ، مثل :

يا ليتني فيها جذع

تقطيعه : مستفعلن مستفعلن

وهذا النوع من بحر الرجز نادر ، والاندر منه أن يأتي البيت على تفعيلة واحدة كما رأيت في ارجوزة علي بن يحيى المنجم في ارجوزته اذ يقول :

طيف ألم

بذي سلم

ومثل هذا ارجوزة سلم الخاسر أيضاً وقد ذكرنا قبل قليل . والجوهري يسمي هذا النوع المقطع . (١)

على أن هناك خلافاً في تمييز ضرب المشطور والمنهوك . والاقوال في ذلك كثيرة متعددة ، وقد رأيت الاعراض عن ذكرها اولى من سردها ، لانها آراء وخلافات لاطائل تحتها . فالمهم أن يكون البيت محافظاً على مقوماته . ولايهم بعد ذلك حذف الاول أو الآخر .

وان كان لابد من ترجيح رأي من تلك الآراء فاني ارجح ماذهب اليه الكثير من أن العروض هي الضرب . لان من مستلزمات البيت الشعري احتواءه على عروض وضرب ، واذا كان الامر كذلك فلتكن العروض هي الضرب ، وحينئذ يكون البيت محتوياً على كليهما .

ومن يريد الاطلاع على تلك الآراء فليراجع كتاب (الارشاد الشافي على متن الكافي) (٢) فان فيه ذكراً مستفيضاً لكل الآراء التي قيلت حول هذه المسألة .

أما جوازات بحر الرجز فهي كثيرة ، ولايجاريه بحر من بحور

---

١ ـــ العمدة ـــ ابن رشيق ١٨٥/١ ط ٣ السعادة .

٢ ـــ تأليف محمد الدمنهوري ص ٨٤ ط ٢ الحلبي .

الشعر الاخرى في هذا المجال ، ويمكن أن يعد اوسع البحور لكثرة هذه الجوازات ، لهـــذا فقد سموه (حمار الشعر أو حمار الشعراء) وهم يقصدون بذلك سهولة النظم فيه . وهذه الجوازات هي :—

١ ـــ تحول (مستفعلن) الى (مفعولن) في التفعيلة الاخيرة ، كما في البيت الآتي :

من ذا يداوي القلب من داء الهوى
اذ لا دواء للهـــوى موجـود

٢ ـــ تحول (مستفعلن) الى (مفاعلن) نحو :

ان الشباب والفراغ والجده   مفسدة للمرء اي مفسدة

٣ ـــ تحول (مستفعلن) الى (فعولن) مثل :

حسبك مما تبتغيه القوت   ما اكثر القوت لمن يموت

٤ ـــ تحول (مستفعلن) الى (مفتعلن) كقول الشاعر :

تبا له من خـــادع مماذق   اصفر ذي وجهين كالمنافق

٥ ـــ تحول (مستفعلن) الى (فعلتن) نحو :

ولحقتنا بالسيوف المسلمة   يفلقن كل ساعد وجمجمة

وهذه التفعيلة تجعل بحر الرجز تلتقي فيه اربعة احرف متحركة .

الفصل الرابع

الرجز ونشأة الشعر

لعل مسألة بداية الشعر واوليته هما اكثر المسائل التي تشعبت فيها الأراء ، وما ذلك الا لانعدام الدليل القاطع والنص الثابت الذي يمكن الاعتماد عليه في هذه القضية ، لهذا لم يكن غريباً علينا ما اخترعه الرواة وغيرهم من الاساطير والخرافات ، وما نسبوه من شعر الى قوم لم يكونوا قائليه وربما لم يحبوا على هذه الأرض .

فنحن نعلم ان الشعر العربي الذي وصل الينا كان على درجة عالية من الرقي والتقدم والنضج ، مما يجعلنا نعتقد يقينا أنه مسبق بما هو ابسط منه وأقل نضجاً ، وهكذا حتى نصل الى بدايته ، ولما كانت هذه الفترة التي سبقت نضج الشعر واكتماله مفقودة ، أو قل ان معلوماتنا حولها مرتبكة مضطربة ، صعب علينا تحديد أولية الشعر ومعرفة أول قائل له .

اما ما ذكروه من شعر ونسبوه الى آدم والى الملائكة وابليس والى قوم بادوا ، فهذا من قبيل الاساطير والخرافات ، ومن نسج خيال القصاصين والرواة .

وقديماً فطن ابن سلام الى امثال هذا الشعر المنحول ونبه عليه ، ثم رد رداً جميلا على هذه الحكايات ، واستشهد بآيات قرآنية تنفي كل هذه الاساطير ، وذكر بعد ذلك مقطعات رجزية على اساس انها من قديم الشعر . (١)

واذا نفينا هذه الأوليات التي نسبت الى آدم وغيره فكيف نستطيع ان نحدد بداية الشعر العربي وأوليته ؟

والاجابة عن هذا السؤال ليست بالأمر اليسير ، فنحن لا نستطيع أن نقول من هو أول من قال الشعر اطلاقا ، وأستطيع في هذا الصدد أن أتابع عمر بن شبة في رأيه بأن للشعر والشعراء أولا لا يوقف عليه ولا يمكن معرفته . (٢) فاذا اجهدنا أنفسنا بالبحث فيمكننا اعطاء صورة عامة باهتة وخطوطاً ضعيفة عن نشأة الشعر وبدايته واعتمادنا في ذلك على العقل وما يوجبه ويقتضيه منطق التطور .

أما ما ذهب اليه الجاحظ من تحديد ظهور الشعر بمئتي سنة قبل الاسلام (٣) فيقصد به ذلك الشعر الناضج الكامل المطول ، الذي عملت فيه يد التنقيح وأثرت فيه روح الحضارة والتقدم . فان ما ادعاه العلم الحديث من تطور الانسان عن صورة أبسط منه أو قل أشبه شيء بالحيوان

---

١ ــ طبقات ابن سلام ص ٢٣ دار المعارف بمصر .

٢ ــ المزهر ــ السيوطي ٤٧٧/٢ ط ٤ الحلبي .

٣ ــ الحيوان ــ الجاحظ ٧٤/١ هارون ــ الحلبي .

يجعلنا نعتقد أن كل المخلوقات قد تطورت عن صور كانت أبسط منها تركيباً ، حتى تكيفت للبيئة واصبحت بشكلها المعتاد ، وهذا ما سماه العلماء المحدثون بنظرية (التطور) وهي النظرية التي نسبت الى (دارون) .

واذا كان هذا حقا ، فلا ريب أن حياة الانسان الاول كانت بدائية بسيطة وكل ما يتصل بحياته هذه من لغة وافكار واعمال كان بدائيا ايضا كما ان متطلبات ذلك الانسان كانت قليلة محدودة ، فنشأت لغته تسد حاجة تلك المتطلبات من وضع مسميات لها وايجاد كلمات يمكن التخاطب بها مع من وجد معه من أبناء جنسه .

وهكذا تطورت لغة الانسان مع ازدياد حاجته وتطورها ، حتى بلغت تلك الصورة الكاملة المتماسكة عندما بلغت حياته هو مرحلة عليا من النمو والتطور . واذا كانت سُنة الحياة تدعو الى ان تكون نشاة الكائنات الحية على هذه الصورة من البساطة والسذاجة فمن البديهي ان تكون نشأة الشعر بهذه الصورة ايضا ، لان الشعر تابع للغة الانسان وحاجته وهو الوسيلة الجميلة للتعبير عن عواطفه واغراضه ، فلا يستطيع احد أن ينكر هذا التطور والتدرج الذي حصل للشعر كما حصل لغيره من الكائنات الحية ولا شك ان الشعر – كاللغة – كائن حي يخضع لنواميس التطور والرقي .

واذا أردنا أن نتلمس صورة قريبة من الواقع لنشوء الشعر العربي فعلينا ان نبحث عن حاجات الانسان البدائية التي استطاع ان يعبر عنها بالشعر ، ولا أعني بذلك الرجوع الى الانسان الأول وتقصي متطلبات حياته لأن لغة ذلك الانسان كانت تختلف تماماً عن لغتنا ، انما أعني أولئك القوم الذين كانت لغتهم هي لغتنا ، والذين وصل الينا شعرهم

باللغة التي نعرفها ، وأقصد بهم أولئك العرب الذين سكنوا الجزيرة التي سميت بأسمهم وكانت حياتهم تشبه — ولو من بعيد — حياتنا نحن احفادهم .

ان أول ما يشغل الانسان في يومه وليله حصوله على ما يسد به حاجتي الطعام والشراب ، واذا استطاع أن يصبر على الجوع قليلا فان صبره على العطش لا يطول فيدفعه ذلك الى البحث عما يروى به غلته ويبل به كبده ، واذا علمنا أن صحراء العرب كانت أرضاً قاحلة جرداء يندر فيها الماء تصورنا مدى الصعوبة التي يلاقيها العربي في سبيل الوصول الى الماء ، والوسيلة المفيدة التي كان يتبعهـــا للحصول عليه هي أن يحفر في الارض بئراً قد يمتد غورها امتاراً عديدة حتى ينبع منها الماء فيتهلل وجهه لمرآة وتنبسط له اساريره بعد طول كد وعناء . فيقف على تلك البئر يستقي منها ماء عذباً ، يستقي منها ويسقي معه أهله وحيواناته ، ولم تكن لدى ذلك العربي آلات حفر حديثة كما عندنا اليوم ، وما كان اديه ما يستقي به من تلك البئر الا الدلو وبكرته ينزله الى البئر فارغاً ويخرجه بجهد وصعوبة ملآن ، فكان ينشد مع حفره لتلك البئر وينشد عند استقائه منها رجزاً بسيطاً قصيراً يمدح به نفسه واستطاعته على العمل ويمدح به بئره تلك العزيزة وما بذله في حفرها من عناء ومشقة وما فيها من ماء عذب رقراق ، وهو بنشيده هذا يبدد عن نفسه متاعبها وينسيها آلامها ويجدد فيها النشاط والقوة لمتابعة العمل ، وباستطاعتنا أن نقول ان هذه من اقدم الظواهر التي استعمل العربي الشعر فيها حيث (ورد في سيرة القديس نيلوس أن بدو شبه جزيرة سيناء كانوا يغنون في المئة الرابعة المسيحية أغنية وهم يستقون من البئر ، وتشبه هذه الأغنية

نشيد البئر عند الاسرائيليين في الاصحاح ٢١ رقم ١٧ من سفر العدد) (١)
ولدينا أمثلة عديدة لهذا النوع من الشعر كان العرب يستعملونه في اثناء حفرهم للآبار واستقائهم منها . فهذا أحد رجاز الحاج يقول وهو يستقي من بئر (العجول) التي حفرها قصي بن كلاب : — (٢)

نروي على العجول ثم ننطلق قبل صدور الحاج من كل افق
إن قصيا قد وفى وقد صدق بالشبع للناس وري مغتبق (٣)

وهذا راجز يتغنى بمدح نفسه ويشيد بمجده وطلاقة لسانه ، قال وهو يمتح بدلوه : (٤)

علقت ياحارث عند الورد بجابىء لارفل التردى
ولاعيي بابتناء المجد (٥)

وربما جعلوا المتح وسيلة للتعبير عما في نفوسهم ، يروي أن أم أوس أرادت أن تتزوج رجلاً شاعراً يسمى أوساً ، وذلك بعد وفاة زوجها ، فلما رآه بنو ضرار بفناء أمهم للخطبة ، تناول شماخ حبل الدلو ثم متح وهو يقول :

---

١ — تاريخ الأدب العربي — بروكلمان ٤٥/١ تعريب النجار .
٢ — فتوح البلدان — البلاذري ٦٤/١ .
٣ — الغبوق : ما يشرب في العشي ، وهو خلاف الصبوح .
٤ — البيان والتبيين — الجاحظ ٤/١ هارون والحيوان ٤١٩/٣ مع شيء من الاختلاف .
٥ — الجابىء : الذي يطلع فجأة ، والرفل : الذي يجر ذيل ثوبه ، والتردي : لبس الرداء .

أمُّ أويسٍ نكحتْ أُوَيسا

وجاء مزرد فتناول الحبل فقال :

أعجبها حدارةً وكيسا (١)

وجاء جزء فتناول الحبل فقال :

أصدقَ منها لجبةً وتيسا (٢)

فلما سمع أوسٌ رجزَ الصبيان بها هرب وتركها (٣) .

وهكذا عبر الرجز عما كان يجيش في صدورهم ، ثم رأوا أن المتح خير مايلائم الرجز فقرنوا بينهما .

واذ اكتفوا بما نبع من البئر من ماء راحوا يبحثون عن طعام يقتاتون به ، وكانت الحيوانات أهم موارد الطعام في تلك الجزيرة ، فكانوا يلجأون الى التربص لها واصطيادها بما لديهم من آلات صيد : كنصب فخ أو رمي بسهم وقد وفى الرجز بحاجتهم في هذا المجال ، فكان خير ما يعبرون به عن حالاتهم النفسية التي تصاحب عملية الصيد ، وكلنا يعلم ماتوعد به طرفة تلك القبرة التي أحتالت عليه والتقطت الحب بعد أن رفع الفخ فقال (٤) :

---

١ ـــ الحدارة : الامتلاء واجتماع الخلق في سمن .

٢ ـــ يقال : أصدق المرأة جعل لها صداقاً ، واللجبة : الشاة القليلة اللبن .

٣ ـــ البيان والتبيين ـ الجاحظ ٣٤/٤ هارون .

٤ ـــ ديوان طرفة ص٦٣ تحقيق وشرح كرم البستاني ص ١٩٣ تحقيق الدكتور علي الجندي واللسان مادة (قبر) حيث ورد فيه ان ابن بري ينسبها لكليب بن ربيعة التغلبي وليس لطرفه .

يالكِ من قبرةٍ بمعمرِ
خلا لكِ الجوُّ فبيضي وأصفري
ونقّري ماشئتِ ان تنقري
قد رَحلَ الصيادُ عنكِ فابشري
قد رُفعَ الفخُّ فماذا تحذري
لا بُدَّ يوماً ان تُصادي فاصبري

وقد كان الصيادون يختارون الاماكن الملائمة ، كأن يختبأوا قرب موارد المياه ، أو عند ممر القطيع ، كما كانوا يتخيرون الاوقات المناسبة التي يعثرون خلالها على الصيد كوقت الفجر . فهذا صائد حمل قوسه وخرج قبل بزوغ الشمس مترنماً :

قدْ أغتدى قبلَ طلوعِ الشمسِ للصيدِ في يوم قليلِ النحسِ
بأحجنِ الخصمِ كميِّ النفس (١)

هكذا كانوا يترنمدن عند قيامهم بالصيد بما يلائم المشاعر التي تغمرهم حينما يرون السهم قد نفذ في جوف الرمية ، وليس أوفق لتالك الحالة النفسية السريعة من أبيات رجز قليلة يرتجلها الصائد اما مفتخراً بقدرته على الاصطياد واما مادحاً كبر صيده وضخامته .

وقد تطور هذا اللون من الشعر ونما فيما بعد فأصبح باباً كبيراً من ابواب الأدب العربي سمي بـ (الطرديات) .

وحينما يعجز الصيد القليل عن الوفاء بحاجتهم ، أو لم يمكنهم الحيوان من اصطياده ثم لم يجدوا ما يملأون به بطونهم ، دفعهم ذلك الى

١ ـ النوادر ـ الانصاري / ٥١ ، الاحجن : الاعوج ، الخطم ، وتر القوس ، كمي النفس : أي ساترها .

الغزو للحصول على ما يطلبون ، ومن المحتم أن يدافع المهاجمون عن اموالهم فتبدأ المعارك وتلتهب نار الحرب – وقد تكون هناك اسباب أخرى لنشوئها – وليس هناك شيء يثير في النفس شتى الاحاسيس ويبعث فيها مختلف الانفعالات كالحرب ، فكان الفارس منهم يخوض غمارها وهو يشدو برجز يفصح به عما يكنه قلبه ويختلج به صدره ، مادحاً نفسه بالشجاعة والجرأة والاقدام والصبر والثبات تحت وطأة السيوف ولمع الحراب ، مشيداً بمآثره ، معدداً لمواقفه البطولية التي شهدت له بالبسالة والتي وضعته في مصاف الابطال العظام الذين يشار اليهم بالبنان ، فقد نادى قيس بن عاصم عندما حملوا على اعدائهم في يوم الكلاب الثاني (١) : (يالتميم لاتقتلوا الا فارساً ، فأن الرجالة لكم ، ثم جعل يرتجز ويقول :

لما توّلوا عُصباً هو واربا　　　أقسمتُ لا أطعنُ الا راكبا
إني وجدتُ الطعنَ فيهم صائبا)

وقال رجل من بني أسد في يوم شعب جبلة (٢)

زعمتَ أن العيرَ لاتقاتلُ　　　بلى اذا تقعقعَ الرحائلُ
واختلفَ الهنديُّ والذوابلُ　　　وقالتِ الابطالُ من ينازلُ
بلى وفيها حَسبٌ ونائلُ

وكان العربي يبحث عن مواطن الشجاعة فيرتادها ، ليضيف مفخرة الى مفاخرة وليسجل نصراً جديداً في سجل انتصاراته (ولاشك أن الحرب موطن الشجاعة الحقة ، ومحكها الصادق ، فكانت الحرب موطن

١ ــ العقد الفريد ــ ابن عبد ربه ٥/٢٢٧ .
٢ ــ الاغاني ١١/١٤١ وزارة الثقافة .

الشعر لدى العربي ، لايمكن أن تبدو نذر الحرب ، أو أن يشتبك العربي في صراع حقير أو عظيم ويخلص العربي منه دون شعر ، فالتغني بالشعر في الحرب — اذن — يكاد يكون شعيرة من شعائر العربي ، أو هو القربان الذي يقدمه العربي لنيرانها ليفوز بالنصر ، وقد قدم العربي هذا القربان منذ اقدم العصور ، روى المؤرخ (سوزمن) أن العرب عندما انتصروا على الرمان في القرن الرابع الميلادي احتفلوا بهذا الانتصار ، وملأوا به سماء بواديهم شعراً وغناءً (١) .

والذي عرف أول ماعرف أن شعر هذه الحروب كان رجزاً ، لأنه أنسب من غيره لخوض تلك الميادين ، وذلك لسهولة نظمه ومطاوعته للبديهة ثم لأنسجامه مع تلك المواقف التي تتميز بالحركة والاضطراب والجلبة ، حيث أشبهها في سرعة انحداره وجريه على ألسنة منشديه .

ولم يقتصر انشاد الرجز على ساعة الحرب وحدها ، انما يبرز دوره قبل هذه اللحظات في استنفار القبيلة واستدعائها الى القتال ثم تحريض المتقاتلين وبعث النخوة فيهم ، وكانت عادة العرب في الحرب أن يخرج البطل من الصفوف يدعو من يبارزه وهو يرتجز ، فيخرج له الخصم مرتجزاً أيضاً .

فاذا ما وضعت الحرب اوزارها ، وخمدت جذوتها ، ومني قـــوم بالهزيمة في حين كان النصر حليفاً لقوم آخرين ، ظهـر ميدان فسيح لاعتذار المغلوبين وتوعدهم ، ولأعتزاز المنتصرين وافتخارهم ، قال ابو حرب ابن الأعلم مفتخراً :—

نحنُ الذينَ صبحوا الصباحا   يومَ النخيلِ غارةً مِلحاحا

---

١ ـــ الشعر الشعبي العربي — الدكتور حسين نصار ٧٥ سلسلة المكتبة الثقافية .

نحنُ قتلنا الملكَ الجحجاحا ولم نَدعْ لسارحٍ مراحا
الا دياراً أو دماً مُفاحا نحن بنو خويلدٍ صُراحا
لا كذبَ اليومَ ولا مِزاحا (١)

وكل هذا جعل ماوصل الينا من رجز الحرب كثيراً جداً ، أضف الى ذلك أيام العرب المشهورة بكثرتها وضخامة عددها ، وما قيل في تلك الحروب من رجز ، فنحن قلما نجد حرباً أو معركة لم يقل فيها رجز ، لهذا فأن الرجز الذي قيل في تلك الحروب يؤلف مجلداً ضخماً لكثرته وسعته .

وكان العربي يبحث عن موطن الكلأ ومواقع المياه ، ليوفر أسباب الحياة لنفسه ولحيواناته ، ولما كانت جزيرة العرب شحيحة المياه دائمة الجفاف ، قلّ فيها العشب وندر وجوده ، فما كان على العربي الا أن يتنقل بين ارجاء جزيرته باحثاً عما يمده بما يديم له الحياة ، والوسيلة المفيدة التي تساعده على الانتقال في هذه الصحارى المترامية الاطراف هي الجمال التي وهبها الله خفاً عريضاً مكنها من السير فوق الرمال فلا تتأثر بها ، كما أمدها بقدرة عجيبة على تحمل العطش أياماً عديدة ، إذ كانت تخزن المياه في أجوافها وتفيد منه عند الحاجة ، وهكذا تكيف الجمل لهذه الصحراء واصبح فارسها الذي لا يزاحم وهذه نعمة كبرى وهبها الله لقاطني تلك الجزيرة .

---

١ ـــ النوادر في اللغة ـ الانصاري ٤٧ ، وانظر مجموع اشعار العرب ـ الورد / ١٧٢ حيث وردت هذه المقطوعة في الابيات المفردات المنسوبة الى رؤبة .

واذا كانت هذه ميزة الجمل ، فلا عجب اذا أخلص له صاحبه . وأنزله من نفسه منزلة الأهل والولد ، وطلب من الحادي أن يترفق به في السير :

لا تقلواها وأدلواها دلوا ... انّ معَ اليومِ أخاه غدوا (١)

حتى اذا ما سار الليالي الطويلة وأمله وجمله طول السرى انطلقت عقيرته بما يروح عن نفسه وجمله مشاق السفر وينسيهما اتعابهما ويجدد فيهما النشاط لمواصلة السير ومتابعة المشي ، قال بعض الفقعسيين : ـ (٢)

أجرسْ لها يابن أبي كِباش ... فما لهـا الليلةَ من انفاشِ

غير السرى وسائقٍ نجاش ... أسمر مثل الحية الخشاش (٣)

ومن هنا كان الرجز ـ بتوقيعه الذي يشبه مشي الجمال ـ الحداءَ المحبب لدى العربي والقوة السحرية لبعث النشاط في الجمل ، ومن أجل هذا رأى العربي أن يصحب كل قافلة حادياً يحدوها : وهذا ما فعله رسول الله (ص) فقد جعل حادياً للرجال وآخر للنساء ويشير الى هذا قوله (ص) لحاديه (رفقاً بالقوارير) يعني النساء .

هذه أهم الامور البدائية التي لازمت العربي منذ وجوده في جزيرته على ان هناك اموراً بدائية أخرى تناولها الرجز .

---

١ ـ الفاضل ـ المبرد ١٩ ، يقال قلوت الابل اذا سقتها سوقاً شديداً ، ودلوتها اذا هونت عليها السير .

٢ ـ أمالي المرتضى ١/٦٣١ ط ١ .

٣ ـ أجرس لها : أي أحدُ لها لتسمع الحداء ، الانفاش ، رعي الليل ، أراد به انها لا تترك ترعى ليلاً ، والنجاش : هو المستثير لسيرها والمستخرج ما عندها منه ، الخشخاش : الخفيف الحركة ، السريع التقلب .

وفيما سبق حاولت تلمس ما يصاحب تلك الأمور الضرورية من شعر فوجدت أن معظمه – إن لم أقل كله – من الرجز . واذ توصلنا الى هذه النتيجة فلنا أن نقول : أن الرجز أول انواع الشعر نشأة وأسبقها الى الوجود ظهوراً ، كما يمكننا ان نقول : إن الرجز ابسط صورة للشعر من حيث الشكل والمعنى .

فقد سبق بيان تناول الرجز لأغراض بسيطة كالمتح والحداء والحرب ، فهذه المعاني أستعمل فيها شعر بدائي يلائمها هو الرجز ، قال أحد الرجاز يمدح ماء بئره :

ماء شفية كماء المزنِ ولبس ماؤها بطرْقٍ أجْنِ (١)

فهو لم يزد على أن جعل ماء البئر كماء المطر ، وأي روعة في هذا التشبيه ؟ أم أي معنى جديد طرقه ؟ ولكن لا تعجب من هذا ، فأن بدايات الأشياء تكون بهذه الصورة بسيطة ساذجة ثم تتعقد وتنمو وتذهب في الغرابة والابتكار مذاهب شتى .

فالمعاني الجديدة والأغراض العديدة انما نشأت متأخرة ، ذلك لأنها تستغرق وقتاً طويلاً في نشأتها ، فليس بوسع ذلك العربي أن يتناول موضوعاً كالغزل مثلاً وهو يفتقد لقمة العيش ، لأن تناول هذا الموضوع يعد ترفاً ورفاهية اذا قيس بحاجته الى الماء والغذاء فهو لم يشك الصبابة ولم يبكِ الديار ولم يقف بالديار ويخاطب الاطلال الا بعد أن أرتقى في سلم الحياة الاجتماعية والا بعد أن توفرت له ضروريات الحياة والوقت الكافي بحيث يستطيع أن ينصرف الى اللهو والمرح ، ويسعى وراء شهواته وملذاته ، ومن هنا كان الصد والهجران والبعد والارتحال ، فأستحال الم

---

١ – فتوح البلدان – البلاذري ٦٦/١ .

الفراق شعراً رقيقاً عذباً يعبر عن لوعة المحب وشوقه عند فراق أحبته ، وهذا يحتاج الى وقت طويل ، ومن ثم كان نشوء القصيد بطوله وبأسلوبه السهل الجميل .

وأما من حيث الشكل فيتمثل ذلك في قصر أبيات الرجز واحتوائها على شطر واحد ، ثم في قلة عدد تلك الأبيات ، فهي لاتتجاوز عدد أصابع اليد ، وهذا يعود الى المواقف التي يقال فيها الرجز ، فهو في الغالب يقال في حالات البديهة والارتجال كالمواقف الحربية ووقت الصيد وعند المتح ، فلا تحتاج مثل هذه الامور الى اعمال فكرة واجالة نظر أو قل أنها لا تسمح بذلك ولا تعين عليه لأنها قائمة على الحركة الخاطفة والمشاعر المتتابعة السريعة فهذه بنت فند الزماني أرادت أن تحض القوم على القتال في يوم التحالق فلم يسمح لها الوقت لاعداد أبيات كثيرة فأرتجلت من ساعتها رجزاً بسيطاً عبرت به عن مشاعرها في تلك اللحظات الحرجة تمكنت من تشجيع القوم ودفعهم الى سوح القتال ، قالت : ـ(١)

وَغَى وغى وغى وغى ... حَرُّ الحرارُ والنظى
وَمُلئتْ منه الرُّبى ... يا حبذا المحلقون في الضحى

وهذه جارية أقبلت بدلوها الى البئر فقالت :

يا ايها المائحُ (٢) دلوى دونكا ... إني رأيتُ الناسَ يحمدونكما
يثنون خيراً ويمجدونكا

فأجابها : ـ (ناجيةُ) وهو في القليب قائلاً :

---

١ ـ حماسة ابي تمام ـ شرح التبريزي ٢/٣٥ .

٢ ـ المائح: هو الذي ينزل الى قرار البئر اذا قلّ ماؤها فيملأ الدلو بيده .

قدْ علمت جارية يمانيه   اني أنا المائحُ وأسمى ناجيه
وطعنةٍ ذاتِ رشاشٍ واهيه   طعنتها تحتَ صدورِ العاديه (١)

وبظهر ذلك أيضاً في قصر القافية الذي ينتج عن قلة عدد الايات فأن كثرة الأبيات تستلزم وقتاً طويلاً لأعداد كلمات متفقة في حروفها الأخيرة ومتشابهة في رويها . ومثل هذه المواقف لا تسمح باعداد مثل تلك الكلمات الكثيرة التي تكون على هذا الشكل .

ثم أن عدم التقيد بنظام القافية في الرجز يجعلنا نعتقد انه من عمل أناس مبتدئين لم يتمكنوا من صنعهم بعد . فقول الراجز :

ما تبتغي الحربُ العوانُ مني   بازل عامين صغير سـني
لمثل هذا ولدتني امي

فيه خلاف بين النون والميم . وان كان يخضع للتقارب الصوتي .

ومثل هذا قول الآخر :ـ

يا قَبحَ اللهُ بني السعلات   عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا باكفاء ولا اكياتِ (٢)

وهو يريد (الناس واكياس) . فهو بهذه الابيات القليلة لم يستطع الاتيان بثلاث كلمات متساوية يجعلها قافية ، فأضطر الى تغيير هاتين الكلمتين ، وان كان بعضهم يقول انهما من اللغات . وهذه الصورة في

---

١ ــ الامالي ـ القالي ٢/٢٤٤ وتاريخ الامم والملوك ـ الطبري ٢/٢٧٣ .
٢ ــ الحيوان ـ الجاحظ ١/١٨٧ وامالي القالي ٢/٦٨ بيروت مع بعض الاختلاف .

تقفية الرجز تدلنا على انه كان من عمل اناس بدائيين قليلي الخبرة في هذا الميدان ، وتدلنا ايضاً على انه فن شعبي لا بأس باستعمال اللهجات أو أبدال بعض الحروف فيه .

كما تظهر بساطة الرجز من حيث الشكل : في تعابيره والفاظه المستوحاة من حياة العربي البسيطة . ومن مستلزمات تلك الحياة ومتطلباتها ، فهذا راجز يقول مفتخراً :

تبشري بماتحٍ ألوبِ مطرحٍ لدلوهِ غضوبِ (١)

فهذان البيتان – كما ترى – فيها كلمات أملتها ظروف تلك الحياة القاسية ، وذلك الظمأ القاتل ، فلم يجد شيئاً يفتخر به الا أن يكون ماتحاً الوبأ : وهل يوجد من يحيى النفوس الصوادي غير الله والماتح !

وهذا الاسود بن يعفر يخاطب كلبته التي ينعتها بالعقاب قائلاً : – (٢)

قد قلتُ لما بدتِ العقابُ وضمها والبدنَ الحقابُ
جدّى ! لكلِ عاملٍ ثوابُ الرأسُ والأكراعُ والاهابُ

ترى ما هي الألفاظ والتعابير التي استعملها هذا العربي ؟ أليست تلك التي تخص الصيد والتي وعد بها كلبه !

وهذا يقودنا الى الموازنة بين الشعر الجاهلي الناضج وهذا الشعر البدائي البسيط فشعر الرجز هذا لم يعالج فيه من المعاني والافكار الا ما

---

١ – اللسان مادة (ألب) . ورجل ألوب : سريع اخراج الدلو .
٢ – الامالي – القالي ٢/٢٩٥ سمط اللآلي ٢/٩٣٩ .

كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بحياة العربي ومتطلباته كالمتح والحداء ، والصيد وادواته ، والحرب والآتها والجمال ونعوتها والبيداء وقساوتها ، وقل مثل ذلك في الالفاظ والتعابير .

اما الشعر الناضج الكامل أو ما يسمى بـ (القصيدة) فقد جاء بمعان جديدة والفاظ مستحدثة لم يكن لقدماء العرب عهد بها ، كالحب وما فيه من جوى ولوعة ثم التفاخر بلين الحياة ونعومتها وكثرة المال والغنى ونحو ذلك مما حرم منه أوائل العرب .

وكل هذا انما هو نتيجة للتطور الذي اصاب حياة العربي في جميع نواحيها ، فتطور معها الشعر من حيث الوزن والمعنى واللفظ ، فتعددت اوزانه وطالت ابياته وتوسعت اغراضه وابتكرت فنون جديدة للقول واستحدثت اساليب ووسائل للتعبير عن اغراضهم ، وقوي أسلوب الشعر بعد ان كان ضعيفاً وزاد عدد ابياته فنشأت القصائد الطوال التي تجري على روي واحد في كل ابياتها ثم ظهرت القصائد التي كانت على درجة كبيرة من النضج الفني ، واخيراً تعقدت الفاظ الشعر وأصبحت قوية رنانة تحمل بين طياتها دوياً وجرساً مما كان يفتقده الشعر البدائي .

وكل هذه الأمور التي حدثت انما جاءت وفقاً لقانون التطور التدريجي الذي يبدأ بالبسيط وينتهي بالمعقد والذي يبدأ بالناقص وينتهي بالكامل .

ولو أمعنا بالفكر للاحظنا أن مثل هذا التطور يحدث للشاعر الواحد ، فهو حينما يبدأ حياته الشعرية ينظم ابياتاً قليلة ذات أسلوب ركيك مفكك وكلمات ساذجة متداولة فاذا ما تمكن من صنعته وتمرس في فنه جاء بالمدهش الجميل ونظم الرائع الرائق .

وكل غرض من الاغراض الشعرية لابد أن يشمله قانون التطور هذا ، ولنأخذ مثالاً على ذلك فن الهجاء ، فقد كان محصوراً في بيان معايب المهجو ونقائصه بأبيات قليلة ثم تطور هذا الفن ، وكان آخر ماوصل اليه تلك النقائض التي كانت حدثاً فنياً جديداً في الأدب العربي ، فقد أصبح المهجو يرد على قصيدة الهاجي بقصيدة تتفق معها في الوزن والقافية والموضوع ، وهذا نوع من الترف الفني لم يحظ أوائل العرب بنصيب منه .

وقانون التطور هذا ، انما يسري وينطبق على كل الكائنات : الجامدة منها والحية فأن كنا قد رأينا تطوراً معنوياً تمثل في الشعر فلنأخذ مثلاً مادياً ملموساً وليكن وسائط النقل وآلات القتال ، فقد كانت الخيل والجمال أهم وسائط النقل في العصور الغابرة ، اما الآن فقد اخترعت الدراجات والسيارات والقاطرات ثم الطائرات واخيراً الاقمار الصناعية . وكذلك آلات الحرب فأنها لم تكن تتعدى السيف والرمح والدرع والترس ، ثم أصبحت الآن تضم اصنافاً عديدة من وسائل القتال ، كالمدافع والدبابات والقنابل الأوكسيجنية والهيدروجينية .

وعلى هذا الأساس من التطور يمكن أن نفسر مسألة تطور الشعر فنقول أن جميع الكلام كان نثراً اعتيادياً يعبر عن الحياة اليومية ، ثم تطور الى السجع ، والسجع فيه نغمة موسيقية تظهر في تساوي بعض اوزان المقاطع واتفاق بعض الجمل في حرفها الاخير ، وقد استعمل في الطقوس الدينية والأمور التي تثير الرغبة والرهبة في نفوس الناس ، ومن هنا وجده الكهان خير أداة لتحقيق مايبتغون ، فأنشاوا سجعاً سمي سجع

الكهان اتخذوه وسيلة لمناجاة الآلهة وتقييداً للحكمة وفتنة السامع [1] .

واذا سايرنا منطق التطور فأن من الطبيعي ان ينتقل السجع الى الرجز وهو شعر بسيط انتظمه الوزن في جميع ابياته وضمت اواخر جمله قافية واحدة . وبهذه الصورة بدأ الوليد الشعري يرى نور الحياة . وهذا يفسر ماذهب اليه الرواة من (أن الشعر كله انما كان رجزاً وقطعاً) [2] .

وقد نشأ الرجز وهو يتألف من شطر واحد وقد سمي فيما بعد بـ (المشطور) . والتفعيلة الخاصة بالرجز — كما عرفت فيما بعد — هي (مستفعلن) تكرر في البيت الواحد أكثر من مرة . وهذا التكرار يؤيد الادعاء بأن الرجز كان أول الشعر نشأة . ذلك لأن الأمم البدائية كالاطفال تحب التكرار في كل نواحي النشاط العضلي . فالملاحظ أن الطفل يحرك يده أو رجله بحركة واحدة رتيبة مكررة ، وكذلك عندما يحاول أن يتكلم فأنه يردد اصواتاً متشابهة ، ويستمر في ترديدها حتى يتمكن من النطق . وهكذا فأنه يحب الكلام المنتظم المكون من تكرار مقاطع معينة ، وكان العرب البدائيون كهؤلاء الاطفال ، بدأوا شعرهم بترديد (مستفعلن) مرات عديدة في المقطع واستمروا في تكرار وزن هذا المقطع حتى تمكنوا من فنهم واخذوا ينوعون الاوزان ويطيلون القوافي .

ولرب قائل يقول : — لماذا اهتدى العرب الى (مستفعلن) قبل

---

١ — تاريخ الأدب العربي — الزيات ص ٢٨ .

٢ — العمدة ١٨٩/١ .

غيرها من التفاعيل فأجيب بأن مستفعلن هذه المبتدئة بحركة وسكون ثم حركة وسكون تشبه حركات الاعمال اليدوية كالمتح والحفر ، كما تشبه حركات الأبل في سيرها على بساط الصحراء الواسعة (وما الرجز الا قياس رسمه في مخيلة العرب سير الأبل في الصحراء ففاض الشعر على السنتهم أول ما فاض بالفاظ وهي وتفاعيل الرجز في الواقع سواء) [١] .

ولربما يكون الرجز أكثر شبهاً بحركة الناقة الرجزاء التي جعلها الداء ترتعش وتؤدي حركات تتخللها راحة وسكون ، ولهذا فأنه يرجح أن يكون بحر الرجز مأخوذاً من حركات هذه الناقة الرجزاء ، كما أن هناك صلة بين الحداء والغناء والرجز ، فاذا قيل حدا يعني غنى بالرجز .

ولما كان شعر الحداء رجزاً فأن هذا يدعونا الى القول بأن الرجز كان الوزن الشعبي المحبب لدى العرب ، عبروا به عن اعمالهم الجماعية والفردية ثم تولدت بالتدريج اوزان الشعر عند العرب عن وزن الرجز ، ونشأت دوائر العروض منبثقة من دوائر الرجز ، وقد ذهب الى هذا كثير من المستشرقين ، فقد ذهب كارل بروكمان الى انه (من الرجز نشأ بناء أبحر العروض على مصراعين وقافية في الثاني) [٢] كما ذهب الى أن نشوء الشعر كان عن طريق الرجز الذي تطور عن السجع . وهذا ما اقره (كولد تسيهر) بقوله : — (أن الرجز نشأ عن السجع بعد اخضاعه للميزان العروضي) [٣] .

---

١ — تاريخ الادب العربي — السباعي بيومي ١٠٤/١ ط ٢ .
٢ — تاريخ الادب العربي — بروكلمان ٥١/١ تعريب النجار .
٣ — دائرة المعارف الاسلامية مادة (رجز) .

وقد أورد (نلينو) ما كان يعتقده العلماء في قدم الرجز قائلاً : (فليس من الممكن أن رجلاً عالماً بتاريخ الشعر ودقائقه مثل الجمحي جهل ما هو متداول عند كل العلماء أن الرجز من اقدم فنون الشعر عند عرب الجاهلية) [1] .

والمظنون ان طريقة انتقال الشعر من السجع الى الرجز هي أن (متغنياً بسجع وقع له سجعتان متوازنتان وزناً سهلاً « هو الرجز » فأعجبه ذلك ومضى فيه وتمت له قطعة راقت من سمعها وحاكوه فيها وتغنوا بها فكان من ذلك المقطعات والاراجيز الصغيرة [2] ،

كما أن الذي ساعد على ظهور الوزن ونشوء الشعر (ارتقاء ذوق الغناء عند العرب وانتقال الشعر من المعابد الى الصحراء ومن الدعاء الى الحداء وبهذه الصورة اجتمع الوزن والقافية فكان الرجز) [3] .

وكثيراً من الذين تطرقوا الى الكتابة عن الرجز ذهبوا الى أنه أول وزن تولد عن السجع وانه كان بداية نشوء الشعر وظهوره في الوجود ، وقد انفق على ذلك قدماء ومحدثون ، واذكر من هؤلاء المحدثين المرحوم الرافعي [4] والمرحوم الشاعر معروف الرصافي [5] . والدكتور سيد

---

١ ــ تاريخ الآداب العربية نلينو ١٦٦ .

٢ ــ الوسيط في الادب العربي ــ الاسكندري وعناني ٤٤ ط ٢ .

٣ ــ تاريخ الادب العربي ــ الزيات ٢٨ .

٤ ــ تاريخ آداب العرب ــ الرافعي ٣٢٤/٢ وانظر هامشها أيضاً .

٥ ــ سحر الشعر ــ رفائيل بطي ٨٨/١ فيه مقالة للرصافي عن مبدأ الشعر ونشأته .

نوفل (١) ومحمد بهجة الأثري (٢) ومحمد عبد المنعم خفاجي (٣) .

ولكن فريقاً من الذين تناولوا الرجز بالبحث نفوا كون الرجز أول وزن ظهر ، كالدكتور عبد الله الطيب المجذوب (٤) وصلاح عبد الصبور (٥) .

والاخير انما نفى أن يكون الرجز أول وزن ظهر لأنه يرى أن اصل الشعر العربي في لغة غير لغة العرب .

والحقيقة ان كلامهم لا يمكن أن يتخذ مرجعاً أو رأياً لا يقبل الشك ، لأنه تعوزه الأدلة وينقصه الاثبات .

بعد هذا العرض الشامل لأغراض العرب البدائية التي اصطنع لها الرجز ، استطيع أن أزعم ان الرجز هو الأب الأكبر للشعر العربي والذي انجب فيما بعد فنوناً جديدة واوزاناً عديدة جعلت هذا الشعر ميداناً فسيحاً ضم أعظم شعر وجداني عرفه عالم الشعر .

وعلى هذا يكون شعر العرب قد مر بمراحل عديدة من التطور

---

١ ــ شعر الطبيعة في الادب العربي ــ الدكتور سيد نوفل ص ٢٤ و ٢٦ .

٢ ــ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق جزء ٧ مجلد ٨ ص ٣٨٥ تموز ١٩٢٨ م .

٣ ــ الحياة الادبية في العصر الجاهلي خفاجي ص ٢١١ ط ٢ .

٤ ــ المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها ــ المجذوب ١/١٤٦ ط ١ .

٥ ــ مجلة (الشعر) المصرية ٨٥/١٦ السنة الثانية ، مقال (رأي في بدايات الشعر العربي) .

استطاع بعد اجتيازها أن يقف على اقدام راسخة ويضاهي شعر الأمم الأخرى قوة وروعة وجمالاً . وهو بهذه المراحل التي مر بها انما سار وفق النظام الطبيعي للتطور ، والذي يبدأ من نقطة صغيرة بسيطة حتى ينتهي الى بناء متكامل قوى متين .

فالشعر بدأ باتفاق جملتين في وزنهما وقافيتهما ، فكان لهذا الاتفاق وقع جميل ورنين عذب في نفس السامع والقائل ، ولهذا حاول الناس أن يسيروا على هذا النهج ويؤلفوا كلاماً متفق الوزن والقافية ، فنشأت بذلك المقطعات الرجزية القصيرة التي تناسب جهل ذلك العربي بهذا الفن من القول .

وانما نظمت تلك المقطعات بالرجز لأنه أسهل البحور من حيث القافية والوزن ، أما من حيث القافية فهي لا تحتاج إلا الى كلمات قليلة متشابهة توضع في نهاية الشطر ، وأما الوزن فيتألف من تكرار مقطع معين ، وهذا المقطع يتألف من حروف تشبه في حركتها وسكونها اكثر الوان النشاط في حياة العرب اليومية وتشبه أيضاً الناقة الرجزاء في حالة نهوضها محاولة القيام فلا تتمكن من ذلك فتعود الى حالتها من الهدوء والسكون ، وهكذا تبقى بين حركة وسكون . كما تشبه عملية المتح التي تتمثل في حركة يعقبها سكون . ومثل هذا اكثر اعمالهم ، أضف الى هذه الأمور قلة أبيات الرجز والتي سميت لهذا السبب بـ (المقطعات) وهي تناسب الحالات التي قال فيها العرب الأولون شعرهم ، والتي تعتمد على البديهة والارتجال ، فمواقف الحروب وغيرها لا تسمح بنظم أبيات كثيرة ثم تنقيحها ، واختيار الكلمات الملائمة والالفاظ الجميلة . انما تستدعي مثل تلك المواقف سرعة البديهة والقدرة على الارتجال ، فلهذا وجدنا

تلك القصائد – وهي في الحقيقة مقطعات كما سموها – قصيرة قليلة الأبيات ، كما ان اسلوبها ضعيف ، والفاظها مستمدة من تلك المواقف ومتفقة معها فالمحارب يذكر السيف والرمح والشجاعة والصبر والجلد ، والصائد يذكر الفخ والقوس والسهم والحيوان ، والماتح تدور الفاظه حول البئر ومائها والدلو وحبله وبكرته . وهذه نتيجة حتمية يفرضها تأثير البيئة في الناس .

وبسبب السرعة التي تقتضيها تلك المواقف فاننا لا نتوقع من هؤلاء العرب ان يزوّقوا الفاظهم ويتفننوا في اساليبهم ويبدعوا في تشبيهاتهم ، لان مثل تلك الامور تستدعي وقتاً طويلاً وفكراً هادئاً ، وأنى للعربي القديم بهذا وهو يحترق بنار الحرب والنقع قد سد عليه المنافذ والسبل !

وعلى هذا يكون الفرق واضحاً بين هذه المقطعات الرجزية أو الشعر البدائي وبين ذلك الشعر الناضج ، وهو فرق يظهر في الاسلوب والألفاظ والأفكار والأوزان ، لكن هذا لا يحط من قيمة الرجز ، لانه شعر لم تعمل فيه يد الاصلاح والتنقيح ، في حين كان الشعر الناضج يستغرق وقتاً طويلاً لصوغه وسبكه ، والكل يعلم ان قصائد زهير بن ابي سُلمى كانت تستغرق حولاً كاملاً لاعدادها وتهذيبها ، حتى سميت بـ (الحوليات) وشتان بين المنقح وغير المنقح ، وشتان بين الحوليات والآنيات أو بنات الساعة !

الفصل الخامس

تطور الرجز

أصبح من الواضح بعد الذي رأينا أن يكون الرجز هو الحجر الأساسي والقاعدة المتينة التي بني عليها الشعر ، حتى اصبح بناؤه شامخاً .

وأهم ما يلفت النظر في هذا البناء الشعري هو التطور المستمر الذي حصل له على مر الأيام وتعاقب السنين .

ولما كان الرجز اللبنة الأولى في هذا البناء أصبح من الواجب أن أبحث عن هذا التطور الكبير وهذه النقلة الواسعة التي خطت بالرجز خطوات طويلة جعلته قوى الاساس ثابت الاركان مما حدا ببعض الشعراء الى ان يقفوا جهودهم وطاقاتهم كافة عليه حتى تخصصوا به .

وأول أمر يجب الخوض فيه هو تحديد الوقت الذي نشأ فيه الرجز

هذا ولما كانت صلتنا بذلك الزمن مقطوعة ، ومعلوماتنا عن تلك الفترة مشوشة مضطربة ، أدى ذلك الى ضياع النصوص الأولى التي تعيننا على معرفة بداية الرجز والزمن الذي ظهر فيه ، وأرى ان تلك الروايات التي تجعل مضرا اول من رجز لا تستند الى ما يؤيدها ويقويها ، ولهذا لا يمكن الاعتماد عليها اعتماداً كلياً واتخاذها دليلا قاطعاً على بداية الرجز لأنها مجرد اخبار حملها الرواة دون النظر فيها نظرة فاحصة ، ولكن مهما يكن نوع تلك الاخبار من حيث الصحة أو عدمها ، فانها توحي لنا بما كان يدور في افكار النـــاس في ذلك الوقت حول نشأة الرجز وكيفية تلك النشأة فان ما رواه ابو زيد القرشي باسناد له عن ابي اسحاق من ان قيس بن عاصم التميمي قدم على النبي (ص) فقال يوماً وهو عنده : أتدري يارسول الله من أول من رجز ؟ قال : لا ! قال : أبوك مضر ، كان يسوق بأهله ليلة فضرب يد عبد له فصاح : وايداه ! فاستوثقت الابل ونزلت ، فرجز على ذلك . [1] مـا يشير الى كيفية نشأة الرجز واعتماد تلك النشأة على الحداء .

ومن هذا فان باستطاعة الباحث ان يقول في هذا الصدد ان بدايات الرجز ظهرت حينما تقاربت اللهجات فتغلبت لهجة قريش ، فجاء كل شعر العرب بهذه اللهجة ، فلهذا يمكن ان يعد الرجز القديم الذي قيل بعد تغلب تلك اللهجة مباشرة هو بداية شعر العرب ، وان لم يصلنا الا القليل منه ، والذي كان عبارة عن مقطعـــات قصيرة وابيات يسير تناولت حاجات العرب البدائية التي سبق بيانها ، وبقي على هذه الصورة يقال في اغراض محدودة وفي مواقف معينة ، يقوله عامة الناس ، لم يتخصص فيه

١ ــ جمهرة اشعار العرب ــ القرشي / ٣٤ .

شاعر ولم يكثر منه أحد ، انما هو نتف بسيطة يطلقها الرجل لمناسبة ما ، تظهر عليه البساطة وعدم التكلف وتوحي به فكرة ساذجة ، ولكنه مع هذا استطاع أن يفي بمطالبهم في ميادين حياتهم ، ولم يضق ذرعاً بها . وأستمر مدة من الزمن ملبياً لهذه لمطالب ، حتى اذا ما استقر العربي واخذت حياته تتقدم وتتطور وأصبح بامكانه أن ينصرف الى اللهو بعد أن توفرت له اسباب عيشه ، ضاق الرجز بايفاء كل ما استجد في حياته من امور . لهذا احتاج العربي الى اوزان جديدة لكي تفي بحاجاته في تلك الميادين ، وقديماً قالوا : الحاجة أم الاختراع . فقد دفعته حاجاته هذه الى اختراع اوزان جديدة انشأها مستهدياً بالرجز ، أطلق عليها فيما بعد اسم « القصيد » وقد استطاعت هذه الاوزان التي كانت وليدة التطور في المجتمع ان تتناول اغراضاً مختلفة .

اما ما يتعلق بأول من اطال الشعر وقصد القصيد فقد زعم الرواة أن الأفوه الأودي كان السابق في هذا العمل (١) في حين زعم آخرون أنه قصد على عهد هاشم بن عبد مناف وكان أول من قصده مهلهل وامرىء القيس (٢) .

ولكني لا أثق بهذا ولا ذاك ، فأنه وان كان شعرهم أقدم قصيد وصل الينا ، لكن هذا لايعني أن الشعر قصد وطول على ايديهم ، فربما يكون هناك شعراء سبقوهم نحوا بالشعر منحى التقصيد والتطويل ووقفوا بالديار ووصفوا الاطلال ، ولكن شيئاً من شعرهم لم تحفظه الكتب ولم يتناقله الرواة .

---

١ ـــ المزهر ـ السيوطي ٤٧٧/٢ .

٢ ـــ العمدة ـ ابن رشيق ١٨٩/١ .

ومن الطبيعي أننا لانستطيع أن نعد هؤلاء هم الدين نقلوا الشعر من القطع الى القصائد بحجة أن شعرهم أقدم شعر وصل الينا . ذلك لأن هذه الطفرة الواسعة من القطع الرجزية القصيرة الى قصائد طويلة ومتعددة وكثيرة أيضاً ، محال أن تحدث على هـذا النحو ، فكل من يؤمن بحقيقة التطور لا يعقل ذلك ، لأن طبيعة الأشياء تقتضي أن يكون التطور تدريجياً ، شأنها في ذلك شأن الانسان الذي لايستطيع أن يطفر السلم طفرة واحدة ، انما يرتقيه درجة فدرجة . وهكذا يكون تطور كل الاشياء وصعودها مدارج الرقي والتقدم .

ولهذا السبب نؤمن بوجود شعراء سبقوهم كان لهم فضل اطالة الشعر . اذ لو تصفحنا مفضليات الضبي لوجـــدنا بعض القصائد تنسب الى المرقش الأكبر ، وهو عم المرقش الاصغر الذي هو عم طرفـــة ابن العبد .

وهذا يعني انه كان قبل أمرىء القيس ، وقد بلغت احدى قصائده خمسة وثلاثين بيتاً ، وقد خضعت لنفس التقليد الذي خضعت له القصيدة الجاهلية من وقفة بالأطلال وبكاء على ساكنيها ، حتى اذا استوفى من ذلك غرضه انتقل الى مقصد آخر هو رثاء ابن عمه ثعلبة بن عوف بن مالك ابن ضبيعة . فاذا قدرنا بعد الصلة بين النسيب والرثاء ، ادركنا أن افتتاح القصيدة بالنسيب وذكر الاطلال كان قد أصبح في ذلك العهـــد المتقدم تقليداً ثابتاً بحيث صار مألوفاً أن ينتقل الشاعر من ذكر المحبوبة الى ذكر الموت .

وفي هذا دحض لقول القائلين أن أمرىء القيس هو أول من وقف

على الاطلال ، وفيه أيضاً دليل على أن القصيدة العربية الجاهلية كانت قد استوفت بناءها الشكلي قبل أمرىء القيس (١) ثم أن أمرىء القيس نفسه يخبرنا عن شاعر سبقه بكى الديار ووقف على الاطلال كما أراد أن يقف هو ويبكي أيضاً . أن هذا الشاعر هو « ابن حذام » (٢) الذي أشار اليه بقوله :ـ

عوجا على الطللِ المحيلِ لعلنا نبكي الديارَ كما بكى ابنُ حذام

وقال ابن خالويه في كتاب « ليس » أول من قال الشعر ابن حذام (٣) . ولكن من هو ابن حذام هذا ؟ وابن شعره ؟ وأية ديار بكى ؟

اننا نجهل ذلك جهلاً تاماً ، ولم نستطع أن نتلمس له أثراً أو خبراً ، فلعل هذا الشاعر هو الذي قصد القصيد ، وربما يكون غيره من معاصريه أو سابقيه ولكنه لم يذكر في شعر لأمرىء القيس أو غيره من الشعراء ، وربما لايكون هذا العمل فردياً ، انما تضافرت عليه جهود جماعة من الشعراء ، كل منهم ادى دوراً بسيطاً في هذا المجال ، حتى تحول الشعر الى هذه الصورة من الطول . وهذا هو المرجح ، لأنه لايعقل أن تكون هذه النقلة الكبيرة من عمل شاعر واحد ، فالخطوة الأولى مثلاً أن يكون الشعر قطعاً صغيرة لم يشتهر به شاعر ولم يتخصص به أحد ، كتلك المقطعات الرجزية التي عبرت عن متطلبات العربي البدائية .

---

١ ـ مجلة ـ الشعر ـ المصرية ١٦/٧٧ السنة الثانية .

٢ ـ وقيل : ابن خذام أو حزام .

٣ ـ المزهر ـ السيوطي ٤٧٧/٢ .

فتقدمه وتطوره يكونان يجعله قطعاً أطول ، كالتي رواها الضبي في مفضلياته والتي تناثرت في ديوان الحماسة ، اذ هي قطع تتراوح بين ثلاثة الى سبعة أبيات والخطوة الاخرى التي يمكن أن تتلو الخطوة الاولى هي أن يكون الشعر قصائد متوسطة الطول ، مثل تلك التي جاءت في المفضليات وغيرها ، والتي هي بين ثمانية الى ثمانية عشر بيتاً أو ما يقارب ذلك ، ثم تأتي بعد هذا القصائد الطويلة التي من بينها ما رواه القرشي من المعلقات والمذهبات وغيرها ، وتكون بعد ذلك عدة قصائد للشخص الواحد ، ومن هنا نشأ التخصص ، فيسمى المكثر من الشعر والقادر عليه شاعراً . واذا صح هذا فصحيح أيضاً أن نقول أن الشعر انتقل من المقطعات الى القصائد في تلك الحقبة التي سبقت نضج الشعر ، وقد أخذ ينمو ويتطور حتى بلغ أوج رقيه ونموه ونضجه في تلك الفترة ، وحتى ارتقى الى المحل الاسنى والمكان الأرفع من حيث جودة السبك وقوة المعنى ، فأقيمت له الأسواق وضربت القباب فيها ، واجتمع الناس من كل حدب وصوب ينشدونه ويفخرون به ، فكان للقصيد — إذ ذاك — سوق رائجة ومكانه بين الناس مرموقة ، ونبغ فيه فحول خالد شعرهم مع تعاقب الأيام .

وبقي هذا الازدهار للقصيد حتى بعد مجيء الاسلام ، فأنه وان كان القرآن الكريم قد بهرهم بفصاحة وبلاغته وتحداهم بأعجازه وبيانه ، فأن ذلك لم يصرفهم عن قول الشعر وروايته ، كما ان القرآن الكريم نفسه لم يحرم نظمه ، واقصى ما وصف به الشعراء ، انهم يقولون ما لا يفعلون وأنهم في كل واد يهيمون . وانما كان هذا الوصف لشعراء المشركين والكافرين ، لأنه استثنى من هذا الوصف الذين آمنوا ، فكأنما

كان هذا الاستثناء إباحة للمؤمنين أن يقولوا الشعر أو يرووه . ولاعجب بعد ذلك اذا قال الرسول العظيم «ص» : (لا تدع العرب الشعر حتى تدع الأبل الحنين) (١) ولا غرابة اذا بنى لحسان بن ثابت في المسجد منبراً ينشد عليه الشعر (٢) .

وما هذه الظاهرة الا دليل على مدى اهتمام شديد بالشعر على جميع المستويات والطبقات ، والدافع الى ذلك ايمانهم بأن الشعر كمال للأدب وعنوان لمجد العرب .

كانت هذه حال القصيد ، أما الرجز فقد بقي طوال تلك الحقبة يتخبط في ذلك الطريق الضيق وبين تلك المقطعات القصيرة ، فلم يصبه تيار ذلك التطور ولم يحظ منه بشيء واستمر يحوم حول دائرته الاولية في القصر ولم تدب فيه روح التطور ولم تظهر عليه بوادر الانتعاش إلا على يد الأغلب العجلي الذي ولد في الجاهلية وأدرك الاسلام فاسلم ، وقتل بوقعة نهاوند سنة ٢١ هـ وكان آخر من عمر في الجاهلية عمراً طويلاً (٣) .

استطاع الأغلب هذا أن يخطو بالرجز خطوة قصيرة ويطيل فيه بعض الاطالة ، قال العجاج مشيراً الى ذلك .

وإنْ يكنْ أمسى شبابي قد حَسرْ وفترتْ مني البواني وَفترْ
إنّي أنا الأغلبُ أضحى قد نُشرْ

١ ـ العمدة ـ ابن رشيق ١/٣٠ ط٣ السعادة .
٢ ـ العمدة ١/٢٧ .
٣ ـ تاريخ الادب العربي ـ بروكلمن ١/٢٢٥ تعريب النجار .

أي انه سار بالرجز سيرة الأغلب في الاطالة والتوسع .

والذي يبدو أن الاغلب فتح الباب ومهد السبيل لمن جاء من بعده ليغذوا السير في سبيل اللحاق بركب القصيد ، وقد تمخضت هذه المحاولات عن نتائج طيبة حصلت للرجز على يد من جاء بعد الأغلب كالعجاج وأبي النجم ورؤبة وأبي نخيلة .

وقد رأى بعضهم أن الأغلب هو الذي نقل الرجز من القطع الى القصائد وسار به نحو التطويل ، قال ابن قتيبة :ــ (هو أول من شبه الرجز بالقصيد واطاله) (١) وزعم الجمحي وغيره (انه أول من رَجّزَ) (٢)

وهم يقصدون بذلك استعمال بحر الرجز في نظم الشعر مثل القصائد ، أي انه اول من رجز الأراجيز الطوال . وقال ابن حبيب :ــ (فكان الأغلب أول من قصد الرجز ثم سلك الناس بعده طريقته) (٣) .

وقد شايع هؤلاء في رأيهم كل من صاحب دائرة المعارف الاسلامية (٤) والمستشرق نلينو (٥) وبروكلمن (٦) وجرجي زيدان (٧)

---

١ ـــ الشعر والشعراء ٥١١/٢ .

٢ ـــ العمدة ــ ابن رشيق ٩٠/١ .

٣ ـــ تاريخ الآداب العربية ــ نلينو ص ١٦٧ .

٤ ـــ مادة (رجز) ٥٧/١٠ .

٥ ـــ تاريخ الآداب العربية ــ نلينو ص ١٦٧ .

٦ ـــ تاريخ الأدب العربي ــ بروكلمان ٢٢٥/١ تعريب النجار .

٧ ـــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ زيدان ١٤٣/١ .

والدكتور شوقي ضيف (١) .

والحق ان ما عمله الأغلب كان تمهيداً لأنتقال الرجز من المقطعات الى القصائد حيث ان هذا الانتقال الكبير لم يتم على يديه وحده ، فالدور الذي قام به هو زرع بذرات التطويل في الرجز ، فلما جاء العجاج رعى هذه البذرات بالسقاية والعناية حتى اثمرت على يديه وآتت أكلها ناضجة ، وهو يعد بحق أول من فسح طاقة الرجز وجعله يخوض في كل ماتخوض فيـــه القصيدة العربية الطويلة ، وهو أول من دفعه بقوة من الميادين الشعبية الى ميادين الغرابة اللفظية ، ولم يكتف بذلك فقد أخذ يبدع الفاظاً جديدة في اللغة قياسا على ما هو موجود ، ويتصرف حسب ذوقه وارادته الفنية ، ولم يقف في ذلك عند الفاظ اللغة العربية وحدها اذ كان يعمد الى بعض الالفاظ الفارسية فيعربها وقد يصرف منها افعالاً على نحو ما صنع في ارجوزته الجيمية ، اذ يلقانا فيها هذا الشطر « كما رأيت في الملاء البردجا » يريد الرقيق ، وقال : « كالحبشي التف أو تسبجا » يريد لبس قميصاً ، وهو بالفارسية شبي فعربه بسبيجة ثم صرف منه فعلاً في بعض ابياته (٢) ولهذا زعم يونس انه (أشعر أهل الرجز والقصيد) (٣) وهذا ما حدا ببعض الرواة الى القول بأن العجاج أول من اطال الرجز وقصده مهملين في بذلك الأغلب العجلي ، أو قل انهم تناسوه . قال ابو عبيدة :—

١ ـــ تاريخ الأدب العربي – العصر الاسلامي – ضيف ٢/٣٩٥ .

٢ ـــ تاريخ الأدب العربي – شوقي ضيف ٢/٤٠٠ .

٣ ـــ المزهر – السيوطي ٢/٤٨٤ .

(حتى كان العجاج أول من أطاله وقصده . . . .) (١)

ومسألة التغاضي عن الدور الذي لعبه الأغلب في تطويل الرجز وتطويره أمر غير ممكن اطلاقاً ، لأنه لا يمكن أن ينكر ما كان للأغلب من فضل السبق في هذا الميدان ، كما أنه كان شاعراً مقتدراً ، يقول الرجز والقصيد معاً ، وربما كان رجزه اكثر من قصيده ، يروي أن عمر ابن الخطاب (رض) كتب الى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة أن استنشد من قبلك من شعراء قومك ما قالوا في الأسلام ، فارسل الى الأغلب العجلي فأستنشده ، فقال :—

أرجزاً تريد أم قصيدا لقد سألت هيناً موجوداً (٢)

فالأغلب هو أول من بدأ بتطويل الرجز وجعله كالقصيد شيئاً يسيراً ثم أتى العجاج بعد فأفتن فيه (٣) وقصر حياته على تجويده وتحبيره .

بدأ الرجز يسير رويداً رويداً في مضمار التقدم منذ أن نبغ الأغلب . وما أن جاء العصر الأموي ، حتى لقي الرجز عناية خاصة عند كثير من الشعراء فأخذوا يذهبون به مذهب القصائد ، وعمدوا الى تخفيف ما تتركه بساطة العروض وسذاجته في النفس من ملل ، بحلية فنية من الألفاظ الغريبة والعبارات البعيدة المأخذ . (٤)

---

١ ـــ العمدة ١/٩٠ والمزهر ٢/٤٨٤ .

٢ ـــ الاغاني ١٨/١٦٤ ساسي . وطبقات ابن سلام ص ٥٧٢ .

٣ ـــ العمدة ١/١٨٩ .

٤ ـــ تاريخ الأدب العربي – بروكلمن ١/٢٢٥ تعريب النجار .

وفي هذا العصر كان كل الرجاز ينحون بالرجز منحى العجاج ويسلكون مسلكه في الاطالة . وأشهرهم ابو النجم العجلي الذي كان يجيد نظم القصيد أيضاً . ثم جاء رؤبة بن العجاج وعلى يديه بلغ الرجز غاية ما كان يرتجى له .

وعاصر العجاج وابنه رؤبة الشاعر ذو الرمة ، فقد بـدأ حياته الشعرية بالرجز ، ولكنه عدل بعد ذلك عنه الى القصيد ، وسئل عن ذلك فقال : (رأيتني لا أقع من هذين الرجلين على شيء) [1] يعني العجاج وابنه رؤبة ولا مطعن عليه في ذلك ، فانهما لم يتركا زيادة لمستزيد ولا موضع اجادة لمجيد . فقد كانا يقولان الرجز وكأنهما يغرفان من بحر ، قال العجاج : — (قلت ارجوزتي التي أولها : — (بكيت والمحتزن البكي) وأنا بالرمل في ليلة واحدة فانثالت علي قوافيها أثيالاً) [2] .

أما رؤبة فقد كان مدرسة لغوية أمدت العربية بفيض هائل من الغريب وفاضت عليها بشيء من المبتكر ، وقد ذكر فخر الدين الرازي في كتابه « المحصول » ان الرجاز كانوا يخترعون الفاظاً جديدة كما نقله السيوطي في المزهر [3] .

وكان الناس يتعقبون رؤبة وأباه ليسجلوا عنهما ما يبتكران من صيغ وليتسقطوا عثراتهما وزلاتهما ، قال الاصمعي : قال لي الخليل :

---

١ — العمدة — ابن رشيق ١/١٨٥ .

٢ — شرح شواهد المغني — السيوطي ص ١٨ .

٣ — تاريخ الأدب العربي — بروكلمن ١/٢٢٥ تعريب النجار .

أنشدنا رجل :

ترافع العز بنا فأرفنععا

فقلت له : لا يكون ذلك ، فقال : كيف جاز للعجاج أن يقول :

تقاعس العز بنا فاقعنسسا (١)

وهذا يدل على ان الناس كانوا يتلقفون كل ما يصدر عن الرجاز ليقيسوا عليه . وكان الناس يقولون عن العجاج ورؤبة انهما (تهضما اللغة وولداها وتصرفا فيها غير تصرف الافحاح فيها ، وذلك لايغالهما في الرجز ، وهو مما يضطر الى كثير من التفريبح والتوليد ، لقصره ومسابقة قوافيه) (٢) .

وقد اشتهر رؤبة بالفصاحة وبحفاظه على اللهجة العربية السليمة حتى عد مثالاً يحتذى به قال ابن قتيبة : (كان الحسن البصري يشبه برؤبة في فصاحة لهجته وعربيته) (٣) .

وهكذا كان ظهور هؤلاء الرجاز سبباً في اتساع طاقة هذا الوزن ، حيث حاولوا أن يمدوا أطناب طاقته مدأ واسعاً ، فاذا هم يؤلفون أراجيز طويلة طولاً مسرفا . (٤) ولم يقتصر تطور الرجز في هذه الفترة على طوله وكثرة ابياته ، انما تعدى ذلك الى الأغراض التي كان يتناولها حيث انه استخدم في كل ما استخدمت فيه القصيدة العربية من مديح

---

١ ـ الخصائص ـ ابن جني ١ / ٣٦٠ و ٢٩٧/٣ والشعر والشعراء ٢٢/١ .

٢ ـ الخصائص ٢٩٧/٣ .

٣ ـ المعارف ـ ابن قتيبة ص ٤١١ .

٤ ـ التطور والتجديد في الشعر الأموي ـ الدكتور شوقي ضيف ص ٣٤٣ .

وهجاء وفخر ورثاء . . . . الخ .

(واذا لاحظ الناظر في القصيدة الأموية التئاماً واتساقاً مع الرقي العقلي عند العرب والتئاماً واتساقاً مع حالتهم النفسية الجديدة في ظل الاسلام ، والتئاماً واتساقاً مع الظروف السياسية المعاصرة فان الارجوزة قد شاركت في هذا كله) (١) .

وقد ظهرت في الارجوزة خصائص لم تظهر في القصيد من قبل ، ذلك انهم افتتحوها بالحمد والثناء ، وهذا أسلوب جديد لم يألفه الشعراء من قبل .

ومن تلك الخصائص ايضاً تصريع جميع أبيات الارجوزة ، في حين كان التصريع لا يتعدى البيت الأول في القصيدة التي هي من غير الرجز غالباً .

والذي يلفت النظر في الأراجيز احتواؤها على كثير من الكلمات التي يصعب علينا – بل وحتى على أولئك الذين عاصروا الرجاز – ادراك معناها دون الرجوع الى المعاجم والقواميس .

والظاهر أن الرجاز كان لهم ولع شديد بهذا الغريب ، فكانت الارجوزة – في نظرهم – لا تستحق أن تنشر بين الناس ما لم ترصع بحوشي الكلام وغريبه ، حتى أن العجاج وابنه رؤبة راحا يبالغان في ذلك فعمدا الى كلمات فارسية فعرباها ، وجاءا بصيغ لم تكن مستعملة أو هي غير قياسية كما مر معنا في قول العجاج (فأقعنسسا) (٢) .

١ – التطور والتجديد في الشعر الأموي – الدكتور شوقي ضيف ص ٣٤٣ .
٢ – انظر كتاب الخصائص – لابن جني ٣٦٠/١ والشعر والشعراء ٢٢/١ .

وسوف أذكر خصائص الرجز كلها بصورة مفصلة في فصل قادم ان شاء الله .

وغرابة الفاظ الاراجيز هذه ربما يكون لها سببان ، الأول هو أن هذه الاراجيز كان منشؤها البادية ، حتى ان مواضيعها كانت تدور على وصف الصحراء وحيواناتها وما يلاقيه العربي فيها من مشقة وجهـــد ، فجاءت الالفاظ تابعة للمعاني .

والسبب الآخر حب الناس للغريب وتعلقهم به ولا سيما اللغويون والنحويون كي يستشهدوا به على اللغات أو يتخذوه اساساً لبناء قاعدة من قواعد النحو .

هذا الى ان الرجاز كانت لهم مدرسة لغوية كبيرة أمدت يونس وأبا عمرو بن العلاء بما يحتاجون اليه من غريب . ويخيل لي أنهم كانوا يطعمون ، أو بالأحرى يحشون ، رجزهم بهذا الغريب استجابة لرغبة النحويين واللغويين بالذات ، فاننا نراهم قد شحنوا أراجيزهم بكل شاردة من الالفاظ ، وراحوا يصرفون من الصيغ ما شاءوا ، أو ينقلون الفاظاً أعجمية الى العربية ويشتقون منها ويصرفون فيها .

ولهذا لا نبالغ اذا قلنا ان ما قدمه رؤبة واصحابه من الرجاز للغة العربية من الغريب والمبتكر ليعد بحق ثروة لغوية كبيرة استطاعت ان تفتح للناس مجال الخلق والابتكار في اللغة .

وقد كان رؤبة في هذا قديراً متمكناً معتمداً على سليقته اللغوية التي مرنها في هذا المجال تمريناً جيداً ، ومن هنـــا تكونت مدرستهم التي

انشأها العجاج وأدارها رؤبة وابو النجم واضرابهما ، أما تلامذتهـــا فأشهرهم يونس وأبو عمرو بن العلاء .

والضرورة التي استدعت نشوء هـــذه المدرسة هي ولوع الناس بالغريب من الألفاظ والشاذ من الاستعمال ، وهذا الولوع ظهر نتيجة لانتشار اللحن بين العرب ، حتى ان الخلفاء اضطروا الى تعلم قواعد اللغة وتصريفها واشتقاقها وسعوا الى التقرب من اصحاب اللغة واجتذابهم الى مجالسهم وهذا يعني — عندهم — ان الخليفة من اهل العلم وحملته وأحد اعلامه فيزيد ذلك من هيبته في نفوسهم وتقديرهم له واجلالهم اياه .

وقد اصبحت هذه العادة سنة متبعة عند اكـــثر الخلفاء ، حيث اهتموا بالعلم وشجعوا الناس على تعلمه ، وانفقوا المال الكثير لنشره ، وأعطوا الهبات وأجزلوا المطايا للعلماء والمتأدبين .

وهذا يدعو من يريد التقرب الى الخليفة من العلماء ان يلم بكل آبدة ويطلع على كل شاردة ، لكي يكون أثيراً لدى الخليفة ، ويحظى باهتمامه وتقديره وينال منه الجوائز والهدايا .

ومن هنا راح الناس يأخذون اللغة من أفواه الاعراب ، ويقومون برحلات الى الجزيرة ليجمعوا مفردات اللغة ويأخذوا عن اهلهـــا الشعر واللغة .

اذن فلا عجب اذا أنبرى الرجاز يبتكرون الالفاظ ويأتون بالشاذ منها ، ويستعملون ما كان من اللهجات الغريبة ، وهذا ما يفسر لنا ما قاله لنا أبو زيد الانصاري في كتابه النوادر من ان ما كان فيه من ابواب اللغة والرجز فهو سماعي عن الاعراب (1) وانما قال هذا ليدل

١ — النوادر في اللغة — ابو زيد ص ٣ .

على مكانة كتابه وعلى صحة ما يروي .

اصبح الرجز على هذه الصورة وبهذه المكانة يقف مع القصيد جنباً الى جنب في جميع الميادين . وأخذ الناس يهتمون بالرجز اهتمامهم بالقصيد ، فهذا ابو مسلم الخراساني يبعث في طلب رؤبة بن العجاج لينشده ارجوزته التي يقول فيها :

برمي الجلاميدَ بجلمودٍ مدق (١)

وغدت القصيدة من الرجز تسمى بالارجوزة (وهي من حيث الشكل انما تمتاز عن القصائد الاخرى بوزنها وبالاكثار من مهجور اللفظ وبتقفية جميع المصاريع) (٢) حتى أصبح الشطر هو الوحدة الاساسية في الارجوزة ، على حين كان البيت بشطريه هو الوحدة الاساسية في القصيدة من غير الرجز .

وهذا التصريع يدل على قوة الطبع وكثرة المادة ، قال ابو تمام مدلاً بمكانة التصريع

وتقفو الى الجدوى بجدوى وانما   يروقك بيت الشعر حين يصرع (٣)

وهو يحتاج الى جهد مضاعف لعمل الارجوزة ، لأنه يلزم فيها بدل القافية الواحدة قافيتان فيحتاج الشاعر الى كلمات كثيرة تكون متفقة في مخارجها ليجعلها قافية ، ولهذا عجز بعض الشعراء عن نظم الأراجيز

---

١ ــ الأغاني ١٨/١٢٢ و ٢١/٥٨ ساسي .
٢ ــ دائرة المعارف الاسلامية مادة (رجز) ١٠/٥٧ .
٣ ــ ديوان ابي تمام ص ١٤٢ لجنة التأليف والترجمة .

لانها أصعب انواع الشعر ، وقد أشار الجاحظ الى ذلك (١) .

وربما يكون تصريع الرجز هذا هو الذي ألهم الاندلسيين صنع الموشح الذي يعتمد على الشطر أيضاً ، فهم حينما يخترعون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان ويخالفون بين القوافي يعتمدون في هذا الصنيع على نظام الارجوزة في التصريع فيجعلون الشطر وحدة في الموشحة على نحو ما صنع رؤبة ورجاز هذا العصر في اراجيزهم (٢) ولعل مخالفتهم بين القوافي قد اعتمدت على المخالفة التي توجـــد في المزدوجات والتي تختلف قافية كل بيتين منها .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن وجود الالفاظ الغريبة والكلمات الشاذة في الاراجيز كان لغرض تعليمي ، ولخدمة اللغة والناشئين في تعلمها وقد دفعهم هذا الى الاعتقاد بأن هذا الغرض التعليمي كان حافزاً لظهور المقامات في الأدب العربي ، وذهبوا الى أن الغاية التعليمية هي التي تجمع بينهما ، والتي تتمثل في الشعر بالرجز ، أما في النثر فقد تمثلت بهذه المقامات .

وهذه نظرة بعيدة ، لأن حصر غرض الأراجيز والمقامات بالتعليم فيه غمط لحق كل منهما ، وانكار لما فيهما من فن وتجديد . فكل نوع له مكانته ومنزلته وأسلوبه في الأدب العربي ودواعي نشوئه ، اما ما ورد فيهما من غريب الالفاظ وشاذ الكلمات فتلك كانت سمة العصر وطابعه .

ظهرت الأرجوزة بهذا الشكل وعلى هذه الصورة ، فكان أهم حدث

---

١ ـــ البيان والتبيين ـ الجاحظ ٢١٥/١ السندوبي .

٢ ـــ تاريخ الادب العربي ـ الدكتور ضيف ٤٠٤/٢ .

فيها انها كانت مصرعة الشطور ، ولكن هذا لم يمنع أن تصاغ قصائد على بحر الرجز ولكنها غير مصرعة الشطور .

على أن وجود هذه الأبيات ذات المصراع الواحد والأبيات ذات التفاعيل الست جنباً الى جنب لا يعني بحال ان الكلام في تطور شكل الرجز قد فرغ منه ، ففي أوائل الدولة العباسية اشتهر ضربان جديدان بفعل ما ساور الناس من ملل لكثرة ترديد أبيات رجزية ذات مصراع واحد أو بفعل مؤثرات خارجية الأول منهما كان بتقفية المصراعين على قافية واحدة ، ومنه مزدوجة ابي العتاهية الموسومة بـ (ذات الأمثال) والتي يقال أن له فيها أربعة آلاف مثل [1] ، ومنها قوله :

يا للشبابِ المرحِ التصابي   روائحُ الجنةِ في الشبابِ
حسبكُ مما تبتغيهِ القوتُ   ما أكثرَ القوتَ لمن يموتُ
الفقرُ فيما جاوزَ الكفافا   من أتقى اللهَ رَجا وخافا
لكلِ ما يؤذي ـ وان قلَّ ـ ألم   ما أطولَ الليلَ على من لم ينمْ

والثاني ــ وهو أندر ــ كان بجعل كل خمسة مصاريع في المقطوعة على قافية واحدة ، ومثاله قول الشاعر :

ظلمتني ظلمتني يا دهرُ   ماذا تشا هل لك عندي ثأر ؟
كأنَّ دمعي فوقَ خدّي نثرُ   كأن صدري من سقامي شعرُ
وكل ضلع من ضلوعي شطرُ
قد صرتُ من حزنيَ وأمتعاضي   كالهيكل الهاوي الى الأرباض

---

١ ــ الاغاني ٤/٣٦ وزارة الثقافة والارشاد .

ان أذكر العهد اللذيذ الماضي   بخلط الســواد بالبياض
وتمطر العين على الانقاض

وبهذا وجدت المقطوعات ذات البيتين والخمسة وأطلق على الأولى المزدوجة وأطلق على الثانية المخمسة [1] .

أما مسألة أول من ابتكر الشعر المزدوج فقد دار حولها خلاف وتناقضت فيها النصوص . فهذه رواية تعترض المطالع لكتاب الأغاني :— يروي أن ابا نواس قال : (كنت اتوهم أن حماد عجرد يرمى بالزندقة لمجونه في شعره حتى حبست في حبس الزنادقة فاذا حماد عجرد إمام من أئمتهم واذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأون به في صلاتهم) [2]

وهذا يعني ان الشعر المزدوج ـ أو كما سماه أبو نواس المزدوج ـ ظهر في تلك الفترة على يد حماد عجرد [3] واصحابه . ويعني أيضاً أن هـذا النوع من الشعر كان غريباً على ابي نواس وعلى أولئك الذين عاصروه .

واستناداً الى هذه الرواية ذهب صاحب دائرة المعارف الاسلامية الى أن هذه الأبيات المزدوجة أول ما قيل من هذا النوع .

ولكن أين هذه الأبيات ؟

---

١ ــ دائرة المعارف الاسلامية مادة (رجز) ١٠/٥٥ .

٢ ــ الأغاني ١٤/٣٢٤ وزارة الثقافة والارشاد .

٣ ــ وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية . ولكنه اشتهر في العصر العباسي .

يقول صاحب دائرة المعارف الأسلامية انها ضاعت (١) ويذهب الى أن اقدم ما وصل الينا من شواهد المزدوجات مانظمه منهـــا ابو العتاهية وابو نواس (٢) .

بينما يرى ابن رشيق (٣) أن أول مزدوجة ظهرت هي مزدوجة بشر بن المعتمر (٤) والتي أشار اليها الجاحظ (٥) (وهي ارجوزة طويلة ذكر فيها الملل والنحل وضرب الأمثال وأخذ في قواعـــد مذهبة) (٦) الأعتزالي .

وجميع هؤلاء الذين نسبت اليهم أولية الشعر المزدوج قد عاشوا في عصر واحد وفي فترات متقاربة متصلة ، وهذا العصر هو النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث وهو العصـــر العباسي الأول .

وقد رأى بعضهم أن بشر بن المعتمر يعد بحق أول من تمكن في هذا الباب حيث كانت مزدوجته من صميم هذا النوع من الشعر .

أما ما جاء في دائرة المعارف من أن اقدم ما وصل الينا من

---

١ ــ مادة (رجز) ١٠/٥٥ .

٢ ــ توفى ابو العتاهية في حوالي سنة ٢٢٠ هـ . وتوفى ابو نواس سنة ١٩٩ هـ .

٣ ــ العمدة ١/١٨٢ .

٤ ــ توفى بشر سنة ٢١٠ هـ .

٥ ــ الحيوان ــ الجاحظ ٤/٢٣٩ هارون طبطمة الحلبي .

٦ ــ تاريخ آدب االعرب ــ الرافعي ٣/١٥٦ .

المزدوجات كان لأبي نواس وابي العتاهية فأمر لايمكن الاعتماد عليه ، ذلك لأن الكاتب يقول انه وجد في النسخة المطبوعة من ديوان ابي العتاهية مزدوجة من مصراعين موقوفين على ثلاث تفعيلات ، كما وجد في القسم الأخير من نسخة حمزة من ديوان ابي نواس التي لم تطبع بعد مزدوجتين من مصراعين مقفيين (١) .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو ان كيف عرف ان هذه المقطعات من المزدوج وهي لاتعدو المصراعين ؟ الا يحتمل انها من ضمن الرجز المصرع المشطور ، بل هي فعلاً كذلك لأن المعروف ان المزدوجة تعني القصيدة التي يكون فيها كل مصراعين على قافية واحدة وعلى هذا فهي لا تسمى مزدوجة الا ان تكون اكثر من مصراعين ، وذلك لمعرفة الخلاف الذي يحدث بين قافية كل شطرين ، أما صاحب دائرة المعارف فلم يجد قصيدة لمن ذكرهم ، وانما وجد مصراعين فقط .

على اني لا أطمئن الى كل هذه الآراء ولا استطيع تصديق واحد منها ، ذلك لأني وجدت في كتاب الاغاني خبراً طريفاً عن الخليفة الأموي الوليد بن يزيد ، وفيه نسبت مزدوجة الى هذا الخليفة الشاعر ولم يتعرض لذكر هذه المزدوجة أحد من الذين بحثوا في المزدوج كما رأينا .

فهذا الخبر – اذن – وهذة المزدوجة يدحضان كل الأقوال السابقة والآراء المتقدمة التي تنسب أولية المزدوج الى بشر بن المعتمر أو الى غيره من الذين عاصروه . ويكون الوليد بن يزيد أول شاعر نظم في

---

١ ــ دائرة المعارف الاسلامية – مادة (رجز) .

هذا النوع من الشعر ، ويكون المزدوج قد عرف منذ العهد الأموي .

وهذه المزدوجة قالها الوليد حينما كان مع ندمائه على شراب لهم. روى صاحب الأغاني قال : (١) « أخبرني محمد بن خلف وكيع قال : وجدت في كتاب عن عبيد الله بن سعيد الزهري عن عمر عن ابيه قال : خرج الوليد بن يزيد وكان مع اصحابه على شراب ، فقيل له : ان اليوم الجمعة ، ، فقال : والله لاخطبنهم اليوم بشعر ، فصعد المنبر فخطب فقال :—

الحمدُ لله وليّ الحمدِ ... أحمدُه في يسرِنا والجهدِ
وهو الذي في الكربِ استعينُ ... وهو الذي ليس له قرينُ
أشهدُ في الدنيا وما سواها ... أن لا الهَ غيره إلهـا
ما انْ له في خلقه شريكُ ... قد خضعتْ لملكِه الملوك
أشهدُ ان الدّينَ دينُ احمدِ ... فليس من خالفه بمهتدي
وأنه رسولُ ربِّ العرشِ ... القادرِ الفردِ الشديدِ البطشِ
أرسله في خلقهِ نذيرا ... وبالكتابِ واعظاً بشيرا
ليظهرَ اللهُ بذاك الدينا ... وقد جعلنا قبل مشركينا
مَن يُطع اللهَ فقد اصابا ... أو يَعصهِ أو الرسولَ خابا
ثم القرانُ والهدى السبيلُ ... قد بقيا لما مضى الرسولُ
كأنهُ لما بقى لديكمْ ... حيٌّ صحيحٌ لا يزال فيكمْ
انكمُ من بعدُ إنْ تزلّوا ... عن قصدهِ أو نهجه تضلوا
لا تتركنْ نصحي فاني ناصحُ ... إن الطريقَ فأعلمن واضحُ

١ — الأغاني ٥٧/٧ وزارة الثقافة .

من يَتقِ اللهَ يجدِ غِبَّ التقى	يوم الحساب صائراً الى الهدى
ان التقي أفضلُ شيءٍ في العملْ	أرى جِماعَ البرِّ فيه قد دخلْ
خلوا الجحيمَ اخوتي لعلكمْ	يومَ اللقاءِ تعرفوا ما سرَّكمْ
قد قيلَ في الأمثالِ لو علمتمْ	فأنتفعوا بذاك ان عَقلتمْ
ما يزرع الزارعُ يوماً يحصدُهْ	وما يقدّم من صلاحٍ يَحمدَهْ
فأستغفروا ربكمُ وتوبــوا	فالموتُ منكم فأعلموا قريبُ

ثم نزل » .

فهذه المزدوجة التي رواها الأصبهاني يمكن أن تعد أقدم مزدوجة ظهرت في عالم الشعر العربي ، أو قل انها ان لم تكن أقدم مزدوجة ظهرت فهي أقدم مزدوجة وصلت الينا لأنها نظمت في عهد مبكر ، فالوليد كان قبل ابي العتاهية وأبي نواس وبشر بن المعتمر ، ثم ان هـذه المزدوجة ليست كتلك المقطعات التي تكلم عنها صاحب دائرة المعارف ، فمزدوجة الوليد من صميم هذا النوع . في حين راح صاحب الدائرة يتكلم عن شطرين او ماقارب ذلك وعدهما من المزدوج ، وهذا بعيد عن الصواب .

ولو تخطينا فترة نشوء الشعر المزدوج بقليل لوجدناه يستأثر بجانب كبير من اهتمام الناس على قصر تلك الفترة التي ظهر فيها . وماذلك الا لسهولة قافيته واختلافها بين كل شطرين ، لهذا فقد وجدوه مركباً ذلولاً نظموا فيه ما صعب من علومهم وما عسر فهمه وحفظه كما وجدوا في وفرة موسيقاه ما يتلافون به أنعدام العاطفة في تلك العـــلوم التي نظموا فيها فراحوا يصوغون الأخبار والقصص ويدونون قواعد العلوم الفنون بهذا النوع من الشعر حتى وجدت منه كميات كـبيرة ربما لم يتيسر لباب من ابواب الأدب أن يبلغ من الكثرة مابلغه هـذا الباب ، كما ان قصائده طالت

حتى بلغت اياتها الألف أو تزيد ، ولعل الذي ساعدهم على ذلك بساطة هذا الشعر من حيث عذوبة وزنه وعدم الزّامه قافية واحدة في كل اباتــــه .

والحقيقة ان هذا اللون ليس فيه من مقومات الشعر سوى الوزن والقافية أما باقي اركان الشعر من خيال وعاطفة وقصد الى اثارة المشاعر فهو يفتقدها افتقاداً كلياً ، وانه انما سمي شعراً من ناحية الشكل لاغير .

وربما يكون الدكتور صفاء خلوصي قد وهم حين ظن ان تقفية المزدوج كانت الخطوة الأولى في ما يعرف بـ « المشطر » الذي يعد الشطر الواحد فيه بيتاً مستقلا أو بمثابة البيت المستقل (١) ذلك لأننا نجد ان المشطر قد استعمل منذ القديم وقبل ظهور المزدوج فحينما نراجع الرجز الجاهلي نجد أن اكثره يتكون من ثلاثة أشطر أو خمسة أو ما أشبه ذلك كما في قول معقل بن عامر في يوم شعب جبلة : ـــ (٢)

نحن حُماة الشعبِ يومَ جَبلهْ بكلِ عضبٍ صارمٍ ومعبلــــهْ (٣)
وهيكلٍ نهدٍ معاً وهيكلهْ (٤)

فلو لم يكن الشطر بيتاً ، فماذا تسمى تلك المقطعات ، وكم بيتاً

---

١ ـــ انظر كتاب فن التقطيع الشعري والقافية ـــ الدكتور خلوصي ٢/٧٠ مطبعة المعارف بغداد .

٢ ـــ الأغاني ١١/١٤٢ وزارة الثقافة الأرشاد القومي .

٣ ـــ المعبلة : السهم اذا كان نصله عريضاً فهو معبلة .

٤ ـــ هيكل : ضخم ، والنهد من الخيل : كثير اللحم حسن الجسم مع ارتفاع .

تحوى ؟ أيصح أن نقول أنها تحتوي على بيت ونصف أو بيتين ونصف ؟ كلا ، لايصح ذلك اذن وجب ان يكون الشطر بيتاً مستقلاً أو بمثابة البيت المستقل منذ ذلك العصر ، وهذا يدعونا الى القول بأن البيت ذا الشطر الواحد نشأ وظهر قبل البيت ذى الشطرين ، ذلك لأن البيت القصير اكثر ملائمة لطبيعة بداية الشعر ، فمن المحتمل أن يكون البيت الشعري قد نشأ بهذه الصورة من القصر محتوياً على شطر واحد ، ثم بعد لما تمكن الناس من نظم الشعر وأخذوا في تطويره كان تطويل البيت وجعله ذا شطرين أحد سمات ذلك التطور والى هذا ذهب صاحب دائرة المعارف الاسلامية بقوله :— (يستطيع المرء ان يزعم ان الابيات ذات المصراعين والتفاعيل الست قد نشأت عن الأبيات القصار : أي ذات المصرع الواحد ، وليس الأمر بالعكس) (١) .

ومن هنا يظهر لنا أن الصواب لم يكن حليف الدكتور صفاء فيما ذهب اليه من أن قافية المزدوج كانت حافزاً لظهور المشطر من الشعر .

أما المخمسات — وهي أن يؤتي بخمسة أقسمة على قافية ثم بخمسة آخر في وزنها على قافية غيرها ، وهكذا الى ان يفرغ من القصيدة — فلم يستعمل فيها الا بحر الرجز خاصة لأنه سهل المراجعة (٢) .

والظاهر أن بشار بن برد هو أول من استعمل التخميس وفقاً لما ذكره فريتاج (*Freytage*) . ولكن صاحب دائرة المعارف يقول :

---

١ — دائرة المعارف الاسلامية — مادة (رجز) ٥٤/١٠ .

٢ — العمدة ١٨٠/١ ط ٣ .

(ان مختارات شعره التي جمعها الخالديان لم يرد فيها ولا في كتاب الأغاني شيء من ذلك .

ومع هذا فعندنا في نسخة حمزة من ديوان ابي نواس – التي لم تطبع بعد – قصيدة تنسب له ، وربما كان الشاعر قد صنعها حقاً ، وهي مخمسة طويلة كل مقطع فيها من خمسة مصاريع من الرجز ثلاثي التفعيلات) (١) .

وابن رشيق يشير الى ان بشاراً كان ينظم المخمسات اذ يقول : (وبشار بن برد قد كان يصنع المخمسات والمزدوجات . . .) (٢)

ولكنني بحثت في الجزئين المطبوعين من ديوان بشار الذين حققهما ابن عاشور فلم أجد فيهما شيئاً من المخمسات وكما ذكر صاحب دائرة المعارف سابقاً من ان مختارات شعره التي جمعها الخالديان لم يرد فيها ولا في كتاب الأغاني شيء من المخمس فأين ذهبت – إذن – تلك المخمسات ان كان ما قاله ابن رشيق حقاً ؟ لابد انها ضاعت .

والواقع ان المخمسات لم تشتهر كثيراً ، فقد كانت نادرة ، بخلاف المزدوجات التي كانت وسيلة مسلية يروح بها أهل العلوم الجافة عن أنفسهم جفاف علومهم وصعوبتها .

أخذ الرجز في ذلك العصر – أي العصر العباسي الأول – يرتاد ميادين الحياة كافة ، فلم يترك ناحية من نواحيها الا عالجها ، حتى فاق

---

١ – دائرة المعارف الاسلامية مادة (رجز) .

٢ – العمدة ١/١٨٢ ط ٣ .

القصيد في باب الصيد بالجوارح إذ تجد غير شاعر ينظم في هذا الباب أراجيز كثيرة مثل الشمردل بن شريك التميمي وأبي نخيلة الراجز وابن المعتز .

فانظر الى ابن المعتز حيث يقول (١) :

لا صيدَ الا بوتر — أصفر مجدولٍ ممر (٢)
إن مسهُ الرامي نخر — ذي مقلةٍ تبكي مدر (٣)
صنعة بارٍ مقتدر — دامَ عليها فمهر
فجئن أمثال الأُكر — لم يختلفن في الصور (٤)

وله خمس وعشرون مقطوعة رجزية في الصيد وآلاته (انظر الديوان من صفحة ٢٨٧ الى صفحة ٣٠٠ طبعة دمشق) .

وقد برز ابو نواس في هذا الغرض فأنشأ طردياته الجميلة ، حتى اصبح لكلب الصيد عنده مكانة الفرس عند امرىء القيس ، لهذا فانه راح يستعير صفات الفرس لكلبه ، ويصفه بما وصف به امرؤ القيس فرسه من انه يخرج من الاهاب ويأسر الأوابد وما اشبه ذلك ، ويظهر لنا مدى اعتزازه بكلبه وحبه اياه في قوله : — (٥)

---

١ — ديوان ابن المعتز ٢٩٥ ط ١ دمشق .

٢ — ممر : مفتول فتلاً شديداً .

٣ — المدر : الطين اليابس

٤ — اكر : جمع اكره ، وهي لغة في الكرة .

٥ — ديوان ابي نواس — الغزالي ص ٦٢٤ دار الكتاب العربي — بيروت .

أنعتُ كلباً أهله في كــدهِ   قد سعدتْ جدودُهم بجدهِ (١)
وكل خيرٍ عندهم من عندهِ   يظل مولاهُ له كعبــدهِ
يبيتُ أدنى صاحبٍ من مهدهِ   وإن عَــرى جللهُ بــبردهِ
ذاغرةٍ محجــلاً بزنــدهِ   تلذ منه العين حسنَ قدهِ (٢)
تأخير شدقيهِ وطول خده

وقد نظم ابو نواس في الطرد تسعاً وعشرين ارجوزة (٣) .

كما التقى الرجز بالطبيعة ففاض على لسان ابي تمام في مطردياته البديعة انظره يقول واصفاً البرق والغيث : ـ (٤)

يا سهمُ للبرقِ الذي استطارا   باتَ على رغم الدجى نهارا
حتى اذا ما انجدَ الأبصارا   وبلاً جهاراً أو ندىً سرارا
آض لنا ماءً وكان ناراً   أرضى الثرى واسخط الغبارا

الى غير ذلك من الأغراض والفنون التي كان للرجز فضل الاجادة فيها ، حيث انه لم يقتصر على الاغراض التي استعمل فيها عند نشأته ، انما تناول كل تناوله القصيد من اغراض اضافة الى هذه الطرديات التي سبق فيها

---

١ ـ أهله في كده : اي يعيش اصحابة من كـده وتعبه ، الجـدود : الحظوظ . الجد : الاجتهاد .

٢ ـ الغرة : بياض الجبهة ، الزند : موصل الذراع بالكف .

٣ ـ راجع ديوان ابي نواس (تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي) القــاهرة ١٩٥٣ باب الطرد ص ٦٢٣ ـ ٦٧١ .

٤ ـ ديوان ابي تمام ـ عبد الحميد يونس ص ٣٥٧ القاهرة .

الرجز القصيد ، كما سبقه في الحداء والحرب والصيد والمتح .

وسأتناول هذه الأغراض بالبحث الشافي والتفصيل الوافي ضمن اغراض الرجز .

ثم راحوا يولدون من الرجز انواعاً جديدة من فنون الشعر – كالتي مر ذكرها – من مزدوج ومخمس ، فهذا ابن المعتز يقول مزدوجته التي بلغت (٤١٩) بيتاً وهي في الخليفة المعتضد حيث مدحه فيها وسجل احداث عصره وقد ابتدأها بهذه الأبيات :

باسم الالهِ الملكِ الرحمنِ ذي العزِ والقدرةِ والسلطانِ
الحمدُ للهِ على آلائـــهِ أحمدهُ والحمدُ من نعمائهِ
وجعلَ الخاتمَ للنبـــوهْ أحمدَ ذا الشفاعةِ المرجوهْ
الصادقَ المهذبَ المطهـــرا صلى عليهِ ربنا فأكـــثرا
مضى وأبقى لبني العبـــاسِ ميراثَ ملكٍ ثابت الأساسِ (١)

وهي طويلة جداً استغرقت اثنتي عشرة صفحة من ديوانه اكتفيت منها بهذه الأبيات .

اما ابن عبد ربه فقد نظم مزدوجة تبلغ (٤٤٦) بيتا سرد فيها تاريخ الأندلس وأشاد بغزوات عبد الرحمن الناصر ، وهي مزدوجـــة طويلة احتلت سبعاً وعشرين صفحة من كتابه العقد الفريد ، وقد تسلسل في ذكر الوقائع حسب السنين ، فبدأها بسنة ثلاث مائة للهجرة وانهاها

---

١ ــــ ديوان ابن المعتز ص ١٥٢ ط ١ دمشق .

بسنة اثنتين وعشرين وثلاث مائة للهجرة ، وفيها يقول : ــ (١)

سبحانَ منْ لمْ تحوهِ أقطار ولم تكنْ تدركهُ الأبصار
ومنْ عنتْ لوجههِ الوجوه فمـا لهُ نـــدٌ ولا شبيه
سبحانه من خالقٍ قديـــر وعالمٍ بخلقـــهِ بصـــير

. . . .

. . . .

وبعدَ حمدِ اللهِ والتمجيد وبعدَ شكرِ المبديءِ المعيد
أقولُ في ايامِ خيرِ النـاس ومن تحلى بالندى والبـــاس

. . . .

. . . .

هو الذي جمعَ شمل الأمه وجابَ عنها داجياتَ الظلمة
وجمع العدةَ والعديـــدا وكثف الأجنـــادَ والحشودا

وهذا أبان بن عبد الحميد اللاحقي يحول بالرجز المزدوج كتاب كليلة ودمنة من منثور الى منظوم ، وهي ارجوزة طويلة قال في مطلعها :

هذا كتابُ أدبٍ وفطنه وهو الذي يدعى كليلة ودمنه
فيه احتيـالات وفيه رشد وهو كتاب وضعتهُ الهنـــد

ولكن مع هذه الابتكارات الجديدة أخذ أمر الرجز يسوء شيئاً فشيئاً ومنزلته تقل يوما بعد يوم وشعبيته تتقاص بين آونة واخرى . وقد ازداد الأمر سوءً عندما تشبث المعلمون بالرجز مساعدة الطالبين على)

١ ــ العقد الفريد ٤٣٠/٥ القاهرة .

حفظ شتى الموضوعات) (١) حتى عاد أشبه بوزن خاص للاستعمال في الأغراض التعليمية التي تعد اغراضاً جافة لا تستسيغها النفس ولا يتقبلها الشعور فلجأوا الى الرجز مستغلين فيه خفة وقعه وسهولة حفظه وسلاسته وعذوبته .

كما انهم أرادوا أن يعوضوا عن فقدان المشاعر والعواطف في تلك المنظومات التعليمية بهذه الموسيقية الرجزية العذبة .

وقد ادى الرجز ما عهد اليه وطلب منه ، وأرضى حاجتهم في هذا الميدان الصعب وكان خير عون لهم للحصول على ما ينشدون ، ولكن هذه الخدمة التي قدمها لهم لم تكن لتحفظ له مكانته ، ولكنها كانت تضحية أفقدته رشاقته وشعبيته ، حتى تحامى بعض الشعراء نظم الاراجيز مع استطاعتهم الاجادة فيها ، فهذا المتنبي اجاد في ارجوزته : —

ما أجدرَ الأيامَ والليالي بأنْ تقولَ مالها ومالي

ولكنه مع هذه الاجادة لم يكن يرغب في نظم الاراجيز لما اشتهر بين الناس من ان بحر الرجز بحر خاص بالمنظومات التعليمية ثم هذا المعري على مقدرته في الصناعة لم يلم به الا يسيراً ، فالتقصير — اذن — لم يكن من بحر الرجز وانما جاء من الاغراض التي كثر استعماله فيها ، والتي لم تكن أهلاً لأثارة العواطف .

وأستطيع أن اقول : أن الرجز التعليمي قد جنى جناية عظمى على بحر الرجز فصار الشعراء يبتعدون عنه وقل منهم من يستريح اليه ، وكأنما

---

١ — دائرة المعارف الاسلامية مادة (رجز) .

رضوا بأن يتركوا هذا البحر الرشيق الجميل لنظام الالفيات وما بمجراها يعبثون به ما شاءوا ، وفات الشعراء أن هؤلاء المعلمين ما اتخذوا الرجز مركباً الا لسهولته وحلاوة نغمه وخفته في الانشاد (١) .

على ان ثمة سؤالاً لا بد من الاجابة عنه ، وهو كيف ان الرجز الذي استهدف اثارة العواطف – كما يستدل من استعماله في الأصل – قد انتهى الى وزن خاص بالقصص والوصف والتعليم ؟ بل انه غدا نظماً ركيكاً يستخدمه المعلمون في حشو اذهان الطلاب .

وعلة ذلك أن الرجز بفضل ما فيه من سعة عروضية كان ايسر منالاً من البحور الأخرى ، ولكننا نجد انهم استعملوا في هذه الاغراض بعض البحور الاخرى كالسريع والبسيط والمنسرح ، ثم ان الشعراء والعلماء الذين استعملوا الرجز في اغراض تعليمية لم يكونوا هواة غير مجيدين ، بل كانوا اقوماً يستطيعون أن يجيدوا تناول أوزان اخرى اكثر منه صعوبة . اذن علينا أن نتلمس سبب تفضيلهم الرجز في ناحية اخرى . ولكن اين ؟ جاء في دائرة المعارف الاسلامية اننا :– (نستطيع في هذا المقام ان نفترض انهم فضلوا هذا الوزن الذي يثير الانفعالات لأنه يشيع الحياة في موضوعات لا تستهوي الناس أو قل انها ميتة) (٢) .

كما يجب أن لا ننسى أنهم استعملوا في هذه اكثر ما استعملوا المزدوج وهو – زيادة على وفرة موسيقاه واثارته للانفعالات – أسهل قافية من باقي أنواع الشعر الاخرى وهذا ما ساعد الشعراء على نظم المزدوجات

---

١ – المرشد الى فهم اشعار العرب – المجذوب ٢٥٩/١ .

٢ – دائرة المعارف الاسلامية (رجز) ٥٧/١٠ .

الطويلة دون أن تضيق القافية بذلك ذرعاً حتى وجدت هذه المزدوجات التعليمية بكثرة مفرطة . وانك لواجد نماذج هذه المنظومات في اكثر علوم العرب . ففي النحو تعثر على الفية ابن مالك ، وفي التجويد تجد مقدمة الجزري وفي فقه المالكية هناك تحفة الحكم .

كما تجد مزدوجات في الكلام والتصوف والفقه والتوريث وتعيين القبلة وتقويم البلدان وتستطيع ان تلم باسماء منظومات اكثر في شتى العلوم في كتاب بروكلمان ٢/٩٦ (١) .

وفي تلك الاثناء اخذت الاراجيز الحقيقية طريقها الى الفناء والزوال ، واخذ الناس ينظمون اراجيزهم على طريقة الشعر المزدوج ، حتى ان اراجيز عقبة بن رؤبة – الذي شهد نهاية عصر الأراجيز – لم تصلنا ، ولعل استثقال الناس لتلك الاراجيز كان سبب انصرافهم عن روايتها ، أو لأن اراجيز عقبة لم تجد لها مجالاً تسير فيه بين الناس أو لم تكن أهلاً لأن يعطيها الرواة جزء من وقتهم .

أما أسباب اختفاء هذه الأراجيز في عصر بني العباس فيمكن أن نجعلها على ضربين :–

أسباب صناعية واخرى طبيعية .

اما الصناعية فهي صعوبة حفظ روى واحد في الاشعار الطويلة ذات الأبيات القصيرة التي هي من شطور الرجز ، ثم الملل الناشيء عن هذا الروي الوحيد للأبيات القصيرة إن طال الشعر .

---

١ ــ دائرة المعارف الاسلامية مادة (رجز) .

ومنها – ايضاً – صعوبة حصر معنى تام في بيت من الرجز المشطور وما ينتج منها من الاضطرار الى تقسيم المعنى الواحد على بيتين أو أكثر، وذلك يضر وضوح المعنى ويسبب التعقيد ويخالف ما تعارف عليه الناس من أن البيت مستقل عما قبله وبعده في معناه .

أما السبب الطبيعي فهو أن الأرجوزة الحقيقية انما كانت من مخترعات شعراء البادية لم يذهب اليها أحد من الحضريين الا نادراً . وهي شعر بدوي محض لغة وموضوعاً فانف منه الشعراء العباسيون لأنهم كانوا بعيدين عن عيشة الاعراب فمن المعروف أن الانسان – في الأغلب – لا يتكلف ما لا يكون معهوداً في طبعه ولا موجوداً في خلقه (١) .

ولعل هذا الشيء يفسر لنا ما قاله عقبة بن رؤبة لبشار بن برد حينما كان ينشد الأمير عقبة بن سلم أرجوزة يمدحه فيها وقد استحسنها بشار فقال له عقبة بن رؤبة : – (انك لا تحسن هذا الطراز يا أبا معاذ) (٢) أي أنك لست بدوياً لكي تتمكن من نظم الأراجيز ، وهذا ما أثار غضب بشار ودفعه الى نظم أرجوزة جيده انشدها بحضرة الأمير عقبة بن سلم في اليوم التالي وهي ارجوزة طويلة مثبتة في ديوانه (٣) مدح بها الأمير ، فلما انجزها بهت الأمير والحاضرون وارفض عقبة بن رؤبة عرقاً خجلاً .

---

١ ـــ تاريخ الاداب العربية – نلينو/١٩٤ .

٢ ـــ الأغاني ١٧٥/٣ وزارة الثقافة .

٣ ـــ الديوان ٢١٩/٢ ابن عاشور .

نستطيع بعد هـذا العرض المفصل ان نستخلص حقائق ونقاطاً أساسية مهمة تخص هذا الموضوع .

أما من حيث بداية الشعر فأنها مجهولة لايمكن تحديدها ، كما انه لا يمكن معرفة أول من قال الشعر ، لأنه لا توجد هناك أية أدلة تحدد لنا زمن نشوء الشعر . وعلى هذا ذهبنا الى ان المقطعات الرجزية القصيرة التي عالجت اغراض العرب البدائية كانت منطلقاً لنشوء الشعر .

هذا وقد تقدم القصيد تقدماً كبيراً في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام ، وحتى بعد ظهور الاسلام . أما الرجز فقد ظل يتخبط في تلك المقطعات القصيرة التي لا تتجاوز ابياتها عدد اصابع اليد .

واستمر على هذا الحال حتى العصر الأموي حيث ظهر في هذا العصر شعراء قصروا جهودهم على النظم في بحر الرجز ، وكان من هؤلاء الأغلب العجلي والعجاج ورؤبة وغيرهم ، وعلى ايدي هؤلاء خاض الرجز جميع الميادين التي خاضها القصيد ، وطرق معظم الأغراض ، وظهرت فيه خصائص أمتاز بها عن غيره ، كما كان الرجاز يذكرون في رجزهم كثيراً من الالفاظ الغريبة والشاذة تلبية لرغبات الناس ، وارضاء لميول اللغويين والنحاة .

ويغلب على الظن أن الموشح نشأ على نظام الرجز في التصريع وجعل الشطر وحدة اساسية . كما يرجح أن فكرة الشعر الحر مأخوذة من الرجز ومعتمدة عليه .

واخذ الرجز في التطور حتى ظهرت منه المزدوجات والمخمسات ثم

ظهرت الطرديات وهي فن رجزي تناول وصف الصائد والآته وحيوانه ، كما تناول الرجز وصف الأنواء وما يحدث خلال العام من ظواهر طبيعية ثم سخر الرجز لوصف الرياض والاشجار والفواكه والزواحف والحشرات .

ولكن بعد كل هذا أخذت مكانة الرجز تقل تدريجياً ، والسبب في ذلك يرجع الى كثرة استعمال الرجز في الأغراض التعليمية حتى اصبح الشعراء يتحامون النظم فيه .

الفصل السادس

مكانة الرجز

قد يكون من مستلزمات بحثي هذا أن أكمل صورته التي يجب أن تستوفي جميع جوانبها ، فأبين مكانة هذا الموضوع المهم في نفوس العرب لاسيما انه بداية شعرهم وأول مولود منه .

وأبرز ما يوضح لنا تلك المكانة هو كثرة الأغراض التي استعمل فيها الرجز ، بحيث لم يتيسر لأي بحر من البحور الأخرى أن يتناول ماتناوله الرجز من اغراض ، ثم كثرة ما وصل منه الينا ، حتى ان معظم كتب الأدب واللغة والتاريخ قد شحنت بالرجز فأحتل منها جانباً كبيراً ، أضف الى ذلك كثرة استشهاد اللغويين والنحويين بالرجز سواء في ذلك استشهادهم على الغريب والشاذ أم استشهادهم على القياسي المطرد .

لقد انتشر الرجز بين العرب انتشاراً واسعاً حتى بعد ظهور القصيد ، وتظهر سعة هذا الانتشار في العدد الكثير من ابيات الرجز الواردة في كتب الأدب ، مما دعت هذه الكثرة ابا زيد الانصاري الى ان يميز في كتاب النوادر بين ابواب الشعر وابواب الرجز .

وهـــذه الأهمية جعلت يونس بن حبيب يرفع العجاج الى اعلى مراتب الشاعرية ويعـــده اشعر أهل الرجز والقصيد على السواء ويعلل ذلك بقوله : ـ

(انما الشعر كلام فأجودهم كلاماً اشعرهم) [1] ثم أن (قيمة الشعر بجودة معانيه وجلال مقاصده وجمال صياغته) [2] .

وعندما سمع يونس شبيل بن عزرة الضبعي يقول لابي عمـــرو ابن العلاء :

سألت رؤبتكم هذا عن اشتقاق اسمه فما عرفه ، غضب يونس وقال ، لعلك تظن أن معد بن عدنان أفصح من رؤبة ومن أبيه [3] .

هكذا كانت الاراجيز موضع اعجاب يونس وأمثاله من اهل العربية : لما فيها من قوة الصنع وجودة السبك ووفرة الموسيقى كما (انها هي

---

١ ـــ الأغاني ١٨/١٢٤ و ٢١/٦ ساسي والعمدة ١/٨٩ .

٢ ـــ خريدة القصر ـ العماد الأصبهاني ٢/١٦ من تعلبق للمحقق الاثري في الهامش .

٣ ـــ وفيات الاعيان ـ ابن خلكان ٢/٦٣ والأغاني ٢١/٥٧ ساسي وطبقات النحويين ـ الزبيدي ـ ط ١ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .

الاصرح في الدلالة على الاخـلاق والفوائد والأصعب في الصناعة لبناء السطور على حرف واحد ، فأن الرجل كان لايقول أرجوزته الا وهو أصفى ما يكون روحاً وأنبه ما يكون هبة من رقدة) [1] .

ومن اجل هذه الكثرة الواسعة والمكانة المرموقة أصبح الرجـز (ديوان العرب في الجاهلية والاسلام وكتاب لسانهم وخزانة انسابهم واحسابهم ومعدن فصاحتهم وموطن الغريب من كلامهم ، لذلك حرص عليه الأئمة من السلف واعتنوا به حفظاً وتدويناً) [2] حتى ان ابن رشيق ذهب الى أن الشاعر لايعد كاملاً الا اذا أجاد تناول فنون الشعر وانواعه كافة حيث قال (والشاعر اذا قطع وقصد ورجز فهو الكامل) [3] .

ومن هنا تتجلى اهمية الرجز في عده ركناً مهماً لاكتمال شاعرية الشاعر وقد افتخر القدماء بقدرتهم على نظم الرجز كافتخارهم وقدرتهم على نظم القصيد ، فهذا الأغلب العجلي يجيب المغيرة بن شعبة والي الكوفة بعد ان سأله عما احدث في الاسلام من شعر :

أرجزاً تريد أم قصيدا   لقد سألت هيناً موجودا

كما كان رجاز العرب الكبار من امثال العجاج وابنه رؤبه وابي النجم يقفون على قدم المساواة مع كبار الشعراء المقصدين ، وحكاية رؤبة مع ابي مسلم الخراساني خير شاهد على سعة الرجز وسيرورته وانتشاره في الآفاق . فأبو مسلم يبعث في طلب رؤبة لينشده ارجوزته التي مطلعها :

---

١ ــ اراجيز العرب ــ البكري /١٩٣ من تقريض علي بك رفاعة على الكتاب .

٢ ــ اراجيز العرب ــ البكري ص ٤ ط ١ .

٣ ــ العمدة ١٨٩/١ .

« وقاتم الاعماق خاوي المخترق »

والتي يقول فيها :

« يرمي الجلاميد بجلمود مدق » (١)

فيقول له ابو مسلم قاتلك الله لشد ما استصلبت الحافر ، انا ذلك الجلمود المدق (٢) . فأنظر كم تأثر الناس – حتى الطارئون على العربية – بالرجز وما فيه من تشبيهات بديعة واوصاف جميلة ونبرات قوية ، مما اطرب ذلك ابا هريرة (رض) واثار عاطفته ودفعه الى أن يظهر استحسانه حينما انشده العجاج :

« ساقاً بخنداة وكعباً ادرما » (٣)

ثم قال : كان النبي (ص) يعجبه نحو هـذا من الشعر . وانما يريد أن يدل بذلك على اهمية الرجز وولوع النـاس به . حتى ان الرسول الكريم (ص) الذي صُرف عن الشعر أحب هذا النوع منـه فكان موضع اعجابه وتقديره .

اما ابن سـلام الجمحي فقد جعل للرجز طبقة خاصة في طبقاته وجعل ترتيبها التاسعة بين طبقات الاسلاميين (٤) .

---

١ ـ وبعده قوله : (مُما تِنْ غايتها بعد النزق) .

٢ ـ الأغاني ١٢٢/١٨ و ٥٨/٢١ ساسي .

٣ ـ وبعـده (وكفلاً وعثاً وكشحاً اهظما) البخنداة : الضخمة ، وأدرم : لاحجم له ، الكفل العجز ، والوعث :المكان السهل : يقول هـذا الكفل ليس بالصلب ،والاهظم : الخميص اللطيف.

٤ ـ طبقات الشعراء ص ٥٧١ .

والحقيقة ان الرجز كان كثيراً يقوله عامة الناس . وربما يتفق لهم ذلك دون قصد اليه ولم يشتهر فيه احد قبل الاغلب العجلي فهو الذي أكثر من نظمه ، اما قبله فقد كان نتفاً بسيطة يستطيع معظم الناس ان يطلقوها . ولهذا كان الرجز فناً شعبياً بكل معنى الكلمة ،

ونظراً لهذه الشعبية الواسعة فقد كانت كمية الرجز كبيرة جداً حتى أن الاصمعي قال (ما بلغتُ الحلمَ حتى رويتُ اثنى عشر الف ارجوزة للاعراب) (١) ثم قيل انه (كان يحفظ الف أرجوزة وقيل مثل ذلك عن أبي تمام الطائي) (٢) وليس هذان وحدهما كانا يحفظان مثل هذا العدد فقد (عهدنا فحول شعراء القرن الثاني والثالث والرابع وحتى الخامس كان يفتخر احدهم بأن يحفظ خمسة آلاف ارجوزة ، لعلمه بأن هذا النوع هو الذي بهرت الشدقين لادونه ، فهو اشد ما يكون حرصاً على حفظ هذه الدرر المكنونة) (٣) .

ومن لطيف هذه الحكايات ما نقله الجاحظ عن ابي عبيدة أن ثلاثة من بني سعد اجتمعوا يراجزون بني جعدة ، فلما سئل شيوخ بني سعد عما يحفظون اجاب الأول قائلاً : أرجز بهم يوماً الى الليل لا أفتح (٤) وقال الآخر : أرجزُ بهم يوماً الى الليل لا أنكف (٥) وأجاب الثالث :

---

١ ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ١٥٦/٦ .

٢ ـ اراجيز العرب ـ البكري ص ٤ .

٣ ـ المصدر السابق ص ١٩٣ من تقريض علي بك رفاعة على الكتاب .

٤ ـ لا أعيا .

٥ ـ لا انقطع .

أرجزُ بهم يوماً الى الليل لا أنكش (١) ، فلما سمعت بنو جعدة كلامهم أنصرفوا وخلوهم (٢) .

ومثل هذا يعطينا صورة جلية عن مدى اهتمام العرب بالرجز ، ولكن اين تلك الآلاف من الاراجيز التي كان يحفظها الاصمعي وغيره أو التي كانوا يروونها ؟ !

ان تلك الفترة التي سبقت بلوغ الاصمعي لم تكن كافية لأن يقول فيها الرجاز المتخصصون آلاف الاراجيز ، واقصد بالأراجيز – هنا – ما تعورف عليه فيما بعد من امثال اراجيز العجاج وابنه رؤبة وابي النجم وغيرهم ، فماذا يعني الاصمعي – اذن – بقوله ارجوزة ؟ المرجح انه كان يقصد تلك المقطعات الرجزية الجاهلية منها والاسلامية فاطلق عليها لفظ ارجوزة .

واذا لم يكن هذا قصده ، فأين تلك الأراجيز التي يقول انها بلغت اثنى عشر الف ارجوزة ، أيحتمل انها ضاعت ؟ قد يكون ذلك .

احتل الرجز هذه المنزلة العظيمة في نفوس القوم ، اذ بلغ من حبهم للرجز أن اهتم الخلفاء والولاة بتقريب الرجاز من مجالسهم واحاطتهم بالتكريم والاجلال فهذا الوليد بن عبد الملك يأذن للعجاج ثم لابنه رؤبة من بعده بالانشاد قبل غيرهم من الشعراء الفحول من أمثال جرير وغيره (٣) وهذا هشام بن عبد الملك يصفق بيديه استحساناً لابي النجم

---

١ ـــ لا انزف أي لا ينفذ ما عندي .

٢ ـــ تاريخ آداب العرب – الرافعي ١٥/٣ والشعر والشعراء ٣٧/١ بيروت .

٣ ـــ التاريخ الكبير – ابن عساكر ٣٩٤/٧ والاغاني ١٢٢/١٨ ساسي .

وهو ينشده ارجوزته التي سماها رؤبة « ام الرجز » (١) والتي مطلعها :

الحمدُ لله الوهوبِ المجزلِ (٢)

وحينما غلبت لهشام فرس أمر بالشعراء فقال لهم : قولوا في هذه الفرس السابقة وابنها . فلم يتمكن أصحاب القصيد من اجـــابة طلبه وقالوا : انظرنا حتى نقول . فانبرى ابو النجم الراجز في الحال وقـال : هل لك في رجل ينقدك اذا استنسؤك ؟ قال : هاته فقال من ساعته :—

أشاعَ للغراءِ فينا ذكرَها قوائم عوج أطعنَ امرَها
وما نسينا بالطريقِ مهرَها حين نقيسُ قدرَهُ وقدرَها
وضبرهُ إذْ أوعثا وضبرَها والماءُ يعلو نحرَهُ ونحرها (٣)

فانظر كيف بزَّ الرجز القصيد وسبقه !

وكان أبو النجم يحظى بجوائز الامراء برجزه قبل الشعراء ، فقد وهب له خالد بن عبد الله القسري جارية جميلة من سبي الهند البيض حينما طلب منه أن يصفها فقال في وصفها رجزاً مكنه من الظفر بها (٤)

وليس ادل على مكانة الرجز والرجـاز من قول الخليل بن احمد حين توفي رؤبة فقال يعقوب بن داود : ياابا عبد الله ، دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم . فسأله : وكيف ذاك ؟ قال : هذا حين انصرفت من جنازة رؤبة (٥) .

---

١ ــ الأغاني ١٥٠/١٠ وزارة الثقافة .

٢ ــ الشعر والشعراء ــ ابن قتيبة ٥٠٢/٢ بيروت .

٣ ــ المصدر السابق ٥٠٤/٢ .

٤ ــ الأغاني ١٥١/١٠ وزارة الثقافة .

٥ ــ الأغاني ١٢٥/١٨ ساسي .

ألم تر انه جعل الراجز رؤبة منبع الشعر واللغة والفصاحة !

ويكفي الرجز والرجاز فخراً ان يتمسح باعتابهم اهل اللغة والنحو كيونس وابي عمرو بن العلاء . يلتقطون عنهم ما يصدر من افواهم من غريب الالفاظ ومبتكرها ويعدونها كنوزاً يفخرون بها ويرصعون بهاصحفهم.

على ان هذه النظرة الحسنة الى الرجز والرجاز لم تراود فكر ابي العلاء المعري ولم تداعب خياله ويظهر ان نظرته التشاؤمية الى الحياة وما فيها من طيبات جاوزت تلك الامور ودفعته الى التشاؤم من الرجز والرجاز والسخرية بهم ، ثم غمط حقهم إذ اسكنهم تلك الجنة البسيطة .

والحق انه لم يسخر من بحر الرجز ولم يتشاءم منه ، فقد جاءت له بعض القصائد على بحر الرجز . واظن انه عنى تلك الأراجيز الطويلة التي احتوت على الفاظ غريبة وكلمات شاذة صعبة الفهم عسرة الادراك ونستطيع ان نتلمس بعض اسباب حنقه وغضبه على الرجز في تلك المحاورة التي ادارها بين رؤبة وابن القارح والتي اوردها في رسالة الغفران . فهو بعد ان اسكن الرجاز جنة بسيطة (ليس لها سموق ابيات الجنة) (١) عقب على ذلك قائلاً : (تبارك العزيز الوهاب ! لقد صدق الحديث المروي « إن الله يحب معالي الامور ويكره سفسافها » وان الرجز لمن سفساف القريض ، قصرتم ايها النفر فقصر بكم) (٢) فهو ينظر الى الرجز هذه النظرة الشزراء ، واسبابها تظهر في قول ابن القارح لرؤبة : (ياأبا الجحاف ، ما كان اكلفك بقواف ليست بالمعجبة ! تصنع

---

١ و ٢ ـــ رسالة الغفران ـــ المعري ص٣٦٦ ط٢ تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء

رجزاً على الغين والطاء والظاء وعلى غير ذلك من الحروف النافرة) (١)

فهو كما ترى — يعد الرجز أدنى منزلة من القصيد ، ولهذا قصر الرجاز برجزهم فقصر بهم في جنتهم ، وكيف لا يقصر بهم وهم اصحاب الرجز الذي لم يلحق يوماً ما بالقصيد كما يدعي :

قصرتَ أن تدركَ العلياءَ في شرفٍ
إن القصائدَ لم يلحق بها الرجزُ (٢)

على أن هذه النظرة لم تتعد ابا العلاء ، اللهم الا ابا حاتم فانه سأل الأصمعي عن الأغلب العجلي : أفحل هو أم من الرجاز ؟ (٣)

والظاهر ان الجانب الذي استاء منه ابو العلاء في الرجز هو بعينه الجانب الذي استحسنه يونس واضرابه من اللغويين والنحويين ، وهو غرابة التعابير وصعوبة الكلمات وابتكار الالفاظ . فكل واحد نظر الى الرجز من جهته الخاصة به .

فالادباء نظروا اليه من جانب سهولة الالفاظ وسلاسة الاسلوب وخفة التعابير ، فلم يجدوا فيه من هذا الا الشيء القليل ، في حين وجدوا فيه الفاظاً كالصم الصلاب في وقعها على المسامع . اما اللغويون والنحاة فقد نظروا اليه من جانب القياس في الألفاظ والابتكار في الكلمات ، فوجدوا فيه بغيتهم من شاذٍ وغريب ومبتكر في اللغة .

---

١ ــ رسالة الغفران ــ المعري ص/٣٦٦ .
٢ ــ اللزوميات ــ المعري ٦٢١/١ بيروت .
٣ ــ الموشح ــ المرزباني ص ٢١٣.

الفصل السابع

خصائص الرجـــز

اذا كان للأشياء صفات خاصة بها تميزها عن سواها . فأن الرجـز قد أمتاز بخصائص عدة ربما يكون قد اكتسب بعضها بعد التطور الذي اصابه ، وخاصة ماتمثل في تلك الأراجيز الطويلة .

وفي هذا الفصل سأحاول الوقوف على تلك الخصائص بصورة مفصلة متبعاً التقسيم الآتي نظراً لما تتطلبه طبيعة الموضوع .

الشكل

والبحث في شكل الرجز يتناول اموراً عدة منها : البحث في الالفاظ والوزن . وأرى من الضروري أن اتناول هذه النقاط بالبحث والدراسة .

أ ـ **اللفظ** : ـ ميزة اللفظ أهم الميزات التي حواها الرجز ، فمن يقرأ رجز العرب وخصوصاً دواوين الرجاز لايحس الا أنه يسير فوق جبال كلها صخور قوية كبيرة لايتخلص من صخرة الا ويجابه اخرى أقوى من السابقة وأشد ، وما ذلك الا لغرابة ألفاظ الرجز وحوشيتها ثم انك لاتستطيع أن تفهم معناها ما لم يكن لديك شــرح لها أو قاموس يعنيك على فهمها وتلك الالفاظ انما كانت حوشية غريبة بالنسبة لأولئك الناس الذين عاصروا الرجاز فكيف بنا وقد بعد العهد بينناــا وبينهـم حتى فسدت لغتنا فنسيناها أو كدنا ! ويخيل لي أنهم انمـا كانوا يأتون بتلك الالفـاظ الغريبة والتعابير الشاذة استجابة لرغبـــة اللغويين والنحويين خاصة وارغبة الناس الذين أولعوا بحب الغريب عامة . هؤلاء الناس الذين أهملوا شعر معاصريهم ولم يهتموا الا بشعر الجاهليين . فجاء الرجاز يسايرون أهواء الناس ورغباتهم فيأتون لهم بكل شاردة . وراح يونس وأمثاله يترقبون ما يصدر عن العجاج وابنه رؤبة وغيرهما من الرجاز من كلمات غريبة والفاظ حوشية ليدونوها في صحفهم ويطلعوا بها على الناس فرحين جذلين .

واذ كان النقاد وأهل اللغة والنحو يهتمون بالغريب هذا الاهتمام الشديد ، فأنه من الواضح أن اكثار هؤلاء الرجاز من هذا الرجز المملوء

بالغريب الذي يخدم الأغراض النحوية (لا يمكن أن يكون من باب الصدفة والاتفاق أو باب اللهو والعبث ، وانما هو أمر مقصود لذاته أريد به ارضاء النحاة واكتساب اعجابهم ؟ أو اظهار المقدرة والبراعة في تطبيق نظريات النحو والصرف) [١] فجاءت دواوين العجاج ورؤبة وغيرهما معاجم للالفاظ الغريبة ، ولولا عناية صاحب الصحاح وصاحب اللسان واضرابهما لاستغلق على القارىء فهم الكثير من تلك الكلمات ، فبالاضافة الى هذا الغرض اللغوي كانت الاراجيز شعراً بدوياً لغة وموضوعاً ، فأدارها الرجاز على مواضيع مألوفة عند سكان البراري وملأوها بالفاظ غريبة تكاد تكون خاصة بأهل البادية بعيدة عن متعارف أهل الحضر [٢] .

ومن هذا القبيل قول رؤبة بعد وصفه حماسة قومه [٣] :

عبلُ المداويسِ منيفُ الشنخابْ أحزمُ تخشاهُ قهوبُ الأقهاب [٤]
يخطرنَ من خشيتهِ بالأذنابْ والجزْلُ أبقى من قماشِ الأحطابْ [٥]

١ ــ نقائض جرير والفرزدق ــ الدكتور غناوي ٣١٩ .

٢ ــ تاريخ الآداب العربية ــ نلينو ١٩٤ .

٣ ــ اراجيز العرب ــ البكري ١٧٠ ط ١ .

٤ ــ العبل : الضخم ، المداويس : القوائم ، المنيف : العالي ، الشنخاب : أعلى كل شيء ، والأحزم : العظيم الوسط ، والقهوب : المسن من الابل ، والاقهاب كذلك .

٥ ــ الجزل : ما غلظ من الحطب ، يخطرن : يضربن باذنابهن من مخافته ، وقوله : والجزل ابقى : يريد ان الاحرار من الناس ابقى على المكاريه من اللئام .

والهمُّ لايقضى كـلَّ الأوصـاب   أرجو انتسابي بقروب الاقراب (١)

فانت ترى أن أكثر هذه الكلمات لاتستطيع فهم معانيها ما لم نستعن عليها بما يوضحها . ومن هذا قوله أيضاً : (٢)

إنَّ لرَيعانِ الشبابِ غَيهقا   كأنَّ بي من أَلقِ جنٍ أو الْقا (٣)

ولا احبُّ الخلـقَ الممذقـا   والغرُّ مغرورٌ وان تاهوقا (٤)

وقوله كذلك في ارجوزته المشهورة : (٥)

وقاتمِ الاعماقِ خاوي المخترقْ   مشتبهِ الاعلامِ لماعِ الخفقْ (٦)

---

١ ـ يقول : أن الحاجة اذا لم تقض بقيت في صدر صاحبها بقاء السل ، ويقول : نسبي من قرب تقربي الى امير المؤمنين .

٢ ـ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط مصور ٤ .

٣ ـ ريعان الشباب : أوله ، ويقال رجل مألوق به أولق : اذا كان ذاهب العقل والغيهق : النشاط .

٤ ـ الممذق : الرديء ، والغر : الرجل الذي لايعـرف الاشياء ، يتاهوق . يتحذلق بما ليس عنده ، أي يمدح نفسه بما ليس فيه .

٥ ـ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط مصور / ٦٠ .

٦ ـ القاتم : من القتام وهي الغبر الى الحمرة ، والخاوي : الخالي والمخترق : الممر ومشتبه الاعلام : أي الجبال التي يهتدي بها . يقول : هذه الجبال يشبه بعضها بعضاً فتشتبه السراية فيها عليه ، والخفق : اصله الخفْق ساكنة الفاء محركة للقافية بريد أنه يلمع فيه السراب : أي يضطرب .

بكلِّ وفدُ الريحِ من حيث انخرقْ ... شأزٍ بمن عوّهَ جدبِ المنطلقْ (١)

ولا أريد أن اطيل في سرد هذه الامثلة فهي كثيره حتى أنني استطيع أن اقول ان دواوين العجاج ورؤبة وأكثر الرجاز كلها من هـذا النوع . والذي يؤيد ما ذهبنـا اليه من أن هدف الرجاز الأول كان خدمة اللغة في منحاهم هذا ، كثرة الرجز الذي استشهد به على ما في اللغة من غريب وشاذ ، ثم الاستشهاد به على تعدد اللهجات . واستعمال اللهجات المختلفة في الرجز انما يعود الى كونه فناً شعبياً لابأس من أن تستعمل كل قبيلة لهجتها فيه .

ومن هذه اللهجات قول أبي الحرب بن الأعلم (كما نسبه أبو زيد في النوادر (٢)) :

نحنُ الذونَ صبحوا الصباحا ... يوم النخيل غـارةً ملحاحـا

وهذه هي لغة هذيل حيث اعربوا (الذين) بالواو والنون رفعاً وبالياء والنون نصباً وجراً . ومن تلك اللهجات قول الراجز (٣) :

إن أباها وأبا أباهـا ... قـد بلغا في المجدِ غايتاها

---

١ ـــ وفد الريح : أولها مثل وفد القوم ، وقواه انخـرق ، يقول من حيث صار خرقاً والخـرق : الواسع من الارض . واذا اتسع الموضع فترت الريح فيه واذا ضاق اشتدت ، وشأز : يقول هو غليظ خشن لايقيم به أحـــد ، عوه : أقام ، وجدب المنطلق . يقول أن اقام به أشأزه وأستخصه ، وان انطلق فيه رآه جدباً . يريد أن الريح تفتر فيه لبعد اطرافه .

٢ ـــ النوادر في اللغة ـ أبو زيد / ٤٧ ، وقد وردت هذه الابيات في المفردات التي نسبت الى رؤبة في مجموع أشعار العرب / ١٧٢ .

٣ ـــ شرح ابن عقيل ١/٤٦ ط ٦ .

.. نرى أنه الزم المثنى الألف في احواله كلها . وهذه لغة قوم من العرب أشتهرت نسبتها الى بني الحارث وخثعم وزبيد .

ومن هذه اللهجات ما نسب الى رؤبة في قوله :

اعرفُ منها الجيدَ والعينانا ومنخرين اشبها ظبيانا

ويظهر استعمال اللهجات العربية في قول الراجز حيث ابدل الياء جيماً : —

عمي عويفٌ وابو علجْ المطعمانِ اللحمَ بالعشجْ

وهو يريد (ابو علي والعشي) ويقال ان هذه لهجة قضاعة وقال ابو عمرو بن العلاء : قلت لرجل من بني حنظلة : ممن انت ؟ قال : فقيمج . فقلت : من أيهم ؟ قال : مرج . اراد : فقيمي ومري . وانشد ابو عمرو لهميان بن قحافة السعدي : —

يطير عنها الوبر الصهابجا

اراد : الصهابي من الصهبة . وقال يعقوب بن السكيت : بعض العرب اذا شدد الياء جعلها جيماً ، وأنشد عن ابن الاعرابي : —

كأن في اذنابهن الشولِ من عبس الصيفِ قرون الاجلِ

أراد : الايل . ومن هذا القبيل ايضا ما انشده الفراء :

لا هم إنْ كنتَ قبلتَ حجتج فـلا يزالُ شاحج يأتيك بج

أقمر نهات ينزي وفرتج

أراد : حجتي وبي و وفرتي . (١)

---

١ ــ الأمالي ــ القالي ٢ /٧٧ بيروت ، وانظر بعضهـا في الشعر والشعراء ١/٤٥ بيروت .

ومن لهجات أهل اليمن ابدال السين تاء ، قال احدهم . . (١)

باقبحَ اللهُ بني السعلاتِ عمرو بن يربوعٍ شرارِ النات
ليسوا باكفاءَ ولا اكياتِ

وهو يريد : الناس واكياس

وغير هذه اللهجات كثير كان الرجز مستودعا لها .

ثم استشهد بالرجز على بعض التعابير الشاذة والاستعمالات غير القياسية ، ومن ذلك قول الراجز : ــ (٢)

من لا يزال شاكراً على المعهْ فهو حرٍ بعيشةٍ ذاتِ سعهْ

والشذوذ ــ هنا ــ هو مجيء الظرف (مع) صلة لـ (ال) ، وهذا على خلاف القياس ومن الشذوذ ايضاً قول العجاج : ــ (٣)

تقاعسَ العزُّ بنا فاقعنسسا

وهذا الاستعمال غير وارد في اللغة العربية ، حتى أن رجلاً اراد ان يقيس عليه فمنعه الخليل . (٤)

ثم انهم استعملوا الألفاظ المهجورة والاشتقاقات المهملة ، فهذا العجاج يستعمل لفظ (أنعبان) وهو اشتقاق لا يتكلم به ، يقول : (٥)

---

١ ــ الحيوان ــ الجاحظ ١/١٨٧ واماني القالي ٢/٦٨ مع اختلاف في الرواية .

٢ ــ شرح ابن عقيل ١/١٣٩ ط ٦ ومعنى المعه : أي الذي معه .

٣ ــ الخصائص ــ ابن جني ١/٣٦٠ و ٣/٢٩٨ .

٤ ــ الخصائص ــ ابن جني ١/٣٦٠ و ٣/٢٩٨ والشعر والشعراء ١/٢٢ بيروت

٥ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ٤٨ .

في الثعبان المنجنون المرسل   ميالة على الحليل المحلل (١)

ويقول في احدى اراجيزه مستعملا لفظ (الهبرج) وهـو لفظ غريب : ـ (٢)

يتبعن ذيالاً موشى هبرجا (٣)

والهبرج : الذي يخالط في مشيه ، أي يتبختر ، قال شارح ديوان العجاج (ولم اسمعه الا في هذا البيت) .

وهناك كثير من أمثال هذه الاستعمالات الشاذة التي لا يحسن بنا استقصاؤها جميعاً في هذا المجال ، فهي موجودة في كتب اللغة والنحو .

والظاهرة الغريبة التي أثارت اهتمـام الناس بالرجز هي اختراع الرجاز لبعض الألفاظ وتعريب بعض الكلمات الأعجمية ، فقد كان هؤلاء الرجاز خصوصاً العجاج ورؤبة يعملون (على زيادة ثروة المعجم العربي بما أضافوا اليه من وضع صيغ جديدة ، وممن ذكروا ان الرجاز كانوا يخترعون الفاظاً جديدة فخر الدين الرازي في كتابه (المحصول) كما نقله السيوطي في المزهر) (٤)

---

١ ـ الأثعبان : جدول يتشعب ماؤه ، وهو مجرى الماء والمنجنون : البكرة ، والمرسل : المصبوب ، والحليل : الزوج ، والمحلل الذي جعل حليلاً .

٢ ـ شرح ديوان العجاج ـ مخطوط ص ١٠٤ .

٣ ـ الذيال : الثور الطويل الذنب ، وقوله موشى . اي في قوائمه خطوط من سواد .

٤ ـ تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمن ١/٢٢٥ النجار .

ومن امثلة تعريب الكلمات الأعجمية قول العجاج : ــ (١)

في نعجات من بياض نعجا   كما رأيت في الملاء البردجا (٢)

فالبردج : هو السبي ، وهو بالفارسية برده فعربه وفي نفس الارجوزة نجد هذا البيت (٣) :

كالحبشي ألتف أو تسبجا

والتسبيج هو ثوب من صوف تلبسه الجواري ، وانما هو شبي بالفارسية (٤) .

ومن هذا التعريب قول الراجز :

كالخص إذ جلله الباري

وهو بالفارسية (بوريك) فأعرب . والعامة تقول : بارية وهو خطأ ، والصواب : باري وبوري (٥) .

وهذه الظواهر التي نراها عند الرجاز انما جاءت نتيجة لولوع الناس في عصر الرجاز بحب كل جاهلي وكل غريب ، مما حدا بالرجاز الى المبالغة في ذلك . فبالاضافة الى أنهم لم يتركوا لفظاً غريباً شارداً من

---

١ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط مصور ص ١٠٤ .

٢ ــ الملاء : الملاحف الواحدة ملاءه . والأبيات من ارجوزة للعجاج أولها :ــ

ما هاج احزاناً وشجواً قد شجا   من طلل كالاتحمي انهجا

٣ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ١٠٣ .

٤ ــ وقال أبو حاتم سمعت الاصمعي قال : تسبج ، لبس القميص .

٥ ــ الأمالي ــ القالي ١٢٧/٢ بيروت .

الفاظ اللغة العربية الا حاولوا استعماله في رجزهم ، أقول بالاضافة الى ذلك راحوا يعربون بعض الالفاظ ويبتكرون بعض الصيغ كما مر بنا . ويجب أن لايفهم من هذا الكلام ان كل رجزهم كان مبتكراً أو معرباً . كلا فليس الامر كذلك ، انما المقصود أنهم عربوا قليلاً من الالفاظ التي استطاعوا تعريبها أو اقتضتهم الضرورة ذلك ومثل هذا يقال في . التجائهم الى ابتكار بعض الصيغ . ولكننايجب أن لا ننسى أنهم كانوا مولعين بذلك ولعاً شديداً ولا سيما العجاج ورؤبة.

على أننا نلاحظ أن بعض الالفاظ الفارسية ربما استعملت في الرجز دون تعريب ، روي ان الشاعر يزيد بن المفرغ الحميري أولع بهجاءبني زياد بن أبيه ، واخيراً استطاع عبيد الله بن زياد ، وكان والياً على العراق ، ان يمسك به ، فقيده وحبسه ثم دعابه فحمل على جمل عود (١) ويقال على حمار ، وقرن به خنزيرة وسقاه نبيذاً ومسهلاً ، وأمر ان يطاف به في الأسواق والمحال ، وجعلت الخنزيرة تصيح من شدة وثاقها ، فيقول ابن المفرغ :

ضجت سمية لما مسها القرنُ لا تجزعي أن شرّ الشيمة الجزعُ

وأقبل يسلح في ثيابه ، ويقال أنه ضربه مع هذا بالسياط ، ورآه رجل من الفرس فقال : أين جيست ؟ أي . ما هذا ؟ فقال ابن المفرغ :

آب أست ، نبيذ أست عصارات زيب أست

سميه روسبي أست (٢)

---

١ ــ العود : المسن من الابل والشاه .

٢ ــ أنساب الاشراف ــ البلاذري ٧٨/٤ القسم الثاني . وقد وردت هذه الابيات في الشعر والشعراء ٢٧٧/١ على النحو الآتي :

أبست نبيذ أست عصارات زبيست

سميه روسفيد ست

أي هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب ، وسمية : البغي ، ويشير الى الخنزيرة وبريد جدة عبيد الله (١) .

على أن خفة وزن الرجز وسهولته هي التي مكنته من هذا الاستعمال،

ب ــ **الوزن** : ــ وقد سبق الكلام عن وزن الرجز وخصائصه في فصل مستقل فليرجع اليه من يشاء .

المحتوى

وأقصد بالمحتوى تلك المعاني والأغراض التي أحتوتها القصيدة العربية والتي أنطوت تحت أطارها .

ولهذا فأني أرى من المستحسن أن اتناول بالبحث بناء الارجوزة ليتضح لنا ما بينه وبين بناء القصائد الأخرى من اتفاق واختلاف ، وهل كان للرجز فضل في ابتكار بناء جديد ثم نتطرق الى المعاني التي كان يتناولها الرجز .

أ ــ بناء الارجوزة : ــ

وللبحث في بناء الارجوزة يجب أن نبحث في بناء القصيدة التي هي من غير الرجز ، لكي نرى ما اذا كان بناء الارجوزة كالقصيدة ، أو لا .

أن بناء القصيدة العربية الجاهلية يكاد يكون واحداً لم يرغب في الخروج عليه أحد من الجاهليين . فبالرغم من اختلاف الاغراض التي

---

١ ــ الشعر الشعبي العربي ــ الدكتور حسين نصار ص ١٠٤ سلسلة المكتبة الثقافية (٦٠) .

تناولتها القصيدة الجاهلية فأن أطارها ظل محتوياً على البناء التقليدي للقصيدة الجاهلية من حيث افتتاحها بالغزل والنسيب والوقوف على الاطلال ، والحنين الى الايام الجميلة التي قضيت في تلك الديار ، ثم الانتقال بعد ذلك الى الغرض الرئيسي في القصيدة سواء كان مدحاً أم هجاء أم فخراً أم رثاء ، أو ما الى ذلك .

وربما استدعى هذا الغرض الرئيس ذكر المهامه التي قطعها الشاعر والرواحل التي أنصاها في سبيل الوصول الى ممدوحــــه أو من يريد التحدث عنه .

بقي بناء القصيدة هذا شائعاً مستعملاً حتى فترة متأخرة ، ذلك لأن الشعراء وجدوه أشبه بنظام الزموا به انفسهم . فالشاعر دريد بن الصمة حينما قتل اخوه أخذ يرثيه فبدأ قصيدته بالغزل وشتان ما بين الغزل والرثاء وما يستدعيه كل منهما .

فالقصيدة الجاهلية — اذن — كانت تتألف من عدة فنون ، تفتتح غالباً بالنسيب والبكاء على الاطلال ، والشكوى من النصب ، وانضـــاء الراحلة والبعير . (١) وربما تناولوا وصف مشاهد البادية وحيوانها ، أو وصف المعارك ، ثم يتخلصون بعد ذلك الى ما يريدون .

وما دام بناء تلك القصائد عاما متشابها ، فلنأخذ نماذج من الأراجيز لندرس بناءها على ضوء الدراسات التي تناولت بناء القصائد الجاهلية .

يقول رؤبة مفتخرا ، حينما اتهم المنصور بني تميــــم بأنهم آووا

---

١ — نقائض جرير والفرزدق — الدكتور غناوي ص ٣١٦ .

عبد الله بن علي حين خلع : — (١)

هل تعرف الدارَ عفتْ اندابها ... فهاجَ شوقاً شائقاً ذهابها (٢)

فدمعُ عيني لاينِي تسكابهـــا ... ذكرها من طرب اطرابها (٣)

كأنها من طول ما ينتابها ... إنجيل أحبار وَحى كتابها (٤)

هكذا افتتح رؤبة هـذه الارجوزة بالبكاء على الاطـلال وتذكـر ساكنيها فهو يقول : أن الديار عفت آثارها واندرست ، فأشعلت بذهابها في قلبه ناراً ، وهيجت شوقه فعينه لاتزال تسكب دمعها المدرار .

وهذه هي السنة الشائعة المألوفة في افتتاح القصائد الجاهلية . ثم ينتقل رؤبة في ارجوزته هـــذه الى وصف حبيبته التي كانت تقطن تلك المنازل الدارسة ، ويسبغ عليها احسن الصفات وأجملها . فهي كالغصن الرطب في اعتدال قدها وحسنه وتثنيه وهي مهاة مصونة ذات ريـــق طيب عذب : —

وقد تُرى مؤتلفاً أترابها ... أزمان أروى رؤدة شبابها (٥)

مهاة خنس عذب رضابها ... يلقي بعطفي شارعٍ أخطابها

---

١ — مجموع أشعار العرب المشتمل على ديوان رؤبة — وليم بن الورد ص ٢٠ مكتبة المثنى بغداد — ولم أجد هذه الارجوزة في شرح ديوان رؤبة المخطوط

٢ — اندابها ، آثارها ومعالمها .

٣ — الطرب : الشوق ، والجمع أطراب .

٤ — وحى : كتب ، يقول : كأنها انجيل احبار كتبه كتابها .

٥ — الرؤدة : الشابة الحسنة ، تشبيهاً بالغصن الرؤد وهو الرطب المتمايل .

ثم ينتقل الى ذكر البادية فيصفها ويصف السراب ويذكر قدرته على اجتياز تلك البادية بناقة قوية استطاعت أن تجتازها .

وبلدةٍ مغبرةٍ أقرابهـــا — لماعةٍ موصولـــةٍ سهابها (١)

بأرضِ حرٍ قذفٍ ببابهـا — يجري بضحضاح الضحى سرابها(٢)

تعســـفتها قُلص تجتابهـا — الى دفانٍ سُدمٍ اشرابها (٣)

ثم راح بعد ذلك يفخر بنفسه وبقومه ، فذكر اولاً شجاعتهم وجرأتهم وبسالتهم في خوض المعارك والحروب .

وغارةٍ مســـتوعب ايعابها — في فتنـــةٍ يلتهب التهابهـا

شـــهباء في مستوقد شهابها — تحمي اذا تحزبت احـــزابها

قمنا بها حتى خبا اجـــلابها — واجتحرت من خوفنا احضابها (٤)

وطـــارَ في طيارة ضبابها — عنـا وقـد ارهبهـا ارهابهـا

وقـــد علمنا أننا اصحابهـا — لما عوت من كلبٍ كلابها

---

١ ــ القرب : الخاصرة والجمع اقراب ويقصد بذلك وسط البلدة ، والسهاب : الارض الواسعة .

٢ ــ القذف : المشرف ، واليبـــاب : الخراب ، والضحضاح : الماء القليل ، ويقصد به ـ هنا ـ أول الضحى وبدايته .

٣ ــ القلص : النوق ، ودفان : أي مندفنـة ، يقال : ركية دفان : اذا اندفن بعضها ركيه سدم : اذا ادفنت ، وماء ســـدم ، مندفق ، ومياه ســـدم : اذا كانت متغيرة .

٤ ــ الاجلاب : الاصوات ، والاحضاب : صوت القوس .

وأخذ بعد ذلك يُعدد محامد قومه ومناقبهم ، ويبين عاداتهم الطيبة وصفاتهم الحميدة ، من ذلك اتصافهم بالصدق ومجانبة الكذب وخلوهم من النقص :—

ان تميماً بَرِئَتْ عتابها   من كلِ عيبٍ معتبٍ اعيابها
وصارَ أهلُ عيبةٍ عيّابها   لم يلتبس بقذرة ثيابها
واكذبتْ بالغيبِ من يغتابها   جاءتْ تميم واقعاً غرابها

وربما كان المتنبي قد أخذ معنى بيته :—

واذا أتتك مذمتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأني كامل

من معنى هذه الابيات .

ويستمر رؤبه في وصف شجاعة قومه وحلمهم حتى نهاية الارجوزة .

ومن هذا نلاحظ ان الارجوزة كالقصيدة الجاهلية ، اشتملت على عدة أغراض ، ثم أفتتحت بالنسيب والوقوف على الاطلال ، ووصف الصحراء وسرابها ، ثم مقدرة الشاعر على اجتيازها وانتقاله بعد ذلك الى الفخر بشجاعة قومه وخوضهم غمار الحروب وخروجهم منها منتصرين كما وصفهم بما يحب العربي من الصفات .

كان هذا بناء الأرجوزة عموماً ، وقد استطاع الراجز أن يسير فيه كما يسير المقصد في قصيدته ، ولم يجد أي صعوبة أو مشقة في سلوك ذلك السبيل ، فالرجز لم يكن قاصراً في تناول مثل تلك الأغراض أو صوغها بذلك القالب .

ولكن الرجاز مع قدرتهم على صوغ أراجيزهم بهذه الصورة ، استطاعوا أن يحطموا هذا الاطار أو الكابوس الذي كان مخيماً عليهم

ويخرجوا منه قبل أن يفعل ذلك المقصدون .

ذلك ان الرجاز تمكنوا من أن يتخلصوا من عادة افتتاح القصائد بالنسيب مخاطبة الاطلال والدمن ، واستهلالها بنوع جديد من المطالع ما كان لسابقيهم من الشعراء عهد به ، لقد ثاروا — قبل ابي نوأس — على تلك المقدمات التي كان يفتتح بها الجاهليون قصائدهم ، وتركوا السير على ذلك النمط القديم ، واستطاعوا ان يستحدثوا لوناً جديداً من المقدمات يفتتحون به أراجيزهم .

ومن هنا يتبين لنا خطأ الرأي القائل بأن أبا نواس كان أول من ثار بالنسيب ودعا الى تركه من الشعراء ، فقد تناسى من قال بهذا الرأي مطالع الرجاز الجديدة التي استهلوا بها اراجيزهم ، وهي مطالع كانت حدثاً جديداً في تاريخ الشعر العربي ، ذلك انها كانت مبكرة في الظهور ، فقد وجدت في اراجيز العجاج الذي عاش في الجاهلية والاسـلام ، ثم جاءت هذه المطالع في بعض اراجيز رؤبة وابي النجم ، وهؤلاء جميعاً عاشوا قبل ان يعرف ابو نواس . وهذا يعني ان الرجاز تمكنوا من الخروج على تلك التقاليد التي كانت مفروضة على الشعراء في صوغ قصائدهم وحطم ذلك الاطار الذي كانوا محبوسين فيه ، فلا يستطيعون الانفكاك منه والخروج عليه .

وهكذا استطاع الرجاز فك الحصار المضروب على القصيدة العربية فانطلق الشعراء واستردوا حريتهم ، وتمكنوا بعد ذلك من ان يفتتحوها بما يشاءون .

اما تلك المطالع التي ابتكرها الرجاز ، فقد كانت حمداً لله وثناء

عليه ، ودعاء له وتعداداً لمظاهر قدرته وبياناً لنعمه ، وهذا حدث فني جديد لم يسبقهم احد اليه ، فاننا راينا كعب بن زهير حينما اراد ان يمدح النبي (ص) ويشيد بالدين الجديد ، لم يستطع أن يخرج على عادة الجاهليين في افتتاح قصائدهم ، فراح يتغزل وينسب في حضرة النبي (ص) بحبيبته سعاد . فاذا تصورنا بعد الشقة ما بين الغرضين في قصيدة كعب ، ادركنا مدى التجديد الذي احدثه الرجاز في هذا الميدان .

بقي علينا الآن — اثباتاً لما ندعي وتأييداً لما نقول — ان نتتبع هذه المطالع الجديدة في الاراجيز لنجعل الامر اكثر وضوحاً . فنحن اذا رجعنا الى ما بين ايدينا من اراجيز ، نلاحظ ان العجاج الراجز يفتتح احدى اراجيزه بقوله [1] : —

الحمد لله الذي استقلت … بأذنه السماءُ واطمأنت [2]
بأذنه الارضُ وما تعتت … وَحى لها القرارَ فاستقرت [3]
وشدها بالراسيات الثبت … رب البلاد والعباد والقنت [4]

---

١ — شرح ديوان العجاج — مخطوط ص ٨١ .
٢ — استقلت : نهضت ، يقال للقوم اذا قاموا ثم ارتحلوا : استقلوا .
٣ — تعتب : عصت ، يقول : ذلت واطاعت ولم تعسر ، وحى لها القرار أي وحى الله تعالى للارض بان تقر قراراً ولا تميد بأهلها ، أي اشار اليها بذلك اذ يكون وحي لها القرار أي كتب لها القرار ، ويروى : أوحى لها .
٤ — الراسيات : الجبال التي ارساها ، والقنت : الذين يقنتون لربهم اي يدعون .

والجاعلِ الغيثَ غياثَ المسنتِ والجامعِ الناسَ ليومِ الموقتِ (١)

فهذا الاستهلال نموذج للمطالع التي ابتكرها العجاج والتي سبق بها اهل القصيد ، وخرج على تقاليد الجاهليين في افتتاح قصائدهم ، ذلك لاننا ما وجدنا للجاهليين مثل هذه المطالع ، هذا من ناحية واما من ناحية اخرى فان هذه المطالع الجديدة فيها معان دينية ما كانت لتعرف لولا ظهور الاسلام وابرازه لهذه المعاني . فالعجاج يقول : — ان الله سبحانه وتعالى شد الأرض وثبتها بالجبال كيلا تتحرك وتميد بنا ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : — (والقى في الأرض رواسي ان تميد بكم وانهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون) (٢) ومن ذلك ايضا قوله تعالى : — (وجعلنا في الأرض رواسي ان تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون) (٣) وقوله : (أم من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها انهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون) (٤) ويقول العجاج في مطلع ارجوزته هذه ان الله جعل في الغيث رزق الناس ومعيشتهم . ومن يقرأ هذا يتبادر الى ذهنه قوله عز وجل : — (هو الذي يريكم آياته ، وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر الا من ينيب) (٥) أو قوله : (والله انزل من

---

١ — المسنت : الذي اصابته سنه ، أي القحط والجدب .

٢ — سورة النحل آية ١٥ .

٣ — سورة الأنبياء آية ٣١ .

٤ — سورة النمل آية ٦١ ، وانظر ايضاً سورة النازعات آية ٣٠ و ٣١ و ٣٢ وسورة الرعد آية ٣ وسورة الحجر آية ١٩ ، وسورة المرسلات آية ٢٧ .

٥ — سورة المؤمن آية ١٣ .

السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، ان في ذلك لآية لقوم يسمعون) (١) والى كثير من امثال هذه الآيات . (٢) ثم نجد العجاج يقول : — ان الله يجمع الناس ليوم الموقت ، وهو يوم القيامة . وهو يستند في هذا الى فكرة البعث التي جاء بها الاسلام .

وبعد هذا كله يخرج الشاعر الى ذكر متاعبه ويأسه في العمر الطويل

وليست ارجوزته هذه هي الوحيدة في هذا المضمار ، انما كانت له اكثر من ارجوزة استطاع ان يفتتحها بهذا الاسلوب المبتكر ، من ذلك قوله في مطلع ارجوزة مدح بها عمر بن عبيد الله بن معمر الذي قاتل الحروريين : — (٣) .

قد جبرَ الدينَ الالهُ فجبرْ وعورَ الرحمنُ منْ ولي العورْ (٤)
فالحمدُ للهِ الذي أعطى الحبر موالي الحقِ إنْ المولى شكر (٥)

---

١ — سورة النحل آية ٦٥ .

٢ — انظر مثلاً سورة ق آية ٩ وسورة الشورى آية ٢٨ ، وسورة البقرة آية ٢٢ وابراهيم آية ٣٢ ، وطه آية ٥٣ ، والحج آية ٦٣ ، والزمر آية ٢١ ، والنمل آية ٦٠ .

٣ — شرح ديوان العجاج — مخطوط ص ١ .

٤ — قوله عور الرحمن : اي افسد الرحمن ، من ولاه العور ، أي جعله ولياً للعور ، والعور : قبح الأمر وفساده .

٥ — الحبر : السرور .

عهدُ نبي ما عفا وما دثر   وعهدُ صديقٍ رأى برأ فبر (١)
وعهدُ عثمان وعهد من عمر   وعهدُ اخوانٍ لهم كانوا الوزر (٢)

يلاحظ في هذا المطلع انه اشاد بالدين الجديد وما جاء به من مثل سامية ، ثم نعى على الذين اتبعوا الباطل كفرهم وضلالهم ، وذكر في ارجوزته هذه الخلفاء الراشدين (رض) والعهود التي التزموا بها في سبيل خدمة المسلمين ورفع راية الدين . وكل هذه معان دينية اسلامية جديدة مستحدثة ، تمكن هؤلاء الرجاز من صوغها بهذا القالب الجميل وابرازها بهذه الحلة القشيبة .

وافتتح ارجوزة اخرى بدعـــاء رب البيت الحرام ، وتوسل اليه وطلب منه العفو والصفح ليتجاوز عن خطاياه ، ويتقبل اعماله ، ويثمر له ماله ، ولا اظن ان احداً من سابقيه تطرق الى مثل هذه المعاني في مطالع قصائده وذلك حين يقول : — (٣)

يارب رب البيتِ والمشرقِ   والمرقلاتِ كلَ سهبٍ سملقِ (٤)

---

١ — ما عفا : ما أمحى ، ودثر : قدم واخلق عهده حتى ذهب اثره ، وصديق : يريد ابا بكر .

٢ — الوزر : الملجأ .

٣ — شرح ديوان العجاج — مخطوط ص ٤٠ .

٤ — المرقلات : الابل التي ترقل في سيرها ، والسهب : الارض البعيدة المستوية والسملق : القاع الصفصف .

اباكَ ادعو فتقبـــلْ ملقي   فاغفر خطاياي وثمر ورقي (١)

وقال في مطلع احدى اراجيزه داعياً متضرعاً طالباً الجبر والرزق : (٢)

يارب انتَ تجبرُ الكسيرا   وترزقُ المسترزقَ الفقيرا

وقد اتبع أبو النجم العجلي نفس النهج في افتتاح بعض أراجيزه حيث راح يحمد الله ويثني عليه ويشكر عطاياه ، قال مستهلاً أرجوزة له وصفها ابن قتيبة بأنها اجود أرجوزة للعرب : (٣)

الحمدُ لله الوهوبِ المجـــزلِ   أعطى فلمْ يبخل ولم يبخـلِ

كومَ الذُرى من خولِ المخول   تبقلتْ من أولِ التبقلِ

بين رماحيْ مالكٍ ونهشلِ   يدفعُ عنها العز جهل الجهلِ (٤)

ثم هذا رؤبة يفتتح أرجوزة له في مدح مسلمة بن عبد الملك بدعاء ربه متضرعاً اليه ، طالباً منه العفو والصفح عما بدر منه من خطأ ، والتجاوز عن تقصيره ، والتغاضي عما كان النسيان سبباً في التفريط به : (٥)

---

١ ــ ملقي : تلبيتي في الطلب وضعفي، وقوله ،ثمر ورقي ، يريد مالي كالابل والغنم

٢ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ١٠١ .

٣ ــ طبقات أبن سلام ص ٥٧٦ ، والشعر والشعراء ــ أبن قتيبـــة ٢/٥٠٢ بيروت .

٤ ــ يعني : مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ونهشل بن دارم .

٥ ــ مجموع أشعار العرب ص ٢٥ ، وشرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ص ١٠٣ وقد وردت بعض ابيات هذه الارجوزة في شرح ديوان العجاج المخطوط ص ١٣٥ على انها للعجاج .

يارب ان أخطأت أو نسيت   فأنت لاتنسى ولا تمـوت
ربي ولولا دفعـه تـويت   فالجد اغشاني الذي غشيت (١)

وبدأ أرجوزة مدح بها أبان بن الوليد البجلي بدعاء الملك القدوس العزيز الجبار : (٢)

دعوت رب العزة القدوسا   دعاء من لايقرع الناقوسا

فأنت تلاحظ مما تقدم أن كل هذه المطالع التي ذكرت الآن كانت نوعاً جديداً في ذلك العصر ، تمكن الرجاز من ابتكاره واظهاره الى حيز الوجود ، فكان لهم فضل السبق في تجديد مطالع القصائد .

والذي يبدو أن تلك المطالع خالفت ما ألفه الناس من مطالع غزلية فوقفوا منها موقف المتحفظ ، فلم تنتشر انتشاراً واسعاً ، أو قل أنهم لم يكونوا قد تعودوا افتتاح قصائدهم بمثل هذا النوع من المقدمات ، فوجدوا شيئاً من الصعوبة في تغيير ما كان معتاداً لديهم .

ويغلب على ظني أن الناس في ذلك الوقت لم يكونوا يلتفتون الى شعر أو أدب لايساير الأدب الجاهلي ، وحسبك في ذلك أن تعلم أنهم كانوا لايروون الا شعر الجاهليين ، اما شعر معاصريهم فلم يكن له صدى في نفوسهم ، يروي عن بعض رواتهم أنه استحسن شعر أحد معاصريه فقال : لقد اجاد حتى هممت ان اروي شعره (٣) ، وهـذا يعني أنهم

---

١ ـ تويت : يعني هلكت .

٢ ـ مجموع أشعار العرب ص ٦٨ ، شرح ديوان رؤبة ص ٣٩ .

٣ ـ أنظـر العمده ١/٩٠ حيث قال أبو عمرو بن العلاء : لقد احسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته . يعني بذلك شعر جرير والفرزدق .

كانوا لا يهتمون بشعر غير الشعر الجاهلي وأن كان ذلك الشعر جيداً .

فاذا كانت نظرة الناس الى الشعر الجاهلي على هـــذا النحـو فلا عجب اذا ما قلدوهم وساروا على سننهم ، ولم يلتفتوا الى الشعر الذي ليست فيه نفحة من روح الجاهليين .

ثم أن انبعاث الحمية الجاهلية في تلك الفترة ، ربما كان سبباً آخر في صرف الناس عن تقبل مثل تلك المطالع وعدم الاكتراث بها .

ومن هنا نستطيع أن نتصور السبب الذي دعا الناس الى عـــدم الرغبة في مخالفة تقاليد الجاهليين في افتتاح قصائدهم ، ثم عدم تقبلهم لما يجد في هذا المجال ، ولهذا لم تجد تلك المطـالع الدينية مجالاً للسيرورة بين الناس .

ب ــ المعاني : ــ

لقد عبر الرجز – وهو بحر واحد من بحور الشعر العربي – عن معان كثيرة كانت تدور في مخيلة العربي ، وربما يكون قـــد نافس القصيد بجميع بحوره في التعبير عنه ، اقول هذا ولست مبالغاً فيـــه ، فالرجز مع تناوله الاغراض التي تناولها القصيد وأدائه المعاني التي أداها ، فأنـــه استطاع أن ينهض بعبء أداء المعاني المختلفة التي انفرد في بعضهـا .

لقد دعت الحاجة الى التعبير عن المشاعر ، فكان الشعر خير سبيل لذلك ، وكان الرجز أول نموذج أو فن منه وفى بحاجات العربي البـدائية ، والتي تمثلت في الحداء والحرب والاستقاء والصيد ، ومن هنا استقل

الرجز بأداء معان لم يكن القصيد صالحاً لأن يعبر عنها أو لم تكن الظروف مساعدة على ذلك .

وحينما تطور الشعر واخذ القصيد يتناول اغراضاً عديدة ، كان الرجز يسايره في كل ذلك ، ومع هذا التطور استطاع الرجز ايضاً ان يعبر عن معان جديدة لم يكن بامكان القصيد ان يفي بها ، وذلك في مجال الشعر التعليمي ، الذي كان الرجز مسرحاً فسيحاً له .

وقف الرجز – اذن – جنباً الى جنب مع القصيد في تناول كثير من الاغراض ، كالمدح والهجاء ، والفخر والرثاء وما الى ذلك ، وسيأتي تفصيله في بيان اغراض الرجز .

ولكن الرجز فاق القصيد بقدرته على تناول اغراض معينة ، حتى ظن ان هذه الاغراض مقصورة على الرجز ، فأنى للقصيد ان يسعف المقاتل وهو في ساحة الوغى بما يعبر عن مشاعره ويصور احاسيسه ! ثم هل للقصيد ان ينجد الصياد ليظهر عواطفه وانفعالاته وهو يرى سهمه ينفذ في جوف الصيد ! وقل مثل هذا في المتح وقل مثله في الحداء والحفر وضروب العمل الاخرى .

وبعد هذا اقول :– ان الرجز تمكن من التعبير عن كثير من عواطف العربي ورغباته واهوائه ، حتى اولع ذلك العربي بالرجز فراح يحفظ الآلاف من اياته ، ومن هنا كان الرجز المرآة الصادقة التي انعكست عليها طبائع العربي وافكاره وآماله وامانيه ، ذلك لأنه تناول بالوصف حياته بجميع جوانبها ، فأبرزها ، ووصف ما يتصل بها من حيوان ونبات وجماد ، فكانت الصحراء وما يلوح فيها وما يدب عليها

وما يصطرع فوقها ابرز تلك الصور واكثرها وضوحاً في رجز العرب .

وانقل اليك – الآن – مشهداً من تلك المشاهد التي ظهرت فيها اماني وآمال العربي ، انها صورة بدوي راح يصرف وقتاً طويلاً – وهو صابر – في سبيل الحصول على ما يبتغي ، وربما يكون مبتغاه هذا تافهاً بالنسبة لنا ، ولكنه ذوبال وقيمة بالنسبة له . ذلك انه رأى نبتة صغيرة فأخذ يتعهدها بالسقاية والرعاية آملاً أن يتخذها – اذا كبرت – سلاحاً فتاكاً يقي نفسه به ، ويقتات بواسطته .

وقد تحققت له هذه الرغبة ، حيث كبرت النبتة ، فقطعها واخذ ينحت منها قوساً ويقول [1] :–

يارب وفقني لنحت قوسي ... فأنها من لذتي ونفسي
وانفع بقوسي ولدي وعرسي ... انحتها صفراء مثل الورس
صفراء ليست كقسي النكس

ثم دهنها وخطمها [2] بوتر ، ثم عمد الى ما كان من برايتها فجعل منه خمسة اسهم واخذ يقلبها في كفه ويقول :–

هن وربي اسهم حسان ... تلذ للرامي بها البنان
كأنما قومها الميزان ... فأبشروا بالخصب يا صبيان
ان لم يعقني الشؤم والحرمان

ثم خرج حتى اتى موارد حمر الوحش فكمن حولها ، فكان كلما

---

١ – ذلك هو محارب بن قيس الكسعي .

٢ – خطم القوس بالوتر : علقها .

مر قطيع منها رمى عيراً فامخطه (١) السهم حتى يجوزه ويصيب الجبل فيوري ناراً ، وحينما تخرج النار من الجبل يظن أنه اخطأ ، فكان يتألم ويطلق الزفرات مشحونة بالرجز ، وهكذا فعل مع اسهمه الخمسة واخيراً عمد الى القوس فضرب بها حجراً فكسرها ، ثم بات ، فلما اصبح اذا الحمر مطرحة حواه ، واسهمه مضرجة بالدم ، فندم على كسر قوسه ، وشد على ابهامه ، فقطعها وانشأ يقول :—

ندمتُ ندامةً لو ان نفسي تطاوعني اذا لقطعت خمسي
تبينَ لي سفاهُ الرأي مني لعمر أبيك حين كسرتُ قوسي (٢)

ولهذا ضرب بندامته المثل فقيل : « ندامة الكسعي » .

على أنني ذكرت هذه القصة بطولها لتتبين عن كثب قدرة الرجز في اجلاء مشاعر النفس العربية ، واظهارها بصورة واضحة المعالم والابعاد .

وهكذا كان الرجز يتناول من المعاني والاغراض ما له مساس مباشر بحياة العربي ثم ما يؤثر في نفسه تأثيراً بيناً .

وخلاصة القول هي ان الرجز امتاز بخصائص متنوعة شملت الشكل الذي يتضمن اللفظ والوزن ، كما شملت المحتوى الذي يدخل في نطاقه بناء الارجوزه والمعاني التي تناولها الرجاز في رجزهم .

لقد امتازت الفاظ الرجز بحوشيتها وغرابتها ، إذ كان الرجاز يأتون بتعابير شاذة ولغات عربية قليلة الاستعمال ، كما كانوا يأتون

---

١ ــ مخط السهم : نفذ .

٢ ــ المحاسن والمساوىء ــ البيهقي ١/٤٨٣ .

بكلمات ثقيلة في النطق صعبة الفهم عسرة الادراك . والذي دعاهم الى هذا ، نظرة الناس في ذلك العصر ، اذ كانوا يهتمون بكل شعر جاهلي وكل شعر بعيد عن تأثير حضارة عصرهم وكان الرجز يحمل هذه الصفة فقد كان لوناً بدوياً يلائم طبيعة الاعراب وحالة معيشتهم .

اما وزن الرجز فكان عذباً رشيقاً يلائم الاعمال التي فيها حركة ، كالحفر والمتح والصيد والحرب ، لهذا فقد كثر استعمال الرجز في مثل هذه الاغراض . ولبحر الرجز اقسام وانواع عديدة ، منها الطويلة والمتوسطة والقصيرة ، حتى قيل ان بحر الرجز اكثر ابحر العرب في تفريعاته واشكاله .

ومن حيث بناء الارجوزة رأينا ان الرجاز استهلوا اراجيزهم بمطالع جديدة تناولت اغراضاً دينية لم يكن الشعراء قد استعملوها من قبل . هذا اضافة الى انهم استعملوا نفس الاساليب التي استعملها المقصدون في قصائدهم .

أما المعاني التي تناولها الرجاز فهي ذات المعاني التي كانت تدور في شعر المقصدين والتي كانت تشمل المدح والرثاء والفخر والهجاء والغزل وما الى ذلك . ولكن الرجاز فاقوا المقصدين في تناول بعض المعاني والاغراض التي قصر في تناولها القصيد . من ذلك مثلاً المتح والحداء والحفر وغير ذلك من ضروب العمل الاخرى . وبهذا الشكل تكون معاني الرجز تعبيراً عما يدور في اذهان العرب من أفكار واهواء ورغبات .

الباب الثاني

اغــراض الرجــز

لا اراني مغالياً اذا قلت ان اغراض الرجز يستحق ان يفرد لها بحث خاص ربما يؤلف اكثر من كتاب ، ولهذا فأنني لم اتردد في الاقدام على دراسة هذه الاغراض دراسة تفصيلية الى حد ما مخصصاً لها هذا الباب . والذي دعاني الى دراسة هذه الاغراض هو ان بحر الرجز – مع كونه واحداً من بحور كثيرة نظم فيها العرب – قد تناول اغراضاً مختلفة عديدة وبالرغم من محاولة بعض الباحثين [١] تخصيص البحور بالاغراض ، وجعل كل بحر خاصا بغرض واحد أو اكثر ، فان النظم على بحر الرجز قد خرج على هذا التحديد وطرق جميع الاغراض تقريبا ، حتى ان

١ ـــ كالمستشرق الأيطالي نلينو وصاحب دائرة المعارف الاسلامية .

اشعار الرجز التي وصلت الينا كثيرة جدا وربما لم يتيسر لأي بحر آخر ان يبلغ النظم فيه من الكثرة ما يبلغه النظم في بحر الرجز . هـذا اضافة الى آلاف الأراجيز التي كان يحفظها الاصمعي وغيره من الرواة والاعراب والتي لم تصل الينا حيث اندثرت باندثار حفظتها .

وقد رأى هؤلاء الباحثون أن ايقاعات بحر الرجز تلائم المواقف الحماسية ، والمواطن التي تظهر فيها قوة التأثر والانفعال ، لهذا خصصوا استعمال بحر الرجز بمواطن الحماسة .

ولكن نظرتهم – وان كان فيها شيء من الصحة – قاصرة لم يراع فيها استعمال الرجز في غير مواطن الحماسة والحروب .

أننا نلاحظ – كما سنرى في هذا الباب – أن الرجز لم يقتصر على الحروب وحدها انما تناول أكثر الاغراض التي تناولتها أبحـر الشعر الاخرى ، ويستحسن أن نذكر هنا – كما ذكرت سابقاً – أن الرجز تطرق الى أغراض لم يكن بامكان القصيد الخوض فيها ، من تلك الاغراض مثلاً : الحداء والطرد والمتح ، هذا الى أن المنظومات التعليمية على كثرتها قصرت على بحر الرجز .

ويبدو أن هذا البحر – لخفته وسهولة النظم فيه – أصبح بحراً شعبياً أو قل أنه أصبح بحر العامة ، حيث أنه لم يستعص النظم فيـه على أحـد .

ونظراً الى هذه الشعبية الواسعة فقد راح الناس يستعملونه في كل مايعن لهم من شؤون حياتهم اليومية دون حاجة الى تركيز الجهود وتخصيص وقت طويل للنظم . فاستعمل في كل ما تدعو اليه سرعة البديهة والارتجال ، ومن هنا لم نجد الرجاز يطيلون في أراجيزهم الا بعد أن استعمل بحر الرجز استعمال البحور الأخرى ، حيث اطالوا في الاراجيز كما كان

الشعراء يطيلون في القصائد ، كالذي رأيناه في العصر الأموي عند راجز كرؤبة وأبي النجم وأبي نخيلة وغيرهم .

كذلك كان الرجز يقال – أكثر ما يقال – في مواطن لاتسمح بالتأمل والتفكير فقد كان يطلق ارتجالاً وبدون تصنع وتكلف ، ولهذا السبب كثيراً ما نجد فيه اللغات المختلفة والالفاظ الشاذة والكلمات غير القياسية ، ذلك لأن قصر الوقت ، والحاجة الى السرعة ، تضطران الشاعر الى ذلك اضطراراً ، ونستطيع أن نعد هذا سبباً في استعمال اللغات والشواذ في الرجز أكثر من غيره ، وامثلة ذلك كثيرة نشير هنا الى قول أمرىء القيس (رب طعنة مثعنجره) بسكون الباء والصواب (رب) بفتح الباء ، وانما اضطره الوزن الى التخفيف .

وامثال هذه الاستعمالات وغيرها كثيرة كان الرجز مستودعاً لها [1] .

---

١ — من امثال تلك الاستعمالات الشاذة التي احتواها الرجز التقاء الساكنين غير الجائز بغير حرف لين ، كما في قول الراجز :

رخين اذيالَ الحقيّ وارتعن ۝ مشيَ حييات كأن لم يفزعن

ان يمنع اليوم نساء يمنعن

أو مثل قول الاخر :

أنا جرير كنيتي أبو عمر ۝ أجبنا وغيرة خلف الستر

ومثله كذلك :

أنا ابن ماوية اذ جد النقر

ولكن ابن جني يرى أن لهذا الشذوذ ضرباً من القياس .

فارجع الى لسان العرب مادة (حاق) لتطلع على ما قاله في هذه المسألة .

الفصل الأول

رجــز الطبيعة

الطبيعة أول عامل خارجي يؤثر في الانسان تأثيراً بيناً واضحاً ، حتى أنه ليحدث امتزاج بينهما يبرز في لغة الانسان ولونه وشكله ، وعلى هذا يمكننا القول : أن الانسان صورة دقيقة لبيئته ، ذلك لأنه (دقيق الصلة بالارض التي يعيش فيها ، حتى نستطيع أن نقول أنه أبن الارض ونتاجها ، منها يطعم وفيها يرى ، وهي تقوده وتوجه أفكاره وتطبعه بطابعها بجسمه وعقله ونفسه) [1] .

---

١ ـــ من محاضرات الدكتور جميل سعيد على طلبة الماجستير .

فبيئة العربي – اذن – طبعت ابنها بطابع خاص ، وميزته عن غيره سواء كان ذلك في شكله وجسمه ، ام في عاداته واخلاقه وافكاره .

لهذا نرى الشاعر العربي راح يعالج جميع الظواهر التي تميزت بها بيئته ، فوصفها جميعاً ، الصامتة منها والحية ، فجاء شعره مرآة انعكست عليها كل الالوان المختلفة والاشكال المتنوعة لبيئته .

وفيما يلي المامه بأثر الطبيعة في رجز الرجاز :

أولاً : – الطبيعة الصامتة

استأثر وصف جزيرة العرب باهتمام كثير من الباحثين والكتاب ففاضت كتبهم بوصف شامل لهذه الجزيرة ، ولهذا فلا ارى كبير طائل في ذكر وصفها .

والذي يعنينا هنا هو مدى تأثير بيئة العربي في حالته النفسية ، والتي يكون وجودها في شعره انعكاساً لهذا التأثير .

١ – **السراب :** – لقد اشتهرت صحراء العرب بجفافها وحرارتها وندرة الماء فيها ، وقد كانت شمسها قوية ساطعة تبعث بأشعتها الذهبية على اديم تلك الصحراء ، وفوق رمالها فتبدو هذه الاشعة سراباً يبعث الأمل في نفوس من افتقدوا الماء . وربما تكون هذه الصورة ابلغ الصور واشدها وقعاً على نفس العربي ، ذلك لما يقاسيه في صحرائه تلك من حر شديد وظمأ قاتل . فكان ذكر الآل والسراب (١) مقروناً بذكر الصحراء ووصفها ، واذا كان

---

١ – الآل : – السراب الذي يرفع الشخوص فيريك الصغير عظيماً وهو يكون بالضحى ، والسراب : – الذي يلكأ بالأرض فتحسبه بحراً ويطامن الشخوص أي يسكنها ويخفضها ويكون بمنتصف النهار .

الامر كذلك ، فقد انعكس ذلك كله في رجز الرجاز كما انعكس في قصيد المقصدين فهذا رؤبة يرسم لنا صورة الآل فيقول : ـ (١)

وانْ علوا من فيف حرفٍ فيهقا ألقى بهِ الآلُ غديراً دَيسقا (٢)
ضحلاً اذا رقرقتهُ ترقــرقا اذا أستخفَّ اللامعاتِ الخفقا (٣)
رأيتَ في جنبِ القتامِ الأبرقا (٤)

فأنت تقرأ قول رؤبة هذا ، فتجده صورة نابضه بالحياة في الصحراء التي عاش العربي في اكنافها ، اذ راح يصف مشاهدها ، وما يلوح فيها من آل يشبه غدير الماء ، حتى يوهمك هــذا السراب فيريك الجبال

---

١ ـ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط / ٩ و ١٠ ومجموع اشعار العرب / ١١٠ .

٢ ـ وان علوا : يعني الركبان ، الفيف : الصحراء ، الفيهق : ما اتسع من الارض ، من قوله : انفهق الوادي اذا اتسع ، القى به : أي بهذا الفيف والديسق : الابيض وهو الغدير الكثير الماء .

٣ ـ ضحلا : تراه من بعيد فتحسبه كثيراً وهو لاشيء مثل السراب والضحل : الماء القليل ، رقرقته حركته ، يعني اذا دنوت منه ترقرق أي تحرك وماج. يقول : اذا دنوت منه كان قليلا واذا تباعدت عنه رأيته كثيراً ، اللامعات : الجبال والأكم . والخفق : الذي يخفق اذا تحرك في السراب ، وهي لاتتحرك ولكنك تراها في السراب كأنها تتحرك .

٤ ـ القتام : الغبار ، والابرق : الجبل الذي فيه طين يختلط بحجارته يقول : قد استدار القتام حول هذا الجبل فاذا انحسر السراب عن الجبال رأيتها غبراً قد استدار الغبار حولها .

وكأنها تتحرك .

وطبيعة صحرائهم هذه ، تجعل الانسان شديد الظمأ دائم العطش ، لايكاد يرتوي من الماء . فاذا كانت هذه الصحراء تجعل الانسان بهذه الصورة ، فكيف به اذا سار وسط تلك المفازة الخالية من المياه في اوقات الهاجرة حينما يشتد الحر ؟! لاشك أنه يقاسي أشد العذاب واوجع الآلام .

ومن هنا كان لمنظر السراب أثر بين في نفس العربي ، حتى جاء على لسانه في مناسبات عدة ، ذلك لأن الحديث عن الصحراء يقودهم الى الحديث عن السراب . فهم حينما يتناولون وصف القفار لايجدون بدأ من ذكر الآل والسراب الذي يظهر في تلك القفار .

وهم مع وصفهم هذا للصحراء وقساوتها ، يظهرون قدرتهم على اجتيازها وان كان ذلك في أشد اوقاتها قساوة ، وهو وقت الضحى والظهيرة ، قال الراجز يذكر كيف أنه استطاع أن يسلك أرضاً قفراً يجري عليها الآل :ـ (١)

وبلدةٍ يستنُّ جاري آلها ترى بها العوهقَ في وئالها (٢)

---

١ ــ معاني الشعر ــ الأشناندانى ص ٦٠ .

٢ ــ العواهق : الطويل من النعام ، وقوله : وئالها : أي في مواءلتها ، والمواءلة : الألتجاء وطلب النجاة .

كالناب جرت طرفي حبالها   لولا حديث الناس لم ابالها (١)

وكان الرجاز حينما يتأثرون بالسراب يتناولون في حديثهم عنه ارتفاعه الذي يكنون به عن ارتفاع النهار وشدة الحر ، ثم يتطرقون الى وصف رواحلهم ويضفون عليها كل صفات القوة وهي ترتفع وتنخفض وسط هذا السراب كما تتراءى لهم ، استمع الى رؤبة حيث يقول :ــ (٢)

بل بلدٍ ملء الفجاج قتمه   لا يشترى كتانه وجهرمه (٣)

يجتاب ضحضحاح السراب اكمه   خارجة اعناقه ولممه (٤)

بعد ائتزارٍ فيه أو تعممه   كلفته عيدية تجشمه (٥)

---

١ ــ الناب : المسنة من النوق ، وعدوها كالناب : يريد أن شخص هذه النعامة قد عظم في الآل كأنه ناب ، وقوله : لولا حديث الناس لم ابالها : يقول : لولا ان يتحدث الناس فيقولون اني جبان لم اسلك هذه الأرض ولم أبالها .

٢ ــ شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ص ٢٩٧ ومجموع اشعار العرب ص ١٥٠ واراجيز العرب ص ١٤٢ .

٣ ــ القتم : الغبار ، والجهرم : البساط من الشعر ، يقول : لهذا البلد سبائب من السراب تجري وهي لاتشتري ولا تباع .

٤ ــ الضحضاح : ما رق من السراب وقل ، يقول ان الأكم كأنها تسير في السراب فتقطعه .

٥ ــ بعد ائتزار : أي بعد ما تأزرت ، أي بعد ما كان السراب الى النصف من الاكم ، العيدية : الناقة النجيبة وهي ابل منسوبة الى العيد .

وحتى في حديثهم عن الجبال الشامخة وسط هـذا الفضاء الرحب كانوا يقرنون بوصفها وصف السراب الذي يحيط بها ، فاذا كل هـذه المظاهر تتحرك في الصورة وتتراقص اجزاؤها قال رؤبة : ـ (١)

ولو ترى اذ جدَّ بي اجذامي   وانحلَّ بعـدَ لازمهِ كعامي (٢)
جوْبي اليك الخرق وأتمامي   عطشى الصدى خاشعة الآرام (٣)
على صوى مسترعفِ الشمامِ   يدُرْنَ غرقى غـرق الدوام (٤)
بعدَ ارتفاعٍ فيـه وانكتامِ   في آل خرقٍ كاهبِ الأطـسام (٥)
اغبر ذي خوالجٍ نهام (٦)

وليس هناك عربي لم يشاهد السراب وهو يسير في تلك المفازة ، لهذا انعكس تأثيره في نفوسهم ، فظهر في رجزهم بلوحـات جميلة تنبيء

---

١ ـ مجموع اشعار العرب ص ١٤٥ وأراجيز العرب ص ٨٢ .
٢ ـ يخاطب الممدوح يقول : لو ترى اذ جد بي اجذامي أي مضيي ، والكعام عود يعرض في الفم ثم يشد الى القفا كاللجام ، وهذا مثل .
٣ ـ الائتمام : القصد ، والعطشى : الفلاة لا ماء فيها ، والصـدى : العطش بعينه ، والآرام : الأعلام .
٤ ـ الصوى : الاعلام ، ومسترعف الشمام : يعني جبلاً مائلاً اعلاه . يقول : تدور الصوى غرقى في السراب دور الدوام .
٥ ـ كاهب الاطسام : أي مغـبرة مطرقـة ، والانكتام : التوارى والدخول في السراب .
٦ ـ ذى خوالج : أي ذى شعب وطرائق ، والنهام : البين .

عن مدى التأثير الذي خلفه منظر السراب بعد قطعهم للفيافي الشاسعة والقفار الموحشة ، ولهذا وجدنا رؤبة وغيره من الرجاز يفردون أراجيز خاصة بوصف الصحراء وما يلوح فيها من آل ونبات وحيوان . يقول رؤبة في احدى أراجيزه يصف شدة الحر والتظاء السراب : — (١) .

وبلدٍ عاميةٍ اعماؤه كأن لونَ أرضهِ سماؤه (٢)
هيهاتَ من جوزِ الفلاةِ ماؤه يحسرُ طرفَ عينهِ فضاؤه (٣)
هابي العشي ديسقٍ ضحاؤه اذا السرابُ انتسجت آضاؤه (٤)
أو مجنَ عنه عربتْ اعراؤه واجتابَ قيظاً يلتظي التظاؤه (٥)
ذا وهجٍ يحمي الحصى احصاؤه يبحثُ مكتن الثرى ظباؤه (٦)

---

١ — شرح ديوان رؤبة — مخطوط ص٢١٦ ومجموع اشعار العرب ص ٣ .

٢ — قوله : عامية اعماؤه : اي لا يهتدي فيه .

٣ — جوز الفلاة : وسطها ، يريد ان ماءه بعيد .

٤ — هابي العشي : أي انه اغبر بالعشي ، وديسق : ابيض ، واضاؤه : جمع اضاه وهي الغدير ، يقول : اذا السراب جرت كذا وكذا فجعلت كأنها تسدى الاضواء .

٥ — قوله : او مجن عنه : أي ذهبت عنه هذه الأضواء ، واجتاب قيظا : أي البلد الذي لبس الحر يريد انه اذا اشتد عليه الحر .

٦ — الوهج : الحر ، ومكتن الثرى: ما اكتن ولم يظهر، يصف شدة الحر فيقول: ان الضباء تدخل في الظل وهي لا تدخل فيه الا وقت الهاجرة لأنها اصبر شيء على الشمس .

وكثيراً ما يتراءى اهم هذا السراب وكأنه قلائد احاطت باعناق الاعلام من اكم وجبال واماكن مرتفعة فتنطبع صورته في نفوسهم ويبرز أثره في رجزهم كما حصل لرؤبة اذ قال : ـ (١)

بل بلدةٍ تخشي الشجاعَ الفاردا ... اذا السرابُ استعمل القراددا (٢)

وقلدت اعلامها قلائدا ... آلاً وآلاً وقتاماً باجدا (٣)

ثم يخدعهم هذا السراب فيريهم الاشياء على غير حقيقتها ، فهو اما ان يضاعف الاشياء ، واما ان يداخل بعضها ببعض ، وهذا انما يحدث اذا كان الحر شديدا والسراب كثيرا ، ولهذا وجده الرجاز سبيلا لاظهار قدرتهم واستطاعتهم على اجتياز القفار في مثل هذه الاوقات الصعبة ، قال رؤبة : ـ (٤)

وبلدةٍ تدرع المدارعا ... من السرابِ والقتامِ السائعا (٥)

اذا طفت اعلامها شوافعا ... ترى مع اثنين خمسا ورابعا (٦)

من سنِ رقراقِ الضحى مائعا ... كلفتها المهرية الضوابعا (٧)

---

١ ـ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط ص ٢٧٤ ومجموع اشعار العرب ص ٤٥ .

٢ ـ استعمل : اي استنزل ، والقرادد : الاماكن المنقادة المرتفعة .

٣ ـ قوله : وقلدت : يعني ان السراب كان الى اعناقها ، الباجد : الثابت .

٤ ـ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط ـ ص ٢٠٨ ومجموع اشعار العرب ص ٩٣ .

٥ ـ السائع : الجاري .

٦ ـ شوافع : يريد اثنين اثنين ، أي أن السراب يرفعها ، وخسا ـ لا ينون ـ المفرد .

٧ ـ المائع : الذي يجيء ويذهب ، ومهرية : منسوبة الى مهرة ، والضوابع : التي تذهب ايديها الى ضوابعها في سيرها ، والضبع : العضد .

واذا اراد مفتخر ان يفتخر بقوته وجلده واحتماله المصاعب والمشاق ، فانه يجد في قطع الفيافي المغبرة الموحشة ما يفي له بهذا الغرض ، واذا اراد ان يصور الصحراء في اشد حالاتها واوقاتها قساوة فانه لابد وان يذكر السراب ويجعله علامة تدل على مدى الصعوبة التي لاقاها في قطعه لتلك البيد ، قال القلاخ : — (١)

وبلدٍ اغبرَ مخشي العطب يضحى به موجُ السراب يضطرب
لو قذفَ الكتانُ فيه لالتهب قطعتُ اخشاهُ بسيرٍ منجذب (٢)

وهكذا يكون السراب دليلا على شدة حرارة الصحراء وقساوتها ، ومن هنا وجدنا الرجاز لا ينفكون عن ذكر السراب والآل حينما يتكلمون عن بلد قفر ، وهذا يدل على مدى التأثير الذي احدثه السراب في نفوسهم ، قال رؤبة : — (٣)

وبلدٍ يجري عليه العسعاسْ من السراب والقتام المسماس (٤)
من خرق الآل عليه اغباس (٥)

---

١ — اراجيز العرب ص ١٢١ والقلاخ هو ابن جناب من بني حزن بن منقر بن عبيد بن الحارث وكان شريفا .

٢ — سير منجذب : أي ممتد .

٣ — شرح ديوان رؤبة — مخطوط ص ١٢٠ ومجموع اشعار العرب ص ٦٦ واراجيز العرب ص ١٣٥ .

٤ — العسعاس : سراب خفيف الاطراد ، ومسماس : خفيف .

٥ — الاغباس : الظلمة .

وهذا الآل المتوهج في هذا الوقت من النهار كثيرا ما كان يرتفع فيلتف حول الجبال ويغطيها فيكون بمثابة عمامة قد لفت باعناق الجبال الشامخة المنتصبة ، فينفعل الناس بهذا المنظر ويؤخذون به ، ثم يظهر اثره في رجز الرجاز على النحو الذي نقرأه عند العجاج حين يقول : ـ (١)

اذا النهارُ كف ركضَ الاخيل واعتمتِ القورُ بآلِ سلسلِ (٢)
لاثَ باعناقِ الجبالِ المثلِ (٣)

وكالذي نقرأه عند رؤبة حين يقول : ـ (٤)

عليهِ من اكنافِ قيظٍ يغتطي شبكٌ من الآلِ كشبكِ المشط (٥)
اذا شماريخُ النيافِ الأعيطِ عممنَ بالآلِ اعتمامَ الاشمطِ (٦)

---

١ ـ شرح ديوان العجاج ـ مخطوط ص ٥١ وأراجيز العرب ص ١٧ .

٢ ـ الأخيل : طائر اخضر صبور على الحر وكانوا يتشاءمون بهوفي المثل : (اشأم من اخيل) والقور : جمع قارة وهي الأكم المنفردة ، وسلسل : يريد كأنه الماء السلسل وهو الخفيف الذي يتسلسل في الحلق ، يقول اذا انجحر هذا الطائر فانا لا انجحر .

٣ ـ لاث : لف ، يقال : لاث الضباب بالجبل : أي غطاه واكتنفه .

٤ ـ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط ص ٢١٣ ومجموع اشعار العرب ص ٨٣ .

٥ ـ يغتطي : يعلو ، وشبك : يريد شيئاً مشتبكا ، والمشط : هن اللواتي يمشطن

٦ ـ الشماريخ : رؤوس الجبال المشرفة على الهواء ، النياف: المشرف ، الاعيط المرتفع أي أن الآل يعلو الجبال فيصبح لها كالعمامة .

وما اروع قول ذي الرمة في هذا المعنى حين شبه هذه العمامة السرابية بالحرير فقال : — (١)

ومهمهٍ داويةٍ مشكالِ تقسمتْ اعلامها في الآلِ (٢)
كأنما اعتمتْ ذرى الجبالِ بالقزِ والابريسمِ الهلهالِ (٣)

ومثله ايضا قول العجاج : — (٤)

ونسجتْ لوامعُ الحرورِ برقرقانِ آلها المسجورِ (٥)
سبائباً كسرقِ الحريرِ (٦)

على ان الرجاز صوروا لنا الجبال والسراب صورة بحرية رائعة ، اذ جعلوا الجبال غارقة في السراب ، فهي تغطس تارة وتطفو رؤسها تارة اخرى ، قال رؤبة : — (٧)

---

١ — اراجيز العرب ص ٤٥ .

٢ — المهمة : الفلاة ، الداوية : الي يسمع بها دوى ، المشكال : التي يشكل من يسلكها ، تقسمت : غاصت .

٣ — القز والابريسم : الحرير ، الهلهال : الهلهل النسج ، شبه لون السراب على الجبال بالقز .

٤ — اراجيز العرب ص ٨٨ وشرح ديوان العجاج — مخطوط ص ٦٩ .

٥ — لوامع الحرور : يعني السراب ، ورقرقانه : اضطرابه ، المسجور : المملوء .

٦ — سرق الحرير : شققه .

٧ — شرح ديوان رؤبة — مخطوط ص ٦١ ومجموع اشعار العرب ص ١٠٤ واراجيز العرب ص ٢٣ .

تبدو لنا اعلامه بعدَ الغرقْ في قطعِ الآلِ وهبوات الدقْ
خارجةً اعناقها من معتنقْ (١)

وهكذا عالج الرجز السراب ووصفه بكل اشكاله المختلفة ، اذ كان لكل منها صدى في نفوس الرجاز ، على ان هناك اماكن اخرى من الرجز (٢) . ورد ذكر السراب فيها اعرضنا عن ذكرها هنا خشية الاطالة ، اذ ان ما ذكرناه يكفي لاعطاء صورة كاملة عن مــدى تأثر الرجاز بالسراب وقدرة الرجز على تناول مظاهر الطبيعة بالوصف ومنها السراب .

٢ ــ الجبال :

اما الجبال فقد بان تأثيرها في الرجاز حتى ظهر ذلك فيما صدر عنهم من رجز تردد فيه ذكر الجبال ، وقــد رأينا كيف انهم كانوا يتناولون ذكرها مع ذكر السراب ويقرنون بينهما حينما يتحدثون عن الصحراء

---

١ ــ الاعلام : الجبال ، وهبوات : غبرة ، الدقق : جمع الدقا وهو التراب الدقيق اللين ، واعناقها : اعناق الجبال ، من معتنق : من حيث اعتنقهـا السراب فبدت اعناقها منه .

٢ ــ انظر مثلا قول رؤبة في مجموع اشعار العرب ص ٢٠ و ص ٥١ و ص ٦ وفي أراجيز العرب ص ١٦١ وانظر مجموع اشعــار العرب ص ١٣٧ وص ١٦٦ .

وكأن الجبال والسراب صورة واحدة متحركة لا يبين احدهما الا مع الآخر

والجبال بألوانها المتباينة ، واشجارها التي تكتنف سفوحها ، تثير في النفس شعوراً غريباً لهذا الوقار الهادىء والرزانة المستديمة ، وقد وجد الرجاز في هذه الظاهرة الطبيعية الصامتة صورا يعبرون بها عن هـــذه المشاعر . استمع الى العجاج وهو يشبه الجيش بالجبل في ضخامته ، وبموج البحر في عظمته حيث يقول : ــ (١)

سرحَ عنه وهو وحفُ المنثلمْ كالعلمِ الأسود في جنب العلمْ (٢)

دمخٍ ومثلِ إضمٍ الى إضمْ او كعبابيْ ذي اواذي عظم (٣)

ومن هذه الابيات الرجزية نعلم ان البحر هو الآخر اثر فيهم وجلب انتباههم فراحوا يشبهون به كل ضخم عظيم .

وربما ورد ذكر الجبال في رجز الرجاز حينما يصفون ديار احبتهم النازحين واندراسها بعد تعاقب السنين عليها ، وهم يذكرون هذه الجبال على ان مقام احبتهم كان فيها ، قال رؤبة : ــ (٤)

ياصاحِ ما شاقكَ من مقام بأسحمانَ الجبلِ السحامِ (٥)

---

١ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ٣٩ .

٢ ــ يقول : هو شديد المعتمد حيث ثلمه السيف فطريقه واسع ، يقول : هذا الجيش كالعلم الاسود : أي كالجبل في ضخامته الى جنبه جبل اسود .

٣ ــ دمخ : جبل بنجد بين اليمامة وبرية ، واضم : جبل ، والعباب : الموج ، والعظم : العالي ، يقال : بحر عظيم : أي عال عظيم .

٤ ــ مجموع اشعار العرب ص ١٤٤ واراجيز العرب ص ٧٩ .

٥ ــ مقام : أي مكان اقامة ، اسحمان : جبل ، السحام : الاسود .

بعدَ البلى والزمنِ القدام قد مح الا رمم الرمامِ (١)

واذا كان الرجاز قد وصفوا الجبال في اثناء النهار والتي تبدو وكأنها تسبح في السراب حتى تغرق فيه ، فانهم لم يغفلوا عن وصفها بالليل اذ تبدو لهم وكأنها تذهب وتدخل في الظلام ، قال العجاج : — (٢)

واطعنُ الليلَ اذا ما اسـدفا وقنع الأرض قناعاً مغـدفا (٣)

وانغضفت لمرجحنٍ اغضفـا حوم ترى فيه الجبالَ خسفـا (٤)

هذا وكانت للجبال اسماء خاصة تعرف بها ، وقد ورد ذكر بعض هذه الاسماء في أراجيز رؤبة والعجاج وغيرهما ، وقد مر بنا ذكر هذه الاسماء منها : دمخ واضم واسمحان .

٣ — الدارات : —

وأثرت معالم الصحراء بكل ظواهرها في نفوس قاطنيها ، وبان هذا التأثير في رجزهم الذي صوروا به ظواهر الطبيعه المتنوعة . فكانت الدارات احدى المعالم التي برزت في رجزهم . والدارات هي كل أرض واسعة بين جبال ، أو هي رمل مستدير في وسطه فجوة . (٥) وقـد

---

١ — القدام : القديم ، مح : درس .

٢ — أراجيز العرب ص ٥١ ولم اجد هذه الارجوزة في شرح ديوان العجاج المخطوط .

٣ — اسدف : اظلم ، المغدف : المرسل المتسع .

٤ — انغضفت : يقول تثنت الظلمة ، المرجحن : المسترخي الثقيل يعني الليل ، الحوم : الكثير ، وخسف : كأنها تذهب وتدخل فيه .

٥ — معجم البلدان — ياقوت ٤٢٤/٢ بيروت .

وقد حددها بعضهم بميلين ، قال ابو حاتم في رواية عن الأصمعي : الدارة رمل مستدير قدر ميلين تحفه الجبال . (١) وقال ابو حنيفة : الدارة لا تكون الا من بطون الرمل المنبتة . (٢)

ويبدو ان هذه الدارات كانت كالواحات يؤمها المسافرون في الصحراء للاستراحة والاستظلال بظلال اشجارها ، او هي اماكن للهو والمرح نظراً لوجود الماء والزرع فيها .

وقد سموا كل موضع تكون هذه صفته باسم معين ، واشهر هذه الدارات هي دارة جلجل التي كان لأمرىء القيس فيها قصة مشهورة ، وقد اختلف في عدد دارات العرب ، فقد ذكر الاصمعي انها تبلغ ست عشرة دارة . اما ياقوت فقد ذكر نيفا وستين دارة استخرجها — كما يقول — من كتب العلماء المتقنة ، واشعار العرب المحكمة ، وافواه المشايخ الثقات ، واستدل عليها بالاشعار . (٣)

وقد كان ذكر هذه الدارات يأتي مع ذكر السفر والرحيل وان تلك الدارات هي العلامات التي يعرفون بها الاماكن والمسافات . وقد كانت بمثابة دار استراحة يأوى اليها المسافرون ليقضوا فيها بعض الوقت كما كان يرد ذكرها مع ذكر ديار الاحبة وبيان مواقعها التي غالبا ما تكون بين بعض تلك الدارات أو بالقرب منها . فهذا راجز يقول انه

---

١ — معجم ما استعجم — البكري ٥٣٣/٢ ط ١ القاهرة .

٢ — المصدر السابق ٥٣٣/٢ .

٣ — معجم البلدان — ياقوت ٤٢٤/٢ .

وصل دارة (اليعضيد) قبل ان يخرج الطائر من عشه ، أي قبل الفجر : (١)

واحتثها الحادي بهيدٍ هيدِ كذا لقربٍ قسقسٍ كؤودِ
فصبحت من دارةِ اليعضيدِ قبلَ هتافِ الطائرِ الغريدِ

وهو يريد بكلامه هذا انه خرج مبكرا وسار سيرا سريعاً حتى وصل الى هذا المكان في هذا الوقت المبكر لئلا تصليه الصحراء بحرها في وقت الهاجرة .

ومن بين تلك الدارات التي عرفها العرب (دارات العوج) وقد ذكرها راجز من بني سعد على انها تكتنف دار حبيبته التي رحلت وتركت آثار ديارها ذكرى لها عنده : (٢)

يادارَ سلمى بين دارات العوج جرتْ عليها كل ريحٍ سيهوجْ
هوجاء جاءت من بلاد يأجوج (٣)

وقال راجز – واظنه هو الذي قال الأبيات التي ذكرت آنفا – في دارة العوج وهي احدى تلك الدارات : (٤)

---

١ – معجم البلدان – ياقوت ٤٢٤/٢ .
٢ – امالي القالي ١٤٧/٢ والتنبيه على ابي علي في اماليه – البكرى ص ١٠٩ .
٣ – الريح السيهوج : الشديدة ، والريح الهوجاء : التي جاءت تحمل التراب ، وقوله من بلاد يأجوج : اي شرقية .
٤ – التنبيه على اوهام ابي علي في اماليه – البكرى ص ١٠٩ .

بدارةِ العوجِ اسلمى مربعُ   يكنفهُ من جـــانبيهِ لعلع

وداره (رهبى) احدى الدارات التي ورد ذكرها في رجز العرب حيث قال رؤبة يصف مطاردته للأتن عند هذه الدارة : (١)

بصلب رهبى أو معي الأصهاب   جوازئاً من غدقٍ واخصاب (٢)

٤ ـ الوقوف على الاطلال :

وكان للأطلال صدى وأي صدى في نفوس اولئك العاشقين المتيمين الذين برح بهم الوجد والشوق بعد رحيل احبتهم وتزوحهم عن ديارهم. وهل للمدله غير اثار الديار يبثها شكواه ويستخبرها عمن كان بالأمس منعما فيها ، وماذا يبقى في الدار بعد ان يتركها قاطنوها غير الاثـــافي والدمن والنؤى والتي تبقى عرضة للرياح والامطار تلعب بها حتى تتركها رسوما شاخصة كباقي الوشم في ظاهر اليد .

وقد وقف الرجاز كما وقف المقصدون كثيراً عند تلك الأطـلال يحيونها ويبكونها ويسألونها عن الناحية التي انتحاها احبتهم ، وهم بوقوفهم هذا انما يستذكرون الايام الجميلة العذبة التي قضاها الراجز مع من يحب في تلك الديار التي عادت اطلالا دارسة عبثت بها هوج الرياح

---

١ ــ مجموع اشعار العرب ص ٧ واراجيز العرب ص ١٦٤ .

٢ ــ الصلب : المتن من الأرض ، ومعي : تصغير ومعي وهو مالان من الأرض وانخفض ، والاصهاب : موضع ، والجوازىء : اللاتي جزأن بالرطب عن الماء اي استغنين به ، الغدق : كثرة الماء ، واخصاب : جمع خصب .

ومياه الامطار وما يحدث في فصول العام من احداث طبيعية تترك الطلل عافيا يصبي الراجز ويثير شجونه :

يااللصبـــا للطلـــلِ الحولي قفراً بحنوِ البيضةِ المحني (١)
قـــد خفي او شبهَ بالخفي غيرَ رمادِ النار والاثفي (٢)
مقتبلاتٍ قعدة النجي (٣)

ووصف الطلل يقود الشاعر الى وصف حبيبته التي كانت تسكن تلك الاطلال حينما كانت عامرة باهلها ، اذ كانوا يمرحون بهـا وفيهم حبيبته التي تشبه شادنا راح يسرح ويلهو مع ظباء تنصب اعناقها وتطمح بابصارها ، قال رؤبة : (٤)

هل تعرف الدار عفتْ بالعنكث داراً لذاك الشادنِ المرعث (٥)
في مرشفاتٍ كالدمى لم تطمث يخدعنَ بالتبريق والتأنثِ (٦)

---

١ ــ اراد : ياهؤلاء اعجبوا لصباى من اجل الطلل الذي اتى عليه حـــول ، والطلل : مـا شخص من اعلام الدار ، البيضة : الرمل ، والحنو : مـــا انحنى منه .
٢ ــ الأثفي : اراد بها الاثافي .
٣ ــ شبه الاثافي واجتماعها بقوم يتناجون شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ص ١٥٥
٤ ــ شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ص ٢٤٩ ومجموع اشعار العرب ص ٢٧ .
٥ ــ العنكث : موضع ، المرعث : الذي اتى عليه الرعاث وهوعهن يعلق على الشاه ، والشادن من الظباء : الذي قد تحرك .
٦ ــ في مرشفات : اي مع نساء كأنهن الظباء المرشفات وهي التي تنصب اعناقها وتطمح بابصارها .

وربما عبثت الحيوانات بتلك الاطلال حتى كادت تمحو آثارها ، اذ ان بولها وبعرها يتلبدان فوق تلك الاثار فلا تعود الا خطوطا باهتة لا يستبينها الراجز ، فيسائل صاحبه عله يعرفها ، وان كان هو قد عرفها حقا ، قال العجاج : (١)

ياصاحِ هل تعرف رسماً مكرسا ؟	قال : نعم اعرفه ، وأبلسا (٢)
وانحلبتْ عيناه من فرط الأسى	وكيف غربيْ دالجٍ تبجسا (٣)
من ان عرفت المنزلاتِ الدرسا	غيّرَها عطفُ السنين أحرسا (٤)
وكل رجاس يسوق الرجسا	من السحاب والسيول المرسا (٥)

الا ترى الى هذه اللوحة الفنية البديعة التي اودعها الراجز وصفاً دقيقاً لما ينتاب الانسان عند وقوفه على اطلال الأحبة ، انها صورة رائعة تنبي عن مدى قدرة الرجز على تصوير مظاهر الطبيعة وتأثيرها في الانسان

---

١ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ٤١ .

٢ ــ المكرس : الذي قد تلبد من آثار البول والابعار حتى صار طرائق بعضه على بعض ، ابلسا : اي سكت .

٣ ــ الدالج : الذي يمشي بالدلو من البئر الى الحوض ، والتبجس : التشقق ، يقال : تبجست عيناه : اذا سالتا .

٤ ــ الأحرس : جمع حرس وهو الزمن الطويل .

٥ ــ الرجاس : الصوت المختلط ويقصد به ــ هنا ــ صوت الرعد ، المرسا : أي السيول التي اذا مرت لم تترك على الأرض شيئاً الا جرفته ومرت به .

وانعكاس هذا التأثير في مشاعر العربي حتى بان ذلك في رجزه . ان هذه الرسوم هي بقايا ديار الأحبة فكانت لحظة صمت وهدوء لم يستطع معها كتمان شوقه ووجده فاشتد به الأسى حتى ذرفت عيناه دمعاً غزيراً وهو يرى تلك الديار وقد درست وغيّرها تتابع الأعوام وكثرة الأمطار وشدة السيول الجارفة . وحينما ينهال دمع الراجز ويجري على خده مدراراً وهو يقف على اطلال النازحين ، انما هو يشتاق لأحبة كانوا بالأمس متعمين في ظل اجتماع شملهم ، وهذا ما حدث للعجاج حينما كواه الحب وأحرقه الشوق فراح دمعه يسيل على خده بعد ان حركه رسم الاطلال :

ما بالُ جاري دمعك المهلل والشوق شاجٍ للعيون الحذل (١)

قد كنت وجاداً على المضلل من رسم اطلال بذات الحرمل (٢)

بادتْ واخرى امس لم تحول بالجزع بين عفرةَ المجزل (٣)

وكانت الديار المهجورة تبلى فتصبح كثوب خاقٍ بالٍ يهيج الحزن ويثير في النفس شجواً عظيماً :

ما هاجَ احزاناً وشجواً قد شجا من طالل كالانحمي انهجا (٤)

---

١ ــ الحذل : انسلاق العينين واحمرارهما .

٢ ــ المضلل : الذي لا يدوم على حال ويركب الضلال فهو يجد عليه ويغضب .

٣ ــ الجزع والمجزل : مواضع في شق بني تميم ، والعفرة : مكان فيه رمل احمر شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ٤٦ .

٤ ــ الأنحمي : موضع باليمن تعمل فيه البرود ، شبه آثار الديار ببرد قد اخلق

امسى لعافي الرامسات مدرجا   واتخذته النائجات منأجا (١)

فهذه الاطلال لم تعد الا مسرحا للرياح العاتية الشديدة تعبث بها كما تشاء .

وللهوى الدفين في النفس اثر كبير حينما تبعثه وتهيجه الديار المقفرة الموحشة التي مرت عليها السنون فأحالتها الى اطلال دارسة كأنها صحف مكتوبة حيث امحت آثارها الشاخصة ولم تبق الا الرسوم ، قال رؤبة : (٢)

ياصاحِ هاجتك الديارُ الاكراسْ   على هوى في النفس منه وسواس (٣)
كيف وقد مرت لهن احراس   وهن عجم لو سألت اخراس (٤)
كأنهن دارسات اطـــلاس   من صحف أو باليات اطراس (٥)

ويروح الراجز يسأل تلك الرسوم والأطلال ، ويستخبر الرماد والنؤى والأثافي المقيمات على الرماد لعلها تعطيه جوابا يشفي غليله ، ولكن

---

١ ــ العافي : ما عفى الأثر فمحاه وأذهبه ، والرامسات : الرياح وأصلهن انهن يدفن ، من الرمس أي الدفن ، والنائجات : التي تمر مراً سريعاً ، ومنأجا : أي ممرا . شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ١٠٢ .
٢ ــ شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ص ١١٩ ومجموع اشعار العرب ص ٦٦ .
٣ ــ الأكراس : جمع كرس وهي الابعار والابوال .
٤ ــ الاحراس : الدهور .
٥ ــ الاطلاس والاطراس : صحف التهجي .

أنى لها ذلك وهي خرس لا تنطق عجم لاتبين :

وما صبـــاي في سؤال الأرسم   وما سؤال طالـــل وحمم [1]
والنؤيَ بعـد عهـــده المثلم   غير ثلاثٍ في المحـل صيم [2]
روائمٌ أو هن مثـل الرؤم   بعد البلى شلوَ الرماد الادهم [3]

ثم ان تلك الاطلال قد هدمتها الرياح الهجم ، وتتابعت عليها السحب السجم التي جعلت ماءها سيلاً يجري فيها ، أما السنون فقـــد تتابعت عليها وهي ممتـدة طويلة فتركتها كآثار المداد في الكتاب :—

في عرصةٍ هاجت شجونَ المؤلم   كأنها بعدَ الرياحِ هجم [4]
وبعدَ هذاذِ السحاب السجم   من مرِ اعوام السنين العوم [5]
مراجعُ النقسِ بوحي معجم [6]

---

١ ــ حمم : جمع حمة : وهي الرماد .

٢ ــ النؤى : كل حاجز حول الخباء لئلا يدخله الماء من نواحيـه ، والثلاث : يعني الأثافي مقيمات على الرماد ، والصيم : الثابتات في مكانهن .

٣ ــ الرؤم : جمع الرائم : وهي التي تعطف على بو أو غير ولدها ، وشلو الشيء : بقيته ، أراد ان الاثافي يعطفن على شلو الرماد . شرح ديوان العجاج — مخطوط ص ٨٨ .

٤ ــ الهجم : اللواتي تهدم كل شيء .

٥ ــ هذاذ السحاب : ما تتابع منـــه وتقطع ، والسجم : السوابل ، والسنون العوم : أي التي تمد اعوامها ، وذلك على المبالغة .

٦ ــ النقس : المداد ، والمراجع : الآثار ، والوحي : الكتاب . شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ــ ص ٨٨ .

وهكذا تركت الاطلال في نفوس الرجاز اثراً كبيراً فراحوا يذكرونها في كل مناسبة ، حتى أصبح من سننهم المعروفة افتتاح أراجيزهم بذكر الأطلال ووصفها مهما كان غرض الارجوزة .

٥ ــ الآبار : ــ

وقد وجدت في جزيرة العرب آبار عديدة كان الناس يحفرونها لحاجتهم الملحة اليها ، حتى ان مكة أشتهرت بكثرة آبارها ، اذ كانت كل جماعة في مكة تحفر لها بئراً خاصاً تستقي منه . والذي الجأهم الى هذا العمل هو ندرة المياه وجدب الارض ، ولما كان الماء عماد الحياة راحوا يبحثون عنه في باطن الأرض بعد ان فقدوه في ظاهرها . ومن هنا كان للآبار منزلة عظيمة في نفوس أصحابها حتى أنهم اخذوا يفخرون بتلك الآبار وعذوبة مائها وكثرته .

وقد اثرت فيهم هذه الآبار وانعكس تأثيرها في رجزهم الذي تناولوا فيه ذكر آبارهم والفخر بغزارة مياهها التي تشبه البحر ، قال راجز بني عدي حينما حفروا بئرهم المسمى (الحفير) : ــ(١)

نحنُ حفرنا بئرنا الحفيرا   بحراً يجيشُ ماؤه غزيرا

على أني سأفرد لرجز الآبار فصلاً خاصاً فيما يأتي من الفصول ان شاء الله ، ذلك لأن فن المتح والأستقاء من الاغراض التي انفرد بها الرجز .

---

١ ــ فتوح البلدان ــ البلاذري ٦٧/١ بيروت .

٩ ــ المطر والبرق والرعد : ــ

أما المطر فقد كان مصدر الحياة للأنسان والحيوان والنبات ، لذلك سموه الحيا والرحمة والغيث وما الى ذلك ، ومن هنا وجدنا تعلق العربي به شديداً ، لأنه اساس حياته ومصدر رزقه ، والمنبع الرئيس لعيش حيوانه ثم به يسقي الزرع ، وبه ينبت الكلأ ، فلاعجب اذا ماتغنى به ورسم له في ذهنه اجمل صورة ، فهذا العجاج يشبه رذاذ المطر بحبات الشذر ، وهل هناك اغلى واجمل من الشذر : ــ (١)

وان نحا كالنابث المثير ... مرتْ له دون الرّجا المحفور (٢)

نواشط الارطاة كالسيور ... مجرمزاً كضجمة المأسور (٣)

مستشعراً خوفاً على وقور ... كأن هفتَ القطقطِ المنثور (٤)

بعد رذاذ الديمة المحدور ... على قراهُ فلقُ الشذور (٥)

---

١ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ٧١ وأراجيز العرب ص ٩١ واللسان مادة (هفت) .

٢ ــ وان نحا : أي اعتمد يريد به الثور ، والنابث : الذي يخرج التراب ، والرجا : الناحية .

٣ ــ نواشط : عروق ، يريد أنه اذا حفر في هذا الكناس صادف عروق الارطاة ، المجرمز : المنقبض المجتمع الخلق ، المأسور : الأسير .

٤ ــ وقور : أي وقار : يقول أنه خائف ولكنه مظهر الوقار ، هفت : سقط ، القطقط : القطر .

٥ ــ القرا : الظهر ، الديمة : السحابة ، والشذور : جمع شذر وهو ماصيغ من الذهب حليا .

وقد ملك المطر على الرجاز حسهم ، وأثر في عواطفهم ومشاعرهم ، فهطوله يعد بشارة بالخير واليسر والغنى في البلاد الصحراوية ، لأن سقوط المطر يؤذن بظهور النبات وحلول الربيع ، فالأبل تسمن والمال يكثر ، والخير يزداد ، قال الراجز يذكر الغيم وما فيه من مطر . — (١)

اقبلَ في المستنِ من ربابه   أسنمةُ الآبالِ في سحابهِ (٢)

أراد أن ذلك السحاب ينبت ما تأكله الأبل فتسمن وتصير شحومها في أسنمتها . ومن هنا انعكس أثر المطر في نفوس العرب فجاء ذكره في مناسبات عدة في كلامهم ، فقد ذكروه مع ذكر الاطلال الدراسة التي لعبت بها الرياح الهوج والامطار الغزيرة ، قال ذو الرمة : (٣)

ما هاجَ عينيكَ من الاطلالِ   المزمناتِ بعدك البوالي (٤)

غيرها تناسخُ الاحوالِ   وغيرُ الايامِ والليالي (٥)

---

١ — الكامل في اللغة والأدب — المبرد ٢/٦٨ .

٢ — الرباب : سحاب دوين المعظم من السحاب .

٣ — أراجيز العرب ص ٤٠ .

٤ — المزمنات : التي أتت عليها أزمان متتابعة ، والبوالي : جمع بالية .

٥ — تناسخ الأحوال : مرور السنين عليها حولا بعد حول ، وغير الأيام : تغيرها .

وهطلانُ الهضبِ والتهتالِ   من كلِّ احوى مطاق العزالي (١)

جون النطاق واضح الاعالي (٢)

وأثرت فيهم ظاهرة المطر الغزير حينما يكون مصوتاً ، قال الراجز : (٣)

لشخبها في الصحنِ للأعشار   بربـرةٌ كصخبِ المماري

من قادمٍ منهمرٍ ثرثارِ (٤)

على ان نزول المطر كان يسبقه برق ثم رعد ، وربما صاحبه ذلك ، فاذا ابرقت السماء علموا أن سيحدث رعد ، قال رؤبة : (٥)

رأيت أروى وهي تخشى فقدي   تعجبُ والبرقُ أذانُ الرعدِ

بمطرٍ ليس بثلجٍ صردِ

---

١ ـــ الهضب : المطر ، واحدتها هضبة ، وهطلانه : سيلانه ، والتهتال ، السيلان أيضاً ، والأحوى : الذي لونه الحوة وهي ضرب من السواد والمراد سحاب احوى ، والعزالي : جمع عزلاء وأصلها مخارج الماء من افواه القرب وشبه به خروج الماء من خلل السحاب .

٢ ـــ الجون : الأسود ، وجون النطاق : سود النواحي والجوانب ، وواضح الاعلى : أي أعلاه ابيض .

٣ ـــ امالي القالي ٢٩٦/٢ بيروت .

٤ ـــ يقال مطر ثرثار وسحاب ثرثار : اذا كان ماؤه مصوتاً .

٥ ـــ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط ـ ص ١٠١ ومجموع أشعار العرب ص ٤٨ .

وصوت الرعد مقدمة الغيث وامارة من امارته ، فاذا كان صوته شديداً استدلوا بذلك على بعد المطر ، واذا كان صوته اشد استدلوا به على قربه .

وقد تردد ذكر البرق كثيراً في الرجز ، وربما يكون بريقه الساطع سبباً كبيراً في جلب انتباههم وتأثرهم به ، قال الراجز يصف البرق وشدة التهابه : ـ (١)

أرق عينيك عن الغموض   برقٌ سرى في عارضٍ نهوض
ملتهب كلهب الاحريض   يزجي خراطيمَ غمامٍ بيض (٢)

وقد راحوا يشبهون ثغور الحسان بالبرق في بياضه ولمعانه ، حتى ان رؤبة أولع بهذا التشبيه فتردد على لسانه في اماكن عدة ، يقول في أرجوزة له يصف ضحكة احبته التي انكشفت عن برق لمح من الاسنان : ـ (٣)

يخدعنَ بالتبريقِ والتأنثِ   بالضحك لمعَ البرقِ والتحدث
تألقَ الجنّ برمل الأدأث (٤)

---

١ ـ تاج العروس ـ مادة (حرض) .

٢ ـ الأحريض : العصفر أو حبه .

٣ ـ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط ص ٢٤٩ ومجموع أشعار العرب ص ٢٧ .

٤ ـ يقال للمرأة تألقت : اذا تزينت ، وتألق البرق : اذا لمع .

وقال في أرجوزة اخرى ذاهباً الى نفس هذا التشبيه :ـ (١)

تضحك عن اشنبَ عذبٍ ملثمهْ يكادُ شفاف الرياحِ يرثمهْ (٢)

كالبرقِ يجلو برداً تبسمه

وهكذا كان رؤبة معجباً بشدة لمعان البرق ، فلم يستطع التخلص من التشبيه به في مواضيع كثيرة من رجزه . (٣)

وقد تطور هذا اللون من رجز الطبيعة فيما بعد فكانت لأبي نؤاس أبيات جميلة في وصف السحابة وما يحدث في الأرض بعد ان يزورها المطر فكأنها شيخ هرم عاد له شبابه فطرح عنه الحزن والاكتئاب وأصبح ذا منظر بهيج (٤)

---

١ ـــ شرح ديوان رؤبة ـــ مخطوط ص ٢٩٦ ومجموع أشعار العرب ص ١٥٠ .

٢ ـــ الشنب : عذوبة وبرودة في الاسنان ، وقيل : هو تحديد في الاسنان ، الشفاف : البارد .

٣ ـــ أنظر مثلاً قوله في شرح ديوانه المخطوط ص ١٣١ و ص ٣٣٧ وفي مجموع أشعار العرب ص ١٢١ و ص ١٤٤ .

٤ ـــ من ذلك قوله :

وزائر حبيــه اغبــاؤه طال على رغم الثرى اجتنابه

جــاءت بــه مسبلة هــدابه ركب حياة والصبا ركابه

باكٍ ضنين رعـده انتحابه حتى اذا ما اتصلت اسبابه

وضربت على الثرى قبــابه وامتـــد في ارجائه اطنـابه

وشرفت بمـــائه شـــعابه جلى عن وجـه الثرى اكتئابه

وخليت في نورهـا رحـابه كأنمـا المـاء انجـلى منجابه

شيخ كبير عاده شبابه

كما ابدع أبو تمام في هذا الباب فانشأ مطرياته الرائعة التي تناول فيها الأنواء والبروق والسحاب والرعد ، وقد وجد في اجتماع البرق الذي هو نار ، والمطر الذي هو ماء ، حكمة الهية العظيمة ، حتى ذكر ذلك في رجزه (١)

هذه هي صورة المطر والبرق والرعد انطبعت في ذهن العرب وهي تحمل في طياتها ميلاً شديداً نحو المطر ، وحباً وغراماً بـه ، ذلك لأنه باعث للنماء والخصب ومحيي الارض المجدبة ، ونظراً لهذا الولع الشديد بالمطر فقد وجدنا رجزه زاخراً بذكره وصفاته ، اذ استطاع هذا الرجز ان يصور مشاعر الرجاز واحاسيسهم تجاه المطر واثره فيهم .

٧ ــ الأشجار والنباتات : ــ

وكما وصف الرجاز المطر واثره في نفوس العرب ، فانهم وصفوا الاشجار والنباتات التي عرفوها في جزيرتهم ، وكان جلها يلائم المناطق الصحراوية وما فيها من حر وجفاف . وعلى هذا فالراجز لم يغفل عن وصف الاشجار التي استظل بظلها وتغذى بثمرها ، كما لم يغفل عن وصف النباتات التي كانت غذاء لحيوانه وعلى الاخص الابل ، واهم تلك النباتات التي كانت ترعاها الأبل هي الحمض والاشنان وما شابه ذلك من اشواك وغيرها . قال ركاض الدبيري يصف ابلاً كانت ترعى الحمض والاشنان : (٢)

---

١ ــ أنظر ديوانه بتحقيق عبد الحميد يونس ص ٣٥٧ .

٢ ــ امالي القالي ٨١/١ بيروت .

تربعت في حرضٍ وحمـــض جاءت تهض الارض أي مض(1)
يدفع عنها بعضها عن بعضٍ مثل المذارى شمن عين المغضي(2)

وقال الراجز يصف ابلا رعت الحمض في بلاد خالية فحرق اكبادها فهزلت فما كادت تسير : (3)

حرقها حمضُ بلادٍ فلٍ وغتم نجمٍ غيرِ مستقلِ
فما تكادُ نيبها تولي

وكان الحماض من نباتات الجزيرة المعروفة ، منه حامض ومنه مر وله ورق أزرق . قال الزفيان يصف ما زينت به الهوادج : (4)

كأنما علقن بالاسدان يانع حماضٍ واقحوان

وثمر الحماض هذا ، ابيض فيه حمرة ، وبه شبه رؤبة دم الحمر الوحشية النازف منها نتيجة رميته لها ، ذلك لأنه كان يخرج مع الدم

---

1 ـــ تربعت : اقامت في الربيع ، الحرض : الاشنان ، الحمض : ما ملح من النبات ، تهض : تدق .

2 ـــ قوله : يدفع عنها بعضها عن بعض ، اي هي مستوية حسان كلها ليست فيها واحدة تبينها فتسبق اليها العين ، ولكن اذا قيل : هذه احسن ، قيل : لا ، هذه ، فيدفع بعضها عن بعض العين ان تعينها ، وشمن : فتحن عين المغضي فينظر اليهن وهن مثل المذارى في الحسن .

3 ـــ اراجيز العرب /5 .

4 ـــ امالي القالي 2/42 بيروت .

زبد يختلط به . قال : (١)

ترى بها من كل مرشاش الورق   كثمر الحماض من هفت العلق (٢)

وكان لون ثمر الحماض يستهوي الرجاز فيتخذونه مثلاً يشبهون به حلي النساء في جمال شكله وبداعته . قال رؤبة : (٣)

وعلقتْ من أرنبٍ ونخل   كثمرِ الحماض غيرِ الخشلِ (٤)

ومن بين النباتات التي ترعاها حيواناتهم والتي وردت في رجزهم القراص والحمصيص وهما ضربان من النبت : قال بعض الرجاز : (٥)

يارب شاةٍ شاص   في ربرب خماصٍ (٦)
يأكلنَ من قراصٍ   وحمصيص آصٍ (٧)

---

١ — شرح ديوان رؤبة — مخطوط /٨٣ ومجموع اشعار العرب /١٠٨ واراجيز العرب /٣٧ .

٢ — ترى بها : أي بالاتن ، الورق : قطع الدم ، يقول : يخرج من موضع كل رمية مرشش : أي رمية ترش الدم ، والهفت : السقوط ، العلق : الدم .

٣ — شرح ديوان رؤبة — مخطوط / ٩٥ ومجموع اشعار العرب / ١٣٠واراجيز العرب / ١٢٨ .

٤ — أرنب ونخل : ضربان من الحلي ، والحماض : ثمره ابيض ثم تدخله حمرة أي تشكله فهو حسن فشبه الحلي به ، والخشل : الضعيف .

٥ — اراجيز العرب / ٩٧ .

٦ — الشاة : ثور بقر الوحش وشاص : منتصب .

٧ — آص : متصل .

ولاح لأعينهم في باديتهم شجر السلم فتأثروا به في ضمور اغصانه وصلابتها فشبهوا به النوق التي هزلت من السير . قال جرير يصف الابل التي حملت الوفد الى الحكم بن ايوب الثقفي : (١)

اقبلن من ثهلان أو وادي خيم على قلاص مثل خيطان السلم (٢)
قد طويت بطونها طي الأدم (٣)

اما الاشجار التي كانت تتخذ منها المساويك فهي الأراك والاسحل والبشام وغيرها فمن هـذه الاشجار التي وردت في رجـز الرجاز الاسحل والبشام .

قال رؤبة يصف ثغر حبيبته وأسنانها التي كانت تنظفها بسواكها الذي اتخذته من هذه الاشجار : (٤)

تمبح بالأسحل والبشام كما جلا عن برد بسام (٥)
برق اغر طيب الأنسام كأن مسكاً ذاكي الفغام (٦)

---

١ ــ اراجيز العرب / ٥٥ .

٢ ــ ثهلان : جبل ، والقلاص : جمع قلوص وهي الشابة من الابل ، وخيطان يريد اغصان ، والسلم : شجر شائك ينمو في البلاد الحارة ثمره اصفر .

٣ ــ الأدم : الجلود المدبوغة .

٤ ــ مجموع أشعار العرب /١٤٤ واراجيز العرب / ٨٠ .

٥ ــ تحميح : تسوك ، والبشام : شجر طيب الرائحة .

٦ ــ الانسام : الرائحـة ، والفغام : يقـال : فغمـه الطيب وشمله : اذا وجد رائحته .

خالطَ بعدَ وسنِ المنامِ   ريّا العظامِ عذبةَ اللغامِ (١)

ورأى الرجاز البردي – وهو نبات مائي كالقصب – فتأثروا بـه واتخذوه مثلاً شبهوا به عظام النساء في دقتها وضمورها ، قال العجاج يصف شابة حسنة عاشت في هناء ونعمة : (٢)

وقد تُرى اذ الحياة حي   واذ زمان الناس دغفلي (٣)
خوداً ضناكاً خلقها سوى   كانما عظامهـا بردي (٤)
سقاهُ ريّا حائرٌ روي (٥)

هذا وقد وجدت بعض الاشجار الكبيرة في مناطق معروفة من بلاد العرب ، كالسدر والنخيل والزيتون وما الى ذلك . وكان للتمر ـ وهو مايزال غذاءً رئيسياً عند أهل العراق وغيرهم ـ أثر كبير في نفوسهم ، انعكس في رجزهم وقصيدهم ، قال راجز يصف تمراً رديئاً لم يعجبه : (٦)

يالكَ من تمرٍ ومن شيشاءِ   ينشبُ في المسعلِ واللهاءِ (٧)

رأينا مما تقدم ان الرجز قادر على تصوير الطبيعة الصامتة بكل

---

١ ـ ريا العظام : يريد بها حبيبته ، واللغام : الريق .
٢ ـ شرح ديوان العجاج / ٩٤ وأراجيز العرب / ١٧٥ .
٣ ـ اذ الحياة حي : أي اذ الحياة حياة ، ودغفلي : واسع كثير .
٤ ـ الضناك : الضخمة .
٥ ـ الحائر : الماء المجتمع .
٦ ـ أمالي القالي ٢٤٦/٢ بيروت .
٧ ـ الشيشاء : الشيص .

مظاهرها حتى أنه نقل لنا هـذه اللوحات البديعة عن الطبيعة التي احاطت بالعرب .

ثانياً : الطبيعة الحية :

لم تساعد بيئة العرب الطبيعية على الزراعة ، لأن أكثرها صحراء مجدبة ، شحيحة المياه ، كثيرة الرمال ، كما ان الصناعة فيها قليلة ، أو قل انها تكاد تكون معدومة الا في اماكن محدودة . ولهذا اضطر العربي الى ان يتخذ الحيوان وسيله للعيش ومصدراً اساسياً للرزق . ومن هنا رأينا حرص العربي شديداً في المحافظة عليه والعناية بـه ، فالحيوان هـو الواسطة الوحيدة للنقل في تلك الصحراء ، والحيوان هو الوسيلة القوية الناجحة في الحرب في ذلك الوقت واخيراً فهو طعام الجائع ، وزاد المحتاج ، وسؤل الطالب ، ومفخرة الغني ، وعطاء الكريم .

يظهر من هذا ان حياتهم كانت تعتمد الى حدٍ كبير على هـذا الحيوان ولهذا راحوا يتنقلون وراء ماشيتهـم من مرعى الى مرعى ، ومن موضع ماء الى آخر ، يقيمون أودها ، ويحفظون حياتها .

كانت هذه فوائد الحيوان التي حصل عليها العربي في ذلك الزمن وهي فوائد عظيمة كانت لها مكانة مهمة في حياة العرب .

أما تأثير هذا الحيوان في نفوسهم ، فكان تأثيراً قوياً ، نظراً لتلك المكانة التي كان يحتلها ، وقد تجلى هذا التأثير واضحاً في آداب الأمـة العربية ، ولاسيما فيما وصل الينا من شعرها ، فقد جاء هذا الشعر طافحاً بذكر الحيوان على اختلاف أنواعه ، والاشارة الى اوصافه واجناسه ، كما

ان كثيراً من العلماء ألفوا كتباً في هذا الموضوع .

وقد تعلق الانسان بالحيوان تعلقاً شديداً منذ القدم ، ذلك لأنه اعانه على تذليل كثير من مصاعب الحياة ، والوصول الى ما كان يرمي اليه من الغايات ، وهذه العلاقة القوية منحت الانسان القدرة الكافية على وصف الحيوان باوصاف خلدته في آثاره وبقاياه .

وتعلق العرب — كغيرهم من الاقوام — بحب هذه الحيوانات ، فقربوها واعزوها ومنحوها رعايتهم ، ولم يكونوا قادرين على العيش بمعزل عنها .

وانك لتقرأ غرر قصائد العرب ، فتجد وصف الحيوان ، أو ذكره أو اتخاذه وسيلة للوصول الى غاية ، تحتل جانباً كبيراً في تلك القصائد ، ونادراً ما يغفل الشاعر عن التطرق الى الحيوان في شعره .

ونجد في رجز العرب — كما نجد في قصيدهم — صوراً عديدة جميلة لحيوانهم الذي عاشروه طوال حياتهم ، والذي كان أنيساً ورفيقاً ومساعداً لهم في كل وقت ومكان .

فلو رجعنا الى المعلقات — وبالأخص معلقتي امرىء القيس وطرفة — لوجدنا اكثرها يدور حول الحيوان . وفي نفس الوقت نجد أن أراجيز العجاج ورؤبة وأبي النجم ورجز الحداء والطرد ، قد ملىء بصور كثيرة للحيوان . وسأحاول اجلاء بعض هذه الصور في الصفحات التالية :

١ ـ الحيوان الأليف

أ ـــ الابل :

كانت الأبل أكثر الحيوانات ملائمة للحياة في الصحراء ، فهي – بما وهبت من خف يستطيع السير على الرمال فلا يتأثر بها ، وجوف يمتلىء ماء ويمدها به حين عطشها فلا تطلب الماء أياما عديدة ، وما كان لها من سنام كيفها لتحمل الجوع ووضع الهوادج ، وفم يتمكن من أكل الشوك ، وهو النبات المنتشر في الصحراء ، فلا يضيره شيئاً – دليل على أن الله سبحانه وتعالى كان رحيماً بالعربي اذ هيأ له من الحيوان ما يلائمه ويناسبه في صحرائه تلك ، ولهذا ضرب الله المثل بالأبل في بداعة الخلق وعجيب الصنع اذ قال : (أفلا ينظرون الى الأبل كيف خلقت) [١]

وقد كانت الأبل رفيقة العرب في حلهم وترحالهم ، يشربون ألبانها ويأكلون لحمها ، ويحملون اثقالهم عليها ، ويتخذونها مركباً ذلولا في سلمهم وحربهم ، فتوصلهم الى اماكن لم يكونوا بالغيها الا بشق الأنفس . (٢)

ونظراً لما لهذه الأبل من فوائد جمة ، فقد أثرت فيهم تأثيراً كبيراً وأيما تأثير . لقد تجلى هذا التأثير العظيم فيما بين ايدينا من شعر العرب : رجزه وقصيده .

لقد وصف العربي رجزاً هذا الحيوان العجيب ، وصور اعضاءه ، وأشاد بمحاسنه ومزاياه وفوائده ، واندمج معه اندماجاً روحياً ، وشاركه بعواطفه واحاسيسه ومشاعره . وكان يسميه كما يسمى الناس . قيل : كان للعجاج جمل سماه (مسحولا) وقد ذكر ما يلاقيه مسحول هذا من

---

١ ـــ سورة الغاشية – آية ١٧ .

٢ ـــ سورة النحل – آية ٧ .

عنت وعذاب وضيق في مطلع احدى أراجيزه بقوله : (١)

أصبحَ مسحولٌ يوازي شقا   ملالةً يملهـــا وأزقا (٢)

وكان يتألم لألمه ويضجر لما يلاقيه جمله من مشقة وضيق ، فكان يصف حاله وهو في حبسه مع الأبل ، بانه مل هذا المقام كما يمل الرجل المأسور أسره ، وأنه قد اشتاق لأن يمتطيه صاحبه فهو يريد لقاءه ومصاحبته والبقاء معه : (٣)

أُنيخَ مسحولٌ مع الصبار   ملالةَ المأسور للأسار (٤)

يفني جميع الليلِ بالتزفار   وعبرات الشوقِ بالأدرار

وللعجاج جمل آخر اسمه (جمان) ذكره في احـــدى أراجيزه وصور احاسيسه تجاهه وهو عاطل عن المسير ، قال : (٥)

أمسى جمانُ كالرهين مضرعا   ببطحانَ ليلتينِ مكنعا (٦)

وبالمراض أربعاً وأربعـــا   ترى الفراريجَ عليه وقعا

وكان العجاج عطوفاً على جمله هذا شفوقاً عليه ، فكان يلازمه ، ويصلح حاله ، ويخدمه ، ويعتني بزينته ورحله ، حتى رأتـه زوجته ذات

---

١ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط / ٢٧ .

٢ ــ يوازي : يكون بازاء مشقة ، والازق : الضيق .

٣ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط/٢٨ وأراجيز العرب/١٥٧ .

٤ ــ الصبار : الابل المحبوسة ، يقول : مل مكانه كما يمل الذي أسر .

٥ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط/١٠١ .

٦ ــ كنع كنوعا : تقبض وانضم .

يوم يصلح رحله في بيته ، فاستنكرت ذلك ، فقال لها : (١)

جاري لا تستنكري عذيري سعي واشفاقي على بعيري (٢)
وحذري ماليس بالمحذور وقدري ماليس بالمقدور

وكثيراً ما صور الرجز مشاعر الانسان ازاء الحيوان وما يحس به نحوه ، فهذه الابل ليست جماداً انما هي حيوانات لها ما للانسان من مشاعر وعواطف ، ربما فاقته في بعضها من ذلك مثلا الحنين الذي اشتهرت به الابل ، فهي اذا ما فارقت وليدها برح بها الشوق والحنين اليه ، وقد قالوا ان (اكرم الابل اشدها حنينا ، واكرم الصفايا أشدها حبا لأولادها) (٣)

وقد تمكن الرجز من وصف هذا الحنين وتصوير مشاعر الانسان تجاه الابل ، قال الراجز :

ياايها الساقي القليل ذامه افرغ لورد قد دنا سوامه
تقدمه اذرعه وهامه عجم اللغات انما كلامه
تجاوب بالسجع أو إرزامه (٤)

---

١ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط/٦٨ وأراجيز العرب/٨٥ .
٢ ــ العذير : الحال ، يقول : نقدر اشياء لايجوز ان تقع ولا تكون .
٣ ــ الحيوان ــ الجاحظ ١١/٧ هارون .
٤ ــ اراجيز العرب ــ البكري / ٩٧ . السجع هاهنا الحنين ، والارزام اضعف منه واخفى ، وهو يصف الابل .

وقال الراجز يحدو ابلا : (١)

دع المطايا تنسجم الجنوبا ... ان لها لنبأ عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا ... يشهدُ أن قد فارقتْ حبيبا(٢)
ما حملتْ الا فتى كئيبا ... يسر مما اعلنتْ نصيبا
او تركَ الشوقُ لنا قلوبا ... اذاً لآثرنا بهن النيبا (٣)
ان الغريب يسعد الغريبا

أي وحدة بين مشاعر الانسان والحيوان وأي تجاوب روحي بين مخلوقات الصحراء هذا الذي نراه ؟ انني ارى في هذه الصورة ان الحيوان اصبح خير صاحب للانسان ، حتى راح الانسان يتحسس مشاعره ويعطيه الحرية في ان يتنسم هواء الأحبة الذين فارقهم ، فآلمه الوجد وأودى به الحنين ، ولكنه في كل هذا اكثر جلدا من الانسان واصبر منه فاذا كان الانسان لا يهدأ الا ان يعلن شوقه وحبه ، ويبث شكواه وحنينه فان الجمل يكتم هذا ولا يبوح به ، ولا ادل على صدق المشاعر التي يكنها الانسان للابل من قول ذي الرمة حينما شبه مشيتها بمشية الامير ووجهها بالحرير ، قال : (٤)

أصهب يمشي مشيةَ الأميرِ ... لا أوطف الرأس ولا مقرورِ(٥)

---

١ ـــ تاريخ اداب اللغة العربية ـ زيدان ١/٦٥ اراجيز العرب / ٤ .

٢ ـــ اللغوب : التعب .

٣ ـــ النيب : جمع ناب وهي الناقة المسنة .

٤ ـــ اراجيز العرب ـ البكري/١٣٨ .

٥ ـــ أصهب : يريد بعيرا اصهب ، والأصهب هو الذي في بياضه حمرة ، والأوطف : الكثير الشعر .

كأن جلدَ الوجهِ من حريرِ أملس الا خطرة الجريرِ (١)
بخطمهِ أو مسحب التصديرِ بينَ الحشا وظلفات الكور (٢)

وكان رؤبة وصافاً للجمل اذ قال لمسلم بن قتيبة : ادني من ذنب البعير (٣) وذلك حينما وصف الخيل فاخطأ فذكر انه اقدر على وصف البعير من غيره ، ونقل لنا الرجز صورا كثيرة لجوانب مختلفة من هذا الحيوان ، فمما حدثنا به الرجز ان كثرة الابل عند العربي دليل الغنى ورفاهية العيش حتى انهم اطلقوا عليها اسم المال ، قال الراجز يذكر ما عنده من مال :

لا مالَ الا ابل جماعه مشربها الجبة أو نعاعه (٤)

وعلى عكس ذلك فقد كانت قلة الابل دليلا على الفقر والفاقة ، قال رؤبة معللا انصراف الغواني عنه : (٥)

لما ازدرت نقدى وقلت ابلي تألقت واتصلت بعكلِ (٦)

---

١ ــ الجرير : الحبل ، وذلك ان العرب اذا ارادت ان تروض البكر الصعب حك الرائض اعلى خطمه بحبل حتى يؤثر فيه كالوسم ، ثم يجعل عليه حبلا يقوده فينقاد .

٢ ــ الخطم : الانف ، والتصدير : حبل يجعل على الصدر يشد به الرحل لئلا يتأخر ، والكور : الرحل ، وظلفاته : اطرافه .

٣ ــ الشعر والشعراء ٢/٤٩٦ بيروت .

٤ ــ لسان العرب ــ مادة (جبب) والجبة : موضع .

٥ ــ شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط/٨٥ ومجموع اشعار العرب /١٢٨ .

٦ ــ تألقت : أي تغيرت وتلونت ، واتصلت بعكل : أي قالت بالعكل ،

وقد وجد العربي ان حركات بحر الرجز وايقاعاته تشبه الى حد ما حركات الابل في سيرها ، اذ انهم رأوها (تصر آذانها اذا حدا في آثارها الحادي ، وتزداد نشاطاً وتزيد في مشيها) (١) فراحوا يتغنون لها بنوع من الشعر اطلقوا عليه اسم (الحداء) وكان هذا الفن من بحر الرجز بأنواعه القصيرة والطويلة ، وقد جاء الرجز يحمل الينا ما كانت تتحمله الابل في قطع المسافات الطويلة ، واجتياز المهامه والقفار ، دون ان تضجر أو تمل ، أو تشكو وتسأم ، فهي تسير ولا تعيقهـا وعورة الصحراء ، ولا تثنيها عن مواصلة سيرها ظروفها القاسية .

وقد كان العربي يفخر بذلك ، ويثني على ناقته ، ويصفها بما يدل على القوة والسرعة ، اذ كانت هذه الابل القلص تجتاب بهم تلك الفيافي وتتعسف بهم مجاهل الطريق . قال رؤبة : (٢)

تعسفتها قلص تجتابهـا الى دفانٍ سدمٍ اشرابها (٣)

وقال أيضاً يصف وعورة الطريق الذي قطعه بابل ضخام استطاعت ان تسير فوق الاحجار وبين القور والاكام : (٤)

بادرتُ ورداً من قطاها النئام الى محلاتِ المساقي أسدام (٥)

---

١ ــ الحيوان ــ الجاحظ ١٩٣/٤ هارون .

٢ ــ مجموع اشعار العرب / ٢١ .

٣ ــ مر شرح الابيات في صفحة ١٤٦.

٤ ــ مجموع اشعار العرب /١٣٦ .

٥ ــ النئام : المصوت ، والاسدام : المتغيرة من طول المكث .

من دائرٍ دفرٍ ومن داوٍ طام   يصدرنَ في عاري المعاري نهام(١)
بقلاصٍ يصدعنَ بين الاوجام   ضرح المعالي عن قياس الانشام(٢)

وهم كثيراً ما واصلوا سير الليل بالنهار ، تقلهم ناقة شديدة عوجاء قد اضناها طول التطويح والجوع والعطش اضف الى ذلك شدة سيرها تحت الشمس القوية المحرقة ، قال العجاج (٣)

قلتُ لعنسٍ قد ونت طليحِ   عوجاءَ من تتابع التطويح (٤)
بالجذعِ بعدَ الجذعِ والتلويحِ   والنص بالهاجرةِ الصموحِ (٥)
لا تأملينَ في السرى ترويحي   وان تشكيتِ أذى القروح (٦)

وقد كانت أكثر الابل قوة ، واشدها تحملا ، واسرعها سيراً ، تلك الناقة الصلبة الضامرة المهزولة الخفيفة ، قال العجاج يذكر ناقته ويصفها بهذه الأبيات : (٧)

---

١ ــ دفر : خبيث الرائحة ، المعاري : المواضع التي لا تنبت ، والنهام : وسط الطريق الواضح .
٢ ــ القلاص : الطويلة القوائم ، والاوجام : حجارة ، موجومة بعضها فوق بعض على رؤوس القور والاكام او هي علامات تهتدي بها في الصحارى .
٣ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط /٥٥ .
٤ ــ العنس : الناقة الشديدة ، ونت : فترت ، قال : هي معيية قد طلحت .
٥ ــ الجذع : الحبس على غير العلف ، والتلويح : العطش ، والنص: ارفع السير واشده ، ويقال : صمحته الشمس اذا اشتد وقعها عليه .
٦ ــ قوله : لا تأملين : أي لا ترجي ان اروح عنك وافتر ، والقروح : الدبرُ .
٧ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ٥١ واراجيز العرب /١٧ .

فكم حسرنا من علاةٍ عنسلٍ   حرفٍ كقوسِ الشوحطِ المعطل(١)
لا تحفلُ الزجرَ ولا قيل حلٍ   تشكو الحفا من اظللٍ واظللٍ (٢)
وطولِ املالٍ وظهرٍ مملٍ   بوبزلٍ في راجفاتٍ بزلٍ (٣)

وامتطاء مثل هذه الناقة السريعة ربما كان أمنية راودت الكثير من الاعراب الذين حرموا نعمة الابل هذه ، قال أحد هؤلاء : (٤)

ياليتَ شعري والمنى لا تنفع   هل اغدون يوما وأمرىء مجمع
وتحتَ رحلي زفيان ميلـــع   كأنها نائحة تفجـــع (٥)
تبكي لميتٍ وسواها الموجع

وقد وصف جرير الابل التي حملته الى عدوحـــه بأنها هزيلة

---

١ ـــ حسرنا : أي تركناها هازلة ،العلاة : الناقة الجسيمة ، والعنسل :الخفيفة ، والحرف الضامرة المهزولة وشبهها بقوس الشوحط لصلابتها ، والمعطل : التي ليس عليها وتر ولا سيور يقول : تركت عن الرمي بها لصلابتها .

٢ ـــ قوله : لا تحفل ، أي لا تبالي السوط ولا الزجر ، قد اعيت فلا تبالي ، وحل : زجر للنوق اذا اعيت وابت ان تمشي .والاظلل : ما تحت المنسم أي باطن الخف .

٣ ـــ قوله املال : يريد انه امتطاها حتى يملها : أي اعيت ، والراجفات التي ترجف رؤوسها في السير . البازل : الذي انشق نابه .

٤ ـــ امال المرتضى ٥٥٩/١ طبعة أولى .

٥ ـــ الزفيان : الناقة الخفيفة ، الميلع : السريعة ، وشبه رجع يديها في السير لنشاطها بيدي نائحة تنوح لقوم على ميتهم بأجرة فهي تزيد في الاشارة بيديها ليرى مكانها .

كخيطان السلم حين مدح الحكم بن ايوب وهو خليفة للعجاج يومئذ (١)

بيد ان هذا السير المتواصل ، وهذه السرعة الشديدة ، كثيراً ما تترك في الابل جروحاً بسبب حزمهن ، قال الراجز يصف ابلا يتجافين عن جراحهن : (٢)

اذا تجافينَ عن النسائـــجِ   تجافيَ البيضِ عن الدمالجِ (٣)

وليس هذا وحده ما يفعله فيهن تتابع المسير ، انما يتركهن هزلاً وكأنهن شرائج نبع ، قال الراجز : (٤)

كأنها وقـــد براها الابراس   ودلجُ الليلِ وهادٍ قياس (٥)

شرائجُ النبعِ براها القواس

وتناول الرجز وصف الابل السريعة ، وما يجب ان تتحلى به من صفات ، من ذلك مثلا ان تكون صلتة ، أي منحسرة الشعر غير وبراء ذلك لأن الهجينة شعراء العنق ، كزة ، قال رؤبة : (٦)

---

١ ــ انظر الاغاني ١٤/٨ وزارة الثقافة والارشاد .

٢ ــ امالي القالي ١٧٦/١ بيروت .

٣ ــ يقول : بهن جراح من حزمهن ، فهن يتجافين عنها كما تتجافى النساء عن دمالجهن اذا بردت عليهن .

٤ ــ امالي القالي ١٢/١ بيروت .

٥ ــ الدلج : سير الليل كله .

٦ ــ شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ص ٦٢ ومجموع لشعار العرب ص ١٠٤ واراجيز العرب ص ٢٣ .

تنشطنه كلُّ مغلاةِ الوهق   مضبورةٍ فرواء هرجابٍ فنق(١)
مائرةِ العضدينِ مصلات العنق   مسودة الأعطاف من وسم العرق(٢)

وكان لسرعة تقليب يدى الابل ورجليها في السير أثر ظاهر في نفوس العرب وضح في رجزهم ، حيث راحوا يشبهون سرعة المائح بسرعة الابل وهي تسير في أرض مستوية واسعة ، قال الراجز : (٣)

كأنَّ أوبَ مائحٍ ذي أوْبِ   أوبُ يديها برقاقٍ سهبِ (٤)

وقد شبه الرجاز الأبل السريعة بتشبيهات عديدة ، اذ انهم شبهوها بزورق خفيف المؤخر سريع الجرى ، وشبهوها ، بذكر النعام في سرعته المشهورة ، كما شبهوها بالحمار الوحشي الطويل القوائم السريع العدو ، قال رؤبة يصف ناقته : (٥)

---

١ ــ النشاط : ان تتقدم اليد ثم تسرع رجعها ، المغلاة : المبعدة ، وتغلو : تبعد في الغلو ، الوهق : السير : المضبورة : المجموعة الخلق ، الفرواء : الطويلة ، الهرجاب : الضخمة الوثيقة الخلق ، الفنق : الفتية الكثيرة اللحم .

٢ ــ المائرة : هي التي تمور : أي تجيء وتذهب ، يقول : انها ليست بكزة اليدين أي قليلة الشعر غير وبراء ، وقوله : مسودة الاعطاف : أي انها جهدت حتى عرقت وتراكب عليها العرق واسود ، وقد صار هذا وسما عليها .

٣ ــ لسان العرب ــ مادة (أ و ب) .

٤ ــ الأوب : السرعة ، أو سرعة تقليب اليدين والرجلين في السير ، والمائح : الذي يستقي الماء مغترفاً ، الرقاق : أرض مستوية لينة التراب صلبة مانحت التراب ، السهل : الواسع .

٥ ــ مجموع أشعار العرب ص ١١٠ وشرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ص ١٢ .

كأنَّ أقتادي جلزنَ زروقا أزلٌّ أو هيقَ نعامٍ أهيقا
أو أخدرياً بالثماني سهوقا ذا جددٍ اكدَرَ أو تزهاقا

ان تشبيه رؤوبة هــذا للأبل بالزورق الخفيف ، يدل على بداية تأثر الرجاز بالبيئة النهرية في العراق ، فالزورق الخفيف لايوجــد في البحار ، وانما يستعمل غالباً في الانهار ، ومن هنا رآه رؤبة في انهار العراق فتأثر به .

ونرى في الرجز تأثير الأبل في أهل الصحراء في كل حالة مـن حالاتها ، حيث أثرت فيهم بسرعتها ، وحينما تنطلق في الصحـراء وهي تتبختر في مشيها ، وهــذه الصورة أثرت حتى في دعائهـم ، اذ راحوا يتضرعون الى رب هذه الابل التي ترفل (١) في سيرها أن يعفو عنهـــم ويتقبل توبتهم ، ويثمر اعمالهم ، قال العجاج : (٢)

يارب رب البيــت والمشرق والمرقلاتِ كلِ سهبٍ سملق(٣)

كما رأينا في الرجز تأثيرها فيهم حينما تبرك وهي تطلق صوتـا كأنه انين السقيم ، قال حكيم بن معية : (٤)

اذا علونَ اربعاً بأربـــع في جمجعٍ موصيةٍ بجمجعٍ
أنن تأنان النفوس الوجع (٥)

---

١ ــ ترفل : أي تجر ذيلها وتتبختر .

٢ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ٤٠ .

٣ ــ السهب : الارض البعيدة المستوية ، والسملق : القاع الصفصف .

٤ ــ امالي القالي ١٦٠/١ بيروت .

٥ ــ يعني الابل علون اربعة أو ظلفة بأربع اذرع ، وكأنه انث على الكراع ، وأنن : من الانين : يعني انهن اذ بركن انن .

ولم يقف وصف الرجاز للابل عند هذا الحد ، انما تعدى ذلك الى شيء هو اكثر ما يكون اتصالا بمشاعر العربي وعواطفه ، ذلك هو الغزل ، نعم ، ان العربي تمنى ان تكون حبيبته معه حتى في اثناء عمله الكي تساعده في رفع الحمـل على البعير ، قال أمية بن ابي الصلت (١) :

ياليتَ امَّ الفيضِ كانت صاحبي مكانَ من أنشا على الركائبِ
ورابعتني تحت ليلٍ ضاربٍ بساعدٍ فخمٍ وكفٍ خاضبِ (٢)

وكانت عادة العرب أن يردوا بأبلهم الماء نهاراً ، وفي هـذا دليل على شجاعة صاحبها وبأسه وقوته ، وبأنه لايرهب الاعداء والمغيرين . أما ورد الليل فقد كان علامة الخوف والجبن ، قال الراجز يطلب من صاحبه أن يرد ليلاً خوفاً عليه من اللصوص : (٣)

لا تردنَّ الماءَ الا آيبـــه اغشى عليكَ معشراً قراضبة (٤)
سودَ الوجوهِ يأكلونَ الأهبة

اراد ان يحذره من هؤلاء القوم ، فأخبره بان لايرد الماء الا ليلاً . وكان لعاب الأبل يسقط في الحوض فيخالط الماء فيظهر اثره ثم يجلب

---

١ ــ امالي القالي ١٤٦/١ و ٣٥/٣ بيروت .

٢ ــ يقال : رابعت الرجل وهو أن تأخذ بيده وبأخذ بيدك تحت الحمل ثم ترفعاه على البعير .

٣ ــ لسان العرب ـ مادة (أ و ب) .

٤ ــ الآيبة : أن ترد الابل الماء كل ليلة ، القراضبة : اللصوص ، الأهبـــة : جمع اهاب وهو الجلد .

انتباه الرجاز ، قال هميان بن قحافة : (١)

فأسأرت في الحوض حضجاً حاضجا   قد عادَ من انفاسها رجارجا (٢)

وجانب آخر من الابل وصفه الرجز ، وهو مرضها وطريقة علاجها، فحينما يصيبها داء الجرب يسرع صاحبها الى طليها بالهناء وهو القطران وهذا الدواء يشفي الأبل من الجرب ، قال رؤبة : (٣)

والجرب اكوى عرَّها واطلي   بالقارِ أو بالقطرانِ الشعل (٤)

وقد كانوا يغمسون خرقة أو صوفاً في القطران ثم يدهنون بهـــا الاجرب ويفردونه عن باقي الابل لئلا يعديها ، قال صخر بن عمير يذكر الخرقة التي تغمس بالهناء ويطلى بها موضع الداء : (٥)

وهل علمت فحشاء جهله   مغوثةٌ اعراضهم ممرطلـــه
كما تلاثُ في الهناء الثملة (٦)

وقد تعتري الابل حالات الهيجان ، فتحبس في محل يسمى (العنة)

---

١ ـــ امالي القالي ١/٢٥٧ بيروت .

٢ ـــ اصل الرجرجة : الماء الذي خالطه لعاب ، وجمعـــه رجارج ، الحضج : مايبقى في حياض الابل من الماء .

٣ ـــ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط ص ٨٧ ومجموع أشعار العرب ص ١٢٩ .

٤ ـــ العر : الجرب ، الشعل : الذي يشتمل من الجسد .

٥ ـــ امالي القالي ١/١٨ و ٢/٢٨٥ بيروت .

٦ ـــ مغوثة : أي مذللة ، الممرطلة : الملطخة بالعيب ، الثملة : خرقة تغمس في الهناء .

خشية أن تصيب احداً بمكروه ، وهـذه العنة هي حظيرة للأبل تحبس فيها ، ومن ذلك قيل للبعير معنى ، وهو الذي قد هاج فحبس في العنة ، قال الراجز يذكرها : (١)

محلها إنْ عكفَ الشفيفُ   الزرّبُ والعنة والكنيف (٢)

بعد هذا كله نستطيع أن نقول : ان الرجز تمكن من تصوير بعض الجوانب المهمة في الابل ، واجلائها بصورة واضحة ، كما استطاع ان يبرز لنا عواطف العربي واحاسيسه نحو الحيوان عامة والابل خاصة ، ويعطينا مثالاً جلياً لامتزاج مشاعر الانسان بمشاعر الحيوان .

ب ــ الخيل :

استأثرت الخيل بجانب كبير من رجز العرب ، حتى خلد لنا الرجز صوراً بديعة لهذه الخيول العربية الأصيلة ، وكيف لاينصرف العربي الى وصفها والاشادة بها وهي سلاحه في المعركة ورفيقه في السفر وأنيسه في الوحشة ومفرج همومه عند الضيق .

يحدثنا رجز العرب انهم كانوا يكرمون الخيل ويعتنون بها ، ويأنفون من أن يدنس صهواتها من لايستحق امتطاءها ، قال الاشهب بن رميلة وكان أول من رمى بني مجاشع بأنهم قيون : (٣)

يا عجباً هل يركب القينُ الفرسْ   وعرقُ القينِ على الخيل نجس

---

١ ــ امالي القالي ١٧٤/١ بيروت .

٢ ــ عكف : اقام الشفيف : البرد .

٣ ــ الحيوان ٣١٥/١ هارون ، وخزانة الأدب ــ البغدادي ٥١٠/٢ بولاق .

وانمـــا اداتـــه اذا جلس الكلبتانِ والعلاةُ والعنس (١)

ألا ترى ان العرب كانوا يرون أن الخيل لايصلح لأمتطائها الا السيد الكريم ، اما اولئك القيون فليسوا اهلاً لأعتلاء ظهورها ، وانما شغلهم عن ذلك نفخ الكير والصناعات الحقيرة ، وكانوا يختارون من الخيول اجودها واشهرها نسباً ، حيث كان لها انساب معروفة مشهورة ، ذكر صاحب انساب الخيل أكثر من مئة فرس من افراس الجاهلية والأسلام مع نسبتها الى اصحابها (٢) .

وبالأضافة الى معرفة انسابها وعدم الخلط بينها ، اطلقوا عليها اسماء خاصة ليتمكنوا من تمييزها وقد كان لزيد الخيل ستة افراس بأسمائها (٣)

وقد وصف الرجز الخيل التي استأثرت بأهتمام العرب جملة وتفصيلاً ، حيث تناولوا اعضاءها بالوصف والتشبيه ، من ذلك مثلاً اذانها ، فقــد رأوا انها ان كانت صغيرة دقيقة ، كان ذلك دلالة عتقها ، لهذا شبهوها بالأشياء الصغيرة اثباتاً لما ذهبوا اليه من أن هذا الصغر علامة نجابتها ، روى أن العتابي دخل على الرشيد فأنشده في وصف الفرس : (٤)

كأنَّ اذنيهِ اذا تشوّفا قادمة أو قلما محرّفا (٥)

---

١ ــ العلاة : السندان .

٢ ــ انساب الخيل ــ ابن الكلبي ص ١٢٩ .

٣ ــ الأغاني ٤٦/١٦ ساسي .

٤ ــ العقد الفريد ٣٦٧/٥ .

٥ ــ القادمة : واحدة القوادم ، وهي الريشات التي في مقدم الجناح . وحينما انشده البيتين هكذا علم الناس أنه لحن ، ولم يهتد احد منهم الى اصلاحه غير الرشيد فأنه قال : قل : تخال اذنيه اذا تشوفا

وهذا الراجز وان كان قد لحن فأنه اصاب في التشبيه .

ومن ذلك أيضاً قول رؤبة يصف ضخامة فرسه وقوة مناكبه : (١)

تـــرى له مناكباً ولببا وكاهلاً ذا صهوات ٍ شرجبا
شداخة ً ضخم َ الضلوع ِ جخدبا (٢)

وحرص العـرب على ان لايمتلكوا من الخيل الا جيادها ، أما الهجن فلم تكن لهم رغبة في امتلاكها ، وكانت عندهم طـــرق ووسائل التمييز بين العتاق والهجن ، كما كانوا يعرفون ذلك من صفاتها ، يروى أن عمر بن خطاب رضي الله عنه شك في العتاق والهجن من الخيل ، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي بطست من ماء فوضعت بالارض ثم قـــدم الخيل فرساً فرسا ، فما ثنى منها سنبكه فشرب جمله هجينا ، وما شرب ولم يثن سنبكه جمله عتيقاً ، وذلك لأن اعناق الهجن قصار فهي لاتنال الماء على تلك الحال حتى تثني سنابكها ، واعناق العتاق طوال (٣) .

ولشدة حرصهم على هذه الجياد قربوها من بيوتهم وانفسهم ، ذلك

---

١ ــ لسان العرب ـ مادة (جخدب) .

٢ ــ اللبب : المنحر ، الشرجب : الفرس الكريم ، شداخة : يقال شدخت غرة الفرس أي انتشرت من الناحية الى الخلف ، الجخدب : الضخم .

٣ ــ شرح ديوان لبيد ـ الدكتور احسان عباس ص ٣٢٧ الكويت من تعليق لشارح الديوان .

لأنها عزيزة عليهم فهم اشد حفاظاً عليها ، وكانت الخيل الجياد لاتجتمع الا عند ملك أو أمير أو رئيس أو غني ، وكانت هذه الخيول من دواعي الفخر والمباهاة ، قال الشيظم الغساني يمدح ملك الشام (١) :

يا صاحبَ الخيلِ الجيادِ المقربه   وصاحبَ الكتيبةِ المكوكبه
والقبةِ المنيعةِ المحجبـه   وواهبَ المضمرةِ المربيـه
والكاعبِ البهكنةِ المؤتبـه   والمائةِ المدفأةِ المنتخبـه

لقد رأى هذا الشاعر ان أول شيء يستحق ان يمدح به هو ملكه لجياد الخيل وعتاقها . ولو رجعنا الى الرجز الذي قيل في مواطن الحماسة والشجاعة والحروب ، لوجدنا أن للخيل مكانا بارزاً في ذلك الرجز ، فأنت تجد الراجز يفتخر بأنه وقومه قاتلوا على خيل كثيرة ، ولم يقاتلوا راجلين ، ومكانة الراجل في القتال لم تلحق مكانة الفارس ، قال الأخطل يفتخـر بالنصر الذي حققه قومه وهم فوق خيول عرفت للقتال فنونا : (٢)

لما رأونا والصليبَ طالعـا   ومارَ سرجيسَ وسماً ناقعاً
والخيلَ لاتحملُ الا دارعا   والبيضَ في ايماننا قواطعا
خلوا لنا الثرثارَ والمزارعـا   وحنطةً طيساً وكوماً يانعـا
كأنما كانوا غراباً واقعا

وكثيراً ما تغنوا في حروبهم وانتصاراتهم بجيادهم التي كانت تحملهم وكأنهم اسود ضارية ، ولهذا شبه رؤية قومه وهم فوق خيولهم بأسد غاب

---

١ ــ امالي القالي ٣/١٨٠ بيروت .

٢ ــ انساب الأشراف ــ البلاذري ٥/٣١٩ .

يخشى الأعداء وثبها . قال : (١)

والخيلُ تعدو القفزى عرابها   بأسدٍ غابٍ يتقى توثابها

ولا نعجب اذا رأينا أن الخيل تحتل هذا الجانب المهم من رجز العرب . فقد كانوا يعدونها اغلى واعز من الأهل والولد ، حتى أنهم آثروها على أنفسهم ، فكان العربي يبيت طاوياً ويشبع فرسه ، كما كان يختصها باللبن دون عياله ، قال النمر بن تولب يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٢)

إنا أتيناك وقـــد طالَ السفر   نقودُ خيلاً ضُمراً فيها عســـر
نطعمها الشحمَ اذا عزَّ الشجر   والخيلُ في اطعامها اللحمَ ضرر (٣)

وكانوا يفخرون بحسن قيامهم عليها ورعايتهم لها ، فقربوهـا من بيوتهم تعظيماً لقدرها واعتزازاً بها ، ومن مبالغتهم في ذلك انهـم كانوا لايهنئون الا بغلام بولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج (٤) . وكان هم العربي وغاية جهده أن يمتلك فرساً ليغزو عليهـا وليتمكن من رد هجوم الاعداء ، وقـــد اثنى عليها النبي (ص) اذ قال : (٥) (الخيل معقود بنواصيها الخير) . ومن شدة افتخارهم بسرعة عدو خيولهم ، انهم كانوا

---

١ ـــ مجموع أشعار العرب ص ٢١ .

٢ ـــ الشعر والشعراء ٢٢٧/١ بيروت .

٣ ـــ يقصد بالشحم : اللبن .

٤ ـــ العمدة ٢٩/١ حجازي .

٥ ـــ مسند الامام أحمد ١٢٩/٨ .

يقيمون لها سباقاً كبيرا يشركون فيه من الخيل ما كان مشهوراً بالركض وكانت هناك حلبات لهذا الغرض .

وقد تطرق الرجز الى وصف حلبات السباق وما يجري فيها ، فكانت صوراً جميلة بديعة نقل فيها ما يجب أن يتوفر في الخيل من صفات لكي تصلح للاشتراك في السباق ، وما يجري من مراسيم في اثناء السباق ، من ذلك ما يروى من أن الوليد بن عبد الملك كان متأهباً لسباق الخيل ، فقاد دكين الفقيمي فرسه للسباق ، فلما رآه الوليد — وكان الفرس دميماً — قال : اخرجوه من الحلبة قبح الله هذا . فقال دكين : يا أمير المؤمنين والله مالي مال غيره ، فان لم يسبق خيلك فهو حبيس في سبيل الله . فضحك الوليد وأمر بختمه ، وأرسلت الخيل ، فجاء سابقاً فقال دكين :

قد اغتدى والطير في اكنات ... يحدوني الشمال في الفلاة
والليلُ لم يحسر عن القناةِ ... وللندى لمٌ على لماتي
بذي شنيب سابغ الصلماتِ ... ناتي المعدِ مشرفِ القطاة (١)
من قارحٍ وأمنٍ وآتِ ... ومن رباعٍ ورباعيات
ومن ثنيٍ ومثنياتِ ... وجذَعٍ عبل ومجذعاتِ
بتن على الخيلِ مسطراتِ ... حتى اذا انشقت دجى الظلماتِ
ووضعَ الخيل على الليات ... وفرّق الغلمان بالوصاة
من كل ذى قرطٍ مقزعات ... ارسلن يغبطن ذُرى الصعدات
يسرى دوينَ الشمس ملحفاتِ ... من قطلانِ القاع مسحلات

١ — الشنيب : ابيض الاسنان حسنها . والناتي ، كل شيء مرتفع .

حتى اذا كنّ بمهويات　　　　بالنصف بين الخط والغايات

عضّ بنابيه على الشبات　　　　وسط سنا ضنظ ملمحات

مثل السراحين مصليات　　　　جاء امامَ سبقِ الغاياتِ

منهن من عرضَ للذمات (١)

وكان الرجاز يسبقون الشعراء الى وصف الفرس السابقة والاشادة بها ، ذلك ان اصحاب القصيد اذا ابطأوا في ذلك ، اسرع اصحاب الرجز وراحوا يضفون على تلك الخيول السابقة صفات الحسن والقوة والسرعة ، يقال ان هشام بن عبد الملك كان مسبقاً لايكاد يسبق ، فسبق ذات يوم على فرس له انثى وصلى على ابنها ففرح وقال : — علي بالشعراء ، قال أبو النجم العجلي : فدعينا ، فقيل لنا : قولوا في هذه الفرس وفي ابنها ، فقال المقصدون : انظرنا حتى نقول ، وقلت في مقامي ذلك : هل لك في رجل ينقدك اذا استنسئوك ؟ قال : هاته . فقلت من ساعتي :

أشاعَ للغراءِ فينا ذكرَها　　　　قوائمٌ عوجٌ أطعنَ امرها

وما نسينا بالطريق مهرها　　　　حين نقيسُ قدره وقدرها

وضبره اذ اوعثا وضبرها　　　　والماءُ يعلو نحره ونحرها (٢)

ملبونة شدّ المليك اسرها　　　　اسفلها وبطنها وظهرها

قد كاد هاديها يكون شطرها　　　　لاتأخذُ الحلبة الا سؤرها (٣)

---

١ — معجم الادباء — ياقوت ١١/١١٣ وتهذيب أبن عساكر ٥/٢٤٧ .

٢ — ضبر الفرس : جمع قوائمه ووثب ، وأوعث ، وقع في الطريق الغليظ العسر السلوك .

٣ — الشعر والشعراء — ابن قتيبة ٢/٥٠٢ بيروت .

وينقل لنا أبو النجم هذا – وكان وصافا للفرس – صورة طريفة واضحة المعالم لحلبة السباق وصفات الفرس التي اشتركت في هذا السباق اذ يقول : (١)

ثم سمعنا برهانٍ نأمله · قيدٌ له من كل افقٍ جحفله
فقلتُ للسائسِ قدهُ أعجله · واعدُ لعنا في الرهان نرسله
فظـل مجنوناً وظن جملـه · بين شعيبين وزاد يزملـه
نعلوبه الحزنَ ولا نسهله · اذا علا الأخشب صاح جندله
ترنم النوح تبكي مشكله . . . الخ

وكان سباق الخيل هذا متعة جميلة احبها الخلفاء واستأنسوا بهـا فجمعوا من اجلها الخيول ونظموا الحلبات ، ومازال الناس يحبون اللعبة المسلية ، ويسارعون لمشاهدتها سواء في ذلك العرب وغيرهم . وقد افتخر حميد الارقط بانه يخرج مبكراً على فرس كأنه يوم الرهان وقد جاء سابقاً صقر أصابه مطر فهو ينفضه عن ريشه ، قال : (٢)

قد اغتدي والصبحُ محمرُّ الطرر · والليلُ يحدوهُ تباشيرُ السحر
وفي تواليهِ نجومٌ كالشـرر · بسحقِ الميعةِ ميالِ العذر (٣)
كأنه يوم الرهانِ المحتضر · وقد بدا أولُ شخص ينتظر

---

١ ــ العقد الفريد ١٧٢/١ ط ٢ .

٢ ــ أراجيز العرب /٢١ .

٣ ــ السحق : البعد ، والميعة : النشاط ، وجعله سحقاً لاتصاله ودوامـه ، والعذر : الخصل من الشعر .

دونَ أثابيّ من الخيلِ زمر ضارٍ غدا ينفض صيبانَ المطر (١)
عن زفَّ ملحاحٍ بعيدِ المنكدر أنى تظل طيرُه على حذر (٢)
يلذن منه تحتَ أفنانِ الشجر (٣)

وحينما كانوا يصفون سرعة الخيل وشدة عدوها يلجأون الى ايجاد حيوان له مخالب يرقد على بطن هذه الفرس فهي لذلك تسرع في جريها ، من ذلك قول العماني وكان يجيد وصف الفرس (٤) :

كأنَّ تحتَ البطنِ منه أكلبا بيضاً صغاراً ينتهش المنقبا (٥)

جعل هذه الكلاب قدام السرة ينهشن ببطنها ، فهي تريد الخلاص منها فتعدو سريعاً ومثل هذا قول الآخر : (٦)

كأنَّ أجراءَ كلابٍ بيضٍ دونَ صفاقيهِ الى التعريض (٧)

---

١ ـــ الأثابي : الجماعات ، وقوله : قد بدا أول شخص ينتظر : أي جاء سابقاً ، ضار : أي صقر قد ضرى بالصيد ، وصيبان المطر : ماصاب منه .

٢ ـــ الزف : الريش ، والملحاح : بناء للمبالغة من ألح ، والمنكدر ، الموضع الذي ينكدر فيه ، أي ينصلت يقول : كأن هذا الفرس وقد جاء سابقاً يوم الرهان صقر صفته كذا وكذا . والقني في الصقور : طول المنكب وقصر الذنب وغؤور العينين وبعد ما بين المنكبين .

٣ ـــ أي أن الصقر يبطش بالطير فهي تخشاه ويلذان منه تحت الشجر .

٤ ـــ الشعر والشعراء ٢/٦٤٢ بيروت .

٥ ـــ المنقب : قدام السرة حيث ينقب البطن .

٦ ـــ الشعر والشعراء ٢/٦٤٢ .

٧ ـــ الاجراء : جمع جرو ، والصفاق : ماحول السرة ، والتعريض : ربما كان موضع العراض وهو سمة في فخذ البعير .

وقال آخر في مثل هذا المعنى :ـ(١)

كان قطاً أو كلاباً أربعاً   دون صفاقية اذا ما ضبعا (٢)

وهم أنما كانوا يلجأون الى مثل هذه الصور ليبرزوا الخيل في اجلى مظاهر سرعتها وشدة عدوها .

جـ ـ الكــلاب

الكلاب حيوان أليف ليس للعرب غنى عنه في صحرائهم الموحشة ، فهو الذي أعتمدوه في صيدهم ، وأهتموا بتدريبه للانتفاع به في الحراسة ومرافقة الماشية لحمايتها من الوحوش ، قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول : أن سهره بالليل ونومه بالنهار خصلة ملوكية ، لقلنا (٣) .

وقد أطلق العرب على الكلاب أسماء معروفة وألقاباً مشهورة وقد ذكروا بعض هــذه الاسماء في شعرهم ، منها براقش وضبار ودرواس ووثاب وغير ذلك (٤) .

والكلاب أصناف لا يحيط بها الا من أطال الكلام ، على أن الكلاب السلوقية أشهر تلك الاوصاف ، وقت أختصت بالصيد وعدت من أحرار الكلاب وعتاقها . ومن تلك الاوصاف الخلاسية ، وهي من هجن

---

١ ــ الشعر والشعراء ٦٤٢/٢ ،

٢ ــ ضبع مدّ ضباعه أي أعضاءه ، في السير .

٣ ــ الحيوان ٢٨٣/١ هارون .

٤ ــ المصدر السابق ١٧/٢ .

الكلاب ومقاريفها ومنها أيضاً كلاب الرعاه (١) .

ولعل باب الطرد هو أوسع الابواب التي ورد فيها ذكر الكلب في رجز العرب ، فكان أهتمام أبي نواس به كأهتمام أمرىء القيس وعنترة والمتنبي وغيرهم بجيادهم ، فأنه حينما يتحدث عنه يجعله مصدر رزق لاصحابه ووليا لنعمتهم ، وهم ينظرون اليه فتلتذ أعينهم برؤية قده الحسن الجميل ، يقول في ذلك : (٢)

أنعتُ كلباً أهله من كدهِ ... قد سعدتْ جدودهم بجدهِ (٣)
وكلُّ خيرٍ عندهم من عندهِ ... يظلُّ مولاه له كعبدهِ
يبيت أدنى صاحبٍ من مهدهِ ... وان عرى جلله ببروده
ذا غرةٍ محجلاً بزندهِ ... تلذ منه العينُ حسنَ قدهِ (٤)
تأخير شدقيهِ وطول خدهِ ... تلقى الظباءُ عنتاً من طردهِ
يشربُ كأس شدها بشدهِ ... يعيدُها عشرين في مرقدهِ (٥)
يا لك من كلبٍ نسيجٍ وحدهِ

وكانوا يستعملون ألفاظاً خاصة حينما يغرونها بالصيد كقولهم

---

١ ــ الحيوان ٣١١/١ .

٢ ــ ديوان أبي نؤاس ــ الغزالي ٦٢٤ ،

٣ ــ اهله من كده : أي يعيش أصحابه من كده وتعبه ، والجدود : الحظوظ ، الجد : الاجتهاد .

٤ ــ الغرة : بياض الجبهة : الزند : موصل الذراع بالكف .

٥ ــ المرقد كممتز : الطفرة نشاطاً .

« هيتاه » فينطلق الكلب الى صيده ، قال الراجز بذكر الذئب (١) .

جاءَ يدلُّ كرشاه الغرب وقلتُ هيتاهُ فتاهَ كالـــبي

الى جانب هذا ، رأى العرب في الكلاب العادية خصالاً استقبحوها فيها ، فقالوا أنها تجمع خصال اللؤم والنذالة والحرص والشره ، والبذاء والتسرع وأشباه ذلك ورأوا في قوله تعالى : (فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) (٢) دليلاً على ذم طباعة والاخبار عن تسرعه وبذائه ،وعن جهله في تدبيره ، وتركه وأخذه (٣) . وقد جاء رجز العرب طافحاً بذكر الكلب وخصاله الحسنة وصفاته القبيحة اذ شبهوا من أرادوا هجوه وذمه بالكلب ونباحه ، قال النجراني في ذلك : (٤)

من منزلي قد اخرجتني زوجتي تهر في وجهي هريرَ الكلبةِ
زوجتها فقيرةً من حرفتي قلتُ لها لما اراقت جرتي
امَّ هلالٍ ابشري بالحسـرةِ وابشري منك بقربِ الضرةِ

ومن ذلك أيضاً قول لبيد يهجو ضمرة بن ضمره (٥) الذي انتصر للربيع بن زياد : (٦)

---

١ ــ لسان العرب ــ مادة (هيت) .
٢ ــ سورة الاعراف /١٧٦ .
٣ ــ الحيوان ٤/ ٣٨ .
٤ ــ الحيوان ١/ ٢٥٧ .
٥ ــ هو ضمرة بن ضمرة بن جابر النهشلي من بني دارم شاعر جاهلي من الشجعان الرؤوساء .
٦ ــ شرح ديوان لبيد ــ احسان عباس ٤٠٣ .

ياضمر ياعبد بني كلاب وياين كلب معلق بناب
أكان هذا أول الثواب لا يعلقنك ظفري ونابي
اني اذا عاقبت ذو عقاب

وانشد الرياشي للاعرابي يهجو بنيه: (١)

ان بنيَّ كلهم كالكلبِ ابرهم أولعهم بسبي

وأراد رؤبة أن يوضح غلبته لخصومه وعدم استطاعتهم مطاولته فشبههم بكلاب لاهثة ألقمها حجراً: (٢)

ملأتُ أفواهَ الكلابِ اللهثِ من جندل القفِ وتربِ الكثكث (٣)

وكان يهجى بالكلاب الملتوية الاذناب للؤمها، والتي في اعناقهـا الاطواق لاذلالها، قال الاعشى يهجوبني قميئة: (٤)

انَّ بني قميئةَ بنِ سعد كلهمُ لملصق وعبد
أدنى لشر من كلابٍ عُقد وهم اذلُّ من كلابٍ عقد
عبدان بين عاجز ووغد

ومن صفات الكلب القبيحة التي ينقلها لنا الرجز، هي أن لحمه قذر كريه، بل أنه غاية في النجاسة، ولهذا وجدنا العرب حينما يريدون أن يبالغوا في الهجاء يشبهون بلحم الكلب خسة وقذارة، قال الراجز:

---

١ ــ امالي القالي ١٩٧/٢ بيروت والمحاسن والمساوىء ٢٥٧/٢ مع اختلاف في الرواية.

٢ ــ لسان العرب مادة (كثث).

٣ ــ القف: حجارة غاص بعضها ببعض لانخـالطها سهولة، الكثكث: الحجارة.

٤ ــ ديوان الاعشى الكبير ٢٧٣ النموذجية.

لو كنتَ ماءً كنتَ غيرَ عذبِ أو كنتَ سيفاً كنتَ غيرَ عضب (١)
أو كنتَ طرفاً كنت غير ندبِ أو كنتَ لحماً كنتَ لحمَ كلب (٢)

هذا وقد احتل الحديث عن الكلب جانباً واسعاً في ديوان الجاحظ بين فيه محاسنه ومساوئه ، وكثيراً ما كان يضع الحديث على لسان صاحب الكلب أن كان الكلام على فوائد الكلب ومحاسنه ، أو يضعه على لسان أحد اصحاب الحيوانات الاخرى ، أن كان الكلام يدور حول مضمار الكلب ومايستقبح منه ، وهذه طريقته في مؤلفه هذا حينما يتكلم على الحيوان .

ويلاحظ أن أكثر حسنات الكلب التي وجدناها في الرجز هي صفات قبيحة واكثرها كان يأتي في مجال الذم والهجاء ، اللهم الا كلاب الصيد فقد حظيت بمكانة حسنة عند العرب .

د ــ الغنم

يحدثنا الرجز أن العرب عدوا الابل والغنم من احسن النعم التي وهبوها ، وراحوا يفخرون بكثرة عددها ، وجودة أنواعها ، ولهذا فان الكذاب الحرمازي حينما أراد أن يدعو قومه ، دعا عليهم بذهاب اموالهم من غنم وابل ، تلك الاموال التي اعتمدت عليها قوتهم يقول في دعائه عليهم : (٣)

١ ــ العضب : السيف القاطع .
٢ ــ الندب : السريع الى الفضائل .
٣ ــ البيان والتبيين ٣/٢٧٦ ط ١ .

لاهم ان كانت بنو عميره رهط الثلب دعوةً مستوره
قد اجمعوا لحلقةٍ مصبوره واجتمعوا كأنهم قاروره
في غنم وابل كثيره فأبعث عليهم سنة قاشورة(١)
تحتلق المال أحتلاق النوره

ونادت امرأة ربها – وهي تطوف بالبيت – ذاكرة ما انعم عليها من خيل وابل وغنم : (٢) .

انتَ وهبتَ الفتيةَ السلاهب وهجمةً يحارُ فيها الطالب (٣)
وغنما مثلَ الجرادِ السارب متاعَ أيامٍ وكل ذاهب

والغنم على قسمين : ضأن ومعز ، وقد ذكر الجاحظ فضائل ومساوىء كل منهما ، وكانت اكثر من المعز فائدة ، لأن صوفها اغلى واثمن واكثر قدرا من الشعر ، ولبنها اطيب واخثر وادسم (٤) . كما كانت للمعز مضار ربما لم يكن للضأن مثلها ، حتى ان العرب عندما يريدون ان يذموا أحداً يشبهونه بالتيس . قال عمرو بن العاص للشيخ الجهني المعترض عليه في شأن الحكمين : وما انت والكلام يا تيس جهينة ؟ ! ولم يقل يا كبش جهينة ، لأن الكبش مدح والتيس ذم (٥) . كما ان

---

١ – سنة قاشورة : مجدبة .
٢ – الحيوان ٧٥/٣ .
٣ – وهبهم السلاهب : اى الخيل الطويلة ، الهجمة : عدد عظيم من الابل .
٤ – الحيوان ٥ / ٤٥٦ .
٥ – المصدر السابق ٤٦٢/٥ .

أبا ذؤيب حينما رد على حسان قال له : (١) .

ارجع الى معزكَ تيساً ذا حيد

اما الكبش فقد كانوا يرون فيه القوة والشجاعة ، وربما قرنوه بالاسد في ذلك ، قال رؤبة (٢) .

ومن اراد دفعه تزحزحا وخاف اسداً وكباشاً نطحا

وكان العرب يهجون بجنس من الغنم ، قصار الارجل ، قباح الوجوه ، يدعى (النقد) يكون بالبحرين ، وفي المثل (لهو اذل من النقد) (٣) وقال الكذاب الحرمازي : (٤) .

لو كنتم قولاً لكنتم فندا او كنتم ماءً لكنتم زبدا
او كنتم شاةً لكنتم نقدا او كنتم عوداً لكنتم عقدا

ومع فضل الضأن على المعز ، فأن العرب احبوا ما يملكون دون النظر الى نوعه أو جنسه ، قال الراجز يذكر عنزين له : (٥) .

لهفى على عنزين لا انساهما كأن ظل حجر صغراهما(٦)

---

١ ــ شرح اشعار الهذليين ــ السكرى ٢٢٣/١ المدني.

٢ ــ مجموع اشعار العرب ــ الورد ٣٥ .

٣ ــ الحيوان ٤٦٢/٥ .

٤ ــ المصدر السابق ٤٨٤/٣ و ٤٦٢/٥ .

٥ ــ الحيوان ٤٩٣/٥ .

٦ ــ قوله : كأن ظل حجر صغراهما : يريد انها كانت سوداء ، لأن ظل حجر يكون اسود . وكلما كان الساتر اشد اكتنازا ، كان الظل اشد سوادا .

وصالغ معطرة كبراهما (١)

وكانت الغنم مشهورة بتخاذلها وعجزها وجبنها (٢) .

٢ ـ الحيوان الوحشي

أ ـ البقرة الوحشية

تعرض الرجاز لذكر البقرة الوحشية في مواضع الغزل ، وعند تشبيههم لأحبتهم بها في جمال عينيها وسعتها ، وفي حديثهم عن الديار التي ارتحل عنها ساكنوها فاقفرت بعدهم حتى عادت البقرة الوحشية هي وامثالها ، تنعم بالحياة والامن والحرية في ديار كان ينعم فيها قوم احبهم الشاعر واحبوه ، من ذلك قول العجاج في احدى اراجيزه : (٣)

واستبدلت رسومه سفنجا أصك نغضاً لا بني مستهدجا (٤)

وكل عيناء تزجي بحزجا كأنه مسرول أرندجا (٥)

---

١ ـ قوله : صالغ : يريد انتهاء السن ، والمعطرة ، الحمراء ،

٢ ـ الحيوان ٧/٦٤ .

٣ ـ شرح ديوان العجاج ـ مخطوط ١٠٣ واراجيز العرب /٧١ .

٤ ـ السفنج : الظليم ، والاصك الذي تصكك عرقوباه وهو الظليم ،والنغض: الذي يهز رأسه وينتفض اذا مشى ، لا يني ، لا يفتر والمستهدج : الذي في قلبه شيء فيحمله على ان يهدج ، والهدجان مقاربة الخطو وسرعته .

٥ ـ عيناء : عظيمة العينين وهي بقرة : تدفع قليلا أو تهيئه للمشي والبحزج : ولد البقرة المسرول : الذي لبس السروال ، الارندج : يعمل منها جلود الخفاف ، يقال لها يرندج وهو اعجمي قد اعرب ، يقول : هذا الثور كأنه قد البس هذه الجلود التي تعملها الاساكفة .

في نعجات من بياض نعجـــا كما رأيت في الملاء البردجا (١)
يتبعن ذيالاً موشىً هبرجـــا فهن يعكفن به اذا حجا (٢)

وهو — هنا — يشبه النعاج بنساء عليهن الملاحف . وهذه صورة تطرق اليها امرؤ القيس قديما حيث قال : (٣) .

فعن لنا سرب كأن نعاجـــه عذارى دوارٍ في الملاءِ المذيلِ

وربما يكون العجاج قد اخذ هذا التشبيه من امرىء القيس ، على أن تشبيه النساء بالمهاة كان شائعا بين الشعراء ، عمدوا الى هذا التشبيه اظهارا لحياء المرأة وجمالها . قال رؤبة : (٤) .

وقـــد ترى مؤتلفاً اترابهـــا أزمانَ اروى رؤدة شبابهـا
مهـــاة خنسٍ عذبة رضابهـا يلقي بعطفـي شارعٍ اخطابهـا

وكان الرجاز حينما يذكرون ديار الأحبة النازحين في رجزهـــم يتطرقون الى وصف الحيوانات التي تألف تلك الديار وتعبث بها ، وكانت الظباء والنعاج والنعام من بين تلك الحيوانـــات التي امنت تلك المنازل فأتخذتها مسرحا ومراحا ، قال رؤبة : (٥) .

---

١ ـــ النعجات : الشديدات البياض وهي بقر . والبردج : السبي وهو معرب .
٢ ـــ الذيال : الطويل الذنب ، وقوله موشى: يقول في قوائمه خطوط من سواد والهبرج الذي يخلط في مشيته يتبختر ، يعكفن : يقمن حوله ، وحجا : اقام
٣ ـــ ديوان امرىء القيس /٢٢ .
٤ ـــ مجموع اشعار العرب — الورد /٢٠ .
٥ ـــ شرح ديوان رؤبة — مخطوط — ص٩٠ .

تستن فيها امهات السخلِ   من النعاج والظباء الخذلِ (١)
وكلُّ زجاجٍ سخامِ الخملِ   تبري له في زعلاتٍ خطلِ (٢)

ونلمح في الرجز وصفا لعيون البقرة الوحشية التي كانت شديدة السواد ، اذ نجد احد الرجاز يشبه الفحم الأسود بعيون هذه البقرة ، قال : (٣) .

اقبلن من اعلى قيافٍ بسحر   يحملن صلالاً كأعيانِ البقر

يقول : انهن يحملن فحما يصل ، اى يصوت ،

كما يصف الرجز عيون هذه الابقار بالأتساع والعظمة ، وقد لاحظنا ذلك في قول العجاج (٤) (وكل عيناء تزجي بحزجا) أي كل بقرة عظيمة العينين . على ان صورة البقرة الوحشية قد عولجت — ايضا — في الحديث عن الصيد ، ومطاردة الصائد لها ، وذكر ما يعتريها في تلك الحالـــة .

ب — الظباء

استهوت الظباء الرجاز فشبهوا محبوباتهم بها ، حيث أن طول اعناقها ونصاعة الوانها . وتناسق اعضائها ، ورشاقتها ، قد بعثتهم على حبهـــا والاعجاب بها ، فهم حينما يتحدثون عن النساء ويصفون جمالهن ، لايجدون

---

١ — السخل : اولاد البقر ، النعاج : البقر ، الخذل : اللواتي خذلت اولادها.
٢ — الزجاج : الواسع الخطو وهو الظليم ، تبرى : تعرض ، زعلات : نشيطات
٣ — امالي القالي ١١٧/١ بيروت .
٤ — شرح ديوان العجاج — مخطوط — ص١٠٣ .

أجمل من الظبي يشبهون به تلك الأنساء . فالظبي – عندهم – غاية في الجمال ، سواء في ذلك منظره العام ام اعضاؤه المختلفة ، ولعل نصاعة بياضه ، وطول عنقه ، اكثر ما جلب انتباه العرب الى هـــذا الحيوان ، كما ان لمقلتيه اثرا عظيما في نفوسهم ، فهذا رؤبة يقول : [1] .

وتستبي الهيامـــة المرهقا   بمقلتيْ ريمٍ وجيدٍ أرشقا [2]

بالجمال هذه العيون التي سبت المعجبين ، وبالروعة هـذا الجيد الذي فتنهم ، ومثل هذا قول بعض الرجاز : [3]

هل يغلبني واحد اقاتله   ريمٌ على لبانهِ سلاسله

سلاحُه يوم الوغى مكاحله

وذكر العجاج أنه كان يغازل اوانس غرا كالظبي الخالص البياض [4]

فقد أراني ولقد ارني   بالفن من نسج الصبا والفن [5]

غراً كآرامِ الصريمِ الغن [6]

---

١ ـــ شرح ديوان رؤبة – مخطوط ص٣

٢ ـــ الهيامة : الذي يهمـــه النساء ، المرهق : الذي يتبع النساء ، الأرشق : الطويل .

٣ ـــ يتيمة الدهر – الثعالبي ١٥١/١ السعادة .

٤ ـــ شرح ديوان العجاج – مخطوط – ص ٥٩ .

٥ ـــ قوله : فقـــد اراني : أي اديم ابصار الغواني الى ، وأرني : اديم نظري اليهن ، قوله : بالفن : أي أنظر من ناحية من قولهم : الاخبـار فنون أي ضروب مختلفة ، نسج : عمل .

٦ ـــ غراً : يريد اوانس غرا وهن البيض ، الريم : الظبي الابيض ، الصريم : المنقطع من الرمل . الغن : يقول في اصواتهن غنة .

وفي حديثه عن تلك الشابة التي سبته يقول انها كظبية ترعى شجر الاراك : (١)

فقد سبتني غير ما تعــذيري مرمارةٌ مثل النقا المرمور (٢)
براقــةٌ كظبيةِ البربـــري تمشى كمشي الوحلِ المبهور (٣)

على ان تشبيه المرأة بالظبي كان مسلكاً معروفاً سلكه أكثر الشعراء حتى أصبحوا يكنون عن المرأة بالظبي أو الريم ، وكانوا ينسبون تلك الظباء التي يشبهون بها محبوباتهم الى اماكن خاصة ، من ذلك ما قاله الشماخ ابن الضرار في تشبيه محبوبته : (٤)

أو كظباءِ السدرِ البريات يحضنّ بالقيظِ على ركيات

والظبي كالبقرة الوحشية والنعامة ، يتخذ من الاطلال مرتعاً ومسرحاً ينعم فيها ، فهو حينما يجد الديار خالية ، والمنازل موحشة ممن كان يسكنها ، يأنس بذلك ، ويبعد عنه الخوف والذعر ، فيغدو سارحاً بتلك المنازل المقفرة ، وقد مر بنا ان رؤبة وجد في ديار النازحين اسراباً من النعاج والظباء . (٥)

---

١ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ٦٩ .
٢ ــ المرمارة : الشابة التي كأنها ترعد من الرطوبة ، البربر : ثمر الاراك .
٣ ــ البراقــة : الملساء ، الوحل : الماشي في الطين ، المبهــور : الذي علاه بهر .
٤ ــ الشعر والشعراء ١/٢٣٤ بيروت .
٥ ــ أنظر شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ــ ص ٩٠

وقد امتازت الظباء بسرعة جريها ، وفرارها من الصائد ، ووحشتها من الانسان .

جـ ـ النعـام :

هذا الحيوان جمع المتناقضات ، فهو مع ضخامة جسمه ، وطول ارجله قد اشتهر بالجبن والخوف والفزع ، وهو مع عظم عظامه ، وشدة عدوه ، غبي بليد لامخ له [1]

وقد ضربوا المثل بجبن هذا الحيوان وحماقته وشروده ، فقالوا : احمق من نعامة . [2] واموق من نعامة . [3] واجبن من نعامة . [4] كما قالوا : اشرد من نعامة . [5] واعدي من ظليم . [6] .

وهم إنما وصفوه بالحماقة ، لأنه لابدع الحضن على بيضه ساعة الحاجة الى الطعام ، فأن هو في خروجه ذلك رأى بيضة نعامة اخرى قد خرجت للطعم ، حضن بيضها ونسي بيض نفسه . [7] ولعل النعام أكثر

---

١ ـ الحيوان ٣٢٦/٤ هارون .

٢ ـ الأمثال ـ الميداني ٢٢٥/١ والمستقصي ـ الزمخشري ٨٥/١ والحيوان ١٩٨/١ .

٣ ـ الأمثال ٣٢٣/٢ والموق : الحمق في غباوة .

٤ ـ الأمثال ١٨٧/١ والمستقصي ٣٩٧/١ حيث يقول : انفر من نعامة .

٥ ـ الحيوان ١٩٨/١ .

٦ ـ الأمثال ٤٥/٢ والمستقصي ٢٣٨/١ وفي مجموع الامثال : اعدى من الظليم .

٧ ـ الحيوان ١٩٨/١ .

الحيوانات التي جمعت الشرود والنفار الى جانب الموق وسوء الفهم (١) ولهذا فأننا نجد أكثر الشعراء حينما يريدون وصف انسان بالخوف والجبن، يلجأون الى تشبيهه بالنعام ليجعلوه غاية في الجبن والخور ، قال أوس بن مغراء يهجو النابغة الجعدي : (٢)

لما رأتْ جعـدةُ منا وردا   ولوا نعاماً في البلاد ربدا (٣)
أنْ لنا عليكم معـدا   كاهلها وركنها الأشـدا
كلُ امرىءٍ يعدو بما استعدا

وتعرض الرجاز لذكر النعام كما تعرضوا لذكر الحيوانات الوديعة في حديثهم عن ديار الاحبة ، وخلوها من اهلها عندما تزهر فيهـا النباتات ، وتنتشر في جوانبها الوحوش ، ولابد أن تكثر هذه الحيوانات في مثل هذه الاماكن ، لتوفر الأمن والاطمئنان الذي تنشده ، ولم يجد الشعراء حيوانات اكثر وداعة من الظباء والآرام والنعام ترود مثل هـذه الاماكن التي يحفظون لها احسن الذكريات ، لتكون متناسبة مع عظم منزلة الديار في نفوسهم ، وقد رأينا ما وجده رؤبة في ديار احبته النازحين بعد أن غادروها وتركوها موطناً للأبقار والظباء والنعام . [٤] كما ان

---

١ ـــ الحيوان ٣٩٥/٤ .

٢ ـــ الأغاني ١٣/٥ وزارة الثقافة والارشاد .

٣ ـــ الورد : الجيش ، ربداً : جمع ربداء وهي من النعام ماكان لونها سواداً مختلطاً وقيل ما كان كله سواداً وقيل ما كان بين السواد والغبرة .

٤ ـــ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط ص٩٠ .

العجاج وجد النعام والابقار رائمـــة في المنازل الموحشة التي غادرها قاطنوها . [١]

وكانت لصورة الظليم وهو يسير خلف امه مقاربا خطوه ، اثر في نفس الشيوخ الذين تقدمت بهم السن فهم لا يستطيعون السير بصورة طبيعية ، ولهذا فقد وجدوا في سير هذا الظليم ما يشابه سيرهم ، قال ابو الزحف الراجز يصف حاله وقد كبر : (٢)

اليك اشكو وجعاً بركبتي وهدجاناً لم يكن في مشيتي (٣)
كهدجانِ الرأل خلف الهيقت مزوزياً لما رآها زوزتِ (٤)

د ـــ الضب

حيوان يعيش في الصحارى ، ويحفر له مكمناً في الأماكن الصلبة المرتفعة حتى لا ينهدم عليه . (٥) وهذا الحيوان لا يحتاج الى شرب الماء

---

١ ـــ شرح ديوان العجاج ـــ مخطوط ـــ ص ١٠٣ .

٢ ـــ الشعر والشعراء ٧٥٨/٢ واماني القالي ١/ ١٨٩ والعقد الفريد ٣/ ٥٤ وفي شرح ديوان العجاج المخطوط ان هذه الابيات لعلقمة التيمي .

٣ ـــ الهدجان : مقاربة الخطو وسرعته وهو مشية الشيخ .

٤ ـــ الرأل : ولد النعام ، الهيقة : النعامة ورسمها بالتاء الطويلة في المرور عليها مزوزيا : من الزوزاة وهي شبه الطراد أي ان ينصب ظهـــره ويسرع ويقارب الخطو .

٥ ـــ الحيوان ١٥٠/٤ و ١٧٢ و ٣٩/٦ و ٤٢ و ٥٦ و٥٧ .

ـ كما يزعمون ـ ولهذا ضربوا به المثل فقالوا : اروى من ضب (١) وقد رووا في ذلك اسطورة عجيبة حيث قالوا : (٢) ان الاعراب تزعم ان الضب خاطر الضفدع ايهما اصبر عن الماء . (٣) وكان للضفدع حينئذ ذنب ، وكان الضب لا ذنب له ، فخرجا من الكلاء ، فصبرت الضفدع يوماً فنادت : ياضب ورداً وردا ، فقال الضب :

اصبحَ قلبي صردا   لا يشتهي ان يردا

ونادت في اليوم الثاني : ياضب وردا وردا ، فقال الضب :

اصبحَ قلبي صردا   لا يشتهي ان بردا
الا عراداً عـــردا   وصليـــاناً بـــردا

فلما كان في اليوم الثالث نادت ايضاً فلم يجبها ، وبادرت الى الماء واتبعها الضب فاخذ ذنبها . (٤) ولهذا فانهم كثيراً ما يذكرون الضب اذا ذكروا الصيف . (٥) لانه يحتمل الحر ويصبر على العطش .

وقد اشتهر الضب بطول العمر ، وانه لا يموت حتف انفه ، وانه يعيش حتى وان قطع منه ثلث جسمه . (٦) اما سنهُ فقد زعموا فيه زعما

---

١ ـ الحيوان ١٢٨/٦ والمخصص ـ ابن سيدة ٢٥٨/١٣ .
٢ ـ المعاني الكبير ـ ابن قتيبة ٦٤١/٢ الهند .
٣ ـ في مخصص ابن سيدة ٢٥٨/١٣ ان هذه المحاورة دارت بين السمكة والضب
٤ ـ انظر هذه الأبيات في الحيوان ١٢٥/٦ ولسان العرب ٢٨٨/٣ بيروت .
٥ ـ الحيوان ١٢٤/٦ .
٦ ـ الحيوان ٥٤/٦ و ١١٦ و ١٨٤/٧ .

غريبا ، ذلك انهم قالوا : انه تنفقيء عنه البيضة وقد خرجت منه ، فلو بقي الف سنة لم تتغير عن حالها ، انما تظل كما كانت عليه حين خروجه من بيضته ، والى هذا ذهب رؤبة في قوله : (١)

فقلتُ لو عمرتُ سن الحسلِ صرتُ رهين هدمٍ او قتلِ (٢)

وذهبوا الى انه اراد بذلك ان يقول : لو عمرت انا لا اتغير بل ابقى مثل سن الحسل . واستطاب بعض الناس لحمه . (٣) قال فراس بن عبد الله الكلابي : [٤]

لما خشيتُ الجوعَ والا رمالا ولم اجد بشولها بلالا [٥]
ابصرت ضباً دحناً مختالا أوفدَ فوقَ حجرهِ وذالا [٦]
فدب لي يختلني اختيالا حتى رأيت دوني القذالا [٧]
وميلةَ ما ملت حينَ مالا فذهبت كفاي فاستطالا
مني فلا نزعُ ولا ارسالا فما جزا وبرأ الأوصالا

---

١ ـ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط ـ ص ٨٦ .

٢ ـ الحسل : ولد الضب .

٣ ـ الحيوان ٤/٤٤ و ٩٦ و ٥/٢٥٣ و ٦/٧٧ و ١٤٣ و ٣٨٥ .

٤ ـ الحيوان ٦/١٤٣ .

٥ ـ الشول : المرتفع ، البلال : ما يبل به الحلق من ماء أو لبن .

٦ ـ ذال : سحب ذيله ونشره .

٧ ـ القذال : ما بين الاذنين من مؤخر الرأس .

مني ولم ارفع بذاك بـالا لما رأت عيني كشى خدالا [١]
منه وثنيت له الاكبالا ورحت منه دحناً دالا [٢]

ونستدل مما بين ايدينا من رجز ان الضب كان سريع تقليب العينين يدل بذلك على مكره ودهائه . قالت امرأة في ولدها وتهجو اباه : [٣]

وهبته من ذي تفـال خب يقلب عيناً مثل عين الضب [٤]
ليس بمعشوق ولا محب

وذنب الضب كثير العقد ، ومن امثالهم : اعقد من ذنب الضب .

هـ ـ الأسد

انطبعت صورة الأسد وهي تحمل معاني الشجاعة والجرأة والأقدام في اذهان العرب الذين كان لبعضهم مواقف تذكر مع هذا الحيوان المفترس وقد وجدوا فيه جميع مستلزمات الشجاعة ، من سرعة وثب ، ورباطة جأش ، وحدة انياب ، وقوة مخالب . وانهرات شدقين ولهذا فأنه ما من شاعر يريد ان يضفي على نفسه او على ممدوحه كل صفات الجرأة والبطولة الا اتخذ من الاسد مثالا ، وجعل من نفسه او ممدوحه نداً او نظيراً له وانك لتجد كثيراً من امثال هذه الصورة في شعر العرب ، فهذا رؤبة يعد

---

١ ـ الكشى : جمع كشية : شحمة بطن الضب أو أصل ذنبه ، الخدال : الممتلىء الضخم .

٢ ـ الدال : مشى مشياً فيه ضعف .

٣ ـ الحيوان ١٠٦/٦ .

٤ ـ الخب : الذي يمنع ما عنده .

نفسه وقومه أسد غاب ، يخوضون المعامع والحروب فلا يرهبون بأس احد ، يقول : [١] .

انا اذا ما الحرب حد نابهــا   وصر في قصرها اشنابهــا
نردهــا مفللاً كلابهــا   بأسد غاب في الأكف غابها[٢]
غاب وشيج سلب كعابهــا   عواثر يزيدها اضطرابها [٣]
لينا اذا ما نشبت حرابها   والخيل تعدو حسنا الهابها [٤]

ويصور لنا الرجز ما لهذه الاسود من رهبة في نفوس النـاس ، وحتى المتشبهين بهـا يكون لهم مـا لتلك الاسود من هيبة ورهبة ، قال رؤبة : [٥]

والخيلُ تعدو القفزى عرابهـا   بأسد غاب يتقى توثابهـــا

وحينما مدح رؤبة ابـــا جعفر المنصور لم ير اكثر من الليوث شجاعة ، فجعله وقومه اسدا ، وجعل اعداءهم كلابا : [٦]

---

١ ــ مجموع اشعـار العرب ص١٩ وقد وردت هذه الارجوزة في شرح ديوان العجاج المخطوط ص١٣٣ على انها للعجاج .

٢ ــ الكلاب : الذي يعلق بالشيء ، يقول : نردها وقد فللنا حدها عنا ، الغاب الرماح .

٣ ــ الوشيج : القنا والرماح ، عواثر : يريد مضطربات اذا هزت عثرت .

٤ ــ يقال : الهب في العدو : كأنه من سرعته وشدة عدوه احراق نار .

٥ ــ مجموع اشعار العرب ص ٢١ .

٦ ــ مجموع اشعار العرب ص ٣٥ .

ومن أراد دفعه تزحزحا وخاف أسداً وكباشاً نطحاً
من آل عباسٍ وعضباً مجوحاً والأسد يخشين الكلاب النبحاً(١)

وعندما استنجد عياض بخالد بن الوليد اجابه: من خالد الى عياض: اياك اريد:

لبث قليلاً تأتك الحلائب يحملن آساداً عليها القاشب
كتائبٌ تتبعها كتائبُ (٢)

ولما احاطت خيل المختار بالقرية التي احتمى فيها شمر بن ذي الجوشن خرج اليهم شمر فقاتلهم وهو يرتجز ويقول: (٣)

نبهتمُ ليثَ عرينٍ باسلاً لم يرَ يوماً عن عدوٍ ناكلا
الا كذا مقابلاً أو قاتلا

وفي غزوة خيبر خرج مرحب اليهودي من حصنهم للمبارزة قد جمع سلاحه وهو يرتجز مدعياً ان الليوث لاتجرؤ من أن تقرب حماه ومثل ذلك فعل اخوه ياسر بعد قتل مرحب. [٤]

وقد وجدنا في الرجز لوحات بديعة جميلة ظهرت فيها قوة الاسد وحالته حين وثبه وتهيوه لصيد فريسته، وما يلتمع في عينيه من شعاع وبريق يأخذ الأبصار ويذهل العقول، يقول العماني في صفته:

---

١ ـــ العضب: السيف القاطع، المجوح: الشديد.
٢ ـــ تاريخ الامم والملوك ـ الطبري ـ ٥٧٨/٢ الاستقامة.
٣ ـــ انساب الاشراف ـ البلاذري ٢٣٨/٥.
٤ ـــ أنظر تاريخ الامم والملوك ٢٩٩/٢.

اجرأُ من ذي لبدةٍ هماس   غضنفر مضـبر رهاس [١]

مناعِ اخياسٍ الى اخياس   كأنما عينـاهُ في مراس (٢)

شعاعُ مقباس الى مقباس

وانهرات شدقي الاسد امارة شجاعته وقدرته على النيل من فريسته.

قال العجاج يصف اسداً [٣]

وكل ربيال خضيب الكلكل   كأنه في جلـد مرفل [٤]

منهرت الأشداق غضب موكل   في الأهلين واخترام السبل [٥]

وقال مورق العبدي : (٦)

وشدقُ ضرغام وناب يحرق

وقد نقل لنا القالي ٧ مجلس يزيد بن معاوية الذي ضم ابا زبيد الطائي وجميل بن معمر العذرى والاخطل، فقال لهم يزيد : ايكم يصف

---

١ ـــ الهماس : الشديد الغمز بضرسه ، المظفر : الموثق الخلق، الرهاس : الذي يطأ الارض وطئاً شديداً .

٢ ـــ الاخياس : جمع خيس : وهو الاجمة يكون فيها الاسد ، المراس : أي في اثناء ممارسته للصيد .

٣ ـــ شرح ديوان العجاج ـــ مخطوط ـــ ص ٥٢ وأراجيز العرب ص ١٩ .

٤ ـــ الربيال : الاسد ، خضيب الكلكل : خضيب الصدر من الدماء ، المرفل : الذي قد وسع عليه بدنه فهو يرفل ، والجلد : ان يذبح الحوار فيأخذ جلده فيلبس آخر فذاك الجلد : يقول : الربيال كأنه في جلد مما عليه من الوبر .

٥ ـــ منهرت الاشداق : الواسع ، الغضب : الغليظ الشديد ، موكل : مطعم آكل للصيد ، قوله : في الاهلين : أي فيمن يغير عليه في اهله ، اخـترام السبل : يقول يقطع الطريق على ابن السبيل .

٦ ـــ البيان والتبيين ١٥٢/٢ .

٧ ـــ امالي القالي ١٨١/٣ بيروت .

الأسد في غير شعر ؟ فتكلم أبو زيد ووصفه بنثر في غاية البلاغة ، ثم ختم كلامه بشعر قال فيه :

خبعثن اشوسُ ذوتهكم   مشتبك الانياب ذو تبرطم
وذو أهاويلٍ وذو تهجم   ساطٍ على الليث الهزبر الضيغم
وعينهُ مثلُ الشهاب المضرم   وهامهُ كالحجر الململم

فقال : حسبك يا أبا زيد ثم قال قل ياجميل . فوصفه جميل بنثر جيد جيد وأخيراً قال :ـ

ليثٌ عرينٍ ضيغم غضنفر   مداخل في خلقه مضبرُ
يخافُ من أنيابه وبذعرُ   ما أن يزالُ قائماً يزبجر
له على كل السباع مفخرُ   قضاقض شثن البنانِ قسورُ(١)

فقال : حسبك يا بن معمر ، ثم قال قل : يا اخطل . فقال الاخطل كلاما أقصر من كلام سابقيه وصف فيه الاسد ثم قال :ـ

قُضاقضٌ جهمٌ شديد المفصل   مضبر الساعد ذو تعثكل
شرنبثُ الكفين حامي اشبلِ   اذا لقاهُ بطلٌ لم ينكلِ (٢)
ململم الهامة كمش الارجلِ   ذو لبدٍ يختالُ في تمهلِ
انيابه في فيهِ مثل الانصلِ   وعينهُ مثلُ الشهابِ المشعلِ (٣)

---

١ ــ قضاقض : الاسد ، شثن البنان : غليظ الاصابع خشنها .

٢ ــ شرنبث ، غليظ الكف وعروق اليد .

٣ ــ لا توجد هذه الارجوزة في ديوان الاخطل وأنما ذكرت مع القصة في ترجمة الاخطل الملحقة بالديوان تحت عنوان (الشعر المنسوب الى الاخطل) .

فقال له : حسبك وأمر لهم بجوائز .

على انك نادراً مـا تجد مثل هـذا الوصف البديع الرائع للاسد في غير هذا الرجز .

× × ×

وقد تطرق الرجز الى وصف الزواحف والحشرات التي التقى بها العربي والتي كانت تعيش في بلاده ، وكان لكل منها صـورة خاصة في ذهنه رسمها لها نتيجة ممارسته لافعالها وتجربته بما تقوم به من أعمال . ومن تلك الحشرات البعوض والبرغوث والجراد والافعي . وقد حفـل كتاب الحيوان للجاحظ بطائفة من هذا الرجز الذي يصف هـذه الزواحض والحشرات .

الفصل الثاني

الرجز والحياة السياسية

أثر السياسة في الرجز :-

سار مؤرخو الأدب في دراستهم لتاريخ الادب العربي على أساس تقسيم الأدب الى فترات يختلف بعضها عن بعض تبعاً لأختلاف الظروف السياسية ، وعللوا ماذهبوا اليه بأن الأدب يتأثر بالسياسة ، اذ يكون لكل فترة من الحكم نهج خاص به وسياسة مستقلة عما سبقها من فترات ، وعليه فأن تأثير هذه السياسة يكون واضحاً وبيناً في نفس من يخضع لذلك الحكم وتلك السياسة ، حيث نجد فريقاً مناصراً لها ، ثانياً مناوئاً ، وآخر محايداً وهكذا .

وقد كان لهؤلاء المؤرخين بعض الحق في ما ذهبوا اليه ، اذ أننا نجد أن الأدب هو أحدى وسائل التعبير عما تكنه النفوس من عواطف وأحاسيس وانفعالات . وقد رأينا نشوء الأحزاب المختلفة في العصر الأموي ، وكيف كان لكل حزب من هذه الاحزاب شعراء وخطباء يدافعون عن معتقداتهم وآرائهم ، ويفندون مزاعم خصومهم فقد كان عبد الله بن قيس الرقيات شاعر الزبيريين ، والكميت شاعر العلويين ، وعمران بن حطان والطرماح بن حكيم وعمرو بن الحصين شعراء الخوارج .

اما الخطباء السياسيون وكان أبرزهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم قطري بن الفجاة زعيم الخوارج ، فقد اتخذوا من الخطابة وسيلة فعالة لتأييد آرائهم وآراء الاحزاب التي ينتمون اليها .

والسياسة في الحقيقة تؤثر في الأدب تأثيراً مباشراً وغير مباشر ، وهناك أدلة كثيرة على ذلك نجدها في أدبنا العربي لا داعي لذكرها هنا .

والشعر سلاح فعال في الذود عن الآراء والمذاهب أو مهاجمتها ، ولهذا وجدنا كثيراً من الحكام يصطنعون لهم شعراء خاصين يمدحونهم ويمجدونهم وينصرون مبادئهم وفي نفس الوقت يندّدون بخصومهم واعدائهم .

أما الرجاز فأنهم لم يقصروا في هذا الميدان ، بل خاضوا فيه كما خاض المقصدون فأستخدموا الرجز في أغراض حزبية وفي أغراض شخصية ، كتأييد حكم ، أو مناصرة رأي ، أو مناوءة عدو . من ذلك أن الوليد بن عبد الملك اراد أن يبايع لابنه عبد العزيز بعد أخيه سليمان فأبى ذلك سليمان وشنع عليه ، فقيل للوليد : لو أمرت الشعراء أن يقولوا في ذلك لعله كان يسكت فتشهد عليه بذلك . فدعا الاقيبل العتي

فقال له : ارتجز بذلك وهـــو يسمـــع . فدعا سليمان والأفيل خلفه ، فرفع صوته وقال :ـــ

أن وليَّ العهدِ لابنُ أمهِ　　ثمَّ ابنه وليُّ عهدِ عمهِ
قد رضي الناس به فسمهِ　　فهو يضمُّ الملكَ في مضمهِ
ياليتها قد خرجتْ من فمهِ

فالتفت سليمان وقال : يا بن الخبيثة ، من رضي بهذا (١)

ولو أن سليمان سكت لكانت هذه المقطوعة من الرجز سببا في البيعة لعبد العزيز .

ومثل هذا أيضاً ما يروي من أن المنصور أراد أن يخلع عيسى بن موسى ويعقد البيعة للمهدي ، وأحب أن تقول الشعراء في ذلك لكي يعرب عن قصده ويتبين رأي عيسى وموقفه مما عزم عليه ، فقال أبو نخيلة الراجـــز (٢) أرجوزة يحث فيها المنصور على تنفيذ ما أراد ، وفيهـــا يقول : (٣)

ماذا على شحط النوى غشاكا　　أم ما جرى دمعك من ذكراكا
وقد تبكيت فما ابكاكا

---

١ ـــ العقد الفريد ٤٢٣/٤ القاهرة ــ لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٤٤ .

٢ ـــ هو أبو نخيلة بن حزن بن زائدة بن لقيط بن هـرم من بني حمـان من سعد بن زيد مناة بن تميم ، راجـــز مقصد كان عاقا لابيه فنفـاه أبوه عن نفسه .

٣ ـــ الاغاني ٣٩٠/٢٠ بيروت .

ومنها : —

خليفةُ اللهِ وانتَ ذاكا أسندْ الى محمد عصاكا
فأحفظُ الناس لها أدناكا وابنكَ ما استكفيته كفاكا
وكلنا منتظرٌ لذاكا لو قلت : هاتوا ، قلت : هاكا هاكا

ونظم أبو نخيلة أرجوزة اخرى طلب فيها من المنصور خلع عيسى والبيعة للمهدي ، وهي أرجوزة رواها الخدم والخاصة ، وتناشدتها العامة ، فبلغت المنصور ، فدعا به وعيسى بن موسى جالس عن يمينه فطلب منه انشادها على رؤوس الناس ، وفيها يقول :

لم ينسني بالابنة آلِ معبدِ ذكراكِ تكرارُ الليالي العودِ
ولا ذواتُ العصبِ المورَدِ ولو طلبنا الودّ بالتوددِ
ورحنَ في الدرِ وفي الزبرجدِ هيهات منهنَ وانْ لم تعهدِ
نجديةُ ذاتُ معانٍ منجدِ كأن رياها بعيدَ المرقدِ
ربا الخزامى في ثرى جعنددِ كيف التصابي فعلَ من لم يهتدِ
وقد علتْ ذراهُ بادي ذي بدِ رثينةُ تنهض في تشددِ
بعدَ انتهاضٍ في الشبابِ الاملدِ

الى ان يقول في ذكر البيعة لمحمد :

ليسَ ولي عهدنا بالاسعدِ عيسى فزحلفها الى محمدِ
من عندِ عيسى معهداً عن معهدِ حتى تؤدى من يدٍ الى يدِ
فقد رضينا بالغلامِ الأمردِ وقد فرغنا غير ان لم نشهدِ
وغيرَ ان العقد لم يؤكدِ فلو سمعنا قولك : امددِ امددِ
كانت لنا كدعكة الورد الصدي فنادِ للبيعةِ جمعاً نحشدِ
في يومنا الحاضرِ هذا اوغد واصنع كما شئت ورد يردد.. الخ

ولما انتهى من انشادها قال المنصور لعيسى : وائن كان عن رأيك لقد سررت عمك وبلغت من مرضاته اقصى ما يبلغه الولد البار السار فقال عيسى : لقد ضللت اذاً وما انا من المهتدين . فلما عاد عيسى الى البيت جمع اولاده وقال لهم : يابني : قد رأيتم تأخري ، فأيما احب اليكم ، ان يقال لكم يابني المخلوع ، أو يقال لكم يابني المفقـــود ، فقالوا : لابل يابني المخلوع . فقال : وفقتم يابني .

وكان ابو نخيلة قد حظي بجائزة المنصور ولكنه دفع الثمن غالياً اذ بعث عيسى في طلبه فهرب منه وخرج يريد خراسان ، فبلغ عيسى خبره ، فجرد خلفه مولى له يقال له قطري ، معه عـــدة من مواليه ، وقال له : نفسك ان يفوتك ابو نخيلة ، فخرج في طلبه يغذ السير فلحقه في طريقه الى خراسان فقتله وسلخ وجهه . (١)

وقد عالج الرجز كثـــيرا من الجوانب السياسية ، وصور بعض احداثها ، لهذا وجدنا الرجاز ينقطعون الى مدح خليفة أو دولة ، فاذا ما زالت وانقرضت هيأوا انفسهم ورجزهم ليناصروا الحكم الجديـــد شأنهم في ذلك شأن كثير من الشعراء . وكان ابو نخيلة خير مثال لذلك ، فقد اصطنعه مسلمة بن عبد الملك واحسن اليه واوصله الى الخلفاء واحدا بعد واحد فاغنوه ، ولما نكب بنو امية وقامت دولة بني العباس ، انقطع اليهم ولقب نفسه شاعر بني هاشم ومدحهم وهجا بني امية (٢)
يروى انه دخل على أبي العباس السفاح ، وكان يخاف ان يدخل

---

١ ــ الأغاني ٢٠/٣٨٧ ــ ٣٩١ بيروت .
٢ ــ الأغاني ١٨/١٣٩ ساسي .

عليه لما يعرفه به من اصطناع مسلمة أياه وكثرة مديحه لبني مروان ، حتى علم انه قد عفا عمن هم اعظم جرما منه ، فلما وقف بين يديه سلم عليه ودعا له واثنى ، ثم استأذنه في الانشاد فقال له : ومن انت ؟ قال : عبدك ياامير المؤمنين ابو نخيلة الحماني ، فقال : لا حياك الله ولا قرب دارك يانضو السوء ، ألست القائل في مسلمة بن عبد الملك بالامس :

أمسلم يامن سادَ كل خليفةٍ ويافارس الهيجا وياقمرَ الأرض

والله لولا اني قد امنت نظراءك لما ارتد اليك طرفك حتى اخضبك بدمك . فقال ابو نخيلة :

كنا اناساً نرهب الاملاكا إذْ ركبوا الاعناقَ والاوراكا
قد ارتجينا زمنـــاً اباكا ثم ارتجينـا بعده أخـاكا
ثم ارتجينا بعـــده اياكا وكان ما قلت لمن سواكا
زوراً فقـد كفر هـذا ذاكا

فتبسم ابو العباس ثم قال له : انت شاعر وطالب خير ومـا زال الناس يمدحون الملوك في دولهم ، والتوبة تكفر الخطيئة ، والظفر يزيل الحقد ، وقد عفونا عنك ، واستأنفنا الصنيعة لك وانت الآن شاعرنا (١)

ومثل ابي نخيلة رؤبة بن العجاج ، فقد كان منقطعاً الى بني أمية ، يمدحهم ويثني عليهم ، فلما أفضت الخلافة الى بني هاشم ، بعث اليه ابو مسلم الخرساني وطلب منه أن ينشده قوله :ـ

وقاتمِ الاعماقِ خاوي المخترق

---

١ ـــ الأغاني ٢٠/٢٧٠ و ٢٧١ بيروت ،

فقال رؤبة : أو أنشدك – اصلحك الله – أحسن منها ؟ قال : هات . فأنشده :–

قلتُ ونجي مستجدٌ جوكا   لبيك اذ دعوتني لبيكا
أحمدُ رباً ساقني اليكا

قال له أبو مسلم : هات كلمتك الاولى . فأجابه : أو أنشدك أحسن منها ؟ قال : هات . فأنشده :–

ما زالَ يبني خندماً ويظلمهْ   ويستجيشُ عسكراً ويهزمهْ
ومغنماً يجمعه ويقسمه   مروانُ لما أن تهاوتْ انجمهْ
وخانهُ في حكمهِ منجمهْ

قال : دع هذا وانشدني : وقاتم الاعماق . فقال رؤبة : أو احسن منه ؟ قال : هات فأنشده قوله :

رفعتَ بيتاً وخفضت بيتا   وشدتَ ركنَ الدينِ اذ بنيتا
في الاكرمينَ من قريشٍ بيتا

قال : هات ماسألتك عنه . فأنشده :

مازالَ يأتي الملكَ من اقطارهِ   عن اليمينِ وعلى يسارهِ
مشمراً لايصطلى بنارهِ   حتى اقرَّ الملكَ في قرارهِ
ومرَّ مروان على حمارهِ

فقال : ويحك ، هات ما دعونك له وأمرتك بانشاده . فانشده ما أراد . (١)

---

١ – الاغاني ١٨/١٢٢ و ٢١/٥٨ ساسي .

وهو انما كان يتبع هذا السبيل فلا ينشده الا مدحاً اه ، لأنه كان يرهبه لمدحه بني امية ، وخشي أن يغيظ ذلك ابا مسلم فعمد الى مدحه ليأمن جانبه .

وهكذا كان أكثر الناس ومن بينهم المقصدون والرجاز ، يتقلبون مع السياسة ويسايرون كل حكم جديد . وكان شعرهم يتقلب معهم أيضاً ، فيصور اتجاهاتهم السياسية ، وتقلباتهم وميولهم ، حتى أنه قيل : أن أحد الرجاز قال قصيدة في مدح خليفة اموي ، فلما جاءت دولة بني العباس نقلها اليهم .

وكثيراً ما كان الحفاظ على كرسي الزعامة ، والسيطرة على الحكم ، يتطلبان حرباً ضروساً يذهب ضحيتها الآلاف . كما أن مجيء دولة بدل اخرى لايحصل — في الغالب — الا بالحرب . فالحرب — اذن — كانت تابعة للأغراض السياسية غالباً ، فاذا ما تعرض أمن دولة من الدول للخطر ، أو أرادت دولة ضرب اخرى ، أو رغب قوم في سحق آخرين ، لجأوا الى الحرب .

وقد رسم لنا الرجز ، كما رسم لنا القصيد ، صور الحرب بكل جوانبها وابعادها وما تستلزمه من آلات واسلحة ومعدات ، وما تتطلبه من بعث الهمم واثارة العواطف ، وكان الرجز خير مصور لهذا كله .

ومن هنا يتحتم علينا البحث في رجز تلك الحروب التي خاضها العرب والمسلمون قديماً فدونك رجز الحرب في الصفحات الآتية :

رجـز الحرب

لايروي التاريخ لأمة من الأمم مثل ما يروى للعرب من وقائع حربية ، وشجاعة فائقة وكرم اصيل ، فقد حرص العربي قديماً وما يزال ، على أن ينعت بصفتين لهما اثرهما في نفسه هما الشجاعة والكرم ، وفي سبيلهما راح يبذل المال والنفس ، وهو يرى أن الجود بالنفس اقصى غاية الجود ، فلا عجب اذا رأيناه يرخص نفسه لأبسط الاسباب حفاظاً على عزته وكرامته ، فهو اذا ما جرحته كلمة نابية ، اعلنها حرباً شعواء تفني الاهل والولد ، لأنـــه يعتقد أن جرح اللسان انكى من جرح السنان .

وكان العربي بطبيعته شجاعاً ، بسبب الظروف الخاصة التي كان يحياها في جزيرته وبسبب ما فرضته عليه بيئته تلك ، وكان يتحين الفرص التي تمكنه من اظهار شجاعته ونشر اخبارها بين الناس ، وجعلها مفخرة ومأثرة ، والحرب موطن الشجاعة الصادقة واظهر مكان لأجلائها .

وكان العربي في هذه الحرب يشجع نفسه ويبعث فيها النخوة والحماس بما تجود به اريحته من شعر يذكر فيه أن الموت غاية كل حي وانـــه لابد أن يلاقي حتفه في المعركة أو في خارجها ، كما أن من مبادئه التي يؤمن بها ، هي أن الحياة بدون حرية وكرامة أمر لايحتمل . بل أن الموت حينئذ يكون احلى من الحياة والذ من العسل :

نحنُ بني ضبةَ اصحابُ الجملْ ننزلُ بالموتِ اذا الموتُ نزلْ
الموتُ أحلى عندنا من العسل (١)

---

١ ـــ العقد الفريد ٤/٣٢٧ وأيام العرب في الاسلام ص ٣٧١ .

فالتغني بالشعر في الحرب كان لازمة من لوازمها ، وسلاحاً من أسلحتها التي تساعد على الانتصار ، ويسود الايجاز هذا الشعر ، اذ أنه شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة ، لذلك فمعظمه مقطوعات قصيرة يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق أو تنقيح ، أنه يعبر عن خاطر يعتمل بصدره ويرمي به في سرعة كما يرمي بسهمه ، أو يضرب بسيفه . ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين اطالة التفكير ، كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .(١)

وطبيعي ان يكون اكثر هذا الشعر من الرجز ، لأنه كان وزناً شعبياً يساعد على الاستجابة لمثل هذه الحالات ، وانه وزن ينظم فيه عامة العرب ، ومن هنا وجدنا ان الرجز الذي قيل في تلك الحروب كان كثيراً جداً ، وهذه الاراجيز الحربية تعطينا اجمل الصور واوضحها عن معارك العرب وفنونهم الحربية وتقاليدهم في القتال . وتبدأ معركة الرجز قبل ان يتلاقى الفرسان ، حيث يسبق ذلك الاستعداد للحرب والتهيئة لها ، اذ يأتي الى القبيلة من يستصرخها ويستنفرها ويدعوها الى القتال .

ونلاحظ في الرجز بواعث الحرب الحقيقية في الجاهلية ففيه اشارة واضحة الى امور تتصل بالحياة الاقتصادية للقبيلة كما تتصل بحياتها الاجتماعية ، ثم ان العصبية القبلية لها دور مهم في بعث هذه الحروب حيث ان كل قبيلة كانت تسجل انتصاراتها وتروى ايامها ولهذا فان

---

٢ ـــ تاريخ الادب العربي ــ ضيف ٦٧/٢ .

الفرد كان يذوب داخل نطاق هذه القبيلة ، فهو يقاتل لكي يحرز نصرا يكون مفخرة لقومه وعشيرته ، وربما كان بعض الدوافع اموراً شخصية فقد يطمع بعضهم في رئاسة قوم وزعامتهم وهو يظن ان هذا لا يكون الا بالقتال ، قال عيسى بن حذار يرتجز موجها الحديث لفرسه في يوم الرقم : (١)

أقدمِ قديدُ لا تكن خنوسا لاطعنَنّ طعنةً قلوسـا
ذاتَ رشاشٍ تفزع الخميسا من لا يقاتل لا يكن رئيسا

ورجز العرب يبرز لنا دافعهم الى الاستبدال في القتال وهو اعتقادهم بان الهزيمة فيها الذل والعار :

ليس عليَّ أن اموتَ عار والعارُ في الناس هو الفرار (٢)

وفيها فناؤهم وفناء قبيلتهم واطفالهم ونسائهم ، قال يزيد بن المكسر بن ثعلبة بن سيار في يوم ذي قار يحرض قومه على القتال (٣)

من فرَّ منكم فر عن حريمهِ وجارهِ وفرَّ عن نديمـهِ
انا ابنُ سيارٍ على شكيمهِ مثلُ الشراكِ قدَّ من أديمهِ
وكلهم يجري على قديمـهِ من قارحِ الهجنةِ أو صميمهِ

ويحدثنا الرجز بأن الباعث على القتال قد تغير في زمن الاسلام

---

١ ــ شعر الحرب ــ علي الجندي ١/٢٧٧ ومعجم الشعراء ــ المرزباني /٤٨٢

٢ ــ تاريخ الأمم والملوك ــ الطبري ٣/٤٨٧ .

٣ ــ المصدر السابق ١/٦١١ وامالي المرتضى ١/٥٧٢ ط ١ .

حيث استجدت بواعث جديدة فرضها الدين الجديد وجعلها عبادة روحية وجسمية كسائر العبادات التي فرضها عليهم من صوم وصلاة وحج وزكاة فكانت نظرة المقاتل من المسلمين تختلف عن نظرة المقاتل من الجاهلين فالمسلم اضافة الى انه يعلم ان الموت حق وهو حتم مؤجل ، وان الانسان لابد انه يوما الى الموت صائر :

يانفسُ إلا تقتلي تموتي هذا حمامُ الموت قد صليت (١)

اضافة الى هذا كله كان يعلم انه يقاتل لينال احدى الحسنيين ، اما النصر واما الشهادة ، فالنصر هو الأمل الذي يراود فكره ويطمع في تحقيقه ، والشهادة – التي يكون ثوابها الجنة – غاية ما يرتجى واقصى ما ينشد . وكان هذا اقوى حافز واعظم دافع لأن يبذل المسلم نفسه رخيصة في سبيله .

قال رسول الله (ص) في قومه في معركة بدر : « والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر الا ادخله الله الجنة » .

فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمه وفي يده تمرات يأكلها : بخٍ بخٍ ! اما بيني وبين ان ادخل الجنة الا ان يقتلني هؤلاء ! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

---

١ – ايام العرب في الاسلام /٨٩ ط ١ .

ركضاً الى الله بغير زاد الا التقى وعمل المعادِ
والصبر في اللهِ على الجهادِ وكلُ زادٍ عرضةُ النفادِ
غير التقى والبر والرشاد (١)

وفي وقعة مؤتة حمل الراية زيد بن حارثة ، ثم التقى الجمعان وقاتل زيد حتى شاط في رماح القوم ، فأخذ الراية جعفر بن ابي طالب وارتجز :

ياحبذا الجنةُ واقترابها طيبةٌ وبارداً شرابها
والرومُ رومٌ قد دنا عذابها كافرةٌ بعيدة أنسابها
عليَّ اذا لاقيتها ضرابها

ثم لم يلبث ان قتل ، واخذ الراية عبد الله بن رواحة وتقدم بها على فرسه وارتجز :

اقسمتُ يانفس لتنزلنه لتنزلنً أو لتكرهنه
ان أجلبَ الناس وشدوا الرنه مالي أراكِ تكرهين الجنه
قد طالما كنتِ مطمئنه هل انت الا نطفة في شنه

واخذ سيفه وقاتل حتى قتل . (٢)

ويبدأ الرجز مع أول نذر الحرب ، فهم حينما يعدون لها اسبابها ويهيئون لها عدتها وعتادها فيجمعون لها السلاح ويستنفرون لها الرجال ، ويستميلون القبائل ، ويعقدون الاحلاف يكون الرجز معينا وناصراً لهم

---

١ ـــ الأغاني ١٩٣/٤ وتاريخ الخميس ٣٨٠/١ وتاريخ الطبري ١٥٠/٢ .
٢ ـــ تاريخ الامم والملوك ـ الطبري ٣٢١/٢ وايام العرب في الاسلام /٨٩ .

في ذلك ، فعندما نقضت قريش حلفها مع الرســـول (ص) وتظاهرت على قضاعة ، وأصابوا منهم ، خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قـــدم على رسول الله (ص) المدينة ، فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين الناس فقال :

لا هم اني ناشد محمـــدا　　حلف ابينا وأبيه الأتلـــدا
فانصر رسول الله نصرا اعتدا　　وادع عباد الله يأتوا مددا
ان قريشا اخلفوك الموعـــدا　　ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا　　وزعموا ان لست ادعو احدا
وهم أذل وأقل عـــددا　　هم بيوتنا بالوتير هجـــدا
فقتلونا ركعاً وسجدا (١)

ويبعث الرجز الحماس في نفوس القوم حين يتأهبون للقتال ويبدأ بعضهم يحض بعضا ويذكره بعار الهزيمة وحلاوة النصر ، وعليهـم أن يمضوا ولا يستسلموا لأية عقبة تعترض طريقهم ، قال مالك بن عامر وهو أول من عبر دجلة يوم المدائن : (٢)

امضوا فأن البحر بحر مأمور　　والأول القاطع منكم مأجور
قد خاب كسرى وأبوه سابور　　ما تصنعون والحـــديث مأثور

وفي يوم ذي قار جعل الناس يتحاضون ويرجزون ، فقال حنظلة بن سيار العجلي :

---

١ ــ تاريخ الطبري ٢/٣٢٥ .
٢ ــ العقد الفريد ٣/٤٠٠ط٢

قد شاع أشياعكم فجدوا　　ما علتي وانا مؤد جلد
والقوس فيها وتر عرد　　مثل ذراع البكر أو أشد
قد جعلت أخبار قومي تبدو　　أن المنايا ليس منها بد
هذا عمير حية ألد　　بقدمه ليس له مرد
حتى يعود كالكميت الورد　　خلوا بني شيبان واستبدوا
نفسي فداكم وابي والجد

وهم انما يلجأون الى مثل هذه الاثارة لانهم يعلمون أن الحرب النفسية امضى وأقوى من حرب السلاح ، فكانوا يهيئون المقاتلين تهيئة نفسية قوية لكيلا يسمحوا لأنفسهم بتخاذل او تراجع .

والرجز نشيد حماسي يشد من العزائم ويقوي النفوس الضعيفة ويزيد النفوس الأبية اباء ، قال الاعشى لابن اخيه خيثم بن حمه يحرضه على القتال : (١)

ويهاً خثيم انه يوم ذكر　　لم تر شمس مثله ولا قمر
فادن من البائس اذا البأس حضر　　وزاحم الاعداء وبالثبت الصبر
وارجم اذا ما ضيع الناس الدبر

كما كانوا يستخدمون الرجز ليلقوا في قلب خصومهم الخوف والرعب محاولين اضعاف نفوسهم من ذلك ما حدث في حروب الردة ، حيث التقى المسلمون مع المرتدين في حضرموت ، فارتجز راجز المرتدين في جوف الليل فوق حصنهم :

---

١ ــ ديوان الاعشى الكبير ــ م . محمد حسين / ٢٦٩ .

صبـــاح سوء لبني قتيره　　والأمير من بني المغيره

وجعل راجز المسلمين زياد بن دينار يرد عليهم :

لاتوعدونا وإصبروا حصيره　　نحن خيول ولـد المغيره

وفي الصباح نظفر العشيرة (١)

وبداية المعركة تكون بالمبارزة الفردية : اذ هي ايذان لاشتعال نار الحرب . وهنا لابد ان يشجع المبارز نفسه بشيء من الرجز يذكر فيه مآثره وشجاعته ليستأنس بذلك ، ثم يذكر فيه مصيره المحتوم الذي سيلاقيه ان آجلا او عاجلا .

فليعيش اذاً حياة حرة حتى يأتيه أجله ، قال البختري في معركة بدر حين نازله المجذر وأبى الا القتال وهو يرتجز : (٢)

لن يسلم ابن حرة اكيله　　حتى يموت أو يرى سبيله

وفي غزوة خيبر خرج مرحب اليهـودي من حصن اليهود جامعـا سلاحه وهو يرتجز ويقول : من يبارز ؟

قد علمت خيبر اني مرحب　　شاكي السلاح بطل مجرب

اطعن احيانا وحينا أضرب　　اذا الليوث اقبلت تحرب

كان حماي للحمى لا يقرب

فأجابـه كعب بن مالك يرد عليه برجز مقابل وكأنه رأى واجبـا عليه في تلك السـاعة الحرجة أن يوجه اليه طعنة بالرجز قبل طعنة السيف

---

١ ــ تاريخ الامم والملوك ــ الطبري ٢/٥٤٦ .

٢ ــ الاغاني ٤/١٩٥ ،

والرمح قال :

قد علمت خيبر اني كعب — مفرج الغمى جريء صلب
ان شبت الحرب تلتها الحرب — معي حسام كالعقيق عضب
نطؤكم حتى يذل الصعب — نعطي الجزاء او يضيء الشهب
بكف ماض ليس فيه عتب

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر اني ياسر — شاكي السلاح بطل مغاور
اذا الليوث اقبلت تبادر — واحجمت عن صولتي المغاور
ان حماي فيه موت حاضر

فخرج الزبير بن العوام الى ياسر فقالت صفية بنت عبد المطلب : أيقتل يا رسول الله ؟ قال : ابنك يقتله ان شاء الله ، فخرج الزبير وهو يقول :

قد علمت خيبر اني زبار — قرم لقوم غير نكس فرار
ابن حماة المجد وابن الاخيار — ياسر لا يغررك جمع الكفار
فجمعهم مثل السراب الجرار

ثم التقيا فقتله الزبير (١) . وهكذا كان الرجز لازمة من لوازم الحرب يرهب به المقاتل خصمه ويوهن من قوته ويضعف من عزيمته ففي حصار عثمان شد المغيره بن الاخنس بالسيف وهو يقول :

قد علمت جارية عطبول — لها وشاح ولها جديل
اني بمن جاريت ذو تنكيل

---

١ — تاريخ الامم والملوك — الطبري ٢٩٩/٢ .

فشد عليه رفاعة بن رافع وهو يقول :

قد علمت خود سحوب للذيل ترخي قروناً مثل اذناب الخيل
ان لقرني في الوغى مني الويل

وخرج مروان بن الحكم وهو يقول :

قد علمت ذات القرون الميل والكف والأنامل الطفول
اني اروع أول الرعيل

ثم ضرب عن يمينه وشماله فحمل عليه الحجاج بن غزيه وهو يقول :

قد علمت بيضاء حسناء الطالل واضحة الليتين قمساء الكفل(١)
اني غداة الروع مقدام بطل

فضربه على عنقه بالسيف فلم يقطع سيفه وخر مروان لوجهه (٢)

ويلاحظ في رجزهم هذا انه متفق في وزنه وقافيته ، وهو نموذج بسيط للنقائض التي تطورت فيما بعد .

وفي هذا الحصار دخل عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام على عثمان هو واثنان معه يدافعون عنه ، فقال عبد الله : ياعباد الله بيننا وبينكم كتاب الله ، فشد عليه عبد الرحمن بن عبد الله الجمحي وقال مستعملا الرجز سلاحه النفسي القوى :

---

١ ـ في معجم الشعراء ص٢٣٧ ان هذه الابيات للمختار الثقفي وروى الشطر الثاني على النحو التالي : واضحة الخدين عجزاء الكفل .

٢ ـ انساب الأشراف ـ البلاذري ٧٩/٥ .

لأضربنَّ اليومَ بالقرضابِ بقيةَ الكفارِ والأحــزابِ
ضربَ امرىءٍ ليس بذى ارتياب أأنتَ تدعونا الى كتـابِ
نبذته في سائر الاحقاب (١)

اما في حصار الحجاج لعبد الله بن الزبير بمكة فقد جعل عبد الله ابن مطيع بن الاسود العدوى يقاتل اهل الشام ويرتجز بمـا يبعث في نفسه العزم والثبات :

انا الذي فررتُ يومَ الحره والشيخُ لا يفرّ الا مره
فاليومَ أجزي فرةً بكره لا بأس بالكرة بعد الفره (٢)

ولما التقى الناس بصفين نظر معاوية الى هشـام بن عتبة . وكان اعور والراية بيده وهو يقول :

اعورُ يبغي نفسه محلا قد عالجَ الحياة حتى ملا
لابدَّ ان يفلَّ أو يفلا (٣)

وتبدأ المعركة ويبدأ معها القتال ، فيصرخ الفرسان ويزمجر الابطال وهنا يظهر دور المرأة العربية التي كانت تشارك الرجل في تلك الحروب وكانت مهمة المرأة في تلك الحـــروب هي ان تضمد الجرحى وتسعف المصابين ، وتحمل الماء لتسقي منه العطاش ، واهم من هذا كله هو تشجيعها للمقاتلين وبعث النخوة والحمية في نفوسهم ، ولا اقدر على هذا

---

١ ــ انساب الاشراف ــ البلاذري ٨٠/٥ .
٢ ــ العقد الفريد ١٥٩/١ و ٣٨٩/٤ .
٣ ــ المصدر السابق ٣٤٠/٤ .

من المرأة ، فان لها تأثيراً نفسياً عظيماً ، وتجاوباً سريعاً من قبل المحاربين ، ولا يوجد امضى من الرجز تزمجر به فتلهب نار الحمية في نفوس المقاتلين وتبعثهم على الفداء والاستبسال قالت بنت الفند الزماني في يوم التحالق وهي تحض الناس : (١)

وغى وغى وغى وغى حر الحرار والتظى
وملئت منه الربى ياحبذا المحلقون بالضحى

وقالت بنت الفند الاخرى : (٢)

نحنُ بناتُ طارق نمشي على النمارق
ان تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق

وقالت امرأة من بني عجل في يوم ذي قار : (٣)

---

١ ــ شرح حماسة ابي تمام ــ التبريزي ٣٥/٢ .

٢ ــ اختلف في نسبة هذه الابيات ، فالتبريزي يرويها لبنت الفند ، والطبري يقول ٦١٠/١ : انهالأمرأة من بني عجل تقولهافي يوم ذي قار واستشهدت بها هند بنت عتبة في غزوة أحد وشايعه في ذلك الدكتور علي الجندي في كتابه شعر الحرب ٢٧٧/١ اما صاحب لسان العرب فيقول مادة (طرق) انها لهند بنت عتبة ، في حين يرى صاحب تاج العروس مادة (طرق) انها للزرقاء الايادية وتمثلت بها هند بنت عتبة بن ربيعة يوم أحد ، والبكري ينسب هذه في معجم ما استعجم ٧٠/١ الى هند بنت بياضة ويرويها مع زيادة في الأبيات .

٣ ــ تاريخ الامم والملوك ــ الطبري ٦١٠/١ .

ان يظفروا يحرزوا فينا الغزل   إيهاً فداء لكم بني عجــل

وفي أحد خرجت هند بنت عتبة ونسوة اخريات مع جيش المشركين فلما دنا الجيشان ، والتقى بعضهم ببعض اخذت النساء الدفوف وضربن بها خلف الرجال وحرضنهم ، وكانت هند تقول والنسوة يرددن معها : (١)

ويهاً بني عبد الدار   ويهاً حماة الأدبار
ضرباً بكلّ بتار

وكنّ يقلن أيضاً :

نحنُ بناتُ طارق   ان تقبلوا نعاق .... الخ

ورجز النساء هــذا لايقف عند تشجيع الرجال المقاتلين ، انما تستخدمه النساء لتشجيع انفسهن وهن يصطلين بنار الحرب ، اذ كانت بعض النسوة لايكتفين بتشجيع المقاتلين ، إنما ينزلن مع الرجال في ساحة الوغى ويحملن على الاعداء ، وهذا ما حصل لأم حكيم الخارجية التي كانت من اشجع الناس واجملهم وجهاً واحسنهم بدينهم تمسكاً ، وقد شوهدت وهي تحمل على الناس وترتجز : (٢)

احملُ رأساً قد سئمتُ حمله   وقد مللتُ دهنه وغسـله
الا فتىً يحمل عني ثقله

ويشتد القتال ، ويحمي الوطيس ، وتخر الابطال صرعى كليمة ،

---

١ ــ تاريخ الامم والملوك ــ الطبري ١٩٥/٢ .
٢ ــ الأغاني ١٥٠/٦ وزارة الثقافة والارشاد .

هناك يتغنى الفرسان مشيدين ببلائهم وبطشهم ، وهناك يختلط هدير الرجال بالرجز مع قرع السيوف .

ورجز العرب تعبير صادق لنفوسهم الأبية ، حتى في احرج المواقف ، واشد الأزمات ، فنحن نجد رجزاً لأحدهم صور فيه نشوة النصر الذي حالفه فدعاه يأنف من قتل الرجال فيتركهم ويعمد الى الفرسان لكي يشفي نفسه بقتل الابطال ، ففي يوم الكلاب الثاني نادى قيس بن عاصم عندما حملوا على اعدائهم : يا لتميم ، لاتقتلوا الا فارساً ، ثم جعل يرتجز ويقول :

لما تولوا عُصباً هواربا اقسمتُ لاطعنُ الا راكبا

اني وجدت الطعنَ فيهم صائبا (١)

أما أساليب الحرب التي كان يستعملها العرب فنجد في الرجز صورة من صورها ، وهي استعمال الأبل وحبسها ثم اطلاقها على الاعداء حتى تتركهم بين صريع تحت اقدامها وشارد من بأسها ، فقد استعملت بنو أسد في يوم شعب جبلة هذا السلاح فكان مساعداً لهم على النصر ، قال أحد بني أسد يسخر من بني عامر بعد أن اغارت عليهم ابلهم في هذا اليوم :

زعمتَ أن العيرَ لاتقاتلُ بلى ، اذا تقعقعَ الرحائلُ

واختلفَ الهنديُّ والذوابلُ وقالت الابطالُ من ينازلْ

بلى وفيها حسب ونائل (٢)

---

١ ـــ العقد الفريد ٥/٢٢٧ .

٢ ـــ الأغاني ١١/١٤١ وزارة الثقافة والأرشاد .

وكان الرجز أداة يصورن به بلاءهم في المعركة، اذ كانوا يظهرون شجاعة فائقة، ونفساً ابية، لايثنيها جرح، ولا يمنعها ألم عن مواصلة القتال، يروى أن رجلاً من الأزد شد على حكيم وهو غافل فضربه على ساقه فقطع رجله، فاخذ حكيم رجله فضرب بها الأزدي فصرعه ثم جاء فقتله وانشأ يقول:

يا نفسُ لا تـراعي　　　إن قطعتْ كراعي
انّ معي ذراعي (١)

وفي إحدى حروب علي رضي الله عنه حمل علي بنفسه وقاتل حتى انثنى سيفه، وخرج فارس أهل البصرة عمرو بن الاشراف لا يخرج اليه أحد من أصحاب علي الا قتله وهو يرتجز ويقول:

يا أمنا يا خير أمٍ نعلمُ　　　والأم تغذو ولدها وترحمُ
الا ترينَ كم جوادٍ يُكلم　　　وتختلى هامته والمعصم (٢)

وحينما يضرب الفارس بسيفه أو يطعن برمحه أو يرمي بسهمه، يطلق معه مكنون قلبه الرجزي ليستقر هذا في الجسم وذاك في القلب:

خذها من ابن مالك　　　من فاعل كذلك (٣)

وكانت زفراته الرجزية تخرج وصفاً بارعاً لثباته واقدامه ومجالدته:

---

١ ـــ الديارات ـــ الشابشتي ص ١٣٦ بغداد.

٢ ـــ الاخبار الطوال ـــ الدينوري ص ١٥٩ ليدن.

٣ ـــ انساب الاشراف ـــ البلاذري ٢٢٧/٥.

أقد منيتم بأخي جلادِ   ليس بفرار ولا حيادِ
ثبتِ المقامِ مقعسِ الاعادي (١)

وكان لاينسى — وهو في مقامه ذاك — أن يصف بالرجز سلاحه ويثني عليه ، ويعطيه ابرز مظاهر القوة مقرناً ذلك بجرأة صاحبه وصلابته. قال أحد المقاتلين وقد ابرز كنانته واخذ سهمه :

ما علتي وأنا جلد عابل (٢)   والقوس من نبع لها بلابل
يرنُّ فيها وتر عنابل (٣)   ألا اقاتلكم فأمي هابل
اكل يوم انا عنكم ناكل   لا اطعن القوم ولا اقاتل
الموت حق والحياة باطل (٤)

وكانوا يتخذون الرجز لتحذير الخصم في اثناء القتال ، حتى أصبحت شبه‌عادة اتبعها كثير ممن خاضوا غمار الحروب ، وهم بهذا يشحذون عزائمهم ، ويرهبون خصومهم ، ويوقعون في قلوبهم الرعب والهلع ، قال عمرو بن العاص وقد خرج في خيل من أهل الشام وكان سعد بن قيس قد خرج له في مثل ذلك من من أهل العراق :

لاتأمننَّ بعدها أبا حسن   طاحنة تدقكم دقَّ الطحن
أنا نمرُ الحربَ امرارَ الرسن (٥)

---

١ — انساب الاشراف — البلاذري ٢٩٤/٥ .

٢ — العبل : الضخامة والقوة .

٣ — الوتر العنابل : الغليظ .

٤ — المحاسن والمساوىء — البيهقي ٢٦٣/٢ .

٥ — الاخبار الطوال — الدينوري ص ١٨٧ ليدن .

وقال أيضاً : (١)

شدا عليّ شكني لا تنكشف يومٌ لهمدانَ ويوم للصدف
ولتميمٍ مثله أو تنحرف والربعيونَ لهم يوم عصف
اذا مشيت مشية العود النطف أطعنهم بكل خطي ثقف

وعندما يقتل الواحد منهم خصمه يشعر بنشوة النصر والغلبة ، وكأن دم القتيل خمرة تبعث في نفس القاتل هزة وطربا فيروح شاديا مفتخرا ، مفصحا عن اسمه ومشيدا بما فعله . والرجز اوفق ما يعبر عن هذه الافكار السريعة في لحظات خاطفة ، قال سلمة بن دريد بن الصمة حينما رمى ابا موسى الاشعري بسهم فقتله :

إن تسألوا عني فاني سلمه ابنُ سمادير لمن توسمه
اضرب بالسيف رؤوس المسلمه (٢)

وحينما كانوا يرتجزون في حروبهم مشيدين بما تحلوا به من صفات القوة كانوا يتخذون النساء وسيلة للتعبير عن هذه الصفات ، ذلك لأن الانسان يرغب في ان تظهر كل صفاته الحسنة امام من يحب . وقد مر بنا في حصار عثمان رضي الله عنه كيف انهم اسندوا العلم بشجاعتها الى تلك الخود الحسان .

هذا الى ان ذكر المرأة في الحرب حافز قوي للاستبسال في القتال

---

١ ـــ الاخبار الطوال ـــ الدينوري / ١٨٧ ليدن .
٢ ـــ الاغاني ١٠/٤ وزارة الثقافة . وسمادير : اسم أمه .

فهذا عكرمة بن ابي جهل يرتجز في حروب خالد مع الروم ويقول :(١)

قد علمت بهكنة* الجوارى — اني على مكرمة أحامي

ويسير الفارس امام الجيش وهو يرتجز بهم ، وكأنما كان هذا بمثابة خطبة حماسية يؤلب فيها قومه على النيل من الاعداء . ففي الحرب التي خاضها الخوارج كان امامهم عظيم منهم يسمى (عمرو القنا) وكان من فرسانهم وهو يرتجز : (٢)

نحن صبحناكم غداة النحر — بالخيل امثال الوشيح تسري
يقدمها عمرو القنا في الفجر — الى اناس لهجوا بالكفر
اليوم اقضي في العدو نذري

وحينما كانوا يفخرون في تلك الساعة بكثرة عددهم وضخامة جيشهم كانوا يسخرون الرجز ليؤدي لهم هذا الغرض ، قال ادهم بن ابي الزعراء يفخر بجيشه : (٣)

قد صبحت معن بجمع ذي لجب — قيساً وعبدانهم بالمنتهب
وأسداً بغارة ذات حدب — رجراجة لم تك مما يؤتشب
الاصميا عربا الى عرب — تبكي عوالبهم اذا لم تختضب
من ثغر اللبات يوما والحجب

---

١ — الاخبار الطوال — الدينوري /٢٨٥ ليدن .

٢ — الاخبار الطوال — الدينوري ص ٢٨٥ ليدن .

٣ — شرح حماسة ابي تمام — التبريزي ٢/٨٢ و ٦١٣ .

ومن رجزهم الذي تغنوا فيه بقوة جيشهم وصلابته ، قول عبد الرحمن المعني : (١)

قد قارعت ممن قراعا صلبا قراع قوم يحسنون الضربا
ترى مع الروع الغلام الشطبا اذا احس وجعا او كربا
دنا فما يزداد الا قربا تمرس الجرباء لاقت جربا

وكان رجز العرب تعبيرا صادقا لعاداتهم في القتال : اذ يصور لنا نظام الكر والفر الذي كان سائداً في ذلك الوقت ، ويقول لنا رجزهم ان تتابع الكر كان مدعاة لفخرهم واعتزازهم ، واظهارا لبطولتهم وبسالتهم ، قال ابو حفصة يوم الدار : (٢) .

لست على الزحام بالأصر اني لوراد حياض الشر
معاود للكر بعد الكر

وبعد الضرب والطعن ، وبعد لقاء الاقران واحتدام الفرسان تنطفيء جذوة المعركة وتخمد نارها ، فينصرف الناس الى دفن قتلاهم والعناية بجرحاهم ، ومع نهاية المعركة يستبين الفوز والخذلان ، فيكون احدهما نصيب قوم ، ويكون الآخر مع الاعداء ، وهنا يعالج الرجز غرضا جديداً هو الفخر والاشادة بالبطولة والشجاعة ، والتغني ، بالنصر لمن كان حليفه النصر ، قالت امرأة من المسلمين يوم بدر .

غلبتِ خيلَ الله ، خيلَ اللات والله أحقُ بالثبات

---

١ ـ شرح حماسة أبي تمام ـ التبريزي ٢/٦٠٣
٢ ـ الاغاني ١٠/٧٣ وزارة الثقافه والارشاد .

وقال رجل من بني عامر راجزاً بعد ان انتصروا في يوم شعب جبلة :

لم ارَ يوما مثل يوم جبله   يوم أتتنـــا أسد وحنظله
وغطفـــان والملوك أزفله   نضربهـــم بقضب منتخله
لم تعد ان افرش عنها الصقله   حتى حدوناهم حداء الزومله

وجمل معقل بن عامر يرتجز ويقول :

نحن حماة الشعب يوم جبله   بكل عضب صارم ومعبله
وهيكل نهدٍ معاً وهيكله (١)

ولما انتهت معركة احد بقرت هند بنت عتبة عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها،ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت باعلى صوتها فقالت :

نحن جزيناكم بيوم بـــدر   والحربُ بعدَ الحربِ ذات سعر
ما كان من عتبةَ لي من صبر   ولا اخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضيت نذري   شفيت وحشي غليل صدري
فشكر وحشي عـــلي عمرى   حتى ترمَّ أعظمي في قـــبرى

فأجابتها هند بنت أثاثة بنت عباد بن عبد المطلب فقالت :

خزيت في بدر وبعـــد بدر   يابنت وقاع عظيم الكفر
صبحك الله غداة الفجـــر   بالهاشميين الطوال الزهـــر
بكل قطاع حسام يفري   حمزة ليثي وعلى صقـــرى
اذ رام شيب وابوك غدرى   فخضبا منه ضواحي النحر
ونذرك السوء فشر نذر

وقالت هند بنت عتبة في ذلك اليوم ايضاً :

---

١ ــ الأغاني ١١/١٤١ وزارة الثقافة والارشاد .

شفيت من حمزة نفسي بأحد ... حين بقرت بطنه عن الكبد
أذهب عني ذاك ما كنت أجد ... من لوعة الحزن الشديد المتقد
والحرب تعلوكم بشؤبوب برد ... تقدم اقداما عليكم بالاسد (١)

وعالج الرجز أيضاً غرضاً آخر هو الاعتذار عند من مني بالهزيمة ولم يحالفه النصر ، محاولا تبرير هزيمته واختلاق الاعذار التي يظنها سببا في الفشل ، قال حماس بن قيس يعتذر يوم فتح مكة وكان قد انهزم ودخل بيته فلامته امرأته فقال :

انك لو شهدت يوم الخندمه ... اذ فر صفوان وفر عكرمه
واستقبلتهم بالسيوف المسلمه ... يقطعن كل ساعد وجمجمه
ضرباً فلا يسمع الاغمغمه ... لهم نهيت خلفنا وهمهمه
لم تنطقي باللوم ادنى كلمه (٢)

اما اسلحة الحرب في ذلك الوقت فكانت لا تتعدى السيف والرمح والقوس ، وقد استعملوا مؤخراً المجانيق في مهاجمة المدن وفتح اسوارها وفك الحصار المضروب عليها . وفي الرجز نجد ذكراً لبعض هذه الآلات ففي حصار عبد الله بن الزبير الأول نصبوا على البيت المجانيق فدقوه بها واخذوا يرتجزون ويقولون :

خطارة مثل الفنيق المزبد ... نرمي بها عواذ هذا المسجد

كما جعلوا يقولون :

---

١ — تاريخ الخميس — الديار البكرى ١/٤٣٨ .
٢ — معجم ما استعجم — البكري ٢/٥١٢ .

كيف ترى صنيـــع ام فروة   تأخذهم بين الصفا والمروة [1]

وكانت الحرب مجالاً فسيحاً لاظهار الشجاعة والبطولة ، لهذا كان الجميع يتسابقون للأشتراك فيها ، طمعا في احراز النصر وكسب الشهرة اما العاجزون فقد كان لديهم الرجز يطلقونه زفرات تحرق اكبادهـم ، قال دريد بن الصمة حينما كبر ولم يستطيع الدخول في المعركة :

يا ليتني فيهـــا جذع   أخب فيهـــا وأضـع
اقود وطفاء الزمـــع   كأنها شاة صــــدع[2]

ولكن هذا لا يعني انـه لم يكن هناك جبناء كانوا يتهربون من الاشتراك في القتال ، ولكنهم قلة لا نجد لهم ذكرا الا نادرا .

وفي الرجز نجد وصفا لأناس ملوا الحرب التي عركتهم عرك الرحى بثقالها ، فيتصورونها غولا تريد افتراسهم :

والحرب غول أو كشبه الغول   تزف بالرايات والطبـــول
تقلب للاوتار والذحـــول   حملاق عين ليس بالمكحول[3]

فتنتهي الحرب وتمر الايام ، فيصبح النصر حديث المجالس ومفخرة القوم ، واهزوجة يتغنى بها المنتصرون ، ويمدح بها المادحون ، وتعود الهزيمة معرة تجر على اصحابها الخزي والذل ، ويجدها الاعداء ثغرة واسعة لهجائهم والنيل منهم ، وتسجل هذه الحرب في سجل ايام العرب فيتناقلها الرواة ، ويتحدث بها المتحدثون ، وتبقى درة متألقة في جبين

---

١ ــ انساب الاشراف ــ البلاذري ٤/٤٨ .

٢ ــ سيرة ابن هشام ٤/٦٧ حجازي .

٣ ــ الحيوان ٦/١٩٦ هارون .

المنتصرين ، يتحينون الفرصة ليسجلوها بالرجز صفحة ناصعة تشهد على قوتهم وبلائهم .

نحن اللذون صبحوا الصباحا يوم النخيل غارة ملحاحا
نحن قتلنا الملك الجحجاحا دهرا فهيجنا به انواحا
لا كذبَ اليومَ ولا مزاحا مذحجَ فاجتحناهم اجتياحا
فلم ندع لسارحٍ مراحا الا ديارا أو دما مفاحا
نحن بنو خويلد صراحا (١)

وكيف لايفتخر وقد جعل هامة الملك تتدحرج في الارض فراحت النائحات يندبنه وينحن عليه ويقمن المآتم . وكان الرجز يخلد بطولة الافراد فيتخذونه وسيلة للأستجداء وكسب المال ، قال رؤبة يمدح بلال ابن أبي بردة :

قد علم الموقدُ نارَ الحرب أنك وثابٌ مخوف الوثب
تعتز اعناقَ الرقاب الرقب من القروم والاسود الغلب (٢)

وهكذا نجد رجز العرب قد عالج الحرب وصور اساليبها وبين آثارها التي تبقى في نفوس القوم . وكان صالحاً لهذا كله ، اذ كان التوافق بين حركات هذا البحر وبين ما يدور في الحرب من جلبة واضطراب مساعد على ذلك :

وعلى هذا فأن الحرب موضوع مهم من الموضوعات التي برز فيها الرجز واستطاع أن يثبت قدره كبيرة على تصويرها .

على اننا يجب أن لا ننسى أن بساطة الرجز وخفته وسهولته كانت عوامل مهمة لنجاح الرجز في تناوله لهذا الغرض .

---

١ — مجموع أشعار العرب — الور /١٧٢ .
٢ — مجموع اشعار العرب — الورد /١٨ .

الفصل الثالث

الرجز والحياة الاجتماعية

دار البحث في الفصلين السابقين حول رجز الطبيعة ورجز السياسة وفي هـــذا الفصل سأتناول بالبحث الرجز الذي ظهر نتيجة تأثير الحياة الأجتماعية في العرب . هـذا الرجز الذي عالج تحت تأثير هذه الحياة فنوناً كثيرة كالمديح والرثاء والفخر والهجاء وما الى هـــذه الامور التي فرضتها حياتهم الاجتماعية التي كانوا يحيونها .

ففي المديح مثلا كانت هناك صفات معينة جعلوها مقاييس يمدحون من تحلى بها كالشجاعة والكرم والدين والعفة والصدق والامانة وما الى هذه الصفات ، اذ كانت هذه الصفات من مقومات الحياة الاجتماعية لدى العرب . وكذلك كانت هناك خصال معروفة مذمومة عدوها مثالا

هجوا من اتصف بها . وقل مثل ذلك في باقي فنون الرجز التي تناولت مختلف نواحي الحياة الاجتماعية ، حيث عالج الرجز هذه النواحي كما عالجها القصيد ، بغض النظر عن الأمور التي قصر فيها الرجز لعدم صلاحيته للاستعمال في مثل تلك الاغراض ، وذلك كالرثاء مثلاً .

ولكن الرجز – مع كل ذلك – وفى بحاجة العرب في مثل تلك الميادين وأسعفهم للتعبير عن أغراضهم ومشاعرهم في كثير من المواقف التي مرت بهم .

وستجد في الصفحات التالية من هذا الفصل بياناً للاغراض التي نشأت بتأثير الحياة الاجتماعية ، والتي استخدم فيها الرجز ، فاليك هذه الاغراض :–

أ – المديح

المديح هو مخاطبة الملوك والخلفاء والوزراء والاثرياء والوجهاء ، والثناء عليهم والباسهم أحسن الصفات وأجملها ، تحلفوا بها أم لم يتحلوا ، والشعراء يجدون في مدحهم هذا وسيلة تدر عليهم أموالاً ونعماً طائلة ، توفر لهم ولذويهم حياة رغيدة هانئة في ظلال من يمتدحون ، ولهذا فأننا وجدنا الشعراء يتمرغون على أعتاب أرباب القصور ممن أنعم الله عليهم بملك وسلطان وثروة يستجدونهم ويستمطرون عطاياهم ، وهم يبالغون فيما ينعتون به ممدوحيهم – صدقاً كان ذلك أم كذباً – طمعاً في الحصول على هبة أوفى وعطاء أجزل ، وقد كان الممدوح يهتز طرباً ويمتلئ أريحية كلما أوغل المادح في المبالغة فأظهر الممدوح بمظهر عظيم حتى كأنه مزج بنفحة من الالوهية . وكانت يد الممدوح تنبسط أكثر فأكثر حينما يسمع هذا الاطراء وينعت بتلك النعوت الجميلة ويوصف بكل ما يدل على الجود

والكرم والشجاعة والمجد والشرف ونحو ذلك من مقومات العز والسؤدد .

وكان الرجاز والمقصدون وما زالوا يتهالكون على معاني المدح المعروفة وهي الكرم والشجاعة وشرف النسب وكرم المحتد والصلاح والعدل والحلم وسعة الادراك ، يطلونها بسحر القول وأشراق البيان ، وكل يوم يبرزونها بحلة جديدة وأشكال بديعة ويستعملونها بأساليب مبتكرة وبكلمات مختارة ، وهي في حقيقتها لا تعدو هذه الصفات ، الا أنهم يلبسونها ثوباً جديداً غير ثوبها الاول .

وكان الكرم أكثر الصفات التي أستخدمها الرجاز والمقصدون في مدحهم والتي جعلوها غاية ما بعدها غاية . وربما كان هذا موافقاً لما في نفوسهم من أغراض ، حيث كانوا يطمحون في الحصول على جزيل العطاء بوافر الثناء . فكانوا يلينون الاصابع اليابسة بما يضفون عليها من صفات البذل والكرم ، فيجعلون الممدوح قد نبت أصله في الجود حتى بنى المجد عليه سرادقاً :—

يا حكم بن المنذر بن الجارود ... أنت الجواد أبن الجواد المحمود

نبت في الجود وفي بيت الجود ... والعود قد ينبت في أصل العود

سرادق المجد عليك ممدود (١)

---

١ — اختلف في نسبة هذه الابيات ، ففي مجموع أشعار العرب / ١٧٢ ينسبها الورد الى رؤبة والبيهقي يذكر في المحاسن والمساوىء ١٥٦/١ الشطرين الاولين دون أن ينسبهما ، وأبن قتيبة ينسب الابيات في الشعر والشعراء ٥٧٥/٢ الى الكذاب الحرمازي مع نقص في عددها ، وانظر الاصابة ٣٥/٤ والكامل — للمبرد ٥٩/٢ واللسان — مادة (سردق) .

ونسب المرء خير دليل على مجده وكرمه ، فالذي ينبت في بيوت المجد والذي يكون آباؤه وأجداده صالحين ينضحون بالندى ، أحر به أن يكون مثلهم كريماً ، وافر العرض ، مشرق الوجه ، أبي النفس .

قال أبو حزابة (١) يمدح عبدالله بن أمية حينما ولاه أبوه سجستان : (٢)

انى وان كنت كبيراً نازحاً يطرح الفتقُ بي المطارحا
القى من العرام برحا بارحا لمادحٌ اني كفى بي مادحا (٣)
من لم اجد في العرض منه قادحا ان لعبد الله وجهاً واضحا
ونسبا في الصالحين صالحا النافحين بالندى المنافحا

وهذه الصفات هي التي تناولها يحيى بن محمد الانصاري في مدحه اذ قال : (٤)

انت المنقى والمصفى في النسب وانت انقى الناس عرضاً من وكب
ظننتكم مسكا وانتم من ذهب وانجم البطحاء في ماضي الحقب
والغيث في قحط الزمان واللزب جيبت قريش لكم مرت القطب
توسطا في العز منها والحسب

والمخيس بن أرطاة الأعرجي اول من مدح بني العباس في خلافتهم، وقد سخر الرجز في هذا المدح ووصفهم بشدة البأس والندى فقال : (٥)

---

١ ــ هو الوليد بن حنيفة من شعراء الدولة الاموية ، وأبو حزابة ــ بالباء ــ كنيته الصحيحة كما ورد في حيوان الجاحظ ١/٢٥٥ هارون فى وقد جاء في انساب الاشراف ٤/١٥٣ المثنى أبو حزانة ــ بالنون ــ وهو تصحيف .

٢ ــ انساب الاشراف ــ البلاذري ٤/١٥٣ المثنى ــ بغداد .

٣ ــ العرام : الشدة .

٤ ــ معجم الشعراء ــ المرزباني /٤٨٩ تحقيق عبد الستار فراج .

٥ ــ المصدر السابق /٤٥٣ .

أهلاً وسهلاً بخيـــار الناس بهاشم أهل الندى والباس
بدلت الوحشة بالايناس وعُليّ الفرع على الاساس
تداولوها بابني العبـــاس تداول الاكف الامراس

وكان قرى الضيف ورعايته والاهتمام به وايثاره بالطعام والحديث خصلة تستحق المدح والثناء ، وقد كثر ذكرها في القصيد والرجز ، حتى اصبحت من المعاني الشعرية المكررة ، قال الشماخ بن ضرار يمـــدح عبد الله بن جعفر بن ابي طالب : (١)

انك يا بن جعفر خـــير فتى وخيرهم لطـــارق اذا اتى
وربّ نضوٍ طرقَ الحيَّ سرى صادف زادا وحديثا ما اشتهى
ان الحديث جانب من القرى

وتصيب الناس أحيانا سنة مجدبـــة ، فيعم القحط وينتشر الجوع فينبري أحد الكرماء ليطعم المحتاجين ويشبع الجائعين ويكفي المعوزين ، ثم ينبري له احد الرجاز فيثني عليه ، فهذا بعض القرشيين يذكر قيس ابن معدى كرب ومقدمه مكة واطعامه الناس فيها : (٢)

قيس ابو الاشعث بطريق اليمن لا يسأل السائل عنه : ابن من
أشبع آل الله من بر عدن

وكثيرا ما حاول الرجاز ابراز صفة الكرم باجـــلى مظاهرها في ممدوحيهم ، فاتخذوا من الغيث والبحر شبيها ونداً لهم .

قال رؤبة يمدح مسلمة بن عبد الملك : (٣)

---

١ ـــ البيان والتبيين ـــ الجاحظ ١/٢٧ السندوبي ، واماني المرتضى ١/٤٩٣ ط١
٢ ـــ البيان والتبيين ١/٣٥ .
٣ ـــ مجموع اشعار العرب / ١٤٦ واراجيز العرب / ٨٣ .

مسلمة القائد وهـــو وسام   كالبدر اجلى عن دجى الغمام
فنعم غيث الوافد المعتام (١)

وهم يبالغون في اظهار ممدوحيهم باعلى صور الكرم ، وذلك بأن يجعلوهم غيثا ينزل في سنه مجدبة شهباء صماء ، فيكون هطواه اذ ذاك رحمة ما بعدها رحمة بالنسبة لأولئك الذين قاسوا مرارة الحرمان وألم الجوع ، قال رؤبة يمدح حرب بن الحكم العبدي : (٢)

قد علموا انـــك اذ عيّ البرم   وألبس الارض الضباب والقتم (٣)
وسنة شهباء صماء الصمم   منحدر الوابل وكاف الديم (٤)
واف اذا عاهدت مناع الحرم

وقال الكذاب الحرمازى يمدح المنذر بن الجـــارود في سنة اصابتهم : (٥)

انت لها منذر من بين البشر   داهية الدهر وصماء الغبر (٦)

ومن تشبيههم الممدوح بالبحر قول رؤبة في حرب بن الحكم : (٧)

---

١ ــ المعتام : المختار .

٢ ــ شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط / ٢٠٤ ومجموع اشعار العرب / ١٣٦ .

٣ ــ عي البرم : عي بامره المتبرم ، والقتم : الغبار .

٤ ــ شهباء : من البرد وشدة الزمان والجدب ، صماء الصمم : شديدة ، الديم : المطر الذي يدوم يوماً وليلة .

٥ ــ اللسان مادة (غبر) والمعاني الكبير ابن قتيبة / ٦٧١ .

٦ ــ داهية الغبر : داهية عظيمة لا يهتدى لمثلها .

٧ ــ شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط / ٢٠٥ ومجموع اشعار العرب / ١٣٦ .

وانتَ بحرٍ مدهُ بحر قذم (١)

وكذلك قول الكذاب الحرمازى في مهزم بن الفزر : (٢)

بحملانَ بالموماة بحراً بجري العامرَ بنَ المهزم بن الفزر

وهم مع تشبيههم الممدوح بالغيث والبحر فانهم لا يكتفون بهذا انما يجعلون عطاء الممدوح سيلا عارما لا يدانيه النيل وهو يفيض في بطحائه . قال رؤبة يمدح ابا جعفر المنصور : (٣)

ما وجدَ العدادُ فيه جحجحا أعزَّ منه نجدةً واسمحا (٤)

ما النيل من مصر اذا تبطحا مغتدياً يستن أو تروحا (٥)

يعادل منه سجـــالا نفحا هنا وهنا وغيوثا سمحا (٦)

وديماً بعد الغيوث نضحـــا حتى تمج الارض نورا اصبحا

وكان بعضهم يفصح عما تجود به يد الممدوح مما تملك يداه من حيوان أو نقود أو جوارٍ ، وقصدهم من ذلك الاشارة الى ان الممدوح يعطي اعز ما يملك ، قال الشيظم الغساني يمدح ملك الشام : (٧)

---

١ ــ القذم : المتقدم الماضي الذاهب ،يقال: انقذم فلان في أمر كذا وكذا اذا اسرع اليه ومضى .

٢ ــ العقد الفريد ٣/٣٥٨ ط ٢ .

٣ ــ مجموع اشعار العرب /٣٤ .

٤ ــ الجحجح : السيد .

٥ ــ تبطح : انبسط ، واستن : ذهب ، واستن الطريق : وضح .

٦ ــ هنا : اسم يشار به الى المكان البعيد .

٧ ــ امالي القالي ٣/١٨٠ بيروت .

ياصاحبَ الخيل الجياد المقربه ... وواهب المضمرة المربية (١)
والكاعب البهكنة المؤبية ... والمائة المدفأة المنتخبة

ونادى لبيد النعمان من وراء القبة بقوله (٢)

أنامَ أم يسمع ربَّ القبة ... ياأوهبَ الناسِ لعنس صلبه (٣)
ذاتِ هبابٍ في يديها خدبه ... ضرابةٍ بالمشفر الأذبّة (٤)
في لاحبٍ كأنه الأطبة (٥)

وننتقل من صفة الكرم التي لم يتركها راجز دون أن يذكرها في مدحه أو أن يتخذها مركباً ذلولا للوصول الى غايته ، لنعرج على صفة الشجاعة التي كثيراً ما كانت تقترن بصفة الكرم والجود . قال أحد الرجاز : (٦)

اكرمْ نزارا واسقه المشعشعا ... فأن فيه خصلات اربعا
حداً وجوداً وندىًّ واصبعا

وظني أن العربي كان يرغب رغبة شديدة في ان يمدح بالشجاعة أكثر من أي شيء آخر ، وحتى الجبناء كانوا يحاولون تغطية جبنهم ليظهروا بمظهر الشجعان ، اذ يلجأون الى سد هذا النقص بمدح غيرهم بالبطولة

---

١ ـــ المربية : المنعم عليها أي المدللة .

٢ ـــ شرح ديوان لبيد ـ الدكتور احسان عباس ص ٤٠٣ الكويت ، ونسبت هذه الابيات الى النابغة في العقد الثمين ص ١٦٥ .

٣ ـــ العنس : الناقة الشديدة الصلبة .

٤ ـــ الخدبة : الطول ، والأذبة : جمع ذباب .

٥ ـــ اللاحب : الطريق الواضح .

٦ ـــ امالي المرتضى ٣١٨/١ الطبعة الأولى .

والشجاعة والشدة ، يروى أن حسان بن ثابت كان معروفاً بجبنه وحين مدح سعد بن زيد قال فيه : (١)

اذا أردتَّ السيد الأشدا   من الرجال فعليك سعدا
سعد بن زيد فأتخذه جندا   ليس بخوار يهد هــدا
ليس يرى من ضرب كبش بدأ

الا ترى أنه مدحه بشدة البأس ورباطة الجأش ، وأنه يأنف من أن يطعن غوغاء القوم ، فلا يخضب سيفه الا بدم السادة ، هذا في حين كان حسان يفتقد كل هذه الصفات .

وكانوا يشبهون الشجاع بالليث ، اذ أن الليث اشجع الحيوانات ، واشدها فتكاً ، ولهذا فأن الممدوح لايقل بأساً وشدة من الأسد ، فهـو اذا ما اشتد الأمر وصعب واشتبكت مسالكه ، رمي به ففرجه بصولاته ، قال رؤبة يمدح الحارث بن سليم : (٢)

وأنت ليثُ المزحف الملايث   ذو صولة ترمي بك المدالث (٣)

وكثيراً ما يمنى الناس بهذا الليث الشجاع ذى القوة والجلـــد ، فيذوقون منه أمـــر العـذاب ، قـال رؤبة يمدح محمد بن الاشعث الخزاعي : (٤)

وقد منوا منك بليث اليثِ   اعطى أبا سارة حمض المغلث (٥)

١ ــ ديوان حسان بن ثابت ص ٨٤ دار صادر ــ بيروت .
٢ ــ شرح ديوان رؤبه ــ مخطوط ص ٢٠٠ ومجموع أشعار العرب ص ٢٩ .
٣ ــ دلثه : رمى به في الامر .
٤ ــ شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ص ٢٥٢ ومجموع أشعاع العرب ص ٢٨ .
٥ ــ الأليث : الشجاع ، يقال : هو اليث اصحابه : أي اشدهم واجلدهم ، الغلث والمغالث : الشديد القتال .

على أنهم يدعون احياناً أن الليوث لاتداني ممدوحيهم شجاعة وبأساً ، فهي تخشاهم وترهبهم فتكتم زئيرها لئلا تكون فريسة لهم :

والأسد تخشى وقعه جواحرا خرساً فما تسمع منها زائرا (١)

واذا كانوا قد اتخذوا من الحيوانات الأسد وشبهوا به الشجعان ، فأنهم اتخذوا من الجماد السيف وشبهوا به ممدوحيهم في الحدة والمضاء ، فالممدوح سيف لايهتز في وجوه الرعاديد والجبناء من ضعاف القلوب ، أو في وجوه من افئدتهم هواء ، إنما يهتز في وجوه الأشداء الاقوياء المتمرسين بركوب الصعاب وتقحم الاهوال ، وهكذا فالممدوح سيف لامثيل له يقطع في أول ضربة :

أن أبا القاسم كالسيف الفرند ذو بدهاتٍ لم تخلد في خلد
اغر ميمون به الملك اعتضد (٢)

وكان بعض الرجاز يستقبل الممدوح المنتصر في الحرب برجز يشيد فيه بالبطولات التي ابداها في سوح القتال متغنياً بالنصر فرحاً به ، قال أبو نخيلة : لما انصرف مسلمة بن عبد الملك من حرب يزيد بن المهلب تلقيته فلما عاينته صحت فيه :

مسلم يا مسلمةَ الحروب أنت المصفى من اذى العيوب
مصاصة من كرم وطيب اولا ثقاف ليس بالتذبيب
نقري به من حجب القلوب لأمست الأمة شاء الذيب

فضحك وضمني اليه واجزل صلتي . (٣)

---

١ ـ مجموع أشعار العرب ص ٥٤ .

٢ ـ يتيمة الدهر ـ الثعالبي ٢/٤٠٠ الطبعة الثانية .

٣ ـ الاغاني ٨/١٤٠ ساسي و ٢٠/٣٦٤ بيروت ،

وأصبح الدين جانباً من الجوانب التي تناولها الرجاز بالمـــدح والتثمين ، فكانوا يثنون على ممدوحهم بالصلاح والتقـــوى ، وبالتزامهـم بأوامـــر الدين والعمل بالكتاب والسنة ، قال رؤبة يمـدح أبا مسـلم الخراساني : (١)

رفعت بيتاً وخفضت بيتاً   وشدت ركن الدين اذ بنيتا

في الأكرمين من قريش بيتا

وكان للاضطراب السائد بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وما تبع ذلك من احداث ، أثر بين في نفوس الناس حيث اخذوا ينشدون الأمن والاستقرار ويطلبون العدل والمساواة ، فكانت تتردد على السنتهـم هذه الكلمات في كل مناسبة يجدونها سانحة لذلك . قال رؤبة يمـــدح سليمان بن علي الهاشمي ويشيد بعدله الذي لولاه لما وجد الناس للعدل مكاناً : (٢)

والعدل يكفيك الضلال اعدله   حتى استوت اعداله ومحمله

تالله لولا أنت طال ميلـــه   أو شق عن بيض الجمال حجله

وحينما يسير الخليفة على الحق والعدل ، ينبسط ظل الخير والرفاهية في ارجاء البلاد ، وتعم الناس طمأنينة تكون حافزاً للعمل والجد ، قـال رؤبة يمدح السفاح : (٣)

سارَ بعدلٍ وبه تكلمه   خليفة اللهِ وتمتْ نعمه

فألبست نجداً وغار متهمه   ووصلت في الاقربين حرمه

---

١ ـــ الأغاني ١٨/١٢٢ و ٢١/٥٨ ساسي و ٢٠/٣١٦ بيروت .

٢ ـــ مجموع أشعار العرب ص ١٣٤ .

٣ ـــ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط ص ٣٠١ ومجموع أشعار العرب ص ١٥١ .

وتناول الرجاز في مدحهم الناحية الاخلاقية ، اذ وجدوا في حلم المرء وحسن اخلاقه وامانته ، صفات تستحق أن يشاد بها ، وان تجلب حمداً ورضى لمن تحلى بها. من ذلك ما وصف به أحد الرجاز شخصاً بقوله : (١)

لم أقض من صحبة زيد أربي   فتىً اذا أغضبته لم يغضب
موكلُ النفس بحفظ الغيب   أقصى الفريقين له كالأقرب

وكان بعض الرجاز ذوي نفوس ضعيفة فكانوا يمدحون لأتفه الأسباب التي تعود عليهم بنفع يسير جداً ، فقد اشتهر أبو نخيلة بنفسه الوضعية ، اذ كان يرضيه القليل ويسخطه حتى عرف ذلك عنه واشتهر به يحدثنا الأصبهاني (٢) أنه مدح سائس الربيع وقرنه به لأنه كان يتفقد فرسه فقال فيه :

لولا أبو الفضل ولولا فضله   ما استطيع باب لايسنى قفله
ومن صلاح راشد اصطبله   نعمَ الفتى وخير فعل فعله
يسمن منه طرفه وبغله

حتى أن الربيع لامه في ذلك وعاتبه .

ويروى عن أبي نخيلة أنه نزل بسليمان بن صعصعة فأمر غلامه بتعهده ، وكان يغاديه ويراوحه في كل يوم بالخبز واللحم ، فقال أبو نخيلة يمدح خباز سليمان : (٣)

باركَ ربي فيكَ من خباز   مازلت مذ كنتَ على أوفاز (٤)
تنصبُّ باللحم انصباب الباز

---

١ ــ امالي المرتضى ٢/٢٩٢ ط ١ .

٢ ــ الأغاني ١٨/١٦٤ ساسي و ٢٠/٣٧٣ بيروت .

٣ ــ الأغاني ١٨/١٤٤ ساسي و ٢٠/٣٧٤ بيروت .

٤ ــ الاوفاز : المرتفعات .

وقد بالغ في ذلك حتى أن مدحه قد شمل القائمين على شؤون أرضه . (١)

على اننا نجد في رجز بعض الرجاز تناقضاً ظاهراً يفصح عن نفس ضعيفة لا يحدوها ايمان ، ولا يدفعها يقين ، فهم يهجون ثم يمدحون من هجوا لا لشيء الا لنيل مطمع يسير حقير .

ولنا في حكاية أبي نخيلة مع شبيب بن شبه ما يؤيد قولنا هـذا ويدعمه ذلك أنه رأى على شبيب حلة فأعجبته ، فسأله أياها ، فوعده ومطله فقال فيه :—

يا قوم لا تسـودوا شبيبا   الخائن ابن الخائن الكذوبا

هـل تلد الذيبة الا الذيبا

فبلغ ذلك شبيباً فبعث اليه بها ، فقال أبو نخيلة :—

اذا غدت سعد على شبيبها   على فتاها وعلى خطيبـها

من مطلع الشمس الى مغيبها   عجبت من كثرتها وطيبها (٢)

وهكذا كان ينزل بنفسه الى الحضيض طمعاً فيما لا يغني .

والذي يبدو في رجز الرجاز أنهم كالقصدين يكيلون المدح جزافاً ، اذ لم يكونوا يمتدحون عن صدق وأيمان ، ولا عن يقين بأن هذا الممدوح يتحلى بما أضفوا عليه من صفات ، انما كانوا متيقنين وواثقين من أنهم سينالون منحة كبيرة وعطاء جزيلا لقاء بيعهم تلك الصفات المزوره ، والادلة على ذلك كثيرة تكاد تجدها اينما تنقلت في شعر العرب . فالمسألة ما دامت تلفيقاً اكثر مما هي حقيقة ، وما دامت تدر مالاً

---

١ ــ الاغاني ١٨/١٤٤ أساسي و٢٠/٣٧٤ بيروت .

٢ ــ الاغاني ١٨/١٣٩ ساسي و٢٠/٣٦٢ بيروت .

كثيراً فلم لا يكيل المادح صفات العظمة والقوة والجود دون حساب . وأي شيء يمنعه من ذلك وعنان الكلام طوع أمره وملك يديه ، ثم ماذا يضيره اذا جعل الممدوح بحرا لا يغيض ماؤه ، ومن ذا الذي يلومه اذا جعل الممدوح غيثاً يحيى الناس بتدفقه وهطوله :ـ

وجود مروان اذا تدفقا جود كجود الغيث اذا تبعقا (١)

واذا قال بعض النقاد : أن أعذب الشعر أكذبه ، فاننا نقول هنا وقياساً على ذلك ، أن أجدى الشعر للمادح أكذبه ، وأن أحسن الشعر وأجوده بالنسبة للممدوح أكذبه أيضاً .

ففي باب القصيد نجد مدائح المتنبي الكافورية ومدائح البحتري وغيرهما نموذجاً حياً لما قلناه ، وفي باب الرجز نجد نماذج اخرى لهؤلاء أمثال رؤبة وأبي نخيلة وغيرهما وستجد فيما سأذكره لك من رجز أدلة ناطقة تثبت ما ذكرت . استمع أولاً الى ارجوزة بشار التي مدح بها عقبة بن سلم والتي يقول فيها :ـ (٢)

ياطللَ الحي بذات الصمدِ بالله خبر كيف كنت بعدي
أوحشتَ من دعدٍ وترب دعد سقياً لاسماء ابنة الاشد
قامت تراءى اذ رأتني وحدي كالشمس تحت الزبرج المنقد

وبعد ان يصفها ويذكر وصلها واخلافها يقول في مدح عقبة :

إسلم وحييتَ ابا الملد (٣) مفتاح باب الحدث المنسد

١ ـ تبعق المطر : اذا فاجأ بوابل . مجموع اشعار العرب ١٤٤ من ارجوزة لرؤبة في مدح مروان بن محمد ،

٢ ـ ديوان بشار ٢١٨/٢ القاهرة والاغاني ١٧٤/٣ وزارة الثقافة . والبيان والتبيين ٦٦/١ السندوبي .

٣ ـ ابو الملد : هو عقبة بن سلم .

مشترك النيل وري الزنـــد أغر لباس ثياب الحمـــد
مـا كان منى لك غير الود ثم ثناء مثل ريــح الورد
نسجته في محكمات الند فالبس طرازى غـــير مسترد

ويستمر بمدحه حتى آخر الارجوزة ، فلما اتم انشادهـا طرب عقبة لها ووعد بشارا بصلته ، فلما كان اليوم التالي ولم تصل بشارا هبة الامير ، استثقل بشار ذلك ولم يستطع الاحتمال والصبر فكتب اليه قائلا : (١)

ما زالَ ما منيتني من همي والوعدُ غم فارح من غمي
إن لم ترد حمدي فراقب ذمي

أتراه بعد هذا انه مدح عن يقين وايمـان ، ام ان الطمع كان دافعا له على ذلك ومحركا لمشاعره ؟ !

وهكذا كان الرجاز متاجرين في مدحهم ولم يكونوا صادقين ، وهم في هذا والمقصدون سواء . ثم اننا نجد هؤلاء الرجاز يمدحون ملوكا أو خلفاء أو امراء ثم اذا ما انهار حكمهم ودال الزمان بهم ، وأصبحت مقاليد الحكم بيد اعدائهم ، سارعوا للمثول بين يدي المنتصرين مادحين مثال ذلك ما حدث لابي نخيلة الراجز الذي كان مصطنعـا لمسلمة بن عبد الملك ومداحا لبني مروان ، فلما افضت الخلافة الى بني العباس دخل على السفاح فوقف بين يديه وسلم عليه ودعا له ، ثم استأذن بالانشاد فقال له السفاح : لا حاجة لنا في شعرك انما تنشدنا فضلات بني مروان فاعتذر اليه بأبيات من الرجز قال له فيها : ان مديحي لغيرك كان زورا وبهتانا ، واني لم اصدق الا في مدح بني العباس (٢) . فعفا عنه واصطنعه

١ ـــ العقد الفريد ٢٤٧/١ ط ٢ .
٢ ـــ الاغاني ١٤٣/١٨ ساسي و ٢٧٠/٢٠ بيروت .

والله يعلم ان كلامه كان زورا في بني مروان وفي بني العباس معـــا . فاستمع الى شيء من قوله الزور في هشام بن عبد الملك حيث جعله رب معد وغير معد وهو الماجد الشريف ذو الوجه المنير المبشر بالخير والسعادة وهو البطل الهمام الذي لا يدانيه بطل : (١)

الى امير المؤمنين المجـــدى   ربّ معدٍ وسوى معـــدّ
ممن دعا من أصيدٍ ونجـد   ذي المجد والتشريف بعد المجد
في وجهـــه بدر بدا بالسعد   انت الهمام القرم عقد المجد (٢)
طوقتهـــا بمجتمع الاشـــدّ   فانهلّ لما قمت صوب الرعد

هذا حينما كان أبو نخيلة فقيراً معدماً ، فلما اصطنعه مســلمة اجزل له العطايا حتى اغناه (٣) .

ومن امثلة ذلك أيضاً رؤبة بن العجاج الذي كان تاجراً يبيع مديحه لكل طالب . فقد كان هو وابوه في أول امرهما مقربين لدى بني مروان ومقدمين على غيرهما من الشعراء في الانشاد ، فلما انهارت دولتهم واستولى بنو العباس على زمام الحكم اجاب رؤبة أبا مسلم الخراساني حين دعاه : (٤)

قلتُ ونسجي مستجدٌ حوكا   لبيك اذ دعوتني لبيكا
احمدُ رباً ساقني اليكا

ولكننا يجب أن لانتخذ أبا نخيلة ورؤبة مثالين نقيس عليهما باقي

---

١ ــ الاغاني ١٤٢/١٨ ساسي و ٣٦٦/٢٠ بيروت .
٢ ــ القرم : العظيم أو السيد .
٣ ــ الأغاني ١٤٠/١٨ ساسي و ٣٦١/٢٠ بيروت .
٤ ــ الأغاني ١٢٢/١٨ و ٥٨/٢١ ساسي و ٣١١/٢٠ بيروت .

الشعراء ، إنما هما نموذجان لأولئك الشعراء المتاجرين ضعيفي النفوس ، الذين يستهويهم بريق المال فيركضون وراءه .

على أننا نجد نقيض ذلك عند نفر يسير من الشعراء ، من ذلك مثلاً ما يروى من أن الفرزدق هجا عمر ن هبيرة والي العراق فحبسه ثم اطلقه . فلما عزل ابن هبيرة وحبس مدحه الفرزدق ، فقال ابن هبيرة : ما رأيت اكرم منه هجاني أميراً ومدحني اسيراً . (١) ومثل ذلك ما قيل من أن خولة (٢) بن يزيد الاصبحي وهو من حمير أجهز على الحسين رضي الله عنه وحز رأسه وأتى به عبيد الله وهو يقول : (٣)

اوقر ركابي فضة وذهبا   أنا قتلت الملك المحجبا
خير عباد الله أماً وأبا (٤)

وخولة هذا وان كان عدواً للحسين ، لكنه اعترف بمكانته ومنزلته وشرف نسبه وارومته ، والفضل ماشهدت به الاعداء .

على اننا يجب ان لاننسى أن القصد من هذا المدح هو ان يضاعف له الهبة مقابل هذا الفعل العظيم الذي ارتكبه .

ولما كانت الرغبة في الحصول على الهبات هي الدافع الأول لهؤلاء

---

١ ـــ الأغاني ١٤٢/١٨ ساسي و ٣٦٦/٢٠ بيروت .

٢ ـــ هذه رواية العقد الفريد ، وفي الطبري ٣٤٨/٤ الاستقامة (خولي) .

٣ ـــ العقد الفريد ٣٨٠/٤ لجنة التأليف والترجمة .

٤ ـــ روى الطبري ٣٤٧/٤ هذا الرجز لسنان بن انس حينما وقف على باب عمر بن سعد بعد قتله للحسين (ع) ثم انه لم يرو البيت الثالث بهـــذا الشكل انما قال :

قتلت خير الناس أماً وأبا   وخيرهم اذ ينسبون نسبا

الشعراء في مدحهم . فقد راحوا يحبرون قصائد طويلة وكثيرة في هـذا الغرض ، حتى وجدنا أكثر دواوين الرجاز – وهم في ذلك كالمقصدين – قـد شحنت بالمدح شحناً ، ويكفي في ذلك ان تعلم أن ديوان رؤبة في مجموع أشعار العرب قـد حوى خمساً وأربعين أرجوزة في المدح من مجموع سبع وخمسين أرجوزة وهذا يدلنا على أن هؤلاء الرجاز كان غرضهم الأول النفع المادي (الا أن المدح الحقيقي في أراجيز رؤبة قصير جداً مشتمل على أبيات قليلة ، لأن باقي الارجوزة جار مجرى كل القصائد القديمة ، دائر على ذكر الدمن ومخاوف السفر والنسب ووصف البراري والسراب والمناهل والقوس والسهام والصيد والناقة وهلم جرا ، فضلاً عن الحماسة والافتخار بقومه وبنفسه) (١) .

ومثل رؤبة في هذا النهج أحد الرجاز ، اذ اتى نصر بن سيار والي خراسان لبني أمية فمدحـه بقصيدة تشبيبها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات .

فقال نصر : والله ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً الا وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك ، فان اردت مديحي فاقتصد في النسيب . (٢)

أما افتتاح أراجيز المدح فقد ساروا فيها على سنن المقصدين ، اذ كانوا يفتتحون أراجيزهم بالنسيب وذكر الحبيب ، وما تفعله فيهم الذكرى اذ تثير همومهم وتهيج احزانهم ، وهم في هذا لاينفكون عن وصف أحبتهم واطراء حسنهم وجمالهم ، ثم يتطرقون الى ذكر الرحيل ، فيشكون النصب والسهر ، وسرى الليل وحر الهجير ، وانضاء الراحلة والبعيرة فاذا

---

١ ـــ تاريخ لآداب العربية ـ نلينو /١٧٣ .

٢ ـــ الشعر والشعراء ٢١/١ بيروت .

علم أنه قد اوجب على صاحبه حق الرجاء ، وذمامة التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح ، وفضله على الاشباه ، وصغر في قدره الجزيل فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب ، وعدل بين هذه الاقسام ، فلم يجعل واحدا منها اغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد (١) .

وهكذا كان الرجاز والمقصدون يسلكون سبيلاً واحداً في بنائهم لاراجيزهم وقصائدهم ، كما انهم تناولوا في مدحهم معاني واحدة معروفة مبتذلة ، وعليه فان الرجز وقف على قدم المساواة مع القصيد في تناوله لفن المديح .

٢ ـ الرثاء

الرثاء فن كالمديح ، أو قل أنه مديح الأموات ، في حين أن ذاك مديح للأحياء ، فالشاعر حينما يرثي شخصاً ما ، انما يعدد خصاله ، ويسجل مناقبه ، ويظهر أثر فقده في الناس . (٢)

وعاطفة الرثاء تكون شديدة قوية ، غزيرة مؤثرة ، اذا كان المفقود عزيزاً على الشاعر ، وتكون فاترة باردة . ان لم يمت اليه بصلة ، ويكون رثاؤه له طمعاً في مال ، أو تقرباً من أهله .

وعلى العموم فان الرثاء لايدر مالاً ولا يجلب نفعاً كالمديح ، ولهذا فاننا لم نجد في ديوان العجاج ورؤبة أرجوزة واحدة في الرثاء ، بينما

---

١ ـ الشعر والشعراء ١/٣١ بيروت .

٢ ـ الشعر والشعراء ١/٢١ بيروت .

كان معظمهما في المديح .

أن العرب لم يتطرقوا في رجزهم الى الرثاء الا نادراً ، وربما نستطيع ان نعلل ذلك بان بحر الرجز في حركاته الحماسية المتعاقبة مع السكنات والمتفقة مع الحركة والاضطراب لايلائم حالات الهدوء والسكون والرهبة والجزع التي تخيم على الشاعر حين وفاة المرثي .

على اننا لا نعدم وجود مقطعات رجزية رثى بها الشعراء أهلهم وأقاربهم واصدقاءهم تطرقوا فيها — كما فعل المقصدون — الى ذكر صفات الفقيد وما كان يتحلى به من بأس وجرأة ، وما كان يولي به أصحابه من كرم الضيافة وحسن الاستقبال ، ثم هو بعد ذلك غيث للمحتاجين ، وعصمة لهم من جدب السنين ، قال لبيد يرثي عمه أبا براء ملاعب الأسنة : (١)

قومـا تجوبانِ مع الأنواح — في مأتم مهجـر الرواح
يخمشن حرّ أوجهٍ صحـاح — في السلب السود وفي الامساح (٢)
وأبنا مُلاعِبَ الرمـاح — أبا بـراء مدره الشياح (٣)
يا عامراً يا عامر الصبـاح — ومدرة الكتيبة الرداح
وفتية كالرسل القمـاح — باكرتهم بحللٍ وراح (٤)
وزعفرانٍ كدم الأذباح — وقينةٍ ومزهـرٍ صداح
لو أن حياً مدرك الفلاح — ادركه ملاعب الرماح ..الخ

---

١ — شرح ديوان لبيد — احسان عباس / ٣٣٢ الكويت .

٢ — السلب : الثياب السود ، الامساح : ثياب من شعر .

٣ — مدرة القوم : الذي يدافع عنهم ، والشياح : مصدر شايح : وهو الجد والحذر ، أو القتال .

٤ — الرسل : القطعة من الابل ، القماح : الابل التي ترفع رؤوسها .

ونادراً ما تجد اللوعة الشديدة والحزن الممض الذي يحرق القلب ويفتت الكبد في الرجز ، ذلك لأنه — كما قلت آنفاً — غير صالح لتناول مثل هذا الفن . فبشار حينما ماتت بنته — وهي اعز الناس لديه وأكثرهم علوقاً بشغاف قلبه — رثاها بالرجز ، فلم تظهر في رثائه لهافوة العاطفة ولا حرارة الشعور ، قال أبو عمرو بن العلاء : رأيت بشاراً يرثي بنية له وهو يقول : (١)

يابنتَ من لم يكُ يهوى بنتا ما كنتِ الا خمسةً أو ستا
حتى حللتِ في الحشى وحتى فتتِ قلبي من جوىً فانفتا
لانتِ خيرٌ من غلام بتا يصبحُ سكران ويمسي بهتا (٢)

ولكنك — مع هذا — غير واجد مثل هذه المقطوعة الرجزية في اظهارها للألم والحزن وحرقة القلب .

وحينما رثى أبو نواس خلفا الأحمر ، رثاه بالرجز ، فجاء رثاؤه بارداً وخالياً من المشاعر الجياشة والعواطف المشبوبة ، حيث انه تكلم كلاماً منطقياً يعتمد على العقل اكثر من اعتماده على العاطفة ، يقول : ان كل انسان تتلقفه المنون ، ولو استطاع احد ان يهرب منها ويسلم ، لسلمت العقاب التي ارتفعت الى اعالي الجبال ، ولفاتت الموت تلك الوعول التي اتخذت من الاماكن المرتفعة مسكنا . وبعد ذلك شبهه ببئر غزيرة واسعة كثيرة الماء في علمه وسعة اطلاعه ، ونحن لا نجد في كل هذا أثراً لحزن أو صدى للوعة ، اسمعه يقول : (٣)

---

١ — الأغاني ٢٢٩/٣ وزارة الثقافة والارشاد .

٢ — بت : انقطع عن العمل ، البهت : الدهش والتحير أو التعب .

٣ — الحيوان ٤٩٢/٣ والشعر والشعراء ٦٧٣/٢ مع نقص في الأبيات .

او كان حي وانلاً من التالف اوأات شغواءُ في اعلى الشعف (١)
ام فريخٍ احرزته في لجف مزغب الالغاد لم يأكل بكف (٢)
هاتيك أم عصماءُ في اعلى الشرف تظل في الطباق والنزع الالف (٣)
أودى جماعُ العلم مذ أودى خلف قليذمٌ من العيالم الخسف (٤)
من لا يعد العلم الا ما عرف كنا متى نشاء منه نغـــترف
راوية لا تجتنى منه الصحف

اما من يموت قتلا ، فكان رثاؤهم له بذكر مواقفه البطولية التي شهدت له بشدة البأس وقوة الشكيمة ، حتى ان الأبطال خروا صرعى من أثر ضربته أو طعنته ، قال القحيف يرثي يزيد بن الطثرية : (٥)

ياعينُ بكي هملا على همل على يزيد ويزيد بن حمل
قتال ابطال وجرار خلل

وهم في رثائهم هذا ربما ذكروا القاتلين بما فعلوه فيهم من قتل واذلال ، حتى أصبحت المجازر تشهد على عظم الوقيعة التي اصابتهم ، من

---

١ ـــ الشغواء : العقاب ، الشعف : جمع شعفة ـــ بالتحريك ـــ وهي رأس الجبل

٢ ـــ يقول : انها فرخ حفظته في صخرة مشرفة على غار .

٣ ـــ العصماء من الوعول : ما في ذراعيها أو احدهما بياض وسائرها اسود أو أحمر ، الشرف : المكان المرتفع : الطبـــاق : الشجر ، النزع : نبت ، الالف : الملتف .

٤ ـــ القليذم : البئر الغزيرة الكثيرة الماء ، العيـــالم : جمع عيلم وهي البئر الواسعة الكثيرة الماء ، الخسف ، جمع خسيفة وهي البئر حفرت في حجارة فنبعت بماء غزير لا ينقطع .

٥ ـــ الأغاني ١٨٢/٨ وزارة الثقافة والارشاد .

ذلك ما قاله القحيف هذا في رثاء يزيد أيضاً : (١)

ان تقتلوا منا شهيداً صابراً   فقد تركنا منكم مجازرا
عشرين لما يدخلوا المقابرا   قتلى اصيب قصماً نحائرا
نعجاً ترى ارجلها شواغرا

على اننا وجدنا دويد بن زيد بن نهد قد فعل مثل ما فعل مالك ابن الريب فيما بعد ، فرثى نفسه وهو في مرض موته ، متأسفا على فقد عمره وانقضاء حياته ، متذكراً ايــام حداثته وصباه حينما كان يغزو فيصيب من المال أحسنه ، ويصبو فينال من النساء اجملهن قال في هذا الرثاء : (٢)

اليوم يبنى لدويد بيته   او كان للدهر بلى ابليته
أو كان قرني واحداً كفيته   يارب نهبٍ صالحٍ حويته
ورب غيلٍ حسنٍ لويته   ومعصمٍ مخضبٍ ثنيتـــه

وهكذا لم يقدر للرجز ان يخوض ميدان الرثاء الا لماما ، ذلك لعدم ملاءمته لطبيعة الحزن التي تقتضي هدوءً ووقارا لا يتفقان مــع حركات بحر الرجز السريعة المضطربة .

٣ ــ الفخــر

والفخر فن عالجه الرجز وتطرق اليه ، اذ اننا نجد في رجـــز الرجاز وفي رجز غيرهم من الشعراء فخرا تناولوا فيه وصف انفسهم بالعظمة والشرف والمجد والفخر بقبائلهم التي جعلوا لها المحل الاسنى

١ ــ الأغاني ١٨٢/٨ وزارة الثقافة والارشاد .

٢ ــ الشعر والشعراء ٤٨/١ بيروت .

والمكان الارفع في الجود والشجاعة والنجدة ، واذا كان المدح يتناول شخصاً غير الشاعر فان الفخر يتناول مدح الشاعر نفسه وقومه بكل الصفات التي يتداولها باب المديح . وهذه الصفات التي استعملها الرجاز في فخرهم هي ذات الصفات التي كان المقصدون يفخرون بها وهي لا تخرج عن وصف النفس والقوم بقوة الشكيمة وشدة البأس ، والبلاء في الحرب والثبات فيها والاصطلاء بنارها وعدم الهرب والفرار من هواها ولو كلفهم ذلك انفسهم :

نحنُ بني ضبة لا نفر   حتى نرى جماجما تخر (١)

وافتخر الرجاز بأنهم اذاقوا العدو باساً شديداً اعاد للمتكبرين منهم صوابهم واذهب عنهم صعر الاعناق ، قال ابو نخيلة مفتخراً بقومه بني تميم : (٢)

نحن ضربنا الأزد بالعراق   والحيَّ من ربيعة المراق
ضرباً يقيم صعر الأعناق   بغير اطماع ولا ارزاق (٣)
الا بقايا كرم الأعراق

وكان الراجز يدافع برجزه عن قبيلته ويفخر بها كما كان يفعل المقصد بشعره تماما ، فهذا رؤبة يقول مفتخراً باجداده وقبيلته ويصفهم بالكرم في حالتي الغنى والفقر وهم اضافة الى ذلك ابطال تشهد بشجاعتهم الحروب ، قال : (٤)

---

١ ـــ امالي المرتضى ١/٥٧ ط ١ ، يريد : لا نفر وان خرت جماجمنا ، أي لا نفر اصلاً .

٢ ـــ طبقات الشعراء ، ابن المعتز / ٢٢ عباس اقبال .

٣ ـــ الصعر : ميل في العنق وانقلاب في الوجه الى احد الشقين ، ويكون ذلك غالباً من الكبر .   ٤ ـــ مجموع اشعار العرب /١٤١ .

لأنني صادقـــا بعلمـــي   بفعل قومي في الغنى والعدم
وهم اذا زاحم يوم الزحم   وصدعَ الصدم جبال الصدم
في جاهليات مضت أو سلم   كعب بن سعد من ورائي ترمي
في باذخ العز عراض فعمِ   ومنكب الحارث وابنا رهم (١)

وهم في افتخارهم هذا ربما شبهوا أنفسهم بمصادر القوة والشجاعة والاقدام كالسيف والليث مثلا . قال عيسى بن موسى : لما وجهني المنصور الى المدينة لمحاربة ابني عبد الله بن الحسن وجعل يوصيني ويكثر قلت : يا أمير المؤمنين : الى متى توصيني :

اني انا ذاك الحسام الهندي   اكلتُ جفني وفريت غمدي
فكل ما تطلب عندي عندي (٢)

وكانوا يفخرون بثباتهم في الحروب وإظهارهم شجاعة تفوق شجاعة الليوث ، قال رؤبة : (٣)

فقد أقومُ بالمقام الثبتِ   اشجع من ذي لبد بخبت(٤)

وهم مع كل هذه الأحوال التي يلاقونها لا يجزعون من الحرب ولا يملونها ، ولا تلين قناتهم امام قوة عدوهم ، قال رؤبة : (٥)

---

١ ـــ الباذخ : العالي ، الفعم : الممتلىء .
٢ ـــ العقد الفريد ١/١٣٤ و ٥/٨٧ .
٣ ـــ مجموع اشعار العرب /٢٤ وشرح ديوان رؤبة ـ مخطوط /١٠٩ .
٤ ـــ الخبت : ما اطمأن واتسع من الأرض .
٥ ـــ مجموع اشعار العرب /٩١ وشرح ديوان رؤبة ـ مخطوط/١٨٧ .

أنا اذا امر العدا تترعا   واجمعت بالشر أن تافعا (١)
حرب تضم الخاذلين الشسعا   كالنار لا تشبع حتى تشبعا (٢)
ان عض شر لم تجدنا الاجزعا   قد غلبت مراتنا ان تجرعا (٣)

ورؤبة هذا يفخر كثيراً ببلاء قومه في المعارك وخوضهم غمار الحروب وما يفعلونه في اعدائهم من ضرب وطعن حتى يتركوا منهم مجازر لكثرة ما اوقعوا فيهم من قتل :

انا اذا الحرب خبت حوام   واقتربت بعد انأى الاعتام (٤)
كرهاً قلاس السم والبرسام   ولبست كل كمي كام (٥)
درعاً وحكت مدلك اللغام   وحمى شفينا ها من الوحام (٦)
نحن تركنا الاسد في الحطام   اجزار كل اسد ضرغام (٧)

والشيء الآخر الذي افتخر به الرجاز كثيراً ، هو النسب الذي عدوه اساسا لكل مفخرة حتى انهم حينما يريدون التعرف على شخص ما

---

١ ــ تترع : سرع وتعجل واجمعت هذه الحرب ان تلفع بالشر فتتخذه لحافا .
٢ ــ الخاذلون الذين يخافون الحرب فيخذلون ويتخلفون عنها وهي تضمهم حتى تدخلهم في شرها ، والشسع : الاباعد ، يقول لا نشبع نحن حتى تشبع النار .
٣ ــ مراتنا : أي من المرارة يعني انا كذلك في صدور اعدائنا .
٤ ــ حومة القتال : معظمة أو اشد موضع فيه .
٥ ــ قلس الرجل قلسا : وهو ماخرج من البطن من الطعام أو الشراب الى الفم اعاده صاحب أو القاه (اللسان مادة قلس) والكامي : المغطى .
٦ ــ الوحم : محركة ــ شدة شهوة الحبلى للأكل .
٧ ــ مجموع اشعار العرب /١٤٨ .

يسألون عن الرجل ؟ فيجيبهم منتسباً الى قبيلته أو اجداده الأوائل الذين تنتسب اليهم القبيلة ، وكل قوم كانوا يفخرون بنسبهم وعلو مكانتهم قال بنو قضاعة : (١)

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر   قضاعة بن مالك بن حمير
والنسب المعروف غير المنكر

وافتخروا ايضاً بكثرة العدد الذي يكنون عنه بالحصى ، وقادهم ذلك الى الفخر بالسيادة والملك قال رؤبة : (٢)

اني امرؤ بمضر اعتباطي   عراعر الأقوام واختباطي (٣)
لنا الحصى وأوسع البساط   والحسب المثرى من البلاط (٤)
والملك في عادينا القعاط   دانت له والسخط للسخاط (٥)
نزارها ويامن الافحاط (٦)

واضاف الرجاز في فخرهم الى شرف النسب وكرم الاصل العز والمجد والثروة قال الراجز مشيدا بذلك : (٧)

---

١ ـــ سيرة ابن هشام ١/٧ وستنفلد وتاريخ الخميس ـ الديار بكرى ١/١٤٧ والأغاني ٩/٩١ وزارة الثقافة مع خلاف في الرواية .

٢ ـــ مجموع اشعار العرب /٨٦ وشرح ديوان رؤبة ـ مخطوط/٣٤٢ .

٣ ـــ الاعباط : القطع ، ويقال عبطت حوافرها الارض : اذا كسرتها ، والعراعر : الشديد ، الاختباط : يركب بغير قصد .

٤ ـــ الحصى : الكثرة ، وارض بساط : اذا كانت واسعة . المثرى : الكثير .

٥ ـــ القعاط : المسدود ، ويريد بالبيت ان لهم ذلك على رغم من رغم .

٦ ـــ اليامن : يريد اليمن .

٧ ـــ امالي القالي ٢/١٦ بيروت .

وسنخنا من خير أسناخ العرب   ونحن في الثروة والعز الاشب (١)

ووجدنا في الرجز فخراً بالجود والكرم واطعام الناس ، هذا اضافة الى ما كانوا يفتخرون به من بأس وقوة وشجاعة قال لبيد : (٢)

نحن بنو أم البنين الأربعه   ونحن خير عامر بن صعصعه
المطعمون الجفنة الدعدعه   والضاربون الهام تحت الخيضعه

وهكذا سار الرجاز في فخرهم على سنن المقصدين في هذا الميدان ولم يأتوا بجديد يفخرون به لأنه لايوجد هناك مجال التفوق أو القصور فالمزايا التي يفخر بها الراجز والمقصد امور معروفة مشهوره تداولوها أباً عن جد ، وهل هناك شيء يفخر به العربي أعز من فخره بطيب عرقه واصالته وحسبه ونسبه ، قال أبو دهبل يفخر بقومه : (٣)

أنا أبو دهبل وهبٌ لوَهب   من جمح في العز منها والحسب
والأسرة الخضراء والعيص الاشب   ومن هذيل والدي عالي النسب (٤)
أورثني المجد أب من بعد اب   رمحي ردبنيٌ وسيفي المستلب

وافتخر جميل بن معمر بمكانته العالية وعزه وكرمه ، وباجداده الذين كانوا اطوادا شامخة اعجزت الناس عن هدمها : (٥)

أنا جميل في السنام الاعظم   الفارع الناس الاعز الاكرم
احمي ذماري ووجدت اقرمي   كانوا على غارب طود خضرم
اعيا على الناس فلم يهدم

---

١ ـ السنخ : الأصل ، والاشب : الكثير .

٢ ـ شرح ديوان لبيد ـ احسان عباس / ٣٤٠ الكويت .

٣ ـ الأغاني ٧/١١٥ وزارة الثقافة .

٤ ـ العيص : الاصل والاشب : الملتف .

٥ ـ الأغاني ٨/١٣٣ وزارة الثقافة والارشاد .

وافتخر بمنزلته الرفيعة في قومه وبركنه الشديد فقال :[1]

أنا جميل في السنام من معد   في الذروة العلياء والركن الاشد
والبيت من سعد بن زيد والعدد   ما يبتغي الأعــداء مني ولقد
اضرى بالشتم لساني ومرد   اقود من شئت وصعب لم اقد[2]

وربما تناولوا في فخرهم هــذا صفات خلقية هي امارات الرجل الكامل ، كالكياسة والصدق والعفة وما اشبه ذلك قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه :[3]

اما تراني كيساً مكيسا   بنيتُ بعد نافع مخيسا[4]
حصناً حصيناً وأميناً كيسا

وقال عبد الله بن الاعور الحرمازي مفتخراً باتصافه بالصــدق ، ومجانبته للأثم واللؤم :[5]

لست بكذابٍ ولا أثام   ولا بجثام ولا مصـرام
ولا احب خلة اللئام

اما أبو النجم العجلي فقد افتخر بمقدرته الشعرية وبراعته في قول الشعر فقال :[6]

أنا أبو النجم وشعري شعري   للهِ دري ما يجن صدري

---

١ ــ الأغاني ١٣٣/٨ وزارة الثقافة والارشاد .
٢ ــ ضري بالشيء الهج به ، ومرد على الشتم : مرن واستمر عليه .
٣ ــ العقد الفريد ١٨٣/٤ .
٤ ــ المخيس : هو سجن بناه الامام علي – رضي الله عنه في الكوفة .
٥ ــ الشعر والشعراء ٥٧٥/٢ بيروت .
٦ ــ امالي المرتضى ٣٥٠/١ ط ١ .

ولا أريد ان اطيل في سرد امثلة كثيرة من رجز العرب في الفخر ، ففيما اوردت من نماذج ما يكفي للدلالة على المسلك الذي سلكه الرجاز في فخرهم كما تدلنا على أن الرجز سار مع القصيد في تناول هـذا الغرض جنباً الى جنب ، على أن الذي يلاحظ هو عدم وجود أراجيز كثيرة وطويلة في الفخر ، انما وجدنا نتفاً ومقطعات رجزية افتخر بها الشعراء في حادثة ما ، أو في ظرف معين كتلك المقطوعة الرجزية التي افتخر بها عنترة قديماً اذ قال : (١)

انا الهجين عـنتره كل امريء يحمي حره
اسـوده واحمـره والواردات مشفـره

ونادراً ما نجد ارجوزة طويلة كاملة في الفخر كتلك الارجوزة التي قالها رؤبة مفتخراً باجداده والتي ذكرنا قسما منها قبل قليل . (٢)

على ان اكثر فخر رؤبة وغيره من الرجاز انما يأتي منتشراً في ثنايا الارجوزة مع غيره من الاغراض كالمدح والهجاء وغير ذلك .

٤ ـ الهجـاء

يذهب بعض المستشرقين الى ان الرجز قد استخدم في الهجـاء كثيراً ، وبنوا آراءهم على هذا الاساس في تعريفهم للرجز ، حيث ذهب نولدكه الى ان الرجز شيء من الصاصلة وفسروا الصلصلة بانها الجلبة والضجيج والحركات الكثيرة التي تصاحب الهجاء الذي قـالوا عنه انه

---

١ ـ العقد الثمين / ١٨٠ مقطوعة ١٢ .

٢ ـ وهي الارجوزة التي يقول فيها : « مجموع اشعار العرب / ١٤١ والنوادر ـ الانصاري / ٤٧ » .

لاثنين صادقـاً بعلمـي بفعل قومي في الغنى والعدم

الغرض الشعري الذي كثيرا ما استخدم فيه هذا البحر في الجاهلية (١)

وبناء على هذا نستطيع ان نقول ان بحر الرجز هو البحر الأثير والمحبب لدى اولئك الذين يريدون النيل من اعدائهم وخصومهم لبيان مثالبهم ونقائصهم ، والحط من قيمهم والحاق أبشع الصفات واقذرها بهم .

ورجز الهجاء هذا كان في بداية نشوئه مقطعات قصيرة كتلك المقطعات الموجودة في ديوان لبيد وفي المجاميع الادبية . اما فيما بعد فقد كان لرجز الهجاء سوق رائجة ، نذكر مثلا لذلك المربد الذي كان يجتمع فيه الشعراء والرجاز يتناشدون أشعارهم ونقائضهم الرجزية ، من ذلك ما يروى من ان العجاج خرج ذات يوم متحفلا (٢) عليه جبة خز ، على ناقة له قد أجاد رحلها حتى وقف بالمربد والناس مجتمعون فأنشدهم قوله :

قد جبرَ الدينَ الالهُ فجبر

فذكر فيها ربيعة وهجاهم ، فجاء رجل من بكر بن وائل الى أبي النجم العجلي وهو في بيته فقال له : أنت جالس وهذا العجاج يهجونا بالمربد قد اجتمع عليه الناس ! قال : صف لي حاله وزيه الذي هو فيه ، فوصفه ، له فقال :

ابغني جملاً طحاناً قد أكثر عليه من الهناء ، (٣) فجاء بالجمل اليه ، فاخذ سراويل له فجعل احدى رجليه فيها واتزر بالاخرى وركب الجمل ودفع بخطامه الى من يقوده ، فانطلق حتى اتى المربد ، فلما دنا

---

١ ـــ دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة (رجز) .

٢ ـــ متحفلا : متزينا .

٣ ـــ الهناء : القطران .

من العجاج قال : اخلع خطامه فخلعه ، وأنشد :

تذكر القلب وجهلاً ماذكر

حتى بلغ قوله :

أني وكل شاعر من البشر شيطانه انثى وشيطاني ذكر
فما رآني شاعر الا أستتر فعل نجوم الليل عاين القمر
عشي تميم واصغري فيمن صغر وجاوري الذل واعطي من عشر
وامري الانثى عليك والذكر فانما يشرب من ذل السور
وأرضي باحلابة وطب قد حزر

فلما فرغ من انشاده حمل جمله على ناقة العجاج بريدها ، فضحك الناس وانصرفوا وهم ينشدون قوله : شيطانه انثى وشيطاني ذكر . (١)

وتمكن الرجز من اجلاء جوانب النقص والقبح النفسية والجسمية في الانسان وصورها بصور قبيحة بشعة حسب ما اراد الهاجون . فمن الصفات النفسية القبيحة التي تناولها الرجز الهجائي بالذم والتعريض « البخل » وهو صفة حاول العرب جاهدين التخلص منها وعدم الاتصاف بها ، ومن كانت هذه الخصلة الذميمة ممزوجة بطبيعته ولا يستطيع التخلص منها ، كان معرة القوم وموضع سخريتهم ، ولهذا راح العرب يبالغون في الكرم واقراء الضيف ومن لم يسر في طريقهم هذا تناولته ألسنتهم بالهجاء والتقريع .

ومن يطلب شيئاً من قوم فلا يحصل عليه ، لايجد مايشفي به

---

١ ـــ الأغاني ١٠/١٥٠ وزارة الثقافة و ٩/٧٣ ساسي والشعر والشعراء ٢/٥٠٢ بيروت .

غاته الا أن يسلط عليهم لسانه برجز يفضحهم به ويخزيهم ، من ذلك ما يروى من أن أعرابياً وقف بقوم فقال : اشكو اليكم ايها الملأ زمانا كلح لي وجهه ، واناخ علي كلكله ، بعد نعمة من البال وثروة من المال ، وغبطة من الحال ، اعتورتني شدائده بنبل مصائبه عن قسي نوائبه ، فما ترك لي ثاغية اجتدي ضرعها ، ولا لاغبة ارتجي نفعها ، فهل فيكم من معين على صرفه ، أو معد على حيفه ؟ فرده القوم ولم ينيلوه شيئاً . فأنشأ يقول :

قد ضاع من يأمل من امثالكم   جوداً وليس الجود من فعالكم

لا باركَ اللهُ لكم في مالكم   ولا ازاحَ السوء عن عيالكم

فالفقرُ خيرٌ من صلاح حالكم (١)

وهكذا يكون البخل ثغرة واسعة يدخل منها الشاعر لينال من خصمه ما يريد ، قال عمر بن لجأ يحمق رجال الازد ويستخف باحلامهم : (٢)

تصطك الحيها على دلائها   تلاطم الأزدِ على عطائها

ولما هجا العجاج المختار بن عبيد الله اتهمه بقبول الرشوة فقال : (٣)

وابن ابي عبيد المكذبا   والسبأى والمراشي المذنبا

وحينما بدأ جرير نقائضه افتتحها بالرجز هاجياً خصومه ، وكان ذلك الرجز خير معين ومساعد له على بلوغ هدفه ، وقد تناول في رجزه

---

١ ــ العقد الفريد ٣/٤٣٤ الطبعة الثانية القاهرة .

٢ ــ البيان والتبيين ٢/٢٢٣ الطبعة الاولى ــ القاهرة .

٣ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ٣٣ .

الهجائي هذا ، وصف خصومه بالبخل ، وقرن الى هذه الخصلة الذميمة خصلة اخرى ليست اقل منها قبحاً وبذاءة ، تلك هي صفة اللؤم ، قال في هجائه لهم : (١)

لا تحسبني عن سليط غافلا ... ان تمش ليلاً بسليط نازلا
لاتلق اقراناً ولا صواهلا ... ولا قرى للنازلين عاجلا
ابلغ سليط اللؤم خبلاً خابلا ... ابلغ أبا قيس وابلغ سابلا
والصلع من ثمامة الحواقلا ... اني لمهد لهم مساحلا ..الخ(٢)

ثم قال جرير أيضاً في هجائه ذلك واصفاً اعداءه بأنهم عبيد وان امهاتهم لهن ريح نتنة كريهة وهن سود ملعونات كأنهن حمر : (٣)

أن سليطاً في الخسار انه ... اولاد قوم خلقوا اقنه
لا توعدوني يا بني المصنه ... أن لهم نسية لعنة (٤)
سوداً مغاليم اذا بطنه ... يفعلن فعل الأتن المستنه
يولعن بالبيع وان غبنه

وقال أيضاً يرميهم بالخبث واللؤم في الحسب اذ انهم يدعون ماليس فيهم : (٥)

---

١ ــ النقائض ــ أبو عبيدة ١/٣ ليدن .
٢ ــ الحواقل : جمع حوقل وهو المسن ، المساحل : الحمير في أصواتها خشونة .
٣ ــ النقائض ــ أبو عبيدة ١/٤ ليدن .
٤ ــ المسنة : المنتنة الريح ، نسيه : تصغيره نساء .
٥ ــ النقائض ــ أبو عبيدة ١/٤ .

أن السليطيّ خبيثٌ مطعمه   أخبثُ شيءٍ حسباً والأمه

محرنفشاً بحسب لا يعلمه (١)   است السليطيّ سواءٌ وفمه

خنزيرُ برٍ سيء تنسمه   هل لك في بيض خصى تلقمه

أن السليطيّ مباح محرمه

وهكذا استخدموا الرجز في الهجاء وسخروه لخدمة هذا الغرض على نحو ما استعمل القصيد في الهجاء كالذي نراه عند جرير والفرزدق في نقائضهما .

وتناول رجز الهجاء ذم اللؤم في مواضع عدة ، من ذلك ما هجا به لهذم الكاتب عبد الله بن الاهتم حينما سأله فحرمه : (٢)

وما بنوا الاهتم الاّ كالرخم   لا شيء الاّ انهم لحم ودم

جاءتْ به حذلم من ارض العجم   اهتم سلاح على ظهر القدم

مقابلُ في اللؤم من خال وعم

وفي الرجز الذي هجا به الحطيئة نفسه نعثر على صفة اللؤم قد برزت دون غيرها من الصفات في مجال الذم ، قال الحطيئة : (٣)

لا أحد الأمُ من حطيه   هجا بنيهِ وهجا المريّه

من لؤمه ماتَ على فريه

ومن بين الصفات النفسية التي تناولها الرجز بالذم والتشنيع ، الجبن والذل والعجز والخور ، قال الاعشى يهجو بني قميئة بن سعد ويذم فيهم شرهم الكثير وذلتهم وجبنهم فيشبههم بالكلاب ، ثم هم بعد ذلك

---

١ ـــ يريد : أنه ينتفخ بما ليس عنده .

٢ ـــ العقد الفريد ١٣٠/٦ القاهرة .

٣ ـــ الأغاني ١٩٧/٢ وزارة الثقافة والارشاد .

اوغاد عاجزون إن وجدوا قبراً حديث العهد راحوا بحفرونه ليسرقوا الكفن ، وهذا في غاية الذل والهوان ، يقول : (١)

أن بني قميئة بن سعد كلهم للمصق وعبد
ادنى لشر من كلاب عُقد وهم اذل من كلابِ عقد
يعزون بين وبر وقد عبدان بين عاجز ووغد
ان يبصروا قبراً حديث العهد ينبشوا فيه احتفار الخلد
انقر فقد بلغت قعر اللحد وهامة وشقة من برد

واجتمع النابغة الجعدي واوس بن مغراء ذات مرة في المربد فتنافرا وتهاجيا ، وحضرهما العجاج والاخطل وكعب بن جعيل ، فقال اوس : (٢)

لما رأتْ جعدةُ منا وِرْدا ولوّا نعاماً في البلاد ربدا (٣)
إنّ لنا عليكم معدّا كاهلها وركنها الاشدّا (٤)

فقال العجاج :ـ كلُّ امرىءٍ يعدو بما استعدّا

---

١ ــ ديوان الاعشى الكبير ــ م محمد حسين ص ٢٧٣ .

٢ ــ الأغاني ١٣/٥ وزارة الثقافة والارشاد .

٣ ــ الورد : ــ بالكسر ــ الجيش ، ربدا جمع ربداء وهي من النعام ما كان لونها سوادا مختلطاً ، وقيل : ما كان كله سوادا ، وقيل : ما كان بين السواد والغبرة .

٤ ــ معد : أبو حي من العرب ، والى معد ينتسب أوس بن مغراء وبهذا النسب يفخر على النابغة ، وكاهل القوم : معتمدهم في الملمات وسندهم في المهمات ، وهو مأخوذ من كاهل الظهر لأن عنق الفرس يتساند اليه اذا احضر .

وكان اعشى همدان قد هجا بني ثقيف رجزاً فرماهم بالكذب وقال : (١)

لما سفونا للكفور الفتان ... بالسيد الغطريف عبد الرحمن (٢)
سار بجمع كالقطا من قحطان ... ومن معدٍّ قد اتى ابن عدنان
امكن ربي من ثقيف همدان ... يوماً الى الليل يسلي ما كان
أن ثقيفاً منهم الكذابان ... كذابها الماضي وكذاب ثان (٣)

وتناول الرجز بالذم مثالب وعيوباً معنوية كالاخلاق والطبائع الشريرة ، قال الكذاب الحرمازي يهجو قومه ويرميهم بالعجز والتواكل : (٤)

ان بني الحرماز قوم فيهم ... عجز وإتكال على اخيهم
فابعث عليهم شاعراً يخزيهم ... بعلم فيهم مثل علمي فيهم

وانشد ابن الاعرابي لراجز يهجو رجلا تمثلت فيه الدناءة : (٥)

لحيتُ شماسا كما تلحى العصي ... سبأ او ان السب يدمي لدمي
من نفر كلهم نكس دني ... محامدُ الرذلِ مشائيم السرى
مخابط العكم موادبع المطي ... متارك الرفيق بالخرق النطي [٦]

---

١ ــ الأغاني ٥٩/٦ وتاريخ الطبري ــ القسم الثاني ص ١٠٥٦ .

٢ ــ سفا : خف واسرع وفي الطبري (أنا سمونا) .

٣ ــ يريد بالكذاب الماضي مسيلمة الكذاب ، وبالكذاب الثاني الحجاج بن يوسف الثقفي .

٤ ــ الشعر والشعراء ٥٧٥/٢ بيروت .

٥ ــ البيان والتبيين ١٥٧/١ .

٦ ــ العكم : العدل ما دام فيه المتاع ، المخابط : من الخبط وهو طلب المعروف ، موادبع المطي : أي مطيهم مودوعة لا يجدونها ، الخرق: القفر والأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح ، النطي البعيد .

وليس هذا وحده ما نجده في رجز الهجاء ، انما هناك رجز فيه فحش واقذاع قد لا يقال الا على سبيل المزاح والفكاهة ، من ذلك ما قاله ابو الشمقمق لبشار حين منعه اعطيته [١]

انى اذا ما شاعر هجانيه ولجَّ في القول له لسانيه
ادخلته في است امه علانيه بشار يابشار . . . . ،

وأراد ان يقول (يا ابن الزانية) فوثب بشار فامسك فاه وقال أراد والله أن يشتمني ، ثم دفع اليه مائتي درهم وقال له : لا يسمعن هذا منك الصبيان يا ابا الشمقمق . ومنه أيضاً هجاء الأغلب لسجاح لما تزوجت مسيلمة الكذاب : [٢]

قد لقيت سجاح من بعد العمى ملوحا في العين مجلوز القرا
مثل الفنيق في شباب قد أنى من اللجيميين اصحاب القرى
ليس به واهنـــة ولا نسا نشا بخبز وبلحم ما اشتهى

اما المثالب الجسمية فهناك رجز كثير تناول وصف معايب جسم الانسان وما يعتريه من نقص أو عاهات ، من ذلك مثلا افات النطق التي تصيب اللسان ، انشد ابن الاعرابي كلمة جامعة لكثير من معاني الآفات كصغر الجسم والكذب والتلجلج في الكلام والخلط فيه ، ثم الجبن والخوف ، وهي قول الشاعر : (٣)

---

١ ــ الأغاني ١٩٤/٣ وزارة الثقافة والارشاد .

٢ ــ طبقات ابن سلام ص ٥٧٢ والأغاني ١٨ / ١٦٤ ساسي مـــع نقص في الأبيات .

٣ ــ البيان والتبيين ٥٧/١ هارون و ٧٤/١ السندوبي .

اسكت ولا تنطق فأنت حبحاب كلك ذو عيب وانت عياب [1]
إن صدق القوم فانت كذاب أو نطق القوم فانت هياب
أو سكت القوم فانت قبقاب أو اقدموا يوما فانت وجاب [2]

ومن وصفوا بالرجز شناعة الانسان وقبح منظره ابو الطروق الضبي حيث قال في هجاء امرأته واسمها (شعفر) : [3]

جاموسة وفيلة وخنزرُ وكلهنَّ في الجمال شعفرُ

وقال اعرابي يهجو امرأة تزوجها ، وقد تزوجت قبله خمسة ، وتزوج هو قبلها اربعا ، فلاحته يوما فقال فيها : [4]

لو لابس الشيطان ما الابس أو مارس الغول التي امارس
لاصبح الشيطان وهو عابس زوجهــا اربعة عمارس
فانفلتوا منها ومات الخامس وساقني الحين فهانا السادس

ومن قبيح الهجاء الذي استخدم فيه الرجز قول لبيد يهجو الربيع ابن زياد العبسي حينما صرف النعمان عن وفد قومه وكان مشاركا له على الطعام : [5]

مهلاً ابيت اللعن لا تأكل معه يخبرك عن هذا خبير فاسمعه
ان استه من برص ملمعه وانه يدخل فيها اصبعــه
يدخلها حتى يواري اشجعه كأنما يطلب شيئاً ضيعــه

---

١ ــ الحبحاب : الصغير الجسم المتداخل العظام .
٢ ــ قبقاب : كثير الكلام مخلطه ، الوجاب : الجبان .
٣ ــ الحيوان ٧/١٧٢ هارون .
٤ ــ العقد الفريد ٣/٤٧٤ الطبعة الثانية ــ القاهرة .
٥ ــ شرح ديوان لبيد ــ الدكتور احسان عباس ص ٣٤٠ الكويت .

واستطاع الرجز التعبير عن نقائص اخرى أنف العرب من الاتصاف بها ، كما تمكن من الايفاء بحاجتهم في مواقف آنية تستدعي السرعة والعجلة ، من ذلك مثلا ما رد به ابو ذرة (١) على الرجل اليماني الذي قال له : (٢)

يارب شيخ من بني ملاص عجرد كالذئب ذي الحصاص(٣)
يوضع تحت القمر الوباص باهرة باتت على ادراص (٤)
اضطرها الوابل بالحصاص اعني ابا ذرة رأس الخاصي (٥)

فخرج اليه ابو ذرة من قبل ان يعرفه فاشار له بيده ثم قال :

يا أيها الشاعر لا يسمع لكا اعجلتني ولم اكن احفل بكا
فاشدد على أير ابيك رحلكا فاركب عليه ثم يمم اهلكا

ودخل جندب على الوليد بن عقبة وعنده ساحر يكنى ابا شيبان يأخذ اعين الناس فيخرج مصارين بطنه ثم يعيدها فيه ، فجاء من خلفه فقتله وقال : (٦)

---

١ ــ هو ابو ذرة الهذلي ثم الباهلي ثم الملاحي .

٢ ــ شرح اشعار الهذليين ــ السكرى ٦٢٣/٢ شاكر وفراج .

٣ ــ عجرد : اطلس شبهه بالذئب ، الحصاص : عدو شديد .

٤ ــ أي يرضع الناقة بالليل من لؤمه ، وهذا عيب عند العرب ، الوباص : من الوبيص وهو البريق ، الادراص : أولاد الفار .

٥ ــ الحصاص : الصعيد من الارض الذي لاكن له ولا شيء له يستره ، الخاصي : الذي يخصي يريد الخصاء .

٦ ــ الأغاني ١٤٤/٥ وزارة الثقافة والارشاد .

إلمن وليداً وابا شيبان وابن حبيس راكب الشيطان
وسرل فرعون الى هامان

من هذا كله يتبين لنا ان الرجز قد وفى بحاجة العرب في ميدان الهجاء ، وعبر عما في نفوسهم من عواطف البغض والحقد اتجاه اعدائهم وهو بهذا انما يوازي القصيد في ايفائه بهذا الغرض واستعماله في هذا الميدان ، اذ ان القصيد تمكن كذلك من التعبير عن عواطف البغض والكره التي تعتلج في نفوس الشعراء الذين راحوا يصوغونها هجاء مقذعاً جارحاً .

٥ ــ الغزل

العواطف والأحاسيس شركة بين الناس يمتلكها البدوي والحضري والصغير والكبير ، لكنها تختلف قوة وضعفا من شخص لآخر . وقد اتخذ الناس الفنون وسيلة للتعبير عن هذه العواطف ، فكان الشعر احد تلك الفنون التي صب فيها الناس مشاعرهم ، حتى اصبح لسان القلب الناطق .

وقد تساوى الرجاز والمقصدون في ابراز ما تكنه قلوبهم من حب وشوق ، فحنوا واشتكوا ، ووقفوا على اطلال الاحبة يذرفون الدموع ويريقون العبرات .

ومن هنا وجد الشعر العربي الذي كان يتناول ذكر ما بين الاحبة من رابطة قوية وحب عميق ، ثم وصف المحبوبة بالصفات الحسنة الجميلة وتشبيهها بكل ما فيه روعة وجمال ، وكثيراً ما كان الرجاز يلجأون الى الغزل والنسيب في مطالع اراجيزهم اذ كانوا يقفون على الديار الخالية

فيأخذون بالبكاء حزناً وشوقاً الى الاحبة النازحين الذين كانت الديار آهلة بهم ، وهنا لابد من وصف اولئك الاحبــة واطراء حسنهم وفتنتهم ، وتذكر الايام الجميلة التي قضوها معهم .

وكانوا يتناولون في غزلهم المعاني الحسية والوجدانية ، أما الحسية فكانت تشمل وصف عين المحبوب وقده وثغره وجيده ودقة عظامه ولونه وكشحه وشعره .

فالعين هي مبعث السحر ومستقر الجاذبية وهي لغة الحب الناطقة اذا عجز عن ترجمتها اللسان ، وهي اذا نظرت الى الحبيب كشفت له اسرار القلب ورشقته بسهامها القاتلة . قال بعض الرجاز : (١)

هل يغلبني واحد اقاتله   ربم على لباته سلاسله (٢)

سلاحه يوم الوغى مكاحله

وقد استحبوا في العين سعتها وحسنها واحورارها ، قال العجاج : (٣)

أزمان أبدت واضحاً مفلجا   اغر براقا وطرفاً برجا (٤)

فهو – كما ترى – اشاد بسعة عيونها وجمالها ، كما انه لم يغفل عن وصف ثغرها الجميل الابيض ولم يكتف بذلك بل راح يصف اعضاء جسمها وصفاً حسياً جميلا ، فقال يصف حاجبها وشعرها وانفها وبطنها

---

١ ــ يتيمة الدهر ــ الثعالبي ١٥١/١ ط ٢ السعادة .

٢ ــ اللبة : موضع القلادة .

٣ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط / ١٠٦ واراجيز العرب ــ البكري/٧٤

٤ ــ واضح : أي ثغر ابيض واضح ، والمفلج : الثغر الذي ليس بعض اسنانه قريبا من بعض والاغر : الابيض ، والبرج في العين : سعتها وحسنها .

وقوامها وكفلها .

ومقلة وحاجباً مزججــا وفاحماً ومرسناً مسرجا (١)

وبطن أيم وقواماً عسلجا وكفلاً وعثاً اذا ترجرجا (٢)

امر منها قصباً خدلجــا لا قفراً عشاً ولا مبهجا (٣)

مياحة تميح مشياً رهوجــا تدافع السيل اذا تعمجا (٤)

على انهم اغرموا بالحور (٥) الذي يكون في العين فتغنوا به ، قال العجاج : (٦)

لو أن عصم شعفات النير يسمعنه باشرن للتبشير (٧)

بين اقتحام الطوع والحرور اذ ترتمي من خلل الخدور (٨)

---

١ ــ المزجج : الطويل ، الفاحم الشعر الحالك ، والمرسن : الانف ، المسرج : الحسن .

٢ ــ الايم : الحية ، والعسالج : اغصان مثل البردى تنثنى ، الوعث : السهل .

٣ ــ امر : فتل ، يقول اذا ترجرج امر ، والقصب الخدلج : المستوى والقفر : القليل اللحم ، والعش : الدقيق ، والمهبج : الرهل الرقيق .

٤ ــ مياحة : ميالة ، الرهوج : المشي اللين ، والتعمج : التلوى .

٥ ــ الحور : شدة بياض بياض العين وشدة سوادها .

٦ ــ شرح ديوان العجاج /٦٨ واراجيز العرب /٨٦ .

٧ و ٨ ــ العصم : الوعول وهي التي يكون بها بيــاض وتكون في الجبال ، والشعفات : رؤوس الجبال ، النير : جبل ، باشرن : نزلن ، والتبشير : الارض . يريد لو ان العصم يسمعن حديثي وخبرى عن اموري في شبابي لنزلن لما يراد لهن ولم يتماصين زمن كان النساء يرمينني بابصارهن من خلل الخدور اعجابا بي وميلا الي .

بأعين محورات حور خزر بالباب الي صور (١)

اما الطرف الفاتر فكان سمة التدلل أو الاستحياء ، قال العجاج (٢)

لما تبدت مثلاً كالمغزل فاترة الطرف من التدلل

وقال رؤبة : (٣)

أضللن بالمكحولة السواجي وكسرات الحاجب الخلاج (٤)

شيطان كل مترف سداج (٥)

اما برودة الثغر فكانت موضع اعجابهم ومدار غزلهم حينما يذكرون الفم وعذوبته ، قال ذو الرمة واصفاً ثغر حبيبته ومشيها ومقلتيها وجيدها وكشحها بالظبية : (٦)

يامي ذات المبسم البرود بعدالرقاد والحشى المخضود (٧)

والمقلتين وبياض الجيد والكشح من ادمانة عنود (٨)

---

١ ــ المحورات : كثيرات البياض ، والتحوير : بياض حول العين ، والصور : الميل .

٢ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط /٥٨ .

٣ ــ شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط / ١٣٢ ومجموع اشعار العرب / ٣٠ واراجيز العرب /٥٧ .

٤ ــ المكحولة السواجي : أي العيون الساكنات النظر .

٥ ــ مترف : متنعم ، وسداج : صاحب لهو ولعب وكذب .

٦ ــ اراجيز العرب /٦٣ .

٧ ــ البرود : البارد ، والمخضود ، من الخضد وهو كسر الشيء الغض .

٨ ــ الادمانة : الظبية ، والعنود : العاندة عن صوابها .

عن الضباء متبـــع فرود   اهلكتنا باللوم والتفنيد (١)

وكان لبياض الاسنان وبريقها منظر جميل استهوى الرجاز حتى راحوا يتغزلون به . قال الشماخ بن ضرار : (٢)

لما رأتنا واقفي المطيات   قامت تبدى لي بأصليات (٣)

غرا أضاءً ظلمهـا الثنيات   خودٌ من الظعائن الضمريات (٤)

أما ضخامة ارداف المرأة وعظم فخذيها وامتلاء عظامها فقد اشاد بها ذو الرمة بقوله : (٥)

ضُمنَّ كلَّ طفلة مكسال   ربَّا العظام وعثة التوالي (٦)

لفاء في لين وفي اعتـــدال   كأن بين القرط والخلخال (٧)

منها نقاً نطقَ بالرمـال (٨)

---

١ ــ أي عائدة عن الظباء ، أي مفارقة لهم ، متبع : أي لها غزال يتبعها ، وفرود : منفردة ، والتفنيد : التجهيل وتخطئة الرأي .

٢ ــ الشعر والشعراء ١/٣٦ و ٢٣٤ بيروت .

٣ ــ أصلتيات : اسنان براقة .

٤ ــ الظلم : ماء الاسنان ، والضمريات : من بني ضمرة .

٥ ــ أراجيز العرب /٤٤ .

٦ ــ الطفلة : الفتاة الناعمة ، والمكسال : من الكسل وهو من مستحسن اوصاف النساء عند العرب ، يقول أن تلك الهوادج المذكورة في البيت السابق تضمنت كل فتاة حسناء مكسال ، وربا العظام : أي عظامها ممتلئة لحماً وشحماً ، والوعث في الاصل الرمل اللين الذي يصعب فيه المشي للينه .

٧ ــ اللفاء : العظيمة الفخذين .

٨ ــ النقا : الرمل ، يشبه عجيزتها بالرمل .

وكان العرب يستحبون في المـــرأة حياءها ، وكانت النساء لذلك يمشين في لين وتؤدة ، حتى تأثر الرجاز بذلك فراحوا يصفون مشيتهن ، قال منصور بن مرثد الاسدي : (١)

جارية في سفوان دارها تمشي الهوينا مائلاً خمارها
قد اعصرت أو قددنا اعصارها يطير من غلمتهـا ازارها

وهام الرجاز بمشية الحبيب حينمـا يروح يتثنى كأنـه غصن رطب هزته الرياح ، وهذا التثني لايحدث الا من قدّ رشيق وقوام جميل ، حتى اذا مشى صاحبه تلوى وتثنى واهتز ، قال ذو الرمة : (٢)

اذا مشين مشيةً تأوّدا هزّ القنالانَ ومـا تخضدا(٣)

وهكذا تناول الرجاز بالوصف الحسي اعضاء المرأة وحركاتهـا الظاهرة ، واختاروا لكل منها وصفاً يليق به ويزيده جمالاً على جمال .

امـا المعاني الوجدانيـــة التي تناولها الرجـاز بالوصف فكانت تشمل وصف الحالات النفسية التي تعتري الانسان حين يتذكر أحبتـه أو يراهم ، فهـــذا العجاج يهيج سقمه خيال احبتـــه حينما يراود فكره ، يقول : (٤)

---

١ ــ العقد الفريد ٣/٤٦٠ ط ٢ القاهرة .
٢ ــ ديوان شعر ذى الرمة ، كارليل مكارتني / ١١٣ .
٣ ــ تخضد : انكسر .
٤ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط /٧٩ .

طاف الخيالان فهاجا سقما   خيال تكنى وخيال تكتما
باتا بحوسان وقد تجرّما   ليل التمام عند عنك ادهما (١)
بالخيف من مكة ناسا نوما   فأرقا عيا وشعثا سهما (٢)

اما داود بن سلم فقد أسدل الحب على عينيه ستاراً فلم يعد يرى عيوب حبيبه ، فان جنى ذنبا دفعه حبه الى غفرانه ، يقول : (٣)

لججت من حبي في تقريبه   وعميت عيناي عن عيوبه
كذاك صرف الدهر في تقليبه   لايلبث الحبيب عن حبيبه
أو يغفر الاعظم من ذنوبه

وهذا راجز لا يذكر محبوبته الا جرت شؤون عينيه : (٤)

مالك لا تذكر أم عمرو   الا لعينيك شؤون تجري

وجميل يعاتب بثينة ويصف لها ما يلاقيه من عذاب الحب وما يذرف من دموع فيقول : (٥)

---

١ ـ بحوسان : يتخللان ويتخطيان الرفاق ، وقد تجرم ليل التمام : أي مضى كله الا قليلا منه ، والعنك : القطعة من الليل ، وقوله : أدهما : يعني سواد الليل .

٢ ـ ويروى بالجزع من مكة . يقول : باتا يحوسان بالخيف ناساً نوما ، والخيف : خيف منى ، وقوله : ارقا : أي ايقظا ، وعيا : أي ابلا صهبا ، وشعثا : شعث الرؤوس . وسهماً ضمراً .

٣ ـ الأغاني ١٩/٦ وزارة الثقافة .

٤ ـ النوادر في اللغة ـ الانصاري / ٦٠ .

٥ ـ ديوان جميل ـ بطرس البستاني / ١٥٧ .

يا أم عبد الملك اصرميني   فبيني صرمي أوصلبني (١)
ابكي وما يدريك مايبكيني   أن بني عمك اوعدوني
ان يقطعوا رأسي اذا لقوني

وقد كان بعض الرجاز يصفون ما يفعله فيهم سحر النساء ودلهن، فيفتنهم جمالهن ويتركهم مهزولي الاجسام ، انشد أبو عمرو: (٢)

أن ذوات الدل والبخانق   قتلن كل وامق وعاشق (٣)
حتى تراه كالسليم الدانق (٤)

ونظر اعرابي الى امرأة تسمى ذلفاء ، ومعها صبي يبكي وكلما بكى قبلته ، فتمنى ان يكون مثل هذا الصبي وانشأ يقول : (٥)

يا ليتني كنت صبياً مرضعا   تحملني الذلفاء حولاً اكتعا (٦)
اذا بكيت قبلتني أربعا   فلا ازال الدهر ابكي اجمعا

أما العجاج فقد كان دمعه يجري متهللا من عينيه كلما رأى رسوم

---

١ ــ أم عبد الملك : كنية بثينة .
٢ ــ امالي القالي ٢١٥/٢ بيروت .
٣ ــ البخانق : البراقع الصغار .
٤ ــ الدانق : الساقط المهزول من الرحال .
٥ ــ العقد الفريد : ٤٦٠/٣ ط ٢ القاهرة ١٩٥٢ .
٦ ــ اكتعا : كاملا .

اطلال احبته ، يقول : (١)

مـا بال جاري دمعك المهلل   من رسم اطلال بذات الحرمل (٢)

ومثله أيضاً ذو الرمـــة اذ تهيج عينيه الاطـلال فيروح باكياً متحـسراً ، قال : (٣)

ما هاج عينيك من الاطلال   المزمنات بعـدك البـوالي (٤)

وقد أكثر الرجاز من تناول المعاني الوجدانية في رجزهم الغزلي وحسبنا في هذه العجالة هذه الشواهد التي تثبت أن الرجـز تنـاول فن الغزل وعالجه كالقصيد .

٦ ـــ الأساطير

أن الذي يقرأ رجز العرب يجد فيه تلميحات واشارات الى بعض الأساطير والخرافات والمعتقدات التي كان يؤمن بها العرب ، تلك المعتقدات التي مازال كثير من جهلة العرب يؤمنون بها .

وكان بعض الرجاز يذكر في رجزه بعضاً من تلك الاساطير عن اعتقاد بها وايمان . من ذلك مثلاً اعتقادهم بأن لكل شاعر شيطاناً يلهمه الشعر ، وان غاب عنه شيطانه عجز عن قول الشعر ، ولهـذا فأن أحـد الرجاز الصغار السن حينما اراد ان يظهر قدرته وشاعريته أشار الى أن شيطانه قوي كبير له قدرة فائقة عجيبة ، قال : (٥)

---

١ ـــ شرح ديوان العجاج ـ مخطوط /٤٦ وأراجيز العرب / ١١ .

٢ ـــ المهلل : السائل .

٣ ـــ أراجيز العرب / ٤٠ .

٤ ـــ المزمنات : التي اتت عليها ازمان متتابعة ، والبوالي : جمع بالية .

٥ ـــ الحيوان ١/٣٠٠ ط ١ ١٩٣٩ م .

اني وان كنت حديث السن وكان في العين نبو عني

فان شيطاني كبير الجن

وهكذا كانوا يزعمون أن للشعراء شياطين يوحون بالشعر اليهم، وكانوا يسمونهم شياطين الشعراء، ومن هنا كان وصف أبي النجم الراجز لشيطان العجاج حينما هجاه بأنه انثى ووصف شيطانه هو بانه ذكر، قال: (١)

أني وكل شاعر من البشر شيطانه انثى وشيطاني ذكر

فضحك الناس وانصرفوا وهم ينشدون قوله: شيطانه انثى وشيطاني ذكر. ثم أن رؤبة كان يحس في نفسه قوة يخشع لها شيطان كل طامح، حيث قال: (٢)

اني أنا الدامغ والمصحي بالنار عن أم الفراخ الوكح (٣)

يخشع لي شيطان كل طمح

اما نظرة الرجاز الى الجن فكانت مبنية على انهم يعتقدون بأن الجن مصدر الدهاء والقوة والمكر وما ينتج عن ذلك من وسوسة وارتجاس وأصوات موحشة، وبناء على هذا الاعتقاد راح رؤبة يصف منطق حبيبته بوسواس الشيطان في انها تتكلم بحياء وهدوء فقال: (٤)

---

١ ــ الأغاني ١٠/١٥٣ وزارة الثقافة، الحيوان ١/٣٠٠ ط ١، والشعر والشعراء ٢/٥٠٢ بيروت.

٢ ــ مجموع أشعار العرب / ٣٧.

٣ ــ الوكح: الفراخ الغليظة.

٤ ــ مجموع أشعار العرب / ١٤٤ وأراجيز العرب / ٧٩.

يا هال ذات المنطق النمنام كأن وسواسك بالنمام[1]
وسواس شيطاني بني هنام[2]

ويظهر من رجزه هذا انهم كانوا يزعمون أن الجن قبائل ، وبنو هنام قبيل من هذه القبائل . والجن – كما يظنون – كثيرو العدد ، لهم جنود مجندة ، قال رؤبة يفخر بقومه وببأسهم وكثرة عددهم وانهم يفوقون في كثرتهم قوم يأجوج والجن ، يقول :[3]

لو أن يأجوج الينا تهدى مأجوج والجن بكل جند
جئنا على اعدادهم بالأد[4]

وحينما يسيرون في صحراء خالية موحشة كانوا يتخيلون انهم يسمعون في تلك الصحراء صوت الجن ، فهذا رؤبة يشبه عزف الجن بأصوات المغنين حيث يقول :[5]

كأن عزف الجن بالأهزاج به حنين الزجل الصناج[6]

وشبه غناءهم المزعوم في مكان آخر بصوت اللاعبين فقال :[7]

---

١ – النمنام والمنمنم : المزين ، والنمام : الكلام الخفي ، والوسواس : حديث النفس .

٢ – بنو هنام : تزعم العرب انهم قبيل من الجن .

٣ – مجموع أشعار العرب ص ٤٨ وشرح ديوان رؤبة – مخطوط ص ١٠٢ .

٤ – الأد : هو من قول الله عز وجل (لقد جئتم شيأ ادا) : أي أمراً عظيما .

٥ – مجموع أشعار العرب ص ٣٢ وأراجيز العرب ص ٦١ .

٦ – الصناج : الذي يضرب على الصنج وهو آلة طرب .

٧ – شرح ديوان رؤبة – مخطوط – ص ٩ ومجموع أشعار العرب ص ١١٠ وأراجيز العرب ص ١٠١ .

عجماً تغني جنه ببيهقا   كأن لعابين زاروا هفتقا (١)

رنتهم في اج ليل سردقا (٢)

ثم يصف لنا بلدة مقفرة تصور أن اغولها نسائف ولهامها هواتف ولارتجاز جنها عوازف ، فقال (٣)

وبلدة لغولهـــا نسـائف   للهام في ارجائها هواتف (٤)

ولارتجاس الجن فيها عازف (٥)

وهو في رجزه هذا يذكر لنا اضافة الى اسطورة الجن اساطير تكلم الهام ووجود الغول ، ثم تحدث عن الغول في مكان آخر قائلاً : (٦)

---

١ ـــ العجم : جمع عجمة وهو ما اجتمع من الرمل ، قوله يغني جنه ببيهقا : كأن جنه يقول (بيهق) جعله صوتاً فحكاه وادخل الباء ، وقيل : بيهق : أسم أرض ، وهفتق : يعني اسبوع وهو بالفارسية هفته .

٢ ـــ يقول : كأن صوت صليل اللعابين رنة جن هذه الارض ، والرنة : الصوت ، وسردق : اظلم .

٣ ـــ مجموع أشعار العرب ص ١٠٢ .

٤ ـــ ينتسفون الكلام انتسافا : أي يهمسون به رويدا من الفرق فهو خفي لئلا ينذر بهم . (الصحاح مادة نسف) والهام : جمع هامة ، من معانيها انها نوع من البوم الصغير تالف القبور والاماكن الخربة .

٥ ـــ الارتجاس : صوت الشيء المختلط العظيم كالجيش والسيل والرعـــد (اللسان مادة رجس) .

٦ ـــ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط / ٧٧ ومجموع أشعار العـــرب / ١٠٧ وأراجيز العرب /٣٣ .

غول تشكى لسبنتى معترق كالحية الاصيد من طول الأرق[1]

وكثيراً ماقرن الرجاز ذكر الجن بالطريق المجهولة والبلد القفر والفلاة المضلة ، زاعمين أن الجن تسكن مثل هذه الاماكن الموحشة ، قال رؤبة : (٢)

يركبن تيماء وما تيماؤه بهماء يدعو جنها بهماؤه[3]

ثم انهم كانوا يشبهون أنفسهم بالجن في قوتهم ودهائهم ، مثل هذا قول رؤبة : (٤)

وقد أرى لي في الصبا عساكرا جني جن اضرب الاسادرا

ومن غريب الاساطير التي تتصل بالجن التي يصورها لنا الرجز هو مايزعمه العرب من أن هناك جنساً من الجن صورة الواحد منهم على نصف صورة الانسان واسمه شق ، وانه كثيراً ما يعرض للرجل المسافر اذا كان وحده ، فربما اهلكه فزعاً ، وربما اهلكه ضرباً وقتلاً . ورووا على ذلك قصة تدور حول علقمة بن صفوان بن امية بن محرث الكناني جد مروان بن الحكم فقالوا : أنه خرج في الجاهلية وهو يريد مالاً له بمكة وهو على حمار وعليه ازار ورداء ومعه مقرعه في ليلة اضحيانه (٥)

---

١ ـــ تشكى : أي تشكو ، والسبنتى : الجـــري، يعني زوجها ، والمعترق : المهزول القليل اللحم الاصيد : الذي يميل بصره من طول الارق . يقول يكسر عينيه .

٢ ـــ شرح ديوان رؤبة ـ مخطوط / ٢١٨ ومجموع أشعار العرب /٤ .

٣ ـــ تيماء : مظللة : يعني يضل فيها . والهيماء الطريق العمياء أي المجهولة .

٤ ـــ مجموع أشعار العرب /٥١ .

٥ ـــ اضحيانه : أي مضيئة لا غيم فيها .

حتى انتهى الى موضع يقال له حائط حزمان، فاذا هو بشق له يد ورجل وعين ومعه سيف وهو يقول :

علقم أني مقتــول   وان لحمي مــأكول

اضربهـم بالهذلــول   ضرب غلام شملول (١)

رحب الذراع بهلول (٢)

فقال علقمة :

يا شقهـا مـالي ولك   اغمد عني منصلك (٣)

تقتل من لايقتلك

فقال شق :

عبيت لك عبيت لك   كيما اتيح مقتلك (٤)

فاصبر لما قد حم لك

قال فضرب كل واحد منهما صاحبه فخرا ميتين : (٥)

وظني أن قوماً قتلوا علقمة وأرادوا ان يخفوا دمه فصنعوا هـذه الحكاية واخترعوا هذه الابيات ونسبوها الى علقمة وشق ، وهـذه القصة مشابهة لقصة مقتل سعد بن عبادة حينمـا قتله اعداؤه وزعموا أن الجن قتلته وقالت في قتلها له شعراً .

---

١ ـــ الهذلول : عنى به سيفه ، والشملول : الخفيف السريع ،

٢ ـــ البهلول : العزيز الجامع لكل خير والحيى الكريم .

٣ ـــ المنصل : السيف ،

٤ ـــ عبيت : تسهيل عبأت في لغـــة من يقول قـرأت قريت ، وعبأه : استعد وهيأ .

٥ ـــ الحيوان ٢٠٦/٦ ط ١ هارون ،

وعلى كل حال فقد استطاع الرجز ان يصور مثل هذه الاساطير التي كان العرب يؤمنون بها آنذاك . ومن بين المعتقدات والافكار التي كانت شائعة في البيئة العربية والتي تطرق اليها الرجز ، هي ان سن الضب تبقى على حالها لا يتغير ولو بقي الف سنة ، وانها تظل كما كانت عليه حين خروجه من بيضته قال رؤبة مشيرا الى ذلك : (١)

فقلتُ لو عمرتُ سن الحسل أو عمر نوحٍ زمنَ الفطحل (٢)
والصخرُ مبتل كطينِ الوحل صرتُ رهين هرمٍ أو قتل

ومن الاساطير القديمة التي عبر عنها الرجز ، زعم العرب ان الضب خاطر الضفدع (٣) ايهما أصبر عن الماء ، وكان للضفدع حينئذ ذنب ، وكان الضب لا ذنب له . فخرجا من الكلاء فصبرت الضفدع . يوما فنادت : ياضب ، وردا وردا . فقال الضب .

اصبح قلبي صردا لا يشتهي ان يردا (٤)

ونادت في اليوم الثاني : ياضب ، وردا وردا فقال الضب :

---

١ ـ مجموع اشعار العرب /١٢٨ واراجيز العرب / ١٢٣ وشرح ديوان رؤبة مخطوط /٨٦ .

٢ ـ الحسل : ولد الضب ، يقول : لو عمرت انا لا اتغير هكذا ، وقوله زمن الفطحل : أي زمن السلام رطاب والسلام : الحجارة .

٣ ـ في مخصص ابن سيدة ٢٥٨/١٣ انهذه المحاورة دارت بين السمكة والضب

٤ ـ الصرد : يقال : اذا انتهى القلب عن شيء صرد عنه (اللسان مادة صرد) .

اصبـــح قلبي صودا لا يشتهي ان بردا
الا عراد اعـــردا وصلبانـــا بردا (١)

فلما كان في اليوم الثالث نادت ايضا فلم يجبها . وبادرت الى الماء واتبعها الضب فأخذ ذنبها (٢) .

وينقل لنا الرجز حكاية طريفة بين اعرابي وضبع اكلت شاتة ثم يصور لنا ما دار بينهما من حوار رجزي ، اذ جعل الاعرابي يخاطبها وهي تجيبه (٣) .

ومن هاتين الروايتين الاسطوريتين التي دارت احداهما بين الضب والضفدع والاخرى بين الاعرابي والضبع ، نستطيع ان نقول ان الرجز تمكن من تناول القصة والحوار ، وان هذه القصة قد ظهرت معالمها في رجز العرب ، وحتى اذا لم تكن هذه القصص تمثل معناها المعروف في الوقت الحاضر ، فانها بداية لذلك أو انها خطوات أولية لفن القصص الشعري .

وكان السحر اعتقاداً آمن به العرب قديماً وحديثاً ، وفي الرجز نجد ذكرا لهذا الاعتقاد وما يقوم به الساحر من ألاعيب وحركات ،

---

١ ـــ العراد : حشيش طيب الريح ، وعراد عرد على المبالغة ، أو اراد ان يقول عراد عارد فحذف للضرورة ، والعـــارد : الذي خرج واشتد : والصليان : شجر من الطريفة ينبت صعدا ، وأضخمه اعجازه واصوله . والبرد : اراد البارد فحذف للضرورة .

٢ ـــ المعاني الكبير ـــ ابن قتيبة ٢/٦٤١ ط ١ الهند وانظر الأبيات في الحيوان ١٢٥/٦ ولسان العرب ٢٨٨/٣ بيروت .

٣ ـــ انظر الحيوان ٦ /٤٤٣ ط ١ .

حيث قال رؤبة يذكر السحرة وطريقتهم في القاء الحصى في الكوب : (١)

والغل لا يشفيه طب الأطباب وان رقوا في مسك وأهداب (٢)

من ساحر يلقي الحصى في الاكواب بنشرة اثـــارة كالاقواب (٣)

وبمثل هذه الصورة استطاع الرجز أن يصور لنا أساطير ومعتقدات وأفكار العرب القديمة .

هذه أهم الاغراض التي اشترك الرجز والقصيد في معالجتها ، وقد لاحظنا ان الرجز كان صالحا لتناول مثل تلك الاغراض والفنون ، وقد استطعنا ان ندرك هذه الصلاحية في أبيـات الرجز التي عالجت مختلف الفنون ، وهي فنون عالجها القصيد فأجاد فيها اما الرجز فانه عالج الى جانب هذه الفنون فنونا اخرى كان القصيد قـاصرا عن تناولها ، فكان الرجز اقدر منه على تناول مثل هذه الاغراض بفضل ما فية من حركات رتيبة متتابعة تشبه الى حد ما حركات تلك الاغراض التي انفرد بمعالجتها .

وستجد توضيح هذه الاغراض التي اقتصرت على الرجز في صفحات الفصل الآتي فاليك هذا الفصل :

---

١ ــ اراجيز العرب /١٦١ .

٢ ــ الغل : الحقد الكامن : والاطباب : جمع طب وهو العلم بالامـــور ، والمسك : سوار من علج ومن قرون تلبسها النساء .

٣ ــ الاقواب : جمع قوباء ، واصلها في جلد البعير ، فترى فيه قد جردت منه الشعر وتخرج ايضا في جلد الانسان فتداوى بالريق .

الفصل الرابع

الاغراض التي اقتصرت على الرجز

١ ـــ الحداء (١)

استطعنا في فصول سابقة ان نتبين خطوطاً باهتة لبداية الشعر ونشوئه ، وذهبنا فيها الى ان الرجز كان أول الأوزان التي اهتدى اليها العرب ، وذلك لسهولته وخفته وملاءمته لوقع خطى الجمال التي صحبها العربي في حياته كثيرا .

وربما يكون معنى الرجز مأخوذاً من داء الرجز الذي يصيب الابل في اعجازها فاذا ثارت ارتعشت افخاذها ساعة ثم تأخذ في الانبساط كما ان بحر الرجز اكثر الأبحر الشعرية شبها بسير الجمال ووقع خطاها وهو بانواعه المختلفة واشكاله العديدة ، يتفق مع سير الجمال المختلف ،

١ ـــ حدا الابل وحدا بها يحدو حدوا وحداء : زجرها خلفها وساقها .

السريع منه والبطيء (وما الرجز الا قياس رسمه في مخيلة العرب سير الابل في الصحراء) (١) .

ولعل حكاية مضر وسقوطه من فوق جمله ثم استغـــاثته بقوله (وايداه) (٢) أو (يدى يدى يدى يدى) واصغاء الابل اليه (٣) تؤيد ما ذهبنا اليه من وجود صلة وثيقة بين الابل وسيرها وبين ايقاعات بحر الرجز .

ونظراً لوجود هذه الصلة فقد راح العربي يحدو ابله برجـــز يخفف به عنها ألم المسير وكلالة السفـــر ، ويبعث في نفوسها القوة ويجدد فيها النشاط لمواصلة رحلتها ، (فالابل تصر آذانها اذا حدا في آثارها الحادي ، وتزداد نشاطا وتزيد في مشيها) (٤) .

وهكذا يكون الحداء بالرجز أصل الشعر ، وتكون اوزان الشعر العربي قد رتبت على وقع اقدام الابل ، حتى صار من معاني الحداء في العربية قرض الشعر ، كما ان هناك صلة وثيقة بين الحداء والغنـــاء بالرجز فاذا قيل : حدا ، أي غنى بالرجز .

وكان المرحوم جرجي زيدان قد ذهب الى مثل هـــذا الرأي حين قال :

(ان الرجز أول ما استعمله العرب لسوق الجمال ، وهو الحداء في اصطلاحهم وكأنه وضع لهذا الغرض ، لأن العربي يقضي أوقـاته في

---

١ ــ تاريخ الادب العربي ــ السباعي بيومي ١٠٤/١ ط ٢ .

٢ ــ يرى الدكتور المجذوب ان لفظة (وايداه) ليست من الرجز وانما هي من الرمل (المرشد ٢٤٦/١ ط ١) .

٣ ــ جمهرة اشعار العرب ــ القرشي / ٣٤ .

٤ ــ الحيوان ١٩٣/٤ هارون .

معاشرة جمله أو ناقته) (١) ويرى ايضا ان مشطور الرجز يشبه بتوقيعه على مقاطعه مشي الجمال الهوينا ، ثم يقول : لو ركبت ناقة ومشت بك الهوينا ، لرأيت مشيها يشبه وزن هذا الشعر تماما . فكان العرب يحدونها به اذا ارادوا سيرها وئيدا . اما اذا أراد الحادي ان تسرع الجمال في السير حدا لها بالرجز المنهوك . (٢)

على ان معروفا الرصافي يخالف جرجي زيدان في رأيه هذا فيقول : (وكل من تأمل في الرجز ، منهوكة ومشطوره ، وفي سير الابل ، رأي بينهما بونا بعيدا جدا ، لشدة تتابع اجزاء الرجز في اللفظ وسرعة انحدارها وتسردها (٣) في الفم عند الانشاد ، وذلك ينافي سير الابل الوئيد بسبب جسامتها وكونها فسيحة الخطى) (٤) .

ولكني أرى ان رأي جرجي زيدان أصوب من رأي الرصافي .ذلك لان الحداء في الغالب الأعم يكون بالرجز ، فلو لم يكن الرجز ملائما لوقع خطى الجمال ، ومتفقا مع سير الابل ، لما حدا به ، ولاختير لذلك بحر آخر .

ثم ان الرصافي يدعي ان سرعة انحدار اجزاء الرجز وتسردها في الفم عند الانشاد ينافي سير الابل الوئيد . وهذا غير صحيح ذلك لان اللحن يتحكم في بطء الكلام وسرعته ، فان اراد الشخص ان تسرع جماله في سيرها حدا لها برجز منهوك مع سرعة في تلفظ هذا الرجز ، وبهذا يكون ملائما لسرعة مشي الابل . اما اذا اراد أن تسير الابل سيرا

---

١ ـ تاريخ اداب اللغة العربية – جرجي زيدان ٦٥/١ .

٢ ـ المصدر السابق ٦٥/١ .

٣ ـ سرد الحديث : اذا تابعه ، وفلان يسرد الحديث سرداً اذا كان جيد السياق له (اللسان مادة سرد) .

٤ ـ سحر الشعر – روفائيل بطي ٩٥/١ الرحمانية .

وئيدا ، فانه يحدو لها برجز مشطور ويتمهل في الانشاد ، اي انه ينشد الالفاظ ببطء ، وبهذا يكون هذا اللحن البطيء مشابها لمشي الجمال الهوينا

ولهذا نستطيع ان نقول انه من المحتمل ان يكون الرجز مأخوذاً من سير الابل ، كما انه من المحتمل ان يكون الرجز أول ما استعمل في حداء الابل .

واذا انتهينا من هذا ، فعلينا ان نعرف المعاني التي كانت تستعمل في هذا الحداء ، وما الامور التي كان يعالجها الحادي ؟

لقد كان بعض الحداة يتناول في حدائه وصف رحلته ويذكر صعوبة الطريق والمتاعب التي لقيهـــا من ذلك . وربما كان على عجل فيطلب من باقي الحداة الاسراع في حداء الابل وسوقها ، مثل ذلك ما قاله بعض الفقعسيين : (١)

أجرس لها يا بن ابي كباش فما لها الليلة من انفاش
غيرى السرى وسائق نجاش اسمر مثل الحية الخشخاش

فاذا اتعبها طول السفر ومواصلة المسير ، طلب الحادي ان يترفقوا بها ، ويهونوا عليها ، قال الراجز : (٢)

لا تقلواها وادلواها دلوا ان مع اليوم أخاه غدوا (٣)

وعلى هذه الصورة يروح الحادي (يعالج ما يتعلق بسفرة وما يتصل به وما يطرأ عليه من احـــوال ، ومن الطبيعي ان ألصق شيء

١ ـــ امالي المرتضى ١/٦٣١ وقد مر شرح الابيات في ص ٧٥ .
٢ ـــ الفاضل ـــ المبرد /١٩ دار الكتب .
٣ ـــ يقال : قلوت الابل : اذا سقتها سوقا شديدا ، دلوتهـــا : اذا هونت عليها السير .

بشعوره وافكاره هو رحلته نفسها ، فكان الحادي يصور هـــذه الرحلة والاماكن التي قطعها ، والارض التي يسير فيها ، والأحوال التي تقلبت عليها مطيته بين نشاط وتعب ، وسرعة وبطء ، وسمن وهزال ، وبحثها على السرعة لتلحق باهلها) (١) قال راجز مروان وكان قد اكترى أبعرة ركبها هو وبنوه وأمر أن يحث بهم (٢) :

حرم مروان عليهن النوم   الا قليلا وتلاهن القوم
حتى يقلن أو يبتن بالدوم (٣)

وقد يصف الحادي ناقته التي أهزلها الجوع والتطويح وسير الليالي وسرعة الرحلة ، حتى عادت كالقوس ، فيقول الشماخ في ذلك :

كأنها وقد براها الاخماس   ودلج الليل وهاد قياس (٤)
شرائج النبع براها القواس (٥)

ويروح الحادي يصف سكون الليل والقمر المضيء الذي انـــار الطريق امامه فيقول : (٦)

---

١ ـــ الشعر الشعبي العربي ـ الدكتور حسين نصار / ٧١ المكتبة الثقافية عدد / ٦٠ .

٢ ـــ انساب الاشراف ـ البلاذري ١٢٦/٥ سنة ١٩٣٦ م .

٣ ـــ الدوم : على مسيرة ليلتين من المدينة .

٤ ـــ الدلج : سير الليل كله .

٥ ـــ الشرائج : جمع شريج وهي القوس المنشقة . امالي القالي ١٢/١ بيروت وقد ذكر في اللسان مادة (شرج) قوله : ـ (شرائج النبع براهـــا القواس) فقط .

٦ ـــ امالي القالي ١٧٤/١ بيروت .

ياحبذا القمراء والليل الساج وطرق مثل ملاء النساج (١)

أو انه يخلع مشاعره واحاسيسه على ناقته ويشركها معه في انفعالاته ليعين كل منهما الآخر ، وهو بهذا يعبر عن شوقه الى الاحبة الذين فارقهم ، وحزنه لهذا الفراق ، ولكنه مع كل هذا يكتم شوقه ويخفيه اما الابل فلا تستطيع لهذا الشوق كتمانا ، انما تعلنه وتبوح به ، قال بعض الاعراب : (٢)

دع المطايا تنسم الجنوبا ان لها لنبأ عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا يشهد ان قد فارقت حبيبا
ما حملت الا فتىً كئيبا يسر مما اعلنت نصيبا
لو ترك الشوق لنا قلوبا اذاً لآثرنا بهن النيبا
أن الغريب يسعد الغريبا

وكان الرجاز يستعملون في حدائهم الفاظاً خاصة يزجرون بها الابل ويستحثونها على مواصلة المسير ، من ذلك مثلاً قولهم « هيدِ هيدِ » و « هيدِ وهادِ » أنشد أبو عمرو : (٣)

وقد حدوناها بهيدٍ وهلا حتى ترى اسفلها صارعلا

وذلك أن الحادي اذا اراد الحداء قال : (هيد هيد) ثم زجل بصوته ، وقد استعمل ذو الرمة هذه اللفظة حينما وصف حادي أبله الذي كان يحثها بها ، فقال : (٤)

---

١ ــ الساج : الساكن .
٢ ــ اراجيز العرب ــ البكرى ص ٤ .
٣ ــ اللسان مادة (هيد) .
٤ ــ أراجيز العرب ص ٦٩ .

وبعد شـد القـرب الممسود   يخرجن من ذي ظلم منضود (١)
شـوائباً للسـائق الغـريد   اذا حداهن بهيد هيـد (٢)
صفحن للأزرار بالخـدود   يتبعن مثل الصخرة الصيخود (٣)

وربما ترك الحادي الرحلة ووصفها ، وتناول امورا تتعلق بغرضه منها ، قيل ان رسول الله (ص) حين دخل مكة في العمرة التي قام بها بعد صلح الحديبية بعام ، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته وهو يحدو برجز يمدح به الرسول وصدق دعوته ثم يذكر الكفار بما انزله المسلمون بهم من ضرب وتقتيل ، يقول : (٤)

خلوا بني الكفار عن سبيله   اني شهيد انـه رسوله
خلوا فكل الخير في رسوله   يارب اني مؤمن بقيله
أعرف حق الله في قبولـه   نحن قتلناكم على تأويلـه
كما قتلناكم عـلى تنزيله   ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

أو يروح الحادي يتغنى بما حقق في رحلته من نصر ، ويشدو بذلك

---

١ ـــ القرب : هو السير الى الماء وبينك وبينه ليلة واحدة ، والممسود : المفتول وذي ظلم : يريد الليل والمنضود : الذي بعضه على بعض .

٢ ـــ شوائبا : أي سوابقاً ، والغريد : الكثير التغريد ، أي التطريب في الصوت بالحداء ، وهيد هيد : صوت زجر يحدو به الحادي .

٣ ـــ صفحن : أي نظرن بصفاح خدود هن للازرار التي هي الحلق التي تجعل في انوف النوق وتعقد فيها الازمة ، يريد التفتن اليهـا ، والصيخود : الشديدة الحرارة من وهج الشمس ، يريد يتبعن ناقة تقودهن هذه صفتها

٤ ـــ تاريخ الامم والملوك ـــ الطبري ٢/٣٠٩ م . الاستقامة .

فرحاً مستبشراً ، قال عدي بن ابي الزغباء ، يحدو بجيش المسلمين في عودته منتصرا من بدر :

أقم لها صدورها يابسبس ليس بذي الطلح اها معرس
ولا بصحراء غميس محبس ان مطايا القوم لا تخيس
فحملها على الطريق أكيس قد نصر الله وفر الأخيس

وقد يكون الحادي عاشقا فيتذكر حبيبته وهو يسوق ناقته فيحدوها بابيات رجزية ، ومثل هذا ما حدث لجميل حين كان مع الوليد بن عبد الملك في سفر والوليد على نجيب فرجز به مكين العذري فقال :

يابكر هل تعلم من علاكا خليفة الله على ذراكا

فقال الوليد لجميل : انزل فأرجز ، وظن الوليد انه يمدحه ، فنزل فقال :

انا جميل في السنام من معد في الذروة العلياء والركن الاشد
والبيت من سعد بن زيد والعدد ما يبتغي الاعداء مني ولقد
أضري بالشتم لساني ومرد اقود من شئت وصعب لم أقد

فقال له الوليد : اركب لا حملك الله . (١)

وكذلك فعل جميل بثينة وكان في سفر الى الحج مع مروان بن الحكم . . فطلب اليه مروان ان يسوق الجمال أي يحدوها فقال :

يابثن حيي أو عدينا أو صلي وهوني الامر فزوري واعجلي
بثين ايا ما اردت فافعلي اني لأني ما أبات مقتلي

فلم يقبل مروان ان يتغزل بالحدو ، وانما يطالب الخلفاء والامراء اذا ركبوا الابل ان يحدوها الحادي برجز في مدحهم ، خرج عبد الملك

---

١ ــ الأغاني ١٣٣/٨ وزارة الثقافة .

يوما رائحا على نجيب ومعه حاد يحدوه بقوله :

يا ايها البكـــر الذي اراكا　　عليك سهل الارض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا　　ان ابن مروان علا ذراكا
خليفة الله الذي امتطاكا　　لم يعل بكرا مثل ما علاكا(١)

وكانوا مولعين بالفخر في اثناء حدائهم ، فهذا حادى بني همدان حين وفدوا على الرسول صلى الله عليه وسلم يدعى ان بني همدان خير الناس رعية وملوكا ، فقبيلته لا مثيل لها ، اذ ان موطنهـــا الهضاب ، ورجالها الابطال ، وهم السادة الذين يفرضون على الرعية ما يريدون :

همدان خير سوقه واقيال　　ليس لها في العالمين امثال
محلها الهضب ، ومنها الابطال　　لها اطابات بهـــا وآكال

ومن تسخيرهم الرجز لتلبية اغراضهم السياسية ما روى عن حارثة بن مضرب اذ قال : حججت مع عمر فسمعت الحادى يقول :

ان الامير بعده ابن عفان (٢)

وكان الحادي يحدو لعثمان فيقول :

ان الأمير بعده علي　　وفي الزبير خلف رضي

فقال كعب : لا بل هو صاحب البغلة الشهباء ، يعني معاوية . فاتى معاوية كعبا فقال : يا ابا اسحـــاق : انى يكون هذا وهؤلاء اصحاب النبي (ص) قال : انت صاحبها يا ابا عبد الرحمن (٣) .

على اننا نجد الحداء قد تناول عدة اغراض ، منها الهجاء الذي

---

١ ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ جرجي زيدان ٦٥/١ .
٢ ــ انساب الاشراف ــ البلاذى ١١/٥ سنة ١٩٣٦ م .
٣ ــ المصدر السابق ١١/٥ .

لم يكن ملائما لطبيعة السفر والرحيل (١) .

وهكذا يروح الحادي يعالج ما يعن له من الامـــور دون سابق اعداد أو تحضير ، انما يقول على البديهة ما يخطر على باله من مشاكل السفر ومشاغله ، أو من الامور التي لا علاقة لها بالسفر ولكنها تمس هواه وتتصل باغراضه ورغباته . ولم يكن الحادي — في الغالب — شاعرا محترفا ، اذ ان عامة الناس وكل افراد القافلة صالحون للحداء ، فلهـــم الحق فيه اذا كانوا قادرين عليه ، ومن هنا وجدنا القافلة الواحدة تضم اكثر من حـاد واحد ، ويبدو ان الرسول صلى الله عليه وسلم جعل في بعض اسفاره حاديا للرجال ، هـــو البراء بن مالك ، وآخر للنساء هو أنجشه .

واجمالا لذلك اقول : ان العرب كانوا يستخدمون الرجز في اثناء حدائهم وذلك لان بحر الرجز يشبه في ايقاعاته سير الابل على بساط الصحراء الواسعة الممتدة .

اما الاغراض التي كان يتناولها الحادي في حدائه فهي كثيرة متنوعة فهو اما ان يعالج امورا تتصل برحلته . كأن يذكر مـا صادفه في تلك الرحلة من مشاق ، ومـا حقق فيهـا من نصر ، ثم يصف الطبيعة التي تحيط به بما في ذلك ليلها ونجومها واقمارها .

واما ان يخرج عن وصف رحلته فيعالج امورا لا صلة لها بالرحلة كأن يكون عاشقا فيتذكر احبته وما لاقـاه منهم من صد وهجران . أو يكون ذا ميل سياسي فيأخذ بالافصاح والابانة عن تلك الميول . حتى انه يمدح انصاره ومؤيديه ، ويهجو ويذم اعداءه ومخالفيه . وكثير منهم من

---

١ ـــ انظر الاخبار الطوال ـــ الدينوري ص ٢٩٢ ليدن .

ينحو الى الفخر . فيعدد محامده ، ويشيد بمآثره ، وهو لا ينسى في كل هذا قبيلته التي ينتسب اليها .

وكان الحادي حينما يزجر الابل ويبعثها على السرعة ، يستعمل لها الفاظا خاصة مثل « هيد هيد » أو ما أشبه ذلك .

٢ ـــ المتح والاستقاء

لا نأتي بجديد اذا قلنا ان الابار اهم موارد المياه في جزيرة العرب ، حيث ان الانهار الكبيرة تكاد تكون معدومة في تلك الجزيرة ، لهذا فقد اعتمد العربي على الآبار بالدرجة الاولى ، ثم العيون وما يتجمع من مياه الامطار يستقون منها ويسقون حيواناتهم .

ومن هنا كانت حياة العربي متوقفة الى حد كبير على الآبار ، ولهذا فقد اهتموا بها ، وحافظوا عليها ، كما اختاروا لحفرها اصلح الاماكن واكثرها عذوبة لكي تفيض بماء عذب .

وقد اشتهرت مكة بكثرة ابارها ، حتى ان البلاذري ذكر في فتوح البلدان عددا كبيرا من هذه الابار ، كما ذكر اصحابها أو الذين أمروا بحفرها . وقد توغل في ذلك فاشار الى الابار التي حفرتها قريش قبل دخولها مكة فقال : ـــ كانت قريش قبل جمع قصي اياها ، وقبل دخولها مكة ، تشرب من حياض ومصانع على رؤوس الجبال ، ومن بئر حفرها لؤي بن غالب خارج الحرم تدعى (اليسيرة) ومن بئر حفرها مرة بن كعب تدعى (الروا) وهي مما يلي عرفة ، ثم حفر كلاب بن مرة (خم ورم والجفر) بظاهر مكة (١)

---

١ ـــ فتوح البلدان ـــ البلاذري ٦٤/١ وما بعدها ـــ بيروت .

هذا بجانب كثير من الآبار التي ذكرهـــا البلاذري مع اسم من حفرها .

والذي يعنينا من هذا هو ما قالوه من رجز حول تلك الآبار . اذ أن هذه الآبار كانت من الأهمية عندهم بمكان ، حيث انها كانت مصدر حياتهم ، فراحوا يفخرون بجودتها وبعذوبة مائها وغزارته ونقاوته كما توالدت حول هذه الآبار مناقضات رجزية هي أشبه بالنقائض . حيث اشاع كل فريق منهم الاراجيز التي تثنى على بئره ، وتمدح ماءه ، وقد تعيب ماء غيره من الآبار .

ولنتابع — الآن — ما قيل من رجز حول الآبار التي حفرت بعد دخول قريش مكة ، فحينما حفر قصي ابو القبيلة كلها بئر (العجول) جعل يسقي منها الحجيج ، وهي أول سقاية احتفرت بمكة ، وفيها يقول بعض رجاز الحاج الذين يستقون منها :

نروى على العجول ثم ننطلق قبل صدور الحاج من كل افق
ان قصيا قد وفى وقد صدق بالشبع الناس وري مغتبق (١)

وحينما حفر هاشم (سجلة) ووهبها أسد ابنه لعدي بن نوفل قالت خالدة بنت هاشم مفتخرة بذلك .

نحن وهبنـــا لعدى سجله في تربة ذات عذاة سهله
تروى الحجيج زغلة فزغله (٢)

وكان عبد شمس يرى ان حفر الآبار من مقومات المجد والسؤدد فهو حينما حفر (خما ورما) رأى ان المجد قد تم له ، قال : (٣)

---

١ — فتوح البلدان — البلاذري ١/٦٤ بيروت .

٢ — المصدر السابق ١/٦٥ ومعنى زغلة فزغلة ، أي دفعة بعد دفعة .

٣ — المصدر السابق ١/٦٥ .

حفرت خما وحفرت رما   حتى ارى المجد لنا قد تما

ولما حفرت بنو أسد بن عبد العزى بئر (شفيه) قال الحويرث ابن اسد يشيد بعذوبة مائها وغزارته : (١)

ماء شفية كماء المزن   وليس ماؤها بطرق أجن

واذا كان الحويرث هذا قد شبه ماء بئرهم بماء المزن في غزارته فان اميمة بنت عميلة بن السباق، بن عبد الدار قد شبهت ماء بئرهم (أم احراد) التي حفرها قومها بالبحر في عظمته وكثرة مائه اذ قالت : (٢)

نحن حفرنا البحر ام احراد   ليست كبذر النزور الجماد

وهي – بهذا – تعرض ببئر (بذر) التي حفرها بنوها وتصفها بقلة الماء . فأجابتها صفية بنت عبد المطلب بقولها :

نحن حفرنا بذّر   تروى الحجيج الاكبر

من مقبل ومدبر   وأم احراد بشر

فيها الجراد والذر   وقذر لا يذكر [٣]

وقال قائل بني جمح عند حفرهم (السنبلة) :

نحن حفرنا للحجيج سنبله   صوب سحاب ذو الجلال انزله [٤]

وهم – كما فعل بنو أسد – قد شبهوا ماء بئرهم بماء المطر ، في حين راح بنو عدى يشبهون ماء بئرهم بماء البحر متابعين في ذلك بني عبد الدار . قال شاعرهم :

---

١ – فتوح البلدان – البلاذري ٦٦/١ .

٢ – المصدر السابق ٦٦/١ .

٣ – فتوح البلدان – البلاذي ٦٦/١ .

٤ – فتوح البلدان – البلاذرى ٦٦/١ .

نحن حفرنا بئرنا الحفيرا   بحراً يجيش ماؤه غزيرا (١)

وبكثرة الماء وغزارته راح بنو سهم يصفون بئرهم (الغمر)

قال بعضهم :

نحن حفرنا الغمر للحجيج   تثج ماءً أيما ثجيج (٢)

وهذه الابار الواسعة تزداد سعة كلما كثر استقاء الناس منها ،

قال الراجز مشيراً الى ذلك وقد انشده الفراء : (٣)

فصبحت قليـذماً هموما   يزيدها مخج الدلا جموما (٤)

مما تقدم من الرجز يظهر انهم كانوا يرون في البئر :

١ ـ انها ذات أثر كبير في حياتهم بحيث عدوها من مقومات المجد .

٢ ـ انها تطفىء لهاب الحرة وتنقع غلة الصادى .

كما كانوا يريدون في البئر صفات مهمة منها :

١ ـ كثره الماء وغزارته .

٢ ـ عذوبته وحلاوته .

٣ ـ نظافته وخلوه من الشوائب .

كانت هذه نظرة العربي الى البئر والدلو ، أما نظرته الى المائح الذي يخرج الماء من البئر ويسقي منه الناس والماشية ، فلم تكن بأقل من تلك النظرة العظيمة ، اذ أنه الواسطة التي تمدهم باسباب الحياة ، ولهذا فقد كانوا يستبشرون اذا كان المائح سريعاً في عمله انشـد

١ ـ فتوح البلدان ـ البلاذري ٦٧/١ .

٢ ـ لسان العرب ـ مادة (جبب) .

٣ ـ امالي القالي ٩٠/٢ بيروت .

٤ ـ القليذم ، البئر الغزيـرة ، والدلا : جمع دلاة ، ومخجت بالدلو ، اذا جذبت بها لتمتلىء .

ابن الاعرابي : (١)

تبشري بمــــانح ألوب مطرح لدلوه غضوب (٢)

وكان كثير من هؤلاء المانحين كراماً ماجدين ليسوا بفقراء معدمين أو بمزقي الثياب ، قال الراجز وهو يمتح بدلوه : (٣)

علقت يا حارث عند الورد بجابىء لارفل التردى (٤)
ولاعيي بابتناء المجد

وربما افتخر هؤلاء المانحون بعملهم هذا مصحوباً بصفة اخــــرى عزيزة عليهم . وهي صفة الشجاعة والفروسية ، من ذلك افتخار ناجية بن جندب السلمي . ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما نزل بالحديبية لم يجد في آبارها ماء فانزل ناجية في احداها بسهم له ليغرزه في جوفها ، ففاض الماء ، واخذ ناجية يسقي المسلمين وهو في بئر فأقبلت عليه جارية من الانصار ، وقالت له :

يا ايها المائح (٥) دلوى دونكا اني رأيت الناس يحمدونكا
يثنون خيراً ويمجدونكا

فقال ناجية وهو في القليب يميح الناس :

---

١ ـــ لسان العرب ٢/١٥ بيروت .

٢ ـــ رجل الوب : سريع اخراج الدلو .

٣ ـــ البيان والتبيين ـ الجاحظ ١/١٩ ط ٣ السندوبي .

٤ ـــ الرفل : خرق في اللباس . والتردى : لبس الرداء .

٥ ـــ المائح : الذي ينزل في البئر اذا قل الماء فيملأ الدلو ، وهو من الفعل ماح يميح . فاما المانح : فهو الذي يقوم على رأس البئر فيجذب الدلو ، وهو من الفعل : متح يمتح .

قــد علمت جاريـة يمانيه أني أنا المائح واسمي ناجيه
وطعنة ذات رشاش واهيــه طعنتها عند صدور العادية (١)

وهكذا كان المائح يتصف بالقوة والحيوية بحيث يستطيع تحمل مشقات عمله ، اما من لم يتصف بذلك فليس أهلاً للقيام بمثل هذا العمل قال الراجز : (٢)

خــذها واعط عمك السجيله ان لم يكن عمك ذا حليله (٣)

والانعام كالانسان تحب المائح وترنو اليه ، لأنه هو الذي يسقيها الماء ويروى عطشها ، فهي حينما تعطش يكون طلبها للماء سجعا ، أي انها تخاطب المائح بلغة اللهفان ، قال الراجز : (٤)

يا ايها الساقي القليل ذامه افرغ لورد قد دنا سوامه
تقدمــه اذرعه وهامه عجم اللغات انما كلامه
تجاوب بالسجع أو أرزامه

والانعام حينما ترى المائح تعرف أنه هو الذي ينقع غلة عطشها وينجيها من ألم الظمأ القاتل ، ولهذا فهي عندما تلاقيه تتهيأ لشرب الماء ، وتأخذ بتحريك اشداقها ، قال الراجز : (٥)

---

١ ــ تاريخ الامم والملوك ــ الطبري ٢/٢٧٣ م . الاستقامة ، وذكر القالي في اماليه ٢/٢٤٤ أبيات الجارية الانصارية فقط .

٢ ــ سمط اللالي ــ البكري ١/٩٧ تحقيق عبد العزيز الميمني .

٣ ــ دلو سجيلة : أي ضخمة ، والحليلة : الزوجة .

٤ ــ أراجيز العرب ــ البكري ص ٩٧ .

٥ ــ الحيوان ــ الجاحظ ٦/٤٤٩ هارون .

لما رأين ماتحاً بالغرب   تخلجت اشداقها للشرب (١)
تخلج اشداق الضباع الغلب

وكان بعض الماتحين يسخرون رجزهم التعبير عما يدور في خلدهم من مقاصد ، ويقرنون هذا الرجز بعملية المتح ، كالذي مر بنا في قصة بني ضرار حينما أرادت امهم ان تتزوج .

وعلى هذا النحو راح الرجز يعالج غرض المتح . وقد استأثر الرجز دون غيره من البحور في معالجة غرض المتح ، ذلك لان حركات بحر الرجز تلائم وتوافق الاعمال التي تتصف بالحركة والاضطراب . فبحر الرجز – اذن – اصلح من غيره في المتح .

٣ – الصيد

والصيد فن آخر اقتصر على الرجز أو كاد ، وحينما اقول هذا ، لا اعني به أن القصيد لم يعالج وصف الصائد وآلاته وصيده . انما اعني أن الشعر الذي كان يستعمله الصائد في اثناء عملية الصيد كان رجزاً ، ذلك لأنه اطوع للبديهة واصلح للأرتجال ، واقدر على تصوير خلجات الصائد وحركاته ، اذ كان الصائد يتغنى – وهو يرمي بسهمه أو يرسل كلبه أو يطلق عقابه – برجز يذكر فيه مقدرته على اصابة الهدف ، أو يذكر فيه شجاعة كلبه في اقتناص صيده أو ما الى هذه الامور .

لقد عرف العرب الصيد قديماً ، وكانوا يستعينون فيه بالكلب السلوقي دون سواه من الكلاب ، وقد روى أن كليب بن ربيعة أول عربي استعمل السلوقي للصيد ، وأول صياد أشتهر في الاسلام

---

١ – تخلج : اضطرب وتحرك .

هو يزيد بن معاوية . (١)

وقد عالج الصائدون في رجزهم هذا آلات الصيد وادواته وماكانوا يستعملون فيه من طير وحيوان . فكانت ـ القوس وهي اهم سلاح يستعينون به في صيدهم ـ موضعاً للفخر بها والاشادة بقوتها . قال العكلي يصف قوساً تميزت بالصبر والجزع الذي يمثله رنينها بعد اطلاق السهم ، فهي تطاوع مرة وتمتنع اخرى : (٢)

في كفه معطية منوع   موثقة صابرة جزوع

وقال أبو النجم العجلي يصف صائداً في يده قوس كبداء : (٣)

وفي اليد اليسرى على ميسورها   نبعة قد شدّ من توتيرها

كبداء قعساء على تأطيرها (٤)

ومن اوصافهم لحيوان الصيد قول الاسود بن يعفر مخاطباً كلبته التي ينعتها بالعقاب وذلك حينما رأى وعلاً مسناً في الجبل ،فمناها بان تكون حصتها من الفريسة الرأس والاكرع والاهاب : (٥)

قد قلت لما بدت العقاب   وضمها والبدن الحقاب (٦)

جدى لكل عامل ثواب   الرأس والاكرع والاهاب

---

١ ــ تاريخ العرب (المطول) ـ فيليب حتى وزميله ٢٩٦/٢ ط ٢ .

٢ ــ البيان والتبيين ـ الجاحظ ١٤٩/١ هارون .

٣ ــ اللسان ـ مادة (قعس) وقوس كبداء : اذا ملأ مقبضها الكف .

٤ ــ القعس في القوس : نتوباطنها من وسطها ودخول ظاهرها .

٥ ــ اللسان ـ مادة (بدن) : وامالي القالي ٢٩٤/٢ ، مع عدم ذكر البيت الاول .

٦ ــ البدن : الوعل المسن ، والحقاب : الجبل .

وكان الصيادون يخرجون الى الصيد قبل طلوع الشمس ، حين تكون الحيوانات قابعة في اماكن نومها ، وبذلك يسهل اصطيادها . قال الراجز يذكر خروجه للصيد في هذا الوقت المبكر : (١)

قد اغتدى قبل طلوع الشمس   للصيد في يومٍ قليل النحس
باحجن الخطم كمي النفس (٢)

وكانوا يتربصون للصيد ويتخذون له مواضع خاصة ، لكي يتمكنوا من السيطرة على صيدهم ، قال احد الرجاز يصف قانصا يتربص بفريسته عند مشرب الماء : (٣)

ظل يصاديها دوين المشرب   لاطٍ بصفراء كتوم المذهب (٤)
وكل جشءٍ من فروع السبسب (٥)

ولرؤبة بن العجاج ارجوزة بديعة نقل لنا فيها وصفا رائعا لحالة

---

١ ــ النوادر في اللغة ــ الانصاري /٥١ .

٢ ــ الحجن : اعوجاج الشيء ، وكل متعقف يسمى احجنا (اللسان مادة ــ حجن) والخطم من كل دابة : مقدم انفها وفمها كالكلب والبعير . وقال أبو عمرو والشيباني : الانوف يقال لها المخاطم (اللسان) مادة ــ خطم) والكمي : المستتر ، واظنه يقصد به كلب الصيد .

٣ ــ اللسان ــ مادة (سبسب) .

٤ ــ لاط : التصق ، اراد لائطا ، فابدل من الهمزة يــاء وجعلها من باب قاض للضرورة .

٥ ــ الجشء : القضيب ، وقوس جشء : مرنة خفيفة ، وفي الصحاح : الجشء القوس الخفيفة ، وقال الليث : وهي ذات الارنان في صوتها (اللسان ــ مادة جشأ) والسبسب : شجر يتخذ منه السهام .

الصائد وهو يختبيء في بيت بناه خفي المدخل ليس بقريب من ممر الفريسة فتنفر منه ، ولا هو ببعيد فلا تصل اليها السهام : (١)

وقد بنى بيتـــا خفي المنزبق مقتدر النقب خفي الممترق (٢)
رمساً من الناموس مسدود النفق مضطرماً كالقبر بالضيق الازق
أسسه بين القريب والمعق اجوف عن مقعده والمرتفق (٣)

ويذكر انه بات في هذا المكان الضيق حتى ابصر وحشا فصمت وسكت لئلا يشعر به الصيد حتى انه لو مضغ حنظلا لما بصقه ، وذلك حرصاً منه على عدم نفور الوحش :

فبات والنفس من الحرص الفشق في الزرب لو يمضغ شريا مابصق (٤)
لما تسوى في ضئيـــل المندمق وفي جفير النبل حشرات الرشق (٥)
ساوى بايديهن من قصد اللمق مشرعة ثلماء من سيل الشدق (٦)

وقد جاء هذا الصيد يطلب الماء والليل ما زال يخفي الشخوص .

---

١ ــ شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ص ٨٠ ، ومجموع اشعار العرب ص ١٠٧ .

٢ ــ المنزبق : الدخول ، وخفي الممترق : أي من حيث يمرق منه : أي حيث يخرج منه .

٣ ــ يقول : ليس بقريب ولا عميق هو بين ذلك ، واجوف عن مقعده : اذا قعد تجافى عنه . واذا اتكى تجافى ايضا .

٤ ــ الفشق : المنتشر المتباعد ، والشرى : الحنظل ، يقول : بات هذا الصائد في القترة ، وهي الناموس والزرب أيضاً ، وقد أبصر وحشاً فانتشرت نفسه وسكت مخافة ان يسمع الصيد صوته فلو مضغ شريا ما بصق .

٥ ــ ضئيل المندمق : صغير المدخل ، حشرات الرشق : أي رشيقات .

٦ ــ اللمق : متن الطريق ، الشدق : اعوجاج في الوادي .

وكان الصيد يقشعر ويحرك اذنابه خوف الهلاك :

فجئن والليل خفي المنسرق   اذا دنا منهن انقاض النقق (١)
في الماء والساحل خضخاض البثق   يصبصن واقشعررن من خوف الزهق (٢)
يمعصن بالاذناب من لوح وبق   حتى اذا ما كن في الحرم المهق (٣)

ولما شربن الماء ، وابتلت نواحيهن دعا رب الفلق موسوسا في سره ليمكنه من الصيد ، ثم اخذ يروز احداهن ويتفحص صلابتها :

وبل برد الماء اعضاد اللزق   وسوس يدعو مخلصا رب الفلق (٤)
سرا وقد أون تأوين العقق   فارتاز عير سندرى مختلق (٥)
لو صف ادراقاً مضى من الدرق   يشقى به صفح الفريص والأفق (٦)

---

١ ـ خفي المنسرق : أي من اراد ان يختفي فيه البسه ، والنقق : الضفادع .

٢ ـ خضخاض البثق : اذا انبثق فماؤه يتخضخض يصبصن : حركن اذنابهن والزهق : الهلاك .

٣ ـ اللوح : العطش ، والبق : البعوض ، الحوم : الكثير ، والمهق : الابيض .

٤ ـ اعضاد اللزق : يقول : عطش فالتصقت رئاتهن فلما شربن ابتلت نواحيهن اي ما التزق من العطش .

٥ ـ الأون : العدل ، شبه بطونها بالاعدال ، والعقق : التي قد عظم بطنهـا ودخلت في عشرة اشهر ، وارتاز : أي رازه فغمز متنه لينظر الى صلابته والسندرى : الازرق ، والمختلق : التام .

٦ ـ لو صف ادراقا : يقول : لو صف بهذا السهم لانفذها ، ويقول : هـذا السهم . يصيب الفريص ، والفريصة : هي اللحمة التي فوق الجنب مما يلي الكتف والافق : الجلود .

ومتن ملساء الوتين في الطبق   فما اشتلاها صفقة للمنصفق (١)

حتى تردى اربــــع في المنعفق   باربع ينزعن انفاس الرمق (٢)

ترى بها من كل مرشاش الورق   كثمر الحماض من هفت العلق(٣)

وبعد ان اصطاد بعضهن ، وضرجهن بدمائهن ، انصاع الباقي وجد في الهرب لينجو من سهام الصائد :

وانصاع باقيهن كالبرق الشفق   ترمي بايديها ثنايا المنفرق (٤)

وقد اشتهر بنو وحفة الفهر بالقنص ، وبمهاراتهم في رمي الفريسة واصابة الهدف يذكر لنا ذلك رجز الفضيل بن صبح العتكي من ابيات يقول فيها : (٥)

قد اغتدي حين الصريم الاورق   مغلساً وقد اضاء المشرق (٦)

---

١ ــ ومتن ملساء الوتين : يقول : رماه على ملس متنه ، وهو الموضع الذي رماه بالسهم ، والطبق : الفقار كل واحدة طبقة ، وصفقه : صرفه اياها عن الرامي ، يقول : لم ينجه صفقه اياها ان اصابها السهم .

٢ ــ المنعفق : الموضع حين ينعفق : أي يرجع وينزعن : أي يتنفس من هذه الرميات .

٣ ــ الورق : قطع الدم ، يقول : يخرج من كل موضع رمية مرشاش رمية ترش الدم ، وثمر الحماض : ابيض فيه حمرة ، شبه خروج الزبد مع الدم به ، والهفت : السقوط .

٤ يقول : دخلت فيها ثم انفلتت فجعلت ترمي بانفسها في الثنايا لتجوز وتنجو الى الفضاء ، المنفرق : حيث ينفق الطريق .

٥ ــ معجم الشعراء ــ المرزباني ص ١٨٧ .

٦ ــ الصريم : الليل أو القطعة منه ، الاورق : الذي لونه لون الرماد ،الغلس ظلمة آخر الليل .

معي ثماني كلبات نسق — آنفها كطرفها أو اصدق

وهم عبني طوال عنق — يسكنه كاذى البضيع سوهق

ازكى له المربع رعي مونق — ومشرب في الصيف لا يرنق

يقول : أنه غدا في آخر الليل وقبل ان تظهر علائم الصباح ومعه ثماني كلبات مدربات انوفها تهديها الى الفريسة .

وقد اشركوا الفهود في صيدهم ، فكانوا يدربونهن على ذلك تدريباً جيداً ، ولأبي النجم العجلي أرجوزة يصف فيها فهود عبد الملك ابن بشر بن مروان وكيف يخضعن فريستهن ، قال (١) :

أنا نزلنا خير منزلات — بين الحميرات المباركات

في لحم وحش وحباريات — وان أردنا الصيد ذا اللذات (٢)

جاء مطيع بمطاوعات — علمن أو قد كن عالمات

فهي ضوار من مضريات — تريك آماقاً مخططات

سوداً على الاشداق سائلات — تلوى باذناب موقفات

حتى اذا كن على المجرات — حيث تظن الوحش آخذات

قال : أاستن بنازلات — فسكر الطرق بمطرقات (٣)

---

١ — الشعر والشعراء ٢/٥٠٥ والاغاني ١٠/١٦٠ وزارة الثقافة والارشاد ، مع زيادة ونقص في رواية كل منهما .

٢ — حباريات : مفردها حبارى : وهو طائر يضرب به المثل في البلاهة والحمق ،

٣ — هذه روايه الشعر والشعراء ، اما صاحب الاغاني فقد رواها على النحو التالي :

(فسكن الطرف بمطرفات)

ثم حدون الوحش مقبلات فواثبتهن حشمـــرات
فلو تـرى التيوس مضجعات علمت أن ليس بسالمات
اقول اذ جئن مذبحات على الاكافين معـدلات [1]
ما اقرب الموت من الحياة

ألا ترى الى هذه اللوحة الفنية الجميلة التي يرسمها لك هـذا الراجـز للمعركة التي تدور بين الفهود والتيوس ، والتي وقعت فيهـــا التيوس فريسة للفهود بعد معركة ضارية .

وحينما نقرأ قصة محارب بن قيس الكسعي [2] نجد أن الرجـز هو الذي اسعفه في التعبير عن احاسيسه وتصوير مشاعره في تلـك اللحظات الآنية ، ذلك أنه ابصر نبعة فأعجبته ، فجعل يتعهدهـا ، حتى اذا أدركت قطعها وصففها ، واخذ ينحت بها ليتخذها قوسـاً له ، فكان يقول وهو ينحت بها :

يارب وفقني لنحت قوسي فانها من لذتي ونفسي
وانفع بقوسي ولدي وعرسي انحتها صفراء مثل الورس
صفراء ليست كقسي النكس

أن هذا الرجز يصور لنا طريقة صنع القوس واعدادهـا للصيـد وغيره ثم المراحل التي تمر بها صناعة القسي . ثم دهن القوس وخطمها [3] بوتر ، ثم عمد الى ما كان من برايتها فجعل منه خمسة اسهم ، فجعل يقلبها في كفه ويقول :

---

١ ـــ الاكاف : شبه الرحل والقتب .
٢ ـــ وردت هذه القصة في المحاسن والمساوىء ـ البيهقي ٤٨٣/١ مطبعة النهضة .
٣ ـــ خطم القوس بالوتر : علقها .

هن وربي اسهم حسان تلذ للرامي بها البنان
كانما قومها الميزان فابشروا بالخصب يا صبيان
أن لم يعقني الشؤم والحرمان

وهذا الرجز يعطينا فكرة عن طريقة عمل السهام ونحتها وتهيئتها للصيد أو القتال :

وبعد ذلك خرج فأتى موارد حمر الوحش فكمن فيها ، فمر قطيع منها فرمى عيراً فامخطه : (١) السهم حتى جازه واصاب الجبل فاورى ناراً ، فظن أنه اخطأ ، فقال :

اعوذ بالله العزيز الرحمن من نكد الجد معاً والحرمان
مالي رأيت السهم بين الصوان يوري شراراً مثل لون العقبان
فأخلف اليوم رجاء الصبيان

ثم مكث على حاله ، فمر به قطيع آخر ، فرمى عيراً منها فأمخطه السهم فصنع صنيع الأول ، فقال :

ما بال سهمي يوقد الحباحبا قد كنت ارجو ان يكون صائبا(٢)
وامكن العير وابدى جانبا فصار رأيي فيه رأياً خائباً

ومكث مكانه ، فمر به قطيع آخر ، فرمى عيرا منها فأصرد (٣) السهم فصنع صنيع الأول ، فقال :

أبعد خمس قد حفظت عدها احمل قوسي واريد ردها
اخزى الاله لينها وشدها والله لاتسلم عندي بعدها
ولا أرجي ماحييت رفدها

---

١ ــ مخط السهم : نفذ .

٢ ــ الحباحب : ما اقتدح من شرر النار من تصادم الحجارة .

٣ ــ أصرد السهم : اخطأ .

ثم عمد الى القوس فضرب بها حجراً فكسرها ، ثم بات ، فلما أصبح اذا الحمر مطرحة حوله ، وأسهمه مضرجة بالدم ، فندم على كسر قوسه وشد على ابهامه فقطعها ، وانشأ يقول :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني اذاً لقطعت خمسي

تبين لي سفاه الرأي مني لعمر ابيك حين كسرت قوسي

ومن هنا راح يضرب بندامته المثل ، فقد قال الفرزدق حين ندم على طلاق زوجته نوار :

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار

وهكذا كان الرجز ميداناً فسيحاً للصيادين يخوضون فيه متى شاءوا ، فيجدون منه تلبية ومطاوعة ، فيصفون به مهاراتهم في الصيد وقوة آلاتهم ومتانتها ، ومقدرة حيواناتهم التي ترافقهم في اثناء الصيد وحسن تدريبها ، ثم يصفون فريستهم وكبرها وكثرة لحمها .

وقد كان لابي نخيلة الراجز أراجيز في الطرد تناول فيها وصف الصيد وما يقوم به الرامي من ملاحقة فريسته ومطاردتها ، ثم الانقضاض عليها واصطيادها ، ومن هذه الاراجيز لاميته التي يقول فيها : (١)

فانصاع يسعى بالصعيد الهابل يلحن من ذي ميعة معاجل (٢)

حتى دنا من وهج القساطل من ذات زق ساقط الحمائل (٣)

فاختلفا تحت جناح المائل بضربة حديثه في الصاقل

منقوشة الرقين والحفائل فهو مقيط كمقاط الفابل

---

١ ــ طبقات ابن المعتز ص ٢١ نشر عباس اقبال .

٢ ــ ميعه الفرس : أول جريه .

٣ ــ القساطل : الغبار الساطع في الحرب ، وقساطل الخيل : اصواتها .

وفي العصر العباسي عالج كثير من النوابغ الطرديات ، مثل الفضل ابن عبد الصمد الرقاشي وأبي نواس والناشيء الاكبر وابن المعتز وابي فراس الحمداني وغيرهم ، فوصفوا بها القنص وحوادثه وجوارح الصيد مثل الكلاب والفهود وما الى ذلك .

ويذهب المستشرق نالينو (١) الى أن سبب حفظهم هذا العروض في الطرديات وصفات الحيوان ظاهر ، وهو أن هذا النوع من الشعر كان أصله بدوياً ، ومضمونه اقرب الى احوال أهل الوبر منه الى عيشة سكان المدن وأهل الحضر .

فمن هذه الاراجيز قول ابي نواس في احدى طردياته : (٢)

لما رأيت الليل منشق الحجب	عن سائل الغرة مشهور النقب
نازلت عصم الوحش عنا عن كثب	من كل احوى اللون مبيض الذنب
يهتز عند الشد بل والمنجذب	هزك بالكف حساما ذا شطب
كانما يطرف من بين الهدب	بجمرتي نار بكف محتطب
ما كان الا جولة الاروى الشغب	ووثبة التيس باقراح الحدب
حتى انثنى مختضبا وما خضب	من مغرز الزور الى عجب الذنب

وبمثل هذه الصور راح الرجاز يسخرون بحر الرجز في طردياتهم التي شملت كل ما يتعلق بالصيد ، فوصلتنا اراجيز جميلة في القنص والصيد وكان بحر الرجز صاحبها ومالكها .

---

١ — تاريخ الآداب العربية — نلينو ص ١٩٢ .

٢ — ديوان ابي نواس ص ١٠٦ دار صادر — بيروت .

ونستطيع ان نستخلص من هذه الطرديات بعض النقاط البارزة التي كانت تتمثل في صيدهم او التي كان يراعيها الصائد وهي :

١ ــ انهم كانوا يختارون الوقت الملائم للصيد وهو آخر الليل ، حين تكون الحيوانات رابضة في مكامنها ، او حينما تذهب الى موارد المياه لترتوي منها .

٢ ــ كانوا يتخذون اماكن خاصة مستورة يختبئون فيها ، وتكون هذه الاماكن في الغالب قريبة من موارد المياه او على الطريق الذي يؤدي الى هذه الموارد او الذي تمر منه الحيوانات مروحة أو غادية .

٣ ــ كانوا يستعينون في صيدهم بالكلاب السلوقية والمدربة على ذلك لتساعدهم على اقتناص الفريسة ومنهم من كان يدرب الفهود ويستعملها لهذا الغرض .

٤ ــ لقد كانوا يطاردون الوحوش وهم يمتطون الخيول ويعتلون صهواتها ذلك لانهم لا يستطيعون الركض طويلا وراء الحيوان فيستعملون الحصان ليؤدي لهم هذه المهمة .

٥ ــ كانت السهام اهم الاسلحة التي يستعملونها في اثناء صيدهم ففي هذه السهام ميزات خاصة في صيد الفريسة لا تتوفر في غيرها من آلات الصيد التي كانوا يستعملونها آنذك .

هذه هي ، الامور المهمة البارزة التي كانت تتمثل في صيدهم والتي نقلها لنا الرجز بتلك الطرديات البديعة .

وبعد ، فان المتح والصيد والحداء أهم الأغراض التي اقتصرت على الرجز او ان بحر الرجز كان اكثر استعمالا فيها ، ومن هنا كانت شهرته واسعة من حيث استعماله في هذه الاغراض .

على ان هناك اغراضا اخرى كان الرجز هو المستعمل فيها كثيرا ، من ذلك مثلا الاراجيز القصيرة في تلعيب الاطفال وترقيصهم والغناء لهم برجز تناولوا فيه وصف ومدح هؤلاء الاطفال .

الباب الثالث

اشهر الرجاز

أطلق لفظ (الراجز) على كل من اكثر النظم في بحر الرجز أو أقتصر عليه ، وكان معنى (الراجز) هو ذلك الشاعر الذى يتعاطى نظم الاراجيز فيختص بها أو يكثر منها ، ذلك لأنهم كانوا يرون ان الشعر نوعان : رجز وقصيد ، فالذي يتعاطى الرجز يسمى راجزا والذي يتعاطى القصيد يسمى مقصدا ، امـا لفظ الشاعر فانه عام يطلق على الفريقين .

واذا بحثنا في نظم الشعراء القدامى وجدنا فريقـا منهم يقول القصيد ولا يستطيع مجاوزته الى الرجز ، وامثال هؤلاء كثيرون لا داعي لذكر واحد منهم ، ورأينا فريقا منهم على العكس من ذلك يقولون الرجز ولا يستطيعون مجاوزته الى القصيد وامثال هؤلاء العجاج وابنه رؤبة ودكين الفقيمي . اما الفريق الثالث فهم الذين يقولون القصيد مع شيء قليل من الرجز ، اي ان نظم القصيد هو الصفة الغالبة عليهم ، ومن هـذا النموذج الاخطل والفرزدق والبعيث ، وهؤلاء ــ كما يسميهم

المستشرق نلينو — (١) اصحاب ارجاز لا اراجيز (٢) . على ان في هذا الفريق من يكثر من الاراجيز ويطيلها مع انه مشهور بتعاطي القصيد ، وامثال هؤلاء ذو الرمة وجرير وبشار بن برد . واما الفريق الرابع فهم الذين تغلب اراجيزهم على قصيدهم ، ومن هؤلاء حميد الأرقط وابو النجم العجلي وابو نخيلة السعدي والشمردل بن شريك اليربوعي .

والى هذه الاقسام الاربعة اشار الجاحظ بقوله (٣) : (وفي الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد الى الرجز ، ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز الى القصيد ، ومنهم من يجمعهما) .

وفي هذا الباب سأبحث عن اشهر الرجاز الذين تخصصوا بالرجز ثم أولي العجاج ورؤبة عناية اكبر لأنهما اشتهرا بكثرة اراجيزهما وطولها وقوة سبكها ، كما اشتهرا بتمكنهما من فنهما وعدم النظم في غيره ، كما انهما قدما للرجز خدمة كبرى حتى جعلاه يطاول القصيد .

١ — الاغلب العجلي

هو الاغلب بن جشم بن عمرو من ربيعة ، قال مفتخراً بنسبه هذا :

ان سرك العز فجحجح بجشم
أي ابت بجحجاح منهم (٤) .

---

١ — تاريخ الاداب العربية — نلينو ص ١٦٧ — ١٦٨ .

٢ — ارجاز — على وزن افعال — وهو جمع قلة ، واراجيز — على وزن افاعيل — وهو جمع كثرة من صيغ منتهى الجموع .

٣ — البيان والتبيين — الجاحظ ١/٢١٥ السندوبي .

٤ — الشعر والشعراء ٢/٥١١ ويقال : ان هذا القول في جشم بن الخزرج .

توفي الاغلب سنة احدى وعشرين للهجرة (١) . وقال ابن قتيبة : (٢) انه عاش تسعين سنة . ومن هنا نستطيع ان نستنتج انه ولد سنة تسع وستين قبل الهجرة .

وهو شاعر مجيد عاش في الجاهلية وادرك الاسلام فأسلم ، ويقال : انه حسن اسلامه ، وهاجر ، ثم كان فيمن سار الى العراق مع سعد بن ابي وقاص ، فنزل الكوفة واستشهد في وقعة نهاوند ، وقبره بها مع قبور الشهداء (٣) . وهو آخر من عمر في الجاهلية عمرا طويلا (٤) .

ويقال عنه انه اول من رجز الاراجيز الطوال من العرب . واياه عنى العجاج بقوله مفتخراً :

اني انا الاغلب اضحى قد نشر (٥)

وقال ابن حبيب : كانت العرب تقول الرجز في الحرب والحداء والمفاخرة وما جرى هذا المجرى فتأتي منه بابيات يسيرة ، فكان الاغلب اول من قصد الرجز ثم سلك الناس بعده طريقته (٦) .

وذكر ابن قتيبة انه اول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله ، وكان الرجز قبله انما يقول الرجل منه البيتين أو الثلاثة اذا خاصم أو شاتم

---

١ ــ تاريخ اداب اللغة العربية ــ جرجي زيدان ١٤٣/١ والاعلام ٣٣٩/١ .

٢ ــ الشعر والشعراء ٥١١/٢ .

٣ ــ الاغاني ١٨ / ١٦٤ ساسي ، واسد الغابة ــ ابن الاثير ١ / ١٠٥ م الاسلامية بطهران .

٤ ــ سمط اللآلي ــ البكري ص ٨٠١ .

٥ ــ الاغاني ١٦٤/١٨ ساسي والشعر والشعراء ٥١١/٢ .

٦ ــ الاغاني ١٦٤/١٨ ساسي .

أو فاخر (١) .

ويذهب الامدى الى انه (ارجز الرجاز وارصنهم كلاما وأصحهم معاني) (٢) وكان الأصمعي لا يقدر الاغلب حق قدره ، ولا ينزله منزلة مرموقة ، وقد سأله ابو حاتم مرة عن الاغلب : أفحل هو أم من الرجاز ؟ فقال : ليس هو بفحل ولا مفلح . قال : واعياني شعره . ثم قال الاصمعي لابي حاتم في مناسبة اخرى : ما اروى للاغلب الا اثنتين ونصفا ، فاجابه ابو حاتم : وكيف قلت نصفا ؟ قال : اعرف له اثنتين وكنت اروى نصفا من التي على القاف فطولوها : ثم قال : كان ولده يزيدون في شعره حتى افسدوه (٣) .

على ان الاغلب لم يكن كباقي الرجاز الذين قصروا نظمهم على بحر الرجز ، انما كان يجيد نظم الرجز والقصيد ، يدل على ذلك ما يروى من ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب الى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة ان استنشد من قبلك من الشعراء عما قالوه في الاسلام قال : فانطلق لبيد فكتب سورة البقرة في صحيفة ، وقال قد ابدلني الله بهذه في الاسلام مكان الشعر . وجاء الاغلب الى المغيرة فقال له :

ارجزا تريد ام قصيدا   لقد طلبت هينا موجودا

فكتب بذلك الى عمر فكتب اليه ان انقص من عطاء الاغلب

---

١ ــ الشعر والشعراء ٥١١/٢

٢ ــ المؤتلف والمختلف ــ الآمدى ص ٣٣ طبعة الحلبي ، وخزانة الادب ــ البغدادي ٣٢٣/١ والاعلام ٣٣٩/١ .

٣ ــ الموشح ــ المرزباني ص ٢١٣ المطبعة السلفية .

خمسمائة فزدها في عطاء لبيد (١) .

فهذه الحكاية تدل على ان الاغلب كان يستطيع معالجة الرجز والقصيد معا . وكان الاغلب كثير الفحش في شعره ، اذ كان يستعمل الفاظا نابية ويهجو هجاء مقذعا ، قال عنه الآمدي ان (له في المفاحشات ما ليس لشاعر) (٢) وبين ايدينا ارجوزتان من رجزه تدلان على مدى ما في رجزه من فحش وبذاء ، مما يجعلنا نقول انه لم يكن متمسكا بأوامر الدين الاسلامي وآدابه تمسكا تاما ، لانه لو كان كذلك ما سلك مثل هذا السبيل ، اسمعه يهجو سجاح لما تزوجت مسيلمة الكذاب (٣) :

قد لقيت سجاح من بعد العمى ملوحا في العين مجاوز القرى
مثل الفنيق في شباب قد أنى من اللجيميين اصحاب القرى
ليس بذي واهنة ولا نسا نشأ بخبز وبلحم ما اشتهى
حتى شتا تنتج ذفراه الندى خاظي البضيع ، لحمه خظابظا .. الخ

ثم يستمر في هذه الارجوزة مستعملاً الفاظاً نابية يأنف عن ذكرها الانسان العفيف . ولم يقف هجاؤه هذا عند سجاح ، انما كانت بينه وبين امرأة من العرب اسمها (كلبة) مهاجاة . قال يهجوها :

جارية من قيس بن ثعلبه كريمة اخوالها والعصبه
قبـاء ذات سرة مقعبه كانها حقة مسك مذهبه (٤)

---

١ ــ الاصابة ــ ابن حجر ١ / ٧١ وطبقات ابن سلام ص ١١٣ والاغاني ١٨/١٦٥ ساسي .

٢ ــ المؤتلف والمختلف ــ الآمدي ص ٣٣ .

٣ ــ طبقات ابن سلام ص ٥٧٢ والاغاني ١٨/١٦٥ ساسي .

٤ ــ القباء : الضامرة البطن مؤنث الاقب ، من القبب : وهو دقة الخصر ، والمقعبة : السرة التي دخلت في البطن وعلا ما حولها حتى صار كالقب وهو القدح المقعر من الخشب .

عكورة الاعلى رداح الحجبه　　كانها حلية سيف [1] مذهبه

الى اخر هذه الارجوزة التي ينحو فيها نحو ارجوزته المذكورة انفاً.

وكان الناس يستخفون بعض رجزه ، قال الاصمعي : كانت للاغلب سرحة يصعد عليها ثم يرتجز فقال :

قد عرفتني سرحتي وأطت　　وقد شمطت بعدها واشمطت

فاعترضه رجل من بني سعد فقال له :

قبحت من سالفة ومن قفا　　عبداً اذا مارسب القوم طفا

كما شرار الرعي اطراف السفا [2]

على أن الاغلب كانت له أشعار جيدة ، ومعان جميلة وحكم بليغة فكان رجزه يعبر عن نفس مجربة خبرت الحياة وعرفت اسرارها ، فمن حكمه المشهورة قوله : [3]

الحلم بعد الجهل قد يثوب　　وفي الزمان عجب عجيب

وعبرة لو ينفع التجريب　　والقلب لايشفى به اللبيب

وكذلك قوله : [4]

الغمـــرات ثم تنجلينـــا　　ثمت تذهبن ولا تجينا

وقوله : [5]

المرء تواق الى ما لم ينل　　والموت يتلوه ويلهيه الأمل

---

١ ـــ المكورة : المطوية الخلق ، واراد بالأعـــلى البطن والخصر ، والرداح ـ بفتح الراء ـ المرأة الثقيلة الاوراك ، الحجبة : راس الورك .

٢ ـــ الاغاني ١٨/١٦٤ ساسي وطبقات ابن سلام ص ٥٧٢ .

٣ ـــ المؤتلف والمختلف ـ الآمدي ص ٣٣ وخزانة الادب ١/٣٣٣ .

٤ ـــ الاصابة ـ ابن حجر ١/٧١ .

٥ ـــ الاصابة ـ ابن حجر ١/٧١ .

٢ ـــ العجاج

العجاج من أولئك الشعراء الذين لقبوا بسبب بيت شعر قالوه ، فهو انما لقب بهذا اللقب لأنه قال : (١)

حتى يعج عندها من عجعجا (٢)

وأسمه عبد الله بن رؤبة ، وهو من تميم ، وربما تكون نسبته الى تميم ، وهي القبيلة المشهورة التي تسكن أرض نجد في البادية (٣) ، سبباً في ايغال العجاج ومن بعده ابنه رؤبة في البداوة ، مما ظهر ذلك واضحا في أراجيزهما ، اذ أن هذا السكن اثر تأثيراً كبيراً في لغتهما وأسلوبهما وغرابة الفاظهما وخشونة كلامهما ، فقد كان أهل البادية بعيدين عن تأثير الحضارة ، فبقيت لغتهم على حالها دون أن ترق الفاظها .

يكنى العجاج أبا الشعثاء وهي ابنته ، اما سنة ولادته فانها مجهولة لاتعرف ، ولكنه على كل حال ولد في الجاهلية ، وقال الشعر فيها ، ثم اسلم ، وعاش الى أيام الوليد بن عبد الملك ففلج واقعد (٤) وتوفي نحو سنة (٩٠) للهجرة (٥) .

---

١ ـــ الشعر والشعراء ٤٩٢/٢ ، وشرح شواهد المغني ـ السيوطي ص ١٨ م . البهية ، وشرح ديوان العجاج ـ مخطوط ص ٢ و ١٠٢ .

٢ ـــ عجعج وعج واحد ، يقال عجعاج : اذا كان كثير الصياح .

٣ ـــ معجم قبائل العرب ـ كحالة ١٢٧/١ دمشق .

٤ ـــ الاعلام ٢١٧/٤ ط ٢ وشرح شواهد المغني ص ١٨ وتهذيب ابن عساكر ٣٩٤/٧ دمشق .

٥ ـــ الاعلام ٢١٧/٤ ط ٢ .

ينسب أكثر الادباء والرواة اطالة الرجز وتقصيده الى العجاج ويذهبون الى أنه أول من شبب في الرجز وذكر الديار واستوقف الركاب عليها ، واستوصف ما فيها ، وبكى على الشباب ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد ، فكان في الرجاز كامرىء القيس في الشعراء ، وقد قال بهذا الرأي ودعا اليه أبو عبيدة (١) .

اما الجمحي وغيره فزعموا أن الاغلب العجلي هو أول من طول الرجز (٢) .

وقد تابعهم في ذلك المستشرق نلينو (٣) واستند في ذلك الى أبيات للعجاج يقول فيها مفتخراً :

وان يكن امس شبابي قد حسر　　وفترت مني البواني وفتر

أني أنا الأغلب اضحى قد نشر

وقد فسر نلينو هذه الأبيات بقوله (يعني أنه احيا طريقة الاغلب) (٤) .

والحق هو ما ذهب اليه ابن رشيق اذ قال : (أول من طول الرجز وجعله كالقصيد الاغلب العجلي شيئاً يسيراً ، وكان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اتى العجاج بعد فافتن فيه ، فالاغلب العجلي والعجاج في الرجز كامرىء القيس ومهلهل في القصيد) (٥) .

---

١ ــ المزهر ٢/٤٨٤ الحلبي والعمدة ١/٩٠ السعادة .

٢ ــ العمدة ١/٩٠ والمزهر ٢/٤٨٤ .

٣ ــ تاريخ الآداب العربية ــ نلينو ص ١٦٦ .

٤ ــ تاريخ الآداب العربية ــ نلينو ص ١٦٦ .

٥ ــ العمدة ١/١٨٩ السعادة .

فالعجاج هو الذي اطال النظم في هذا البحر اطالة حقيقية ومد اطنابه ، وقد كان بارعاً في ذلك ، فجاءت أراجيزه تحمل فناً بديعاً في حسن سبكها وجودة صياغتها حتى ان من تأمل اشعاره واشعار ابنه روبة تعجب من جودة صناعتهما ومهارتهما في صوغ الاراجيز الطولى على روى صعب سالمة من الاقواء والاكفاء . (١) وربما يكون هذا هو الذي حمل يونس بن حبيب على ان يعد العجاج اشعر أهل الرجز والقصيد قائلاً : انما الشعر كلام ، فأجودهم كلاماً اشعرهم ، والعجاج ليس في شعره شيء يستطيع احد ان يقول : لو كان في مكانه غيره لكان اجود ، وذكر أنه صنع أرجوزته :

قد جبر الدين الاله فجبر

فهي نحو مائتي بيت وهي موقوفة مقيدة ، قال : ولو اطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة ، وكذلك عامة اراجيز العجاج ورؤبة (٢)

وزيادة على ذلك فان لهما التوسع العجيب في اللغة ، حيث كانا محيطين بتصريفاتها واشتقاقاتها ، حتى ان الناس راحوا يتتبعونهما ويأخذون عنهما ، قال ابن جني : (كان قدماء اصحابنا يتعقبون رؤبة واباه ، ويقولون : تهضما (٣) اللغة وولداها وتصرفا فيها غير تصرف الافحاح فيها ، وذلك لا يغالهما في الرجز ، وهو مما يضطر الى كثير من التفريع

---

١ ــ تاريخ الأداب العربية ــ نلينو ص ١٧٨ ، الاقواء : اختلاف حركة القافية . والاكفاء : اختلاف حروف القافية وتقارب مخارجها مثل الميم والنون (الموشح ص ١٥) .

٢ ــ الاغاني ١٢٤/١٨ و ٦١/٢١ ساسي والعمدة ٨٩/١ والمزهر ٤٨٤/٢ .

٣ ــ تهضمه : ظلمة (الصحاح ــ باب الميم فصل الهاء) وهظم فلانا : ظلمه وغصبه كاهتضمه وتهضمه (القاموس المحيط ــ باب الميم فصل الهاء) .

والتوليد ، لقصره ومسابقة قوافيه) (١) .

فمن تهضم العجاج للغة وتعقب الناس له ، ما ذكره الخليل من ان رجلا انشده :

ترافع العز بنا فارفنععا

فقال له الخليل : هذا لا يكون . فأجابه : كيف جاز للعجاج ان يقول :

تقاعس العز بنا فاقعنسسا

ولا يجوز لي ؟ ! (٢)

ألا ترى أن العجاج قد ظلم اللغة باستعماله وزناً مهملاً غير مستعمل . وانما سمح له ذلك لانه موغل ومتعمق في الرجز ، ولهذا لايجوز للناس الاخرين ان يقيسوا عليه وعلى امثاله من الرجاز .

أما التوليد (٣) في اللغة فان العجاج ورؤبة كانا قد قدما منه شيئاً قليلاً ، ومن امثاله تلك الكلمات الاعجمية التي عرباها والتي مر بنا قسم منها في فصول متقدمة من هذه الرسالة .

لهذا كان الناس وراء العجاج وابنه رؤبة في كل ما يقولانه ، ويكفي في ذلك ان تعلم أن يونس بن حبيب كان يستقي مفرداته اللغوية من هذين الراجزين الكبيرين .

وقد اقتدى العجاج في سائر أراجيزه بالافكار والمعاني المتعارفة

---

١ ــ الخصائص ــ ابن جني ٢٩٧/٣ .

٢ ــ الخصائص ــ ابن جني ٣٦٠/١ و ٢٩٧/٣ والشعر والشعراء ٢٢/١ .

٣ ــ رجل مولد وكلام مولد : عربي غير محض ، والمولد : المحدث من كل شيء . ومنه (المولدون) من الشعراء والادباء سموا بذلك لحدوثهم .

عند شعراء الجاهلية من أهل البادية ، فكانت الصحراء وما يلوح فيهـا ميداناً فسيحاً لوصفه وتشبيهاته ولكنه – مع هذا – استطاع الخروج على عادة القدماء في افتتاح قصائدهم بالغزل وذكر الاحبة وبكاء الديار والوقوف على الاطلال ، ثم التخلص بعد ذلك الى الاغراض التي يريدونها من مدح وهجاء وفخر ورثاء وما الى ذلك .

وقد خالفهم العجاج في هذه الطريقة واتبع أسلوباً آخر في افتتاح بعض أراجيزه ذلك أنه ابتدع مطالع دينية تضمنت حمد الله والثناء عليه ، وقد تكلمنا على هذا الموضوع باسهاب في فصل خصائص الرجز ، ولعل العجاج أول من استعمل مثل هذه المطالع الدينية .

هذا وقد كان العجاج سريع البديهة حاضرها ، فكان ينظم أراجيزه الطويلة في وقت قصير ، يحدثنا هو عن ذلك فيقول : قلت أرجوزتي التي أولها :

بكيت والمحتزن البكي

وأنا بالرمل في ليلة واحدة فانثالت علي قوافيها انثيالا . (١) .

ومثل هـذا ما رواه ابن قتيبة من أن العجاج قال أرجوزته التي فيها قوله :

حتى يعج عندها من عجعجا

في ليلة واحدة فانثالت عليه القوافي – كذلك – انثيالا . (٢)

وهذا وامثاله يعطينا فكرة جلية عن مدى تمكن العجاج من صنعته وسعة ملكته اللغوية وقوة شاعريته وسرعة بديهته .

---

١ ــــ شرح شواهد المغني – السيوطي ص ١٨ .

٢ ــــ الشعر والشعراء ٢/٤٩٣ .

وقد افرط العجاج في استعمال الغريب من الالفاظ في اشعاره مما سبب استعجامها الشديد على القارىء ، ولولا عناية صاحب الصحاح وصاحب لسان العرب وصاحب تاج العروس وامثالهم بجمع معاني كلمات اللغة العربية ، وجمع اقوال اللغويين القدماء ، لبقي كثير من الفاظ تلك الاراجيز كأنها الغاز أو طلاسم لايمكننا التوصل الى حلها وفك رموزها وفهم معانيها . (١) اذ أنه كان يعمد الى الالفاظ الفارسية فيعربها ، والى الاستعمالات الشاذة ، والكلمات غير القياسية فيدخلها في رجزه ، ولكنه كان أكثر افراطاً في استعمال الالفاظ الغريبة ، حيث كان له ولع شديد في ذلك ، ونستطيع ان نرجع ذلك الى الظروف والبيئة التي عاش فيها العجاج ، فقد انصرف الناس في ذلك العصر الى البحث عن غرائب اللغة وتدوين مفرداتها واشتقاقاتها ، فكان رجز العجاج المحشو بالغريب والصعب ملبياً لتلك الرغبة الشديدة لدى الناس عامة واللغويين خاصة .

ومن خصائص صناعة العجاج شدة ميله الى أنواع المجانسة لاسيما التجنيس المحقق أو المستوفى – كما يسميه الجرجاني – وهو الذي اتفقت فيه الحروف دون المعنى رجع الى الاشتقاق أم لم يرجع ومثال ذلك قول العجاج : (٢)

نــردها مفللاً كلابها ‍ ‍ ‍ ‍ بأسد غاب في الأكف غابها

فالغاب الأولى جمع غابة وهي الأجمة ، والغاب الثانية هي الرماح . كما كان له ميل الى استعمال الجناس المضارع أو المضارعة

---

١ – تاريخ الآداب العربية – نلينو ص ١٨٦ .

٢ – شرح ديوان العجاج – مخطوط ص ١٣٣ .

الكائنة بتقارب مخارج الحروف مع تقـــديم وتأخير أو مع زيادة أو نقصان (١) ، من ذلك مثلاً قول العجاج : (٢)

وانزف العبرة من لاقى العبر   طال الانى وزايل الحق الأشر (٣)

فالجناس هنا في كلمتي العبرة العبر ، ومنه أيضاً قوله : (٤)

خوصا يساقطن المهار والمهر   ينفضن افنان السبيب والعذر (٥)

على أن الاكثار من استعمال المجانسة يستثقل فيضر جـــودة الشعر . (٦) .

وهكذا كانت طريقة العجاج في رجزه ، حب للغريب واكثار من استعماله ، وولع في ذكر الشاذ ، واستغراق في المعاني البدوية ، حتى أصبحت هـــذه الطريقة صفة غالبة عليه وعلى ابنه رؤبة وهي اشبه شيء بصفة خاصة بهما ، لذلك راح الناس يضربون بها المثل .

روى أن أبا العتاهية قال لمحمد بن مناذر : شعرك مهجن لايلحق

---

١ ــ لقد وضح عبد القاهر الجرجاني في كتاب (اسرار البلاغة) أنـــواع المجانسة كما ذكر ذلك ابن رشيق في عمدته ٣٢٦/١ .

٢ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط ص ٤ .

٣ ــ يقول : بكوا متى نزفوا عبراتهم ، والأنى : التمكث والانتظار والتأني . الاشر : البطر .

٤ ــ شرح ديوان العجاج ــ مخطوط /٩ .

٥ ــ الخوص : الغايرات الاعين ، والخوص من الابل : التي لم تشق عيونها بعد ، المهارة : الذكارة وهو جمع مهر ، والمهر : الاناث ، افنان : نواح ، والسبيب : شعر الناصية والذنب ، والعذر : الشعرات اللواتي تحت ذفريه .

٦ ــ تاريخ الآداب العربية ــ نلينو ص ١٨٦ .

بالفحول وأنت خارج عن طبقة المحدثين ، فان كنت تشبهت بالعجاج ورؤبة فما لحقتهما ولا أنت في طريقهما ، وان كنت تذهب مذهب المحدثين فما صنعت شيئاً ، اخبرني عن قولك :

ومن عاداك لاقى المرمريسا

اخبرني عن المرمريس ما هو ؟ فخجل ابن مناذر وما راجعه حرفاً (١) .

هذه هي شهرة العجاج ، وهي شهرة واسعة اغنت رؤبة عن ذكر نسبه الطويل حينما سأله النسابة البكري قائلاً : من أنت ؟ فأجابه رؤبة : ابن العجاج . فقال النسابة : قصرت وعرفت (٢) .

على أن مهارة العجاج وتمكنه من فنه لاتعني أنه لم يقع في اخطاء طفيفة ، أو أنه لم تحدث له هفوات بسيطة . شأنه في ذلك شأن كل انسان ، اذ هو معرض للخطأ . فمن هذه الهفوات والاخطاء ما اخذ عليه في قوله :

كأن عينيه من الغؤور قلتان أو حوجلتا قارور (٣)
صيرتا بالنضح والتصبير صلاصل الزيت الى الشطور

ذلك أنه جعل الزجاج ينضح ويرشح ، وهو مما لايكون . (٤)

وكان رؤبة يأخذ على أبيه قوله :

---

١ ــ الاغاني ٣/١٦٥ ساسي ، وسر الفصاحة ــ الخفاجي ص ٧٢ مع شيء من النقص ولاختلاف .

٢ ــ التاريخ الكبير ــ ابن عساكر ٥/٣٣٢ مطبعة روضة الشام .

٣ ــ الحوجلتان : القارورتان .

٤ ــ الشعر والشعراء ٣/٤٩٤ والعقد الفريد ٥/٣٦٤ .

مبارك للأنبياء خاتم فخندف هامة هذا العالم

من أرجوزة يقول في مطلعها :

يا دار سلمى يا اسلمي ثم اسلمي بسمسم أو عن يمين سمسم

وقل لها على تنائيها عمي ظللت فيها لا ابالي لومي

ذلك أنه افرط وجاوز السناد [1] مع حذقه ، لأنه جاوز في البيتين سناداً فاحشاً حتى آخذه الناس عليه ، أما رؤبة فكان يرى هذا عيباً . [2]

ولهذا فقد عد رؤبة نفسه اشعر من ابيه ، قال ليونس : انا أشعر من أبي . فأجابه : بل أبوك أشعر منك . قال رؤبة : أبي يقول : (يادار سلمى . . . وذكر الابيات السابقة) [3]

هذه بعض عيوب بسيطة كانت تؤخذ على العجاج ، وهي — على كل حال — أقل من محاسنه بكثير .

على أن الهجاء لم يعرف عنه ولم يشتهر به ، مع انه يفتخر بحدة لسانه الذي أسكت به خصومه وأفحمهم ، يقول : [4]

اني اذا ما عصبة أنتابها ظالمة قد سرني سبابها

أصدقها الشتم ولا أهابها حتى ترى جاحرة كلابها

وسئل العجاج عن ذلك اذ قال له سليمان بن عبد الملك : انك

---

١ — السناد : عيب من عيوب الشعر ، وهو أن تؤسس بيتاً ولا تؤسس آخر . اما التأسيس فانه الف بينها وبين حرف الروى حرف متحرك .

٢ — الموشح : المرزباني ص ٢١٥ .

٣ — الموشح — المرزباني ص ٢١٥ .

٤ — شرح ديوان العجاج — مخطوط ص ١٣٣ .

لا تجيد الهجاء ! فقال : ان لنا أحلاماً تمنعنا من أن نظلم ، وأحساباً تمنعنا من أن نُظلم ، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم ؟ (١) فهو — اذن — لا يريد أن يتناول أعراض الناس بالنهش والطعن لئلا يطعن عليه أو ينتقص منه .

هذا ما يدعيه العجاج ، ولكن الحقيقة ليست كذلك . ذلك أن العجاج توهم فظن أن المدح بناء ، والهجاء هدم ، ولما كان بامكانه أن يمدح فبامكانه أن يهجو كما يدعي .

ولكنه كان مخطئاً في هذا الرأي ، اذ أن المدح بناء والهجاء بناء وليس كل من يبني بالطين باستطاعته أن يبني بالحجر أو غيره . وكذلك الشعراء فهم مختلفون في الطبع ، فمنهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء ، ومنهم من يتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل (٢) .

وقد رد ابن قتيبة (٣) على قول العجاج هذا بأن الهجاء أيضاً بناء وليس كل بانٍ لضرب بانيا لغيره ، ورده الجاحظ أيضا بأن من الشعراء من لا يجيد فناً من الشعر ، وان أجاد فناً غيره ، كما يوجد ذلك في كل صناعة ، ومعنى الجاحظ وابن قتيبة واحد ، وان اختلف اللفظان ، والصواب ما قالا إلا ان يعرف من الشاعر انف عن قدرة لاندفع ، وبعد تجربة لا تستراب فحينئذ (٤) . أما العجاج فلم تكن لديه تلك الانفة

١ — الشعر والشعراء ٢/٤٩٣ وتهذيب ابن عساكر ٧ / ٣٩٤ وشرح شواهد المغني ص ١٨ والعمدة ١/١١٢ .

٢ — الشعر والشعراء ١/٣٧ .

٣ — المصدر السابق ١/٣٧ .

٤ — العمدة ١/١١٢ .

انما حاول أن يهجو وجرب ذلك ولكنه فشل ، وخرج من هذا الميدان مندحرا ، فأعرض عن فن الهجاء لأنه لا يستطيع الاجادة فيه ، ومما يدل على قولنا هذا حادثة جعلته اضحوكة للناس ، ذلك انه خرج على ناقة له قد أجاد رحلها وعليه ثياب حسان حتى وقف بالمربد والناس مجتمعون فأنشدهم قوله :

قد جبر الدين الاله فجبر

فذكر فيها ربيعة وهجاهم ، فجاء رجل من بكر بن وائل الى ابي النجم وهو في بيته فقال له : أنت جالس وهذا العجاج يهجونا بالمربد قد اجتمع عليه الناس ! ! قال : صف لي حاله وزيه الذي هو فيه ، فوصف له ، فقال : ابغني جملا قد أكثر عليه من الهناء ، فجاء بالجمل اليه ، فأخذ سراويل له فجعل احدى رجليه فيها واتزر بالاخرى وركب الجمل ودفع خطامه الى من يقوده ، فانطلق حتى أتى المربد ، فلما دنا من العجاج قال : اخلع خطامه فخلعه ، وأنشد :

تذكر القلب وجهلا ما ذكر

حتى بلغ الى قوله :

اني وكل شاعر من البشر ... شيطانه انثى وشيطاني ذكر
فما رآني شاعر الا استتر ... فعل نجوم الليل عاين القمر
عشي تميم واصغري فيمن صغر ... وجاوري الذل واعطي من عشر
وامرى الانثى عليك والذكر ... فانما يشرب من ذل السؤر

فلما فرغ من انشادها حمل جمله على ناقة العجاج يريدها ، فضحك الناس وانصرفوا وهم ينشدون قوله : « شيطانه انثى وشيطاني ذكر » . اما العجاج فلم يجد له ملاذاً إلا الهرب (١) .

---

١ ــ الشعر والشعراء ٥٠٢/٢ والاغاني ١٥٠/١٠ وزارة الثقافة و٧٣/٩ساسي

وهكذا حاول العجاج أن يدخل سوح الهجاء ولكنه خرج منها هارباً مذعوراً ، فأراد أن يبرر موقفه هذا فادعى بأن له أخلاماً تمنعه من أن يَظلم ، وأحساباً تمنعه من أن يُظلم .

على أن هناك شيئاً يحتمل أن يكون هو الذي صرف العجاج عن هجاء الناس ، هذا الشيء هو ما ذهب اليه الشاعر بقوله :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

فربما تكون هذه العلة الخفية هي التي منعت العجاج من تناول فن الهجاء ، واظن أن هذه العلة هي عدم استطاعته الوقوف امام الشعراء وسبقهم في ميدان الهجاء ، يدل على هذا ، التهديد العنيف الشديد الذي هدد به جرير العجاج وابنه رؤبة قائلا : (يابني ام العجاج ، والله لئن وضعت كلكلي عليكما ما اغنت عنكما مقطعاتكما) (١) وكان العجاج يعتذر اليه ويحلف ويخضع ، وهذا يدل على انه لا يستطيع ان يجاريه في ميدان الهجاء .

ولو كانت للعجاج أحلام تمنعه من ان يظلم ، واحساب تمنعه من أن يظلم ، لما هجا ربيعة ، ولما كانت بينه وبين ابي نخيلة الراجز مهاجاة حيث ذكر ابن قتيبة أن أبا نخيلة كان يهاجي العجاج فلما تنافرا في شعرهما حضرهما الصبيان ، فذهب انسان يطردهم فقال العجاج : دعهم فانهم يغلبون ويبلغون (٢) .

ويلاحظ أن العجاج لم يعالج الرثاء أيضاً ، ويذهب المستشرق نلينو الى انه (عسر عليه فاستنكف منه) (٣) .

---

١ ــ الاغاني ١٨/١٢٣ ساسي وتهذيب ابن عساكر ٧/٣٩٤ .

٢ ــ الشعر والشعراء ٢/٥٠١ .

٣ ــ تاريخ الاداب العربية ــ نلينو ص ١٧٢ .

قد يكون ما ذهب اليه نلينو حقا ، ولكننا رأينا في بحثنا عن الهجاء بالرجز أن الرجز لا يوافق في حركاته السريعة المضطربة حالة الحزن والهدوء التي تخيم على الشاعر . ولهذا يضطر الشاعر الى استخدام أبحر أخرى اصلح لهذا الغرض من الرجز فيسخرونها في فن الرثاء .

على أن رأي نلينو في هذه المسألة ربما يكون أكثر صحة ، كما أنه يوافق ما ذهب اليه ابن قتيبة والجاحظ وابن رشيق بان ليس كل بانٍ لضرب بانيا لغيره .

وللعجاج ديوان رجز مخطوط مع شرحه ، ليس فيه شيء من القصيد ، وهذا الديوان موجود مع شرحه في دار الكتب المصرية بالقاهرة وقد كتب على أول ورقة منه بالخط الكبير (هذا ديوان أبي رؤبة عبد الله العجاج مع شرحه) وكتب تحت هذا العنوان بخط صغير (كان استنساخه في دار السعادة من كتبخانة المرحوم السلطان محمد الفاتح من كتاب قد وجد عليه محررا ما صورته : قد انتهى مصححا على ابن اخت الاصمعي . . . . . لكن بدون تاريخ) .

٣ ــ رؤبة بن العجاج

ورؤبة (١) كأبيه راجز مشهور قصر نظمه على الرجز ، وكان من

---

١ ــ معنى الرؤبة ــ بالهمز ــ القطعة التي يشعب بها الاناء (طبقات النحويين واللغويين ــ الزبيدي ص ٤٩ ووفيات الاعيان ٦٣/٢ وتهذيب الصحاح ــ مادة ــ رأب ــ) .

وقال ابن خلف في شرح شواهد سيبويه : قيل : سمي رؤبة لأنه ولد نصف الليل لان من معاني الروبة ــ بدون همز ــ القطعة من الليل ، يقال : روبة الليل : أي ساعة منه ، (خزانة الادب ٤٣/١) .

مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، ولكن سنة ولادته مجهولة ، اما وفاته فكانت في زمن المنصور سنة خمس وأربعين ومائة (١) .

وتوفي في البصرة كما قال الخليل ، ذلك ان يعقوب بن داود قال :

(لقيت الخليل بن احمد يوما بالبصرة فقال لي : ياأبا عبد الله دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم . فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : هذا حين انصرفت من جنازة رؤبة) (٢) .

فالظاهر من هذه الرواية أن رؤبة مات في البصرة ودفن فيها ولكن هناك رواية أخرى تقول ان رؤبة خرج من البصرة الى البادية بعد أن ظهر ابراهيم بن عبد الله بن الحسن وخرج على أبي جعفر المنصور ثم جرت الواقعة المشهورة ، فخاف رؤبة على نفسه وخرج الى البادية ليتجنب الفتنة ، فلما وصل الى الناحية التي قصدها ادركه اجله بها فتوفي هناك (٣) فهذه الرواية تناقض الرواية الاولى .

ذلك ان هذه تقول انه توفي في البادية ، وتلك تذهب الى أنه توفي في البصرة ، والمستشرق بروكلمن يرى أنه مات هارباً بعد خروج ابراهيم العلوي على بني العباس (٤) . أي أنه يؤيد الرواية الثانية ويرى أنه مات في البادية .

وكان رؤبة يجول في التجارة بخراسان أو كرمان دون أن يكون له مقر ثابت ، وانتقل أخيراً الى البصرة فأقام بها .

أما شاعرية رؤبة فكانت عظيمة ، حتى أن أبا عمرو بن العلاء

---

١ ــ معجم الادباء ، ياقوت ١٤٩/١١ مرغليوث ، ووفيات الاعيان ٦٣/٢ .

٢ ــ الاغاني ١٢٥/١٨ ساسي .

٣ ــ وفيات الاعيان ٦٣/٢ محي الدين عبد الحميد .

٤ ــ تاريخ الادب العربي ــ بروكلمن ٢٢٧/١ النجار .

يرى أن الرجز ختم برؤبة (١) . يريد بذلك انه آخر نوابـــغ الرجاز الذين قصروا نظمهم على الرجز فأكثروا منه واجادوا فيه . وقد ذهب الى مثل هذا الرأى المستشرق نلينو حينما قال : (ان رؤبة بن العجاج آخر التوابغ الذين قالوا الأراجيز الحقيقية ، أعني القصائد الجاري مضمونها على الاسلوب القديم مع انها مصوغة في بحر الرجز المشطور) (٢) .

والحقيقة أن رؤبة راجز مبدع لم يستطع من جاء بعده أن يلحق به ، فكان ابنه عقبة يقول الرجز ولكن رجزه لم يحفظ ولم يروَ ، وجاء بعد رؤبة من الرجاز محمد بن ذؤيب الفقيمي المعروف بالعماني ولكنه كان مقصرا عن مرتبة رؤبة ولم ينل ما ناله من مكانة عالية .

وقد اشتهر رؤبة بمتانة شعره وقـــوة اسلوبه وفصاحته واحاطته بشوارد اللغة واوابدها روى عن ابن عون انه قال :

(كان الحسن البصري يشبه برؤبة في فصاحة لهجته وعربيته) (٣)
واضاف ابن عون قائلا انه لا يوجد له ولا لأبيه في شعرهمـــا حرف مدغم قط . وكان يونس بن حبيب يقرن رؤبة الى أبيه ويعدهما أشعر أهل الرجز والقصيد . (٤) كما أنه كان يرى أن رؤبة عربي فصيح حتى أنه يفوق معد بن عدنان ، وقد قال هذا الكلام ردآ على شبيل بن

---

١ ـــ المزهر ٢/٤٨٤ الحلبي والعمدة ١/٨٩ السعادة .

٢ ـــ تاريخ الاداب العربية ـ نلينو /١٩٠ .

٣ ـــ المعارف ـ ابن قتيبة /٤١١ دار الكتب، والاغاني ١٨/١٢٤ و ٢١/٦٠ ساسي .

٤ ـــ الاغاني ١٨/١٢٤ و ٢١/٦١ ساسي .

عروة الضبعي الذي حاول الانتقاص من رؤبة (١) .

ورؤبة اكثر شعراً من أبيه ، وذهب البعض الى أنه أفصح من أبيه (٢) قال بروكلمن أن رؤبة أشعر من أبيه وأغزر رجزاً (٣) .

وخصائص رجز رؤبة كخصائص رجز ابيه تماماً ، اذ انه درس على أبيه وتتلمذ عليه فكان نسخة طبق الاصل له ، فكما أن العجاج اهمل تعاطي الرثاء والهجاء ، فقد كان رؤبة كذلك ، اذ احتذى حذو ابيه في اغفال تعاطي الهجاء والرثاء . والسبب في انصراف رؤبة عن الهجاء محافظته على سمعته كما يدعي ، وهي نفس العلة التي تعلل بها ابوه ، فقد قال معللاً هذا الانصراف (٤) .

انى امرؤ للناس غـــير سباب ... للقـــرب الادنى ولا للأجناب
اجتنب العيب أتقاء الاعياب ... والقول يلقي بعضه في الانباب
ماضيه امضى من حداد النشاب ... والقول ينمي بعد غب الاغباب

فهو — كما ترى — يرتأي نفس رأي ابيه ويعلل انصرافه عن الهجاء بما تعلل به ابوه ، ذلك أنه لايريد ان يظهر عيوب الناس ويتناولها بالكشف والتشهير ، لكيلا يلجأ الناس الى عيوبه فيكشفوها ، وقد كان يرى أن القول السيء يلقي صاحبه في مهلكة وعذاب ، اذ أن اثره لايمحي من الفؤاد ، فهو — اذن — حليم يحتقر الانسان الحقير ويزدريه ،

١ ـــ انظر القصة في وفيات الاعيان ٢ / ٦٣ وطبقـــات النحويين واللغويين الزبيدي / ٤٩ .

٢ ـــ الموشح — المرزباني /٢١٩ السلفية .

٣ ـــ تاريخ الادب العربي — بروكلمن ١/٢٢٧ دار المعارف .

٤ ـــ مجموع أشعار العرب ص ٥ .

يقول : (١) .

انى امروء أحقر أمر الأحقر　　حلماً واكروما بها تقدّري

على اننا نستطيع ان نقول في هذا المقام ورداً على ادعاء رؤبة ما قلناه في أمر أبيه . وقد اولع رؤبة باستعمال الغريب من الالفاظ ، حتى أن معظم أراجيزه لاتكاد تخلو من كلمات صعبة والفاظ غريبة ، ويبدو أن رؤبة كان يرى أنه من الضروري ان تحتوي أراجيزه على مثل هذه الالفاظ وتلك الكلمات ، لكي تكون مادة صالحة للنحويين واللغويين .

وكان رؤبة يقدر اشعاره تقديراً عظيماً . ويرى أن صياغته لاشعاره وسبكه لها ، انما هو من صنعة صانع ماهر قادر ، وحينما تتصفح ديوانه تجده يشيد بشعره ويمدح صنعته في اماكن عديدة من ذلك مثلاً قوله في أرجوزة مدح بها تميماً : (٢)

ما كان تحبير اليماني البراد　　يرجو وان داخل كل وصاد

نسجي ونسجي بجرهد الجداد (٣)

وقوله كذلك من أرجوزة يمدح فيها القاسم بن محمد بن القاسم الثقفي : (٤)

وقلت والأقوال مما ينبري　　كيف تراني انتحي في الدفتر

على قضيب الذاهبات الشبر　　لاينظر النحوى فيها نظري (٥)

---

١ ــ مجموع أشعار العرب ص ٦٠ .

٢ ــ مجموع أشعار العرب ص ٣٨ .

٣ ــ الجرّهد والجرُهد : السيار النشيط .

٤ ــ مجموع أشعار العرب ص ٦١ .

٥ ــ الشبر : العظيمة ، يقال : تشبر : أي تعظم ، وتقول شبره فتشبر : أي عظمه فتعظم .

وان اوى لحبيه بالتحكر وهو دهي العلم والتعبير (١)
حتى استقامت بي على التيسر

ثم قال أرجوزة يمدح بها الوليد بن يزيد ويذكر أنه لايبلغ شاؤه ولايسبق في الوصف : (٢)

قلت ولا يبلغ وصفي واصف لامدحن والمعروف عارف
بمستجدات لها طرائف لها مسير ولها مواقف
أسسها صنع بهن قائف (٣)

وقد تتبع الناس رؤبة كما تتبعوا اباه فأقتبسوا منه واستشهدوا بشعره ، وقد اخذ عنه وجوه أهل اللغة وكانوا يقتدون به ويحتجون بشعره (٤) ، ويقولون بأمامته في اللغة (٥) .

وكان بعض الشعراء يسأل رؤبة عن غريب الكلمات ثم يستعملها في شعره ، من ذلك ما حدّث به الاصمعي عن خلف قال : سمعت رؤبة ابن العجاج يقول : لقيني الكميت والطرّماح فسألاني عن الغريب ثم سمعته في شعرهما بعد (٦) وحدث المبرد قال : ذكر عن رؤبة بن العجاج أنه قال : قدمت فارس على أبان بن الوليد البجلي منتجعاً له ، فأتاني رجلان لا اعرفهما فسألاني عن شيء لبس من لغتي فلم اعرفه ، فتغامزا بي

---

١ ــ تحكر واحتكر الشيء : جمعه واحتبسه انتظارا لغلائه .
٢ ــ مجموع أشعار العرب / ١٠٢ .
٣ ــ القائف : الذي يتبع الآثار ويعرفها ، أو الذي يعرف النسب بفراسته .
٤ ــ الاغاني ٥٧/٢١ ساسي .
٥ ــ الاعلام ٦٢/٣ ط ٢ .
٦ ــ الموشح ــ المرزباني / ١٩٢ م . السلفية .

فتقبعت عليهما فهمدا ، ثم كانا بعد ذلك يختلفان فيسمعان مني الشيء فيكتبانه ويدخلانه في اشعارهما فعلمت انهما ظريفان وسألت عنهما فقيل لي : الكميت والطرماح [١] .

وربما سرق بعض الشعراء المعاني الشعرية التي تناولها رؤبة ، يحدثنا رؤبة عن ذلك فيقول : [٢] كلما قلت شعراً سرقه ذو الرمة ، فقيل له : وما ذاك ؟ قال : قلت :

حي الشهيق ميت الانفاس

فقال هو :

تطرحني بالمهمه الاغفال كل حصين لصق السربال

حي الشهيق ميت الاوصال

ثم أن رؤبة كان يقول لبلال بن أبي بردة : علام تعطي ذا الرمة فوالله انه ليعمد الى مقطعاتنا فيصلها فيمدحك بها [٣] .

وقد لجأ بعض الشعراء الى انتحال اشعار رؤبة ونسبتها الى أنفسهم حتى أنهم كانوا ينتحلون بعض أراجيزه ويمدحون بها الخلفاء والامراء والولاة وينالون اعطياتهم يروى أن أبا نخيلة الراجز دخل على عمر بن هبيرة وعنده رؤبة قد قام من مجلسه فاضطجع خلف ستر ، فأنشد ابو نخيلة مديحة له ، ثم قال ابن هبيرة : ياأبا نخيلة أي شيء أحدثت بعدنا ؟

---

١ ـــ الموشح / ١٩٢ ، كتاب الخصائص ـ لابن جني ٣ / ٢٩٧ مع اختلاف في الرواية .

٢ ـــ الاغاني ١١٦/١٦ ساسي .

٣ ـــ المصدر السابق ١١٨/١٦ .

فاندفع ينشده ارجوزة لرؤبة ، فلما توسطها كشف رؤبة الستر واخرج رأسه من تحته فقال له :

كيف أنت يا أبا نخيلة ، ألم ننهك ان لاتعرض لشعري اذا كنت حاضراً ، فاذا ماغبت فشأنك به . فضحك أبو نخيلة وقال : هل أنا الا حسنة من حسناتك ، وتابع لك وحامل عنك ، فعاد رؤبة الى موضعه فاضطجع ولم براجعه حرفاً . (١)

وكان رؤبة وصافاً للبعير ، ولكنه غير مجيد في وصف الفرس . فقد أنشد مسلم بن قتيبة قوله في وصف قوائم الفرس :

يهوين شتى ويقعن وفقاً

فقال له مسلم : أخطأت في هذا يا أبا الجحاف ، جعلته مقيدا ، فقال له رؤبة ادنني من ذنب البعير . (٢) يعني أنه اخطأ في هذا ، لأنه لايجيد وصف الفرس ، انما هو يجيد وصف البعير .

هذا وقد استدرك على رؤبة عدة أمور . واخذت عليه بعض المآخذ من ذلك مثلاً قوله : (٣)

كنتم كمن ادخل في جحر يدا   فأخطأ الافعى ولاقى الاسودا

فاخطأ في ذلك ، لأنه جعل الافعى دون الاسود وهي فوقه في المضرة .

وهناك بعض المآخذ الاخرى التي ذكرها ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٤٩٧/٢ وابن عبد ربه في العقد الفريد ٣٦٤/٥ .

ولرؤبة ديوان رجز يدور معظمه حول المديح ، وله أراجيز قليلة

---

١ ـــ الاغاني ١٥٠/١٨ ساسي .

٢ ـــ الشعر والشعراء ٤٩٦/٢ والعقد الفريد ٣٦٤/٥ .

٣ ـــ الشعر والشعراء ٤٩٧/٢ والعقد الفريد ٣٦٤/٥ .

في الفخر وفي وصف المفازة والسراب . وقد نشر وليم بن الورد ديوان رؤبة في مجموع أشعار العرب . ويوجد لديوان رؤبة شرح مخطوط كتب فيه بعد الفهرست : (هذا ديوان رؤبة بن العجاج استنسخ بالمدينة المنورة على ذمة الفقير محمود سامي الشهير بالبارودي سنة ١٢٨٩) وهذا الشرح موجود في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

ولكن الاراجيز الموجودة فيه اقل من أراجيزه التي نشرت في مجموع أشعار العرب .

٤ ـــ أبو النجم العجلي

هو الفضل بن قدامة من بني بكر بن وائل ، وهو من رجاز الاسلام الفحول المقدمين وفي الطبقة الاولى منهم . (١) وكان ابلغ في النعت من العجاج . (٢) يدل على ذلك وصفه البديع للأبل في أرجوزته المشهورة بـ (أم الرجز) والتي سنتطرق اليها بعد قليل وهو من اكابر الرجاز ، ومن أحسن الناس انشاداً للشعر . (٣) نبغ في العصر الأموي وكان يحضر مجالس عبد الملك بن مروان وولده هشام . [٤] وقد عاصر العجاج وجرت بينهما مراجزة في المربد . (٥) وكان يجتمع برؤبة ويتراجز معه ، قال عامر بن عبد الملك المسمعي كان رؤبة وأبو النجم يجتمعان عندي فأطلب لهما النبيذ فكان أبو النجم يتسرع الى رؤبة حتى

---

١ ـــ الأغاني ١٠/١٥٠ وزارة الثقافة والارشاد و ٩/٧٣ ساسي .

٢ ـــ المصدر السابق وطبقات ابن سلام ص ٥٧٦ .

٣ ـــ الأغاني ١٠/١٥١ وزارة الثقافة والارشاد و ٩/٧٣ ساسي

٤ ـــ الاعلام ٥/٣٥٧ .

٥ ـــ الشعر والشعراء ٢/٥٠٢ والاغاني ١٠/١٥٣ وزارة الثقافة والارشاد .

اكفه عنه . (١) وقال فتيان بني عجل لأبي النجم مرة : هذا رؤبة بالمربد يجلس فيسمع شعره وينشد الناس ويجتمع اليه فتيان من بني تميم ، فما يمنعك من ذلك ؟ قال : أوتحبون هذا ؟ قالوا : نعم . قال : فأتوني بعس من نبيذ فأتوه به فشربه ثم نهض وقال :

اذا اصطبحت اربعاً عرفتني   ثم تجشمت الذي جشمتني

فلما رآه رؤبة اعظمه وقام له عن مكانه وقال : هذا رجاز العرب . وسألوه ان ينشدهم فأنشدهم :

الحمد لله الوهوب المجزل

فلما فرغ منها قال رؤبة : هذه أم الرجز . (٢) كما وصفها ابن قتيبة بأنها اجود أرجوزة للعرب . (٣)

وأم الرجز هذه ، هي رائعة من روائع أبي النجم ، نظمها تلبية لرغبة هشام بن عبد الملك ، اذ قال له وللشعراء الذين معه : صفوا لي ابلاً فقطروها وأوردوها وأصدروها حتى كأني انظر اليها . (٤) فأنشده الشعراء وانشد أبو النجم (أم الرجز) وهشام يصفق بيديه من استحسانه لها . (٥) فلما بلغ قوله في صفة الشمس :

حتى اذا الشمس جلاها المجتلي   بين سماطي شفق مرعبل (٦)

---

١ ـ طبقات ابن سلام ص ٥٧٧ .

٢ ـ الاغاني ١٥١/١٠ وزارة الثقافة والارشاد .

٣ ـ الشعر والشعراء ٥٠٣/٢

٤ ـ الأغاني ١٥٥/١٠ وزارة الثقافة والارشاد و ٧٣/٩ ساسي .

٥ ـ الشعر والشعراء ٥٠٢/٢ .

٦ ـ مرعبل : مقطع .

صغواء قد كادت ولما تفعل (١)   فهي على الافق كعين . . .

وأراد ان يقول (الاحول) ثم ذكر حولة هشام فلم يتم البيت وارتج عليه ، فقال هشام : اجز البيت . فقال (كعين الأحول) واتم القصيدة . فأمر هشام بوجيء عنقه واخراجه ، وقال لصاحب شرطته: يا ربيع اياك وان أرى هذا ؟ ! فكلم وجوه الناس صاحب الشرطة ان يقره ففعل .

ولننتقل الآن بين أبيات هذه الارجوزة البديعة التي جلبت لصاحبها الويل واذاقته الحرمان فتركته شريداً طريداً يتغدى عند سليم بن كيسان الكلبي ، ويتعشى عند عمرو بن بسطام التغلبي ، ويبيت في المسجد . (٢) وقد بقي على هذه الحال مدة من الزمن ثم عفا عنه هشام وقربه منه .

لقد افتتح أرجوزته هذه بمطلع ديني حمد فيه الله واثنى عليه ، وذكر نعمه الكثيرة على الناس ومنها الابل . وكان هذا داعية لجلب انتباه الناس وإثارة اهتمامهم بهذه الارجوزة ، اذ انهم لم يكونوا قد تعودوا على مثل هذا الافتتاح والذي يقول فيه :

الحمد لله الوهوب المجزل   اعطى فلم يبخل ولم يبخل (٣)

وبعد هذا مباشرة انتقل الى ذكر ما اعطاه الله وهي ابل ترعى البقل ، وقد اصابها العطش فراحت تطلب الماء :

---

١ ــ صغواء : مائله للغرب .

٢ ــ الأغاني ١٠/١٥٥ وزارة الثقافة والارشاد .

٣ ــ بخله تبخيلا : رماه بالبخل .

كوم الذرى (١) من خول المخول (٢) تبقلت (٣) في أول التبقــــل
بين رماحي مالك ونهشـــل يدفع عنها العـــز جهل الجهل
حتى تراعت في النعاج الخذل تحت اهاضيب الغبوث الهطل (٤)

وبعد ان استمر في وصف هذه الابل وحالة العطش التي اصابتها بعد ان رعت في ذلك البقل فاخذت تطلب الماء وقد يبست السنتهـا ، وصفها وهي ترد الماء وتشربه ، ثم ختم هذه الارجوزة بقوله :

صار القطا عنه بواد مجهل لينة الريش عظام الحوصل
تظل حفراه من التهدل في روض ذفراء ورغل مخجل
تعدله الارواح (٥) كل معدل كان ريح المسك والقرنفل
نباته بين التلاع (٦) السيل

وقد اورد الأستاذ محمد بهجة الأثري هذه الارجوزة بكاملهـا في مجلة المجمع العلمي العربي وذكر شيئاً عن خبرها وبعضاً من اخبـار صاحبها أبي النجم . (٧)

وكان أبو النجم اسرع الناس بديهة ، قال :الأصمعي : قال أبوالنجم :

---

١ ــ أي ابلا عظام الاسنمة .

٢ ــ أي مما اعطى الله تعالى من النعم .

٣ ــ أي رعت البقل .

٤ ــ الخذل : المتخلفات عن القطيع ، تراعت : رعت معها ، الاهاضيب : جمع هضاب وواحد الهضاب هضب وهي حبات القطر بعد القطر .

٥ ــ جمع ريح .

٦ ــ جمع تلعة ، المكان المرتفع .

٧ ــ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ٧ مجلد ٨ ص ٣٨٥ تموز ١٩٢٨ م.

الحمد لله الوهوب المجزل

في قدر ما يمشي الانسان من مسجد الاشياخ الى حائم الجزار ، ومقدار ماينهما غلوة أو نحوها [١]

وسئل الأصمعي : أي الرجز أحسن واجود ؟ قال : رجز أبي النجم . (٢)

وذكر عن عثمان بن حفص أن أبا النجم مدح الحجاج برجز قال فيه :

وبل أم دور عزة ومجد دور ثقيف بسواء نجد
أهل الحصون والخيول الجرد

فأعجب الحجاج رجزه وقال : ما حاجتك ؟ قال : تقطعني ذا الجنبين . فوجم لها وسكت ، ثم دعا كاتبه فقال : انظر ذا الجنبين ماهو فان ذا الاعرابي سألنيه لعله نهر من انهار العراق . فسألوا عنه فقيل : واد في بلاد بني عجل أعلاه حشفة واسفله سبخة يخاصمه فيه بنو عم له ، فقال : اكتبوا له به ، قال : فأهله به الى اليوم . (٣)

وكان أبو النجم ربما قصد فأجاد . (٤) كما كان وصافاً للفرس . (٥) .

وقد اخذ على أبي النجم مآخذ ، منها قوله في صفة الفرس :

يسبح اخراه ويطفو أوله

---

١ ــ الأغاني ١٠/١٥٧ وزارة الثقافة والارشاد .

٢ ــ الأغاني ١٠/١٥٨ وزارة الثقافة والارشاد .

٣ ــ الأغاني ١٠/١٦٠ وزارة الثقافة والارشاد .

٤ ــ طبقات ابن سلام ص ٥٧٦ ومعجم الشعراء ص ١٨٠ الحلبي .

٥ ــ الشعر والشعراء ٢/٥٠٢ .

قال الأصمعي : اذا كان كذلك فحمار الكساح اسرع منه ! لأن اضطراب مآخيره قبيح . (١)

قال الاصمعي : وحدثني أبي أنه رأى فرسه فقومه بسبعين درهما (٢)

وقال ابن قتيبة : حدثني عبد الرحمن عن عمه عن أبيه قال : رأيت فرس أبي النجم الذي كان يصفه فقومته بخمسين درهماً (٣) . وانما عيب عليه ذلك لأن الجواد انما يوصف بأنه تسبح اولاه وتلحق رجلاه (٤) .

ومما اخطأ فيه ابو النجم قوله :

وهي على عذب روى المنهل   دحل أبي المرقال خير الادحل

من نحت عاد في الزمان الأول

قال الاصمعي : الدحل لا تورده الابل انما تورد الركايا (٥) .

وقد عيب بهذا وعيب بقوله في البيت الذي يليه : ان هذا الدحل من نحت عاد . قال : والدحلان لا تحفر ولا تنحت ، انمـــا هي خروق وشعاب في الأرض والجبال لا تصيبها الشمس فتبقى فيها المياه وهي هوة في الأرض يضيق فمها ثم يتسع فيدخلها ماء السماء (٦) .

ويذكر ابن قتيبة أن أبا النجم اخذ عليه قوله : (٧)

---

١ ـــ الأغاني ١٠/١٦١ وزارة الثقافة والارشاد والشعر والشعراء ٢/٥٠٣ .

٢ ـــ الاغاني ١٠/١٦١ وزارة الثقافة والارشاد .

٣ ـــ الشعر والشعراء ٢/٥٠٣ .

٤ ـــ الاغاني ١٠/١٦١ وزارة الثقافة والارشاد .

٥ ـــ الركايا : جمع ركية وهي البئر .

٦ ـــ الاغاني ١٠/١٦١ وزارة الثقافة والارشاد .

٧ ـــ الشعر والشعراء ٢/٥٠٣ .

كطلمة الاشمط من جلبابه

يعني من كسائه ، من قول الآخر :

كطلمة الاشمط من برد سمل (١)

وكان الاصمعي يقول : اخطأ أبو النجم في قوله :

كالشمس لم تعد سوى ذرورها

أي لم تتجاوز ذرورها فأدخل (سوى) لأجل الاعراب ، ولم تعد العداء : الظلم ، أراد لم تتجاوز ، والعداء : تجاوز الحق (٢) .

توفي ابو النجم سنة ثلاثين ومائة للهجرة (٣) .

٥ ــ ابو نخيلة السعدي

أبو نخيلة اسمه لا كنيته ، ويكنى أبا الجنيد ، ذكر ذلك الأصبهاني في أغانيه (٤) . وتابعه في ذلك الزركلي (٥) .

اما الآمدي (٦) وابن قتيبة (٧) فقد قالا أن اسمه (يعمر) بن حزن بن زائدة من بني حمان بن كعب بن سعد ، وانما كني (أبا نخيلة) لأن أمه ولدته الى جنب نخله .

---

١ ــ السمل : الخلق .

٢ ــ الموشح ــ المرزباني ص ٢١٣ مطبعة السلفية .

٣ ــ الاعلام ٣٥٧/٥ .

٤ ــ الاغاني ١٣٩/١٨ ساسي .

٥ ــ الاعلام ٣٣١/٨ .

٦ ــ المؤتلف والمختلف ــ الآمدي ص ٢٩٦ .

٧ ــ الشعر والشعراء ٥٠١/٢ .

وهو شاعر راجز محسن متقدم في القصيد والرجز (١) افتخر بنسبه فقال : (٢)

انا ابن سعد وتوسطت العجم   فانا فيما شئت من خال وعم

ولكن بعض الناس عابوه لأنه كان ينتسب الى قوم ليس منهم ، قال رؤبة يهجوه في ذلك : (٣)

فقل لذاك الشاعر الخباط   وذى المراء المهمر الضغاط

أي أنه دعي يخيط الى قوم ليس منهم ، كما قال شريك بن حيان العنبري يهجوه وينفيه عن قومه : (٤)

يا ايهذا المدعي شريكا   بين لنا وخل عن أبيكا
اذا انتفا أو شك حزن فيكا   وقد سألنا عنك من يعزوكا
الى اب فكلهم ينفيكا   فاطلب أبا نخلة من أبوكا
وادع في فصيلة تؤويكا

وكان أبو نخيلة عاقا فنفاه أبوه عن نفسه ، فخرج الى الشام واقام هناك الى أن مات أبوه ، ثم عاد وبقي مشكوكا في نسبه مطعونا عليه (٥) مما كان ذلك سببا في جعله عرضة لانتقاد المنتقدين . وقد غلب عليه الرجز أما قصيده فليس بالكثير (٦) .

---

١ ــ المؤتلف والمختلف ص ٢٩٦ .

٢ ــ الشعر والشعراء ٥٠١/٢ .

٣ ــ شرح ديوان رؤبة ــ مخطوط ص ٣٤٦ ومجموع اشعار العرب ص ٨٧ والشعر والشعراء ٥٠١/٢ .

٤ ــ البيان والتبيين ٢٠١/١ السندوبي ــ الهامش .

٥ ــ الأغاني ١٣٩/١٨ ساسي .

٦ ــ المصدر السابق ١٣٩/١٨ .

والذي يقرأ أخبار أبي نخيلة يجده ذا نفس وضيعة حقيرة يرضيها القليل ويسخطها كما أنه انسان غير وفي لا يشكر من يكرمه ولا يرعى حرمة من يحسن اليه . فمن امثلة ذلك عقوقه بأبيه الذي أشرنا اليه قبل قليل . ومن أمثلته أيضاً ما يروى عنه حين خروجه الى الشام من أنه اتصل بمسلمة بن عبد الملك فاصطنعه وأحسن اليه وأوصله الى الخلفاء واحداً بعد واحد ، واستماحهم له فأغنوه ، ولكنه كان بعد ذلك قليل الوفاء لهم ، اذ انه هجاهم واكثر من هجائه لهم حينما انقطع الى بني هاشم ولقب نفسه شاعر بني هاشم [1] .

وقد كان سؤولا جشعا شديد الطمع ، حتى أودى بـه ذلك الى الهلاك ، اذ أن طمعه حمله على أن قال في المنصور ارجوزة يغريه فيها بخلع عيسى بن موسى وبعقد البيعة لابنه محمد المهدي ، فوصله المنصور بألفي درهم وأمره أن ينشدها بحضرة عيسى بن موسى ، ففعل ، فطلبه عيسى فهرب منه ، وبعث في طلبه مولى له فأدركه في طريق خراسان فذبحه وسلخ وجهه [2] .

ومن صفات أبي نخيلة الخلقية أنه كان يهجو ضيوفه ، فقد حدث أبو عبيدة قال : كان أبو نخيلة اذا نزل به ضيف هجاه ، فنزل به يوما رجل من عشيرته ، فسقاه سويقاً قد حلاه ، فقال له زدني . فزاده ، فلما رحل هجاه [3] .

وذكروا عن أبي نخيلة أنه كان يسطو عـلى رؤبة فيسرق منه

---

١ ــ المصدر السابق ١٨/١٣٩ .

٢ ــ المصدر السابق ١٨/١٣٩

٣ ــ المصدر السابق ١٨/١٤٢ .

أراجيزه وينشدها الخلفاء والوزراء وينال جوائزهم . وقد أشار الى ذلك أبو نخيلة نفسه اذ قال : وردت على مسلمة فمدحته وقلت فيه (١) .

أمسلم اني يا ابن خير خليفة ... ويافارس الهيجا وياجبل الارض(٢)
شكرتك ان الشكر حبل من التقى ... وما كل من اوليته نعمة يقضي
والقيت لما أن اتيتك زائرا ... علي لحافا سابغ الطول والعرض(٣)
وأحييت لي ذكرى وما كان خاملا ... ولكن بعض الذكر انبه من بعض(٤)

قال : فقال لي مسلمة : ممن انت ؟ فقلت : من بني سعد فقال: ما لكم يابني سعد والقصيد وانما حظكم في الرجز . قال : فقلت له : انا والله ارجز العرب . قال : فأنشدنا من رجزك . فكأني والله لما قال ذلك لم اقل رجزاً قط انسانيه الله كله فما ذكرت منه ولا من غيره شيئاً الا ارجوزة لرؤبة قد كان قالها في تلك السنة ، فظننت انها لم تبلغ مسلمة فأنشدته اياها ، فنكس ، وتنعمت ، فرفع رأسه الي وقال : لاتتعب نفسك فانا اروى لها منك . قال : فانصرفت وانا اكذب الناس عنده ، واخزاهم عند نفسي (٥) .

---

١ ــ المؤتلف والمختلف ص ٢٩٦ وطبقات ابن المعتز ص ٢٢ نشر عباس قبال

٢ ــ هذه رواية ابن المعتز ، وفي الاغاني (. . . ياابن كل خليفة) ويبدو ، ان رواية ابن المعتز اصح .

٣ ــ هذا البيت لم يذكر في المؤتلف والمختلف على هذه الصورة وانما رواه الاصبهاني ، اما ابن المعتز فقد رواه كما يلي :

والقيت لما جئت بابك زائرا ... رواقا مديدا سامد الطول والعرض

٤ ــ هذه رواية الاغاني ، اما في طبقات ابن المعتز فهي (وانبهت لي ذكرى . .)

٥ ــ الاغاني ١٨/١٤٠ ساسي .

ومن بين سرقاته ما حدث به عبيد الله بن سالم قال : اتاني رؤبة فجلس الى قبة لي مجلسا لا يراه من يدخل ، ودخل ابو نخيلة فجلس خارجا ، فقيل له : انشدنا يا أبا نخيلة فافتتح قصيدة لرؤبة فجعل ينشدها ، ورؤبة ينط كأن السياط في ظهره ، فلما بلغ نصفها قال رؤبة : كيف أنت يا أبا نخيلة ؟ فقال أبو نخيلة : واسوأتاه ! ولا أشعر أنك ها هنا ان هذا كبيرنا وشاعرنا الذي نعول عليه . فقال رؤبة : اياك واياه ما كنت بالعراق فاذا أتيت الشام فخذ ما شئت منه (١) .

ولكن أبا نخيلة – مع كل هذا – كان له رجز كثير وقصيد صالح ، حتى شُهر بهما وسار شعره في البدو والحضر ورواه الناس ، ذلك لأنه لما انتفى من أبيه خرج يطلب الرزق لنفسه فتأدب بالبادية حتى شعر (٢) وقد أسف أبو نخيلة في بعض أشعاره فمدح خبازاً وسائساً وبستانياً (٣) جزاء ما قدموه له من اعمال بسيطة تافهة ، وهذا يدحض ما ذهب اليه محمد بن ابراهيم الحنظلي حين قال : ما مدح ابو نخيلة الا خليفة أو وزيراً (٤) .

ومن الاغراض التي عالجها أبو نخيلة في رجزه الصيد والطرد فكان له في القنص اعاجيب كثيرة كما يقول ابن المعتز (٥) فمن ذلك قوله

---

١ – الموشح – المرزباني ص ٢١٩ والاغاني ١٨ / ١٤٥ ساسي مع خلاف في نص الرواية .

٢ – الأغاني ١٨/١٣٩ و ١٤٠ ساسي .

٣ – انظر الاغاني ١٨/١٤٤ و ١٤٥ ساسي .

٤ – طبقات ابن المعتز ص ٢١ نشر عباس اقبال .

٥ – المصدر السابق ص ٢٣ .

في طرد عشر نعائم يصفهن (١) :

انعت مهرا سبط القرات (٢) وردا طمرا مدمج السراة (٣)
يغذو بنهد في اللجام عات (٤) نعائمـــا عشرا مطـــردات
صك العراقيب هجنعات (٥) فانصاع وانصمن موليات (٦)
ما كان الا هاكه وهـــات حتى اجتمعن متناغصات (٧)
بالسهب والغدر من الحماة (٨) واختل حضنا هيقة شوشات (٩)
فانعقرت من آخر الهيقـات بغير تكبير ولا صلاة (١٠)
كأنها خالفة [١١] السراة

---

١ ـــ طبقات ابن المعتز ص ٦٥ تحقيق فراج ـ طبع دار المعارف .

٢ ـــ القرى : الظهر وزاد فيه الراجز التاء الطويلة .

٣ ـــ الطمر : الفرس الجواد ، السراة : الظهر ، الورد : الاحمر الى الصفرة .

٤ ـــ النهد : الفرس الحسن الجميل ، والنهد : الشيء المرتفع .

٥ ـــ صك العراقيب : من أوصاف النعام ، الهجنع : الطويل .

٦ ـــ انصاع : اسرع .

٧ ـــ تناغصت الابل : تزاحمت .

٨ ـــ السهب : الفرس الواسع الجري ، والحماة : عضلة الساق ، يريد ان النعائم اجتمعت متزاحمة بسبب الجواد السريع وبسبب الغدر من عضلات سيقانها بعد طول جريها .

٩ ـــ الحضن : الجانب ، الشوشاة : لعلها محرفة عن شوسات أي طويلة ، ابدلت همزتها تاء للرجز ، والهيقة : النعامة .

١٠ ـــ يريد أن يقول : ان جانبي النعامة قد اختلا فانعقرت بدون تكبير ولاصلاة

١١ ـــ الخالفة : مؤنث الخالف ومن معانيه الذي يقف بعد ذهابك ، السراة : جمع سار .

ولم تؤخذ على أبي نخيلة مآخذ كثيرة ، فمما اخذ عليه قوله في وصف امرأة [١] :

بربة لم تاكل المرققا   ولم تذق من البقول الفستقا

ذلك لانه ظن ان الفستق بقل . هذا وقد توفي أبو نخيلة سنة خمس واربعين ومائة للهجرة [٢] وهي السنة التي توفي فيهـا الراجز المشهور رؤبة بن العجاج .

---

١ ـــ الشعر والشعراء ٢/٥٠١ .

٢ ـــ الاعلام ٨/٣٣١ .

الخاتمـــة

وبعد ، فهذا هو الرجز ، بانت لك معالمه ، ووضحت ابعاده ، بعد هذه الدراسة التحليلية التفصيلية .

ومع هذا فأنا مجمل لك فيما يأتي أهم النقاط الأساسية البارزة في هذا البحث .

من دراسة المعاني التي تدل عليها مادة (رجز) وماشتق منها ، تبين ان هذه المادة تدل على الحركة والاضراب ، ولهذا اخذوا منهـــا اسماء لكل ما يظهر فيه حركة واضطراب ، فسموا الناقة التي ترتعش عند قيامها من مبركها بأسم (الرجزاء) ثم سموا هذا البحر الذي تظهر فيه الحركة متعاقبة مع السكون باسم (الرجز) .

والرجز موضوع بحثنا هذا ، بحر من بحور الشعر وزنه (مستفعلن) تكرر ست مرات ، ونادراً ما يستعمل بهذه الصورة ، ذلك لأن الغـالب في استعماله هو المشطور ، كما أنه يستعمل مجزوءاً ومنهوكاً ، ولهـــذا السبب رأى جماعة من العروضيين والأدباء الا يعدوا الرجز من الشعر ، مدعين أن الرجز كالنثر ، لافرق بينهما سوى الوزن ، وقـد نسي هؤلاء أن أي بحر من بحور الشعر لافرق بينه وبين النثر سوى الوزن ، على انني جاريتهم في رأيهم هذا ، وبحثت المسألة بحثاً علمياً دقيقاً ، فاستقربت ادلتهم وأدلة مخالفيهم ، ثم ناقشتها مناقشة سليمة ، وبعـد ذلك استطعت ان اخرج من كل ذلك برأي اظنه هو الصواب ، ذلك هو أن الرجـز شعر أصيل له ما للقصيد من مقومات . وعليه فان شعر العرب يتكون

من نوعين لاثالث لهما : رجز وقصيد ، وقد حاولت ان اتبين أي نوعي هذا الشعر اسبق في الظهور ، فوجدت أن الرجز هو الذي نشأ أولاً ثم تطور فنشأ عنه القصيد ، وقد توصلت الى هذا بعد ان بحثت في متطلبات العربي البدائية التي سخر الشعر للتعبير عنها مثل الحداء والمتح والصيد ، فوجدت أن معظم هذا الشعر بالرجز ، وعليه فقد رجحت ان يكون الرجز هو الذي ظهر قبل غيره من انواع الشعر ، اذ أن السجع تطور الى وزن بسيط قصير يحتمل ان يكون من مشطور الرجز أو منهوكه .

أما بداية الشعر وأوليته فانها مجهولة لم يستطع الحصر ان يتبينها ويعين وقتاً محدداً لها ، كما أن مسألة أول من قال الشعر ونطق به مجهولة أيضاً لايمكن البت فيها ، ولايمكن قبول تلك الاساطير التي دارت حولها .

اما الصورة التي نشأ فيها الرجز فكانت صورة بدائية بسيطة تلائم حالة العرب الاولى حينما بدأوا يحاولون نظم الشعر ، فكان العربي ينظم بيتين أو ثلاثة من الرجز اذا حارب أو شاتم أو فاخر ، أو فيما يعن له من أمور الحياة اليومية ، فكانت تلك المقطعات الرجزية القصيرة التي تنبي عن فكرة ساذجة لم تقطع في الثقافة والحضارة اشواطاً بعيدة .

واستمر الرجز على هذه الصورة البسيطة الى ان تعددت حاجات العربي ، وتنوعت مطالبه ، فلم يستطع الرجز الايفاء بكل هذه الامور ، وضاق بها ذرعاً ، فأضطر العربي الى استحداث اوزان جديدة تستطيع التعبير عن رغباته واهوائه وأفكاره ، ومن هنا نشأت الأوزان الشعرية الأخرى والتي اطلق عليها جميعاً أسم (القصيدة) .

وشاع استعمال القصيد بين العرب وتطور من المقطعات القصيرة الى قصائد طويلة احتوت على عدة اغراض ، وكان آخر تطور وصل اليه

في العصر الجاهلي هو تلك المعلقات البديعة التي مثلت الشعر الجاهلي وهو في اوج رقيه وتقدمه وازدهـــاره ، واستمر القصيد في التطور حتى يومنا هذا .

هذه حال القصيد ، اما حال الرجز فليست كذلك ، اذ انه ظل يتخبط في دائرة المقطعات القصيرة طيلة حقبة ليست بالقصيرة ، بدأت مع أول بوادر نشوء الرجز ، وانتهت في العصر الاسلامي ، اذ جاء بعض الرجاز الذين تمكنوا من الخروج بالرجز من هذا النطاق الضيق واشراكه مع القصيد في اغراضه وكان الاغلب العجلي هو الذي بدأ هذه المحاولات فقد اخذ ينحو منحى القصيد من حيث اطـــالة الارجوزة واحتوائها على اكثر من غرض واحد ، وقد قدر لهذا الصنيع ان يبلغ منتهاه ويصل الى أوج تطوره ورقيه على يد العجاج ثم على يد ابنه رؤبة من بعده ثم باقي الرجاز الآخرين الذين برزوا في تلك الفترة .

وفي هذه الفترة تمكن الرجز من خوض كثير من الميادين ، ومعالجة كثير من الاغراض . وانتشر استعماله بين الناس ، واهتموا به اهتماماً كبيراً ، فاخذوا يحفظون الاراجيز الكثيرة ، وخير مثال لهؤلاء الأصمعي الذي كان يروى عنـــه أنه يحفظ اثني عشر الف أرجوزة ، ومثل ذلك ما يروى عن أبي تمام من أنه كان يحفظ عدداً كبيراً من الاراجيز .

وهكذا حصل الرجز على مكانة مرموقة وشعبية واسعة ، فكان الخلفاء والامراء والوزراء يقربون الرجاز من مجالسهم ويستأنسون بهم ويطربون الى أنشادهم .

ولكن هذه الشعبية الواسعة اخذت تتقلص شيئاً فشيئاً في منتصف العصر العباسي ، وذلك لأن الشعراء والعلماء اخذوا يسخرون الرجـــز

ليؤدي لهم مهمة تعليم الناشئة والطلاب شتى العلوم والفنون ، ومن هنا اخذ الشعراء يتحامون النظم في بحر الرجز ، لأنهم كانوا يرون أن هذا البحر أصبح خاصاً بنظام الألفيات وما بمجراها . وبهذا انتهى أمر الرجز أو كاد من حيث كونه نوعاً من أنواع الشعر ، أما من حيث كونه بحراً من بحور الشعر فقد ظل شائعاً مستعملاً حتى الوقت الحاضر .

أما الخصائص التي تميز بها الرجز ، فكانت تتمثل في تلك الالفاظ الغريبة والكلمات الصعبة والاستعمالات الشاذة ، حتى أن العجاج ورؤبة وغيرهما من الرجاز أولعوا بهذه الأستعمالات فجاءت أراجيزهم ثقيلة على الاسماع لها وقع كوقع الصم الصلاب ، كما انها طلاسم لايمكن حل رموزها أو فهم معانيها ما لم يستعن عليها بمعجم أو قاموس .

ومن هذه الخصائص وزن الرجز الذي يحتوي على اشكال عديدة متنوعة منها القصيرة والمتوسطة والطويلة ، فالرجز يستعمل تاماً ومجزوءاً ومشطوراً ومنهوكاً ، وهذه ميزة جعلت الرجز صالحاً لخوض كثير من الميادين والاغراض .

وقد استطاع الرجاز ان يبتكروا في هذا الميدان أسلوباً جديداً في افتتاح أراجيزهم ، ذلك انهم استعملوا مطالع دينية خالفوا بها ما ألفه الشعراء وتعودوه من استعمال المطالع الغزلية ، وهذا فتح جديد في عالم الشعر تمكن الرجاز أن يسبقوا المقصدين فيه . فهم قبل أبي نواس خرجوا على سنن الشعراء في هذه المطالع ، وربما يكون أبو نواس قد تأثر بهم حينما دعا الى ترك الوقوف على الاطلال وافتتاح القصائد بالنسيب والغزل . مع هذا فقد ساير الرجاز اذواق الناس في ذلك العصر وافتتحوا كثيراً من أراجيزهم بمطالع غزلية .

اما الاغراض التي عالجها الرجز فكثيرة . شارك القصيد في قسم منها وانفرد بالقسم الاخر . فالطبيعة والسياسة والاجتماع فنون اشترك في معالجتها الرجز والقصيد . أما المتح والحداء والصيد فقد اقتصرت على الرجز أو كادت ، لأن الرجز كان أكثر صلاحية وملاءمة في معالجة مثل هذه الاغراض .

وقد صور الرجز بيئة العرب الطبيعية وابرز جوانبها ومعالمها : الصامتة منها والحية ، فجاء تعبيراً دقيقاً عن افكار العرب ونفسياتهم ، وجاء تصويراً واضحاً لتلك البيئة التي عاش في اكنافها العرب . فوصف الحيوانات الأليفة والوحشية وصور اعضاءها وتأثر بما فيها من قوة أو ضعف أو جبن أو ما الى ذلك ، كما ابرز عواطفه وخلجات نفسه ازاء الحيوانات وما يكن لبعضها من حب واعزاز . ثم وصف الزواحف والحشرات والطيور ونوه الى خاصية كل منها : وهو في كل هذا متأثر بما تحمله تلك الحيوانات من صفات .

وأثرت في نفوس الرجاز طبيعتهم الصحراوية وحياتهم البدوية ، فتلونوا بلونها وتطبعوا بطابعها . فظهر كل هذا في رجزهم ، اذ تجد في هذا الرجز ذكراً كثيراً للصحراء وما يلوح فيها من ظواهر ، فذكروا السراب وكنوا به عن شدة الحر ، ووصفوا الجبال وهي تحمل معاني القوة والعظمة والثبات . كما تطرقوا الى ذكر الارض والتراب وما يتشكل من الرمل . ووصفوا دارات العرب واخبرونا عن اسمائها .

وجلب انتباه الرجاز الأنواء الجوية وما يحدث خلال العام من رعد وبرق ومطر ، فوصفوا كل هذه المظاهر متأثرين بها منفعلين بمظرها .

ونقل لنا الرجز صوراً لبعض الأشجار والنباتات التي كانت منتشرة في جزيرة العرب .

وهكذا جاء رجز الطبيعة تعبيراً صادقاً حياً عن بيئة العرب الصحراوية وكل ما ظهر فيها .

اما الأمور السياسية فلم يكن الرجز عاجزاً عن معالجتها اذ أنه ذكر بعض التأثيرات السياسية التي تحدث للناس فتؤثر فيهم ، وكانت الحرب ظاهرة تخضع في الغالب للسياسة ، فأخذ الرجز يعالج أمور الحرب وعدتها وعتادها ، وكان المقاتل يلجأ الى اطلاق مكنون قلبه برجز يعبر فيه عن روحه الحماسية وحالته النفسية التي يعانيها في تلك اللحظات . ومن هنا كان رجز الحرب مادة كثيرة صورت لنا طرق القتال ووسائله في ذلك الوقت كما انبأتنا عن احاسيس النفوس المقاتلة التي كانت تأخذ لها طابعاً خاصاً في اثناء المعركة .

واستطاع الرجز ان يعالج معظم الاغراض التي ظهرت تحت تأثير الحياة الاجتماعية التي كان العرب يحيونها . فكان هناك رجز المديح الذي تطرق الى ذكر الصفات المحببة لدى العرب . وكان رجز الرثاء الذي تناول الاطراء بصفات المرثي وما يتحلى به من شيم عالية واخلاق رفيعة . ورجز الفخر الذي يصور الأمور التي كان العرب يطمحون في الاتصاف بها . كما كان الهجاء وهو تناول مثالب ونقائص المهجو وفضحها وهتك الستر عنها . ثم الرجز الغزلي الذي بين صفات الحسن والجمال سواء كان حسياً أم روحياً . ثم كان هناك رجز الأساطير الذي ذكر لنا ما كان شائعاً بين العرب من أساطير آنذاك .

هذه هي الاغراض التي اشترك في تناولها الرجز والقصيد . أما

الاغراض التي اقتصرت على الرجز فمنها الحداء الذي كان يستعمله العرب لسوق الجمال وحث الأبل على السير . ثم المتح وهو التغني برجـــز في اثناء عملية اخراج الماء من البئر بواسطة الدلو . وبعد ذلك كان الصيد الذي استخدم فيه الرجز ، اذ كان الصائد يلجأ اليه ليصور احاسيسه ويعبر عنها وهو يرى سهمه ينفذ في جسم الصيد وكان هـذا الرجـــز يصور مهارته وفنه في اصطياد فريسته .

وهم انما سخروا الرجز دون غيره في هـذه الاغراض ، لأن فيـه حركة رتيبة متواصلة تشبه الحركات التي تصاحب هـــذه الاعمال والتي تكون من لوازمها .

أما الرجاز الذين برزوا في ميدان الرجـز فكان أشهرهم الأغلب العجلي وكان سابقاً في هذا المضمار ، ثم تلاه العجاج فوطد الاساس الذي وضعـــه الاغلب . وجاء رؤبة وأتم البناء ، وعلى يديه بلغ الرجز غاية ما يرتجى له من التطور والازدهار ثم كان لأبي النجم العجلي وأبي نخيلة الراجز فضل كبير في النهوض بالرجز وجعله يطاول القصيد .

وأرجو ان ينال هؤلاء الرجاز نصيبهم من البحث الدقيق العميق ، لأبراز مواهبهم وشاعريتهم وخصائصهم الفنية ، فهم مـا زالوا مغمورين ، لم ينالوا حقهم من الشهرة التي كانوا يتمتعون بهـا في زمنهم أو حتى جزءاً ضئيلاً منها .

وختاماً أرجو من الله التوفيق والسداد لكل خـــير أنـه نعم المولى ونعم النصير .

مصادر البحث ومراجعه

١ ـ ابراهيم : محمد أبو الفضل وعلي محمد البجاوي
أيام العرب في الاسلام ، ط ١ ، م . الحلبي

٢ ـ ابن الاثير : عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني (ت ٦٣٠ ﻫ) .
أسد الغابة في معرفة الصحابة ، م . الاسلامية بطهران

٣ ـ الاسكندري : احمد ومصطفى عناني
الوسيط في الادب العربي وتاريخه ، ط ٢ ، م . المعارف بمصر

٤ ـ الاشنانداني : أبو عثمان سعيد بن هرون (ت ٢٨٨ ﻫ)
معاني الشعر ، قدم له ونظر فيه الدكتور صلاح الدين المنجد ، بيروت

٥ ـ الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي (ت ٣٥٦)
الاغاني ، وزارة الثقافة المصرية والساسي وبيروت حسب ما يذكر في الهامش

٦ ـ الاصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي (ت ٢١٦ ﻫ)
الاصمعيات ، ط ٢ ، م . دار المعارف بمصر

٧ ـ الاعشى : أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل (ت ٧ ﻫ)

ديوان الأعشى الكبير ، شرح وتحقيق الدكتور م محمد حسين ، م . النموذجية .

٨ ــ ابن الورد : وليم
١ ــ مجموع أشعار العرب ــ وهو مشتمل على ديوان رؤبة بن العجاج وعلى أبيـات مفردات منسوبة اليه ، ليبسغ ١٩٠٣ م نشر مكتبة المثنى ــ بغداد
٢ ــ العقد الثمين في ديوان الشعراء الستة الجاهليين

٩ ــ الآلوسـي : شهاب الدين أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت ١٢٧٠ هـ)
روح المعاني ــ المطبعة المنيرية بمصر

١٠ ــ الآمـدى : أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى (ت ٣٧٠ هـ)
المؤتلف والمختلف ــ تحقيق عبد الستار احمد فراج ــ الحلبي

١١ ــ الانصاري : أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الانصاري البصري (ت ٢١٥ هـ)
النوادر في اللغة ــ بيروت سنة ١٨٩٤ م

١٢ ــ انيس : الدكتور ابراهيم
موسيقى الشعر ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة

١٣ ــ الباقلاني : أبو بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣ هـ)

اعجاز القرآن – تحقيق احمد صقر – دار المعارف بمصر

١٤ – بثينة : جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي (ت ٨٢ هـ)
الديوان – تحقيق بطرس البستاني

١٥ – ابن برد : أبو معاذ بشار برد العقيلي (ت ١٦٧ هـ)
الديوان – تحقيق ابن عاشور

١٦ – بطي : روفائيل بطي (ت ١٣٧٥)
سحر الشعر – الجزء الاول – وهو مجموعة مقالات وقصائد عصرية في الشعر والشعراء لنخبة من نوابغ ادباء العصر – م الرحمانية بمصر

١٧ – البغدادي : عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ) وقيل (١٠٧٣ هـ)
خزانة الادب ولب ألباب لسان العرب – مطبعة بولاق

١٨ – البكري : ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت ٤٨٧ هـ)
١ – سمط اللآلي في شرح امالي القالي – تحقيق عبد العزيز الميمني
٢ – معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع

- تحقيق مصطفى السقا - ط ١ القاهرة
٣ - التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه - المكتب التجاري بيروت

١٩ - البكري : محمد توفيق (ت ١٣٥١ هـ)
اراجيز العرب - الطبعة الاولى - القاهرة

٢٠ - البلاذري : أبو العباس احمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت ٢٧٩ هـ) تقريبا
١ - فتوح البلدان - دار النشر للجامعيين - بيروت
٢ - انساب الاشراف - نشر مكتبة المثنى - بغداد

٢١ - بروكلمن : كارل
تاريخ الادب العربي - تعريب عبد الحليم النجار - دار المعارف بمصر

٢٢ - البيهقي : ابراهيم بن محمد (كان حيا قبل ٣٢٠ هـ)
المحاسن والمساوىء - ط . لايبزك

٢٣ - بيومي : السباعي
تاريخ الادب العربي ط . ٢ مطبعة الرسالة سنة ١٩٥٩ م .

٢٤ - ابو تمام : حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٢٨ هـ وقيل ٢٣١ هـ وقيل ٢٣٢ هـ)
١ - الحماسة - شرح التبريزي سنة ١٢٩٦ هـ

وشرح اديب فاضل
٢ ـ الديوان ـ لجنة التأليف والترجمة
٣ ـ الديوان ـ تحقيق عبد الحميد يونس ـ القاهرة

٢٥ ـ ابن ثابت : حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي (ت ٥٤ هـ)
الديوان ـ دار صادر ـ بيروت

٢٦ ـ الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩ هـ)
يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ ط ٢ مطبعة السعادة

٢٧ ـ الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)
١ ـ البيان والتبيين ـ تحقيق حسن السندوبي مطبعة الاستقامة ط ٣ وبتحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة سنة ١٩٥٠ م . حسبما يذكر في الهامش
٢ ـ الحيوان : تحقيق عبد السلام هارون مطبعة الحلبي

٢٨ ـ ابن جعفر : ابو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ)
نقد الشعر ـ تحقيق كمال مصطفى ـ مطبعة السعادة

٢٩ ـ الجندي : علي
شعر الحرب ـ العصر الجاهلي

٣٠ ـــ ابن جني : ابو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢)
الخصائص ـ تحقيق محمد علي النجار ـ دار الكتب سنة ١٩٥٦ م

٣١ ـــ الجوهري : ابو نصر اسماعيل بن حماد الفارابي (ت ٣٩٣ ه وقيل ٤٠٠) ه
الصحاح ـ تحقيق احمد عبد الغفور عطار ـ ط دار الكتاب العربي

٣٢ ـ حسين : الدكتور طه
في الادب الجاهلي ـ الطبعة الثانية

٣٣ ـــ ابن حنبل : احمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ ه)
مسند الامام احمد

٣٤ ـــ ابو حيان : أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الاندلسي (ت ٧٤٥ ه)
تفسير البحر المحيط ـ المطبعة التجارية الكبرى

٣٥ ـــ خفاجي : محمد عبد المنعم
١ ـ فن الشعر ـ ط ١ المطبعة العربية سنة ١٩٤٩ م
٢ ـ الحياة الادبية في العصر الجاهلي ط ٢ القاهر ١٩٥٨ م

٣٦ ـــ ابن خلدون : ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

« ت ٨٠٨ هـ »
مقدمة ابن خلدون ــ مطبعة مصطفى محمد

٣٧ ــ ابن خلكان : شمس الدين احمد بن ابراهيم الشافعي « ت ٦٨١ هـ »
وفيات الاعيان ــ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

٣٨ ــ خلوصي : الدكتور صفاء
١ ــ دراسات في الادب المقارن والمذاهب الادبية مطبعة الرابطة بغداد سنة ١٩٥٨ م
٢ ــ فن التقطيع الشعري والقافية ــ مطبعة المعارف بغداد

٣٩ ــ ابن دريد : ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي البصري « ت ٣٢١ هـ »
جمهرة اللغة ــ الطبعة الاولى ــ حيدر آباد سنة ١٣٤٥ هـ

٤٠ ــ الدمنهوري : محمد الدمنهوري المصري الشافعي « ت ١٢٨٨ هـ »
الارشاد الشافعي على متن الكافي
الطبعة الثانية ــ مصطفى الحلبي سنة ١٩٥٧ م

٤١ ــ الديار بكري : حسين بن محمد بن الحسن المالكي « ت ٩٦٦ هـ »
تاريخ الخميس في احوال انفس النفيس

٤٢ ـــ الدينوري : ابو حنيفة احمد بن داود « ت ٢٨٢ هـ »
الاخبار الطوال ـــ تصحيح فلاديمير جرجاس ـــ
الطبعة الاولى مطبعة بريل ـــ ليدن

٤٣ ـــ الذبياني : النابغة « زياد بن معاوية بن ضباب » « ت نحو
١٨ ق . هـ »
الديوان ـــ تحقيق كرم البستاني ـــ بيروت

٤٤ ـــ الرافعي : مصطفى صادق « ت ١٣٥٦ هـ »
تاريخ آداب العرب ـــ ضبط وتصحيح محمد سعيد
العريان ـــ مطبعة الاستقامة ـــ الطبعة الثالثة

٤٥ ـــ ابن ربيعة : لبيد
الديوان ـــ تحقيق احسان عباس ـــ الكويت

٤٦ ـــ ابن رشيق : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ)
وقيل (٤٦٣ هـ) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ـ
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
مطبعة السعادة ـــ ط ٣ ومطبعة حجازي

٤٧ ـــ رضا : أحمد
معجم متن اللغة ـــ دار مكتبة الحياة ـــ بيروت
سنة ١٩٥٨ م

٤٨ ـــ ذو الرمة : غيلان بن عقبة (ت ١١٧ هـ)
الديوان ـــ تحقيق كارليل مكارتني

٤٩ ــ الزبيدي : محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي الملقب بمرتضى . (ت ١٢٠٥ هـ)
تاج العروس من جواهر القاموس

٥٠ ــ الزبيدي : أبو بكر
طبقات النحويين واللغويين ــ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ــ ط ١

٥١ ــ الزركلي : خير الدين
الاعلام ــ الطبعة الثانية

٥٢ ــ الزمخشري : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي (ت ٥٣٨ هـ)
١ ــ المستقصى في امثال العرب ــ تصحيح محمد عبد الرحمن خان ط الهند
٢ ــ أساس البلاغة ــ القاهرة سنة ١٩٦٠ م
٣ ــ الفائق في غريب الحديث ــ ط ١ الحلبي سنة ١٩٤٥ م

٥٣ ــ الزهيري : الدكتور محمد غناوي
نقائض جرير والفرزدق

٥٤ ــ الزيات : أحمد حسن
تاريخ الادب العربي ــ القاهرة

٥٥ ــ زيدان : جرجي بن حبيب ــ (ت ١٣٣٢ هـ)

تاريخ آداب اللغة العربية – مراجعة شوقي ضيف – دار الهلال

٥٦ — السكري : أبو سعيد الحسن بن الحسين – (ت ٢٧٥ هـ وقيل ٢٩٠ هـ وقبل ٢٧٠ هـ)
شرح أشعار الهذليين – تحقيق عبد الستار أحمد فراج – ط المدني

٥٧ — ابن سلام : أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ)
طبقات فحول الشعراء – شرح محمود محمد شاكر – دار المعارف بمصر

٥٨ — ابن سنان : أبو محمد عبد الله بن محمد سعيد بن سنان الخفاجي – (ت ٤٦٦ هـ) سر الفصاحة – تحقيق عبد المتعال الصعيدي م صبيح وأولاده سنة ١٩٥٣ م

٥٩ — ابن سيده : ابو الحسن علي بن اسماعيل الاندلسي « ت ٤٥٨ »
المخصص – الطبعة الاولى بولاق سنة ١٣١٦ هـ

٦٠ — السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر « ت ٩١١هـ »
١ – المزهر في علوم اللغة وانواعها – ط ٤ الحلبي سنة ١٩٥٨ م
٢ – شرح شواهد المغني – المطبعة البهية بمصر

٦١ — الشابشتي : ابو الحسن علي بن محمد « ت ٣٨٨ هـ وقيل ٣٩٠ هـ »
الديارات – بغداد

٦٢ ــ الضــــبي : ابو العباس المفضل بن محمد « ت ١٦٨ هـ »
المفضليات
٦٣ ــ ضيــــف : الدكتور شوقي
١ ــ تاريخ الادب العربي ــ العصر الاسلامي
دار المعارف بمصر
٢ ــ التطور والتجديد في الشعر الاموى ــ ط ٢
دار المعارف بمصر
٣ ــ في النقد الادبي ــ دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٢ م
٦٤ ــ الطـــبري : ابو جعفر محمد بن جرير بن يزيد « ت ٣١٠ هـ)
١ ــ تاريخ الامم والملوك ــ مطبعة الاستقامة
سنة ١٩٣٩ م
٢ ــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ــ طبعة
ثانية الحلبي
٦٥ ــ ابن العبد : طرفة
الديوان ــ تحقيق وشرح كرم البستاني ، وتحقيق
الدكتور علي الجندي
٦٦ ــ ابن عبد ربه : ابو عمر احمد بن محمد القرطبي « ت ٣٢٨ هـ »
العقد الفريد ــ شرح وضبط احمد امين واحمد
الزين وابراهيم الابياري الطبعة الثانية ــ القاهرة
٦٧ ــ ابو عبيدة : معمر بن المثنى البصرى « ت ٢٠٩ هـ »
النقائض ــ طبعة ليدن

٦٨ ــ ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي
(ت ٥٧١ هـ)
التاريخ الكبير ــ طبع روضة الشام سنة ١٣٣٢ هـ

٦٩ ــ ابن عقيل : بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٧٦٩ هـ)
شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ط ٦
مطبعة السعادة

٧٠ ــ ابن فارس : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ)
معجم مقاييس اللغة ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ
ط ١ دار احياء الكتب

٧١ ــ الفيروزاباذي: مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم
(ت ٨١٧ هـ)
القاموس المحيط

٧٢ ــ القالي : أبو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)
الامالي مع الذيل والنوادر والتنبيه ــ المكتب
التجاري بيروت

٧٣ ــ ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ
وقيل ٢٧٠ هـ وقيل ٢٧١ هـ)
١ ــ الشعر والشعراء ــ نشر وتوزيع دار الثقافة
بيروت سنة ١٩٦٤ م
٢ ــ المعاني الكبير الطبعة الاولى حيد آباد

٣ ـ المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة ـ دار الكتب المصرية

٧٤ ـ القرشي : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (ت ١٧٠ هـ)
جمهرة أشعار العرب ـ المطبعة الرحمانية بمصر ، ودار صادر ـ بيروت

٧٥ ـ القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الانصاري (ت ٦٧١ هـ)
الجامع لأحكام القرآن ـ الطبعة الاولى ـ دار الكتب المصرية

٧٦ ـ القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١ هـ)
صبح الاعشى في صناعة الانشا ـ وزاره الثقافة والارشاد القومي بمصر

٧٧ ـ ابن الكثير : أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)
تفسير ابن كثير ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة

٧٨ ـ الكلبي : هشام بن محمد السائب (ت ٢٠٤ هـ)
انساب الخيل في الجاهلية والاسلام واخبارها ـ تحقيق أحمد زكي ـ وهي نسخة مصورة عن طبعه راد الكتب

٧٩ ـ المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الاكبر الازدي

(ت ٢٨٥ هـ)
الفاضل — تحقيق عبد العزيز الميمني — ط ١ —
دار الكتب
الكامل في اللغة والادب

٨٠ — المجذوب : عبد الله الطيب
المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها — ط ١ —
القاهرة سنة ١٩٥٥

٨١ — المرتضى : الشريف المرتضى علي بن الحسين الموصلي (ت ٤٣٦ هـ)
امالي المرتضى — تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم —
ط ١ سنة ١٩٥٤ م

٨٢ — المرزباني : أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٨٤ هـ)
١ — الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء —
المطبعة السلفية بمصر
٢ — معجم الشعراء — تحقيق عبد الستار أحمد فراج

٨٣ — المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ
وقيل ٣٤٥ هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر — تحقيق محمد محي
الدين عبد الحميد مطبعة السعادة سنة ١٣٧٧ هـ

٨٤ — ابن المعتز : أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله الخليفة العباسي
(ت ٢٩٦ هـ)
١ — الديوان — الطبعة الاولى — دمشق

٢ ـ طبقات الشعراء ـ نشر عباس اقبال

٨٥ ـ المعـري : أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان (ت ٤٤٩ هـ)
رسالة الغفران ـ تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء ـ الطبعة الثانية

٨٦ ـ ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ابن أحمد (ت ٧١١ هـ)
لسان العرب ـ طبع القاهرة وبيروت

٨٧ ـ الميـداني : أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم النيسابوري (ت ٥١٨ هـ)
مجمع الأمثال ـ تحقيق محمد محي عبد الحميد ـ القاهرة

٨٨ ـ نلينـو : كارلو الفونسو (ت ١٣٥٧ هـ)
تاريخ الاداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني امية ـ نشر مريم نلينو ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤ م

٨٩ ـ ابو نواس : الحسن بن هانىء الحكمي (ت ١٩٨ هـ) مع اختلاف كبير في سنة وفاته
الديوان ـ تحقيق الغزالي دار الكتاب العربي بيروت ، ودار صادر

٩٠ ـ نوفل : سيد
شعر الطبيعة في الأدب العربي ـ القاهرة

٩١ ــ هازلت : وليم
مهمة الناقد ــ ترجمة نظمي خليل ــ سلسلة كتب ثقافية العدد (١٤٣) الدار القومية للطبـــاعة والنشر ــ القاهرة

٩٢ ــ ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ هـ وقيل ٢١٨ هـ)
السيرة النبوة ــ مطبعة حجازي ، وستنفلد

٩٣ ــ الهمذاني : أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد المعروف ببديع الزمان (ت ٣٩٨ هـ)
مقامات الهمذاني ــ شرح محمد عبدة ــ بيروت

٩٤ ــ ياقوت : أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦ هـ)
١ ــ معجم البلدان ــ دار صادر ــ بيروت (سنة ١٣٧٤ هـ)
٢ ــ معجم الأدباء ــ طبعة مرغليوث

٩٥ ــ العسقلاني : ابن حجر أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني (ت ٨٥٢ هـ)
الأصابة في تمييز الصحابة ـ مطبعة مصطفى محمد بمصر

المخطوطات

١ ــ شرح ديوان العجاج ــ وهو موجود بدار الكتب المصرية بالقاهرة برقم « ٥١٧ » أدب وقد صور بطريقة « الميكروفلم » .

٢ ــ شرح ديوان رؤبة بن العجاج ــ وهو موجود بدار الكتب المصرية برقم « ٥١٩ » أدب وقد صور بطريقة « الميكروفلم » .

الدوريات والمجلات ودوائر المعارف

١ ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ يصدرها باللغة العربية احمد الشنتناوي وابراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس ــ المجلد العاشر .

٢ ــ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ــ الجزء السابع ــ المجلد الثاني تموز سنة ١٩٢٨ .

٣ ــ سلسلة المكتبة الثقافية عدد « ٦٠ » وموضوعها « الشعر الشعبي العربي » تأليف الدكتور حسين نصار ــ تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر .

٤ ــ سلسلة المكتبة الثقافية عدد « ١١٤ » وموضوعها « الشعر بين الجمود والتطور » تأليف العوضي الوكيل ــ تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر .

٥ ــ مجلة « الشعر » المصرية ــ تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر ابرل سنة ١٩٦٥ .

فهرست الخطــأ والصواب

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٤	بغض	بعض
١٣	٩	عن	عنه
١٤	١٤	رجزا	رجزاء
١٦	٨	الاخبر	الاخير
١٧	٤	باديه	بآذيه
٢٢	٧	اغصانا	اغصاناً
٢٤	٣	نظراً	نظر
٣٥	٥	الروابات	الروايات
٣٧	هامش ٢	الشامي - الكامي	الشافي - الكافي
٣٨	٨	بكتب	كتب
٣٨	١٣	يط.ق	يطاق
٣٩	١٠	القائل	القائل
٤٠	٢	يكون النبي	يكون كلام النبي
٤٠	١٤	يناقض	يناقض
٤٢	٤	ومضع	موضع
٥٥	٩	اراد ،	اراده
٦٩	١٠	ولا عي	ولا عيبه
٧١	١٢	الخصم	الخطم

٧١	١٣	يترنمدن	يترنمون
٧٢	١١	هو	زائدة تحذف
٧٧	١٨	يحمدونكما	يحمدونكا
٧٨	٩	سي	سني
٨٤	١٢	كثيراً	كثير
٩٥	٩	استعمال	استعمال
٩٥	هامش ٦	بروكلهان	بروكلمان
٩٦	١٧	في	يحذف لانه زائد
١٠٦	١٠	ابو نواس المزدوج	ابو نواس المزاوج
١١١	٢	الرامه	التزامه
١١٥	٧	مطردباته	مطرياته
١١٥	١٤	كل تناوله	كل ما تناوله
١٢٦	١	الاحلاق	الاخلاق
١٣١	١٢	عضبه	غضبه
١٤٩	١٣	التبت ـ والقنت	الثبت ـ القنت
١٤٩	هامش ٣	تعتب	تعنت
١٥٩	٧	لحر	لبحر
١٧٦	١٤	وسططه ـ وقد	وسطه تحذف (وقد)
١٨٢	١	انعكاس	انعكس
١٩٩	هامش ١	محفوظ	مخطوط
٢٠١	٢	تنسجم	تنسم
٢٢٠	١٤ و ١٥	الاوصاف	الاصناف

٢٢٤	٣	ديوان	حيوان
٢٢٤	٩	حسنات	صفات
٢٢٥	١٠	وكانت اكثر	وكانت الضان اكثر
٢٢٨	١٠	عدبه	عذب
٢٤٠	١	غضفر	غضنفر
٢٤٨	١٨	الخرساني	الخراساني
٢٥٣	٨	الاستبدال	الاستبسال
٢٥٦	٦	وادح	وادع
٢٥٧	١٤	وبالثبت	بالثبت
٢٦٥	١٦	ومجاندته	ومجالدته
٢٧٣	١٦	مساعد	مساعداً
٢٧٥	١٣	تحلفوا	تحلوا
٢٧٥	١٤	مدمهم	مدحهم
٢٨٥	٨	الوضعية	الوضيعة
٢٩٩	٧	ان	تحذف لانها زائدة
٣٠٧	١١	بني	بني
٣١٥	١٣	يبرجا	ابرجا
٣٢٩	٢	عراد اعردا	عراداً عردا
٣٦٧	٦	الحجمي	الجمحي
٣٦٩	٧	فافمنسا	فاقعنسا
٣٧٧	٢	اخلاماً	اخلاقاً
٣٨٣	١	التعبير	التحبر
٣٩٢	٩	ابو نحيلة	ابو نخيلة
٤٠٢	١٢	وبجزوا	ومجزوءاً

محتويات الكتاب

المقدمة	٣ ــ ١٠
الباب الاول	١١ ــ ١٥٩
الفصل الاول ــ معنى الرجز	١٣ ــ ٢٢
الفصل الثاني ــ الرجز هل هو شعر	٢٣ ــ ٥٤
الفصل الثالث ــ وزن الرجز	٥٥ ــ ٦٤
الفصل الرابع ــ الرجز ونشأة الشعر	٦٥ ــ ٨٧
الفصل الخامس ــ تطور الرجز	٨٨ ــ ١٢٣
الفصل السادس ــ مكانة الرجز	١٢٤ ــ ١٣٢
الفصل السابع ــ خصائص الرجز	١٣٣ ــ ١٥٩
الباب الثاني ــ اغراض الرجز	١٦٠ ــ ٣٥٩
الفصل الاول ــ رجز الطبيعة	١٦٣ ــ ٢٤٢
الفصل الثاني ــ الرجز والحياة السياسية	٢٤٣ ــ ٢٧٣
الفصل الثالث ــ الرجز والحياة الاجتماعية	٢٧٤ ــ ٣٣٠
الفصل الرابع ــ الاغراض التي اقتصرت على الرجز	٣٣١ ــ ٣٥٩
الباب الثالث ــ اشهر الشعراء	٣٦٠ ــ ٣٩٨
١ ــ الاغلب العجلي	٣٦١ ــ ٣٦٥
٢ ــ العجاج	٣٦٦ ــ ٣٧٨
٣ ــ رؤبة بن العجاج	٣٧٨ ــ ٣٨٦
٤ ــ ابو النجم العجلي	٣٨٦ ــ ٣٩٢
٥ ــ ابو نخيلة السعدي	٣٩٢ ــ ٣٩٨
الخاتمة	٣٩٩ ــ ٤٠٥
المصادر	٤٠٦ ــ ٤٢٥

مطبعـــة الأديب البغـدادية

شارع السعدون — عمارة الأديب — هاتف ٩٤٢١٢

---

٣ — ١٠٠٠ — ١٩٧١/٥/١

رقم الايداع ٢٧٠ — تاريخ ١٩٧٠/١٢/٩

AL-RADJAZ

THE ORIGIN OF AL-RADJAZ
THE MOST FAMOUS POET'S

BY

JAMAL NAJIM AL-UBAIDI

1971

AL-ADIB PRESS - BAGHDAD

الثمن ١,٢٥٠